تيسير العزيز الحميد

عن

معاول الهدم ونقائض التوحيد

تأليف

خالد محمد علي الداج

الجزء الثاني

حققه وراجعه

عبد المنعم إبراهيم الأنصاري

طبع على نفقة

إدارة إحياء التراث الإسلامي

بدولة قطر

مكتبة الأنصاري
الرقم العام : _____
الرقم الفني : _____
تاريخ الورود : _____

الكشاف الفريد

عن معاول الهدم ونقائض التوحيد

تأليف
خالد محمد علي الحاج

ح١٥
ح٤ ل

الجزء الثاني

مكتبة الشيخ عبد الله الأنصاري
الرقم العام : ٣٦٠٤
رقم التصنيف : ١٥٢ ح خ ل

٧٩٦

حققه وراجعه
خادم العلم
عبد الله إبراهيم الأنصاري

من مطبوعات
إدارة إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر
١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

الطبعة الثانية
١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله وحده ، نحمده ونستعينه ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلّ له ، ومن يضلل فلا هادي له . وأشهد ألاّ إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله . أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولوكره المشركون . فبلّغ الرسالة ، وأدّى الأمانة ، ونصح الأمة ، فترك المسلمين على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك .

اللهم صلّ وسلّم وبارك على هذا الرسول الأمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعـــــد :

فقد كنت ألمحت في كلمتي ـ بين يدي الكتاب ـ التي قدمت فيها الجزء الأول من هذا السفر الجليل الفائدة إلى الجزء الثاني منه ، دون الغوص بحثاً عن درره وكنوزه . . . لمؤلفه المحقق الفاضل الشيخ خالد محمد علي الحاج . ولعلّي لا أعدو الحقيقة إذا قلت : إن المؤلف من خيرة فرسان هذا الميدان اليوم . وكتابه هذا ليس أول جولة له في المضمار ، بل إنه أثرى المكتبة العربية والإسلامية بأكثر من كتاب ، منها : السنة مفتاح الجنة ، ومصرع الشرك والخرافة وغيرهما .

ولاشك أن هذا الميدان ينادي رواده وكتّابه ، لإيضاح الحقائق ـ حقائق هذا العصر خاصة ـ للجيل المسلم وإعطائه المعلومات الصحيحة ، التي من شأنها إنارة الطريق أمام الأمة الإسلامية ، في سيرها الحثيث لاستعادة مواقعها الصحيحة في قيادة البشرية على طريق الهدى .

سيما وقد تبدلت المواقع ، فأصبح الإسلام مهاجَماً ـ في أرضه ـ بعد أن كان مهاجِماً ، وبعد أن كثرت الدعاوى الباطلة في أرض الإسلام اليوم . . . وما أكثر ما استجاب المسلمون لها : فمن التنصير إلى الشيوعية ، وفلسفة الإباحية والوجودية والحزبيات السياسية ذات الاتجاهات غير الإسلامية والعمالة للكافرين ، باسم التقدمية ومحاربة الرجعية . واستطاعت كل دعوى أن تجد لها قواعد وأتباعاً في كل مكان من العالم الإسلامي الكبير . وما كان ذلك ليحدث لولا جهل المسلمين بدينهم من جهة ، ولما يحاك ويدبر لهذا الدين في الخفاء من تآمر ، بقصد هدمه واجتثاثه من نفوس أبنائه من جهة ثانية .

وكتابنا هذا الذي بين يديك ـ أخي القارىء ـ قد جعله المؤلف بابين ، في أربعة فصول وخاتمة . تحدث من خلال الباب الأول بفصليه ، عن الشرك ـ أهم نقائض التوحيد ـ ثم عن الابتداع والتدليس على المسلمين ، وتلبيس دينهم عليهم .

وخص الباب الثاني بذكر شبهات ومعارف أدخلت في الدين ما ليس منه ، بدعوى عدم تعارضها مع قيم الدين ومثله العليا ، وضرورة مسايرة العصر ، كدعوى انتشار الإسلام بالسيف ، وفرية تناقض العلم مع الدين ، وفتنة الاختلاط ، وتحديد النسل . . . إلى ما هنالك من شبهات وأباطيل يتمسك بها بعض الجهلة ممن يسمون أنفسهم بالمسلمين اليوم .

كما أنه عرض جملة من المواضيع الإسلامية سيء فهمها ؛ كموضوع التوكل على الله ، والتوسل والوسيلة وموضوع الولاية في ميزان الشريعة . . .

ولم يقصر المؤلف ـ جزاه الله خيراً ـ في تفنيد مزاعم المبطلين المضللين ، والرد على شبهات المشككين ، بعبارة وافية جزلة ، انقادت له فيها اللغة طيعة سهلة . وكان مستنده ـ في ذوده ومحاماته عن الإسلام ـ كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه ورسوله محمد ﷺ . لذلك جاء بيانه أقوم حجة ، وأعدل محجة ، وأشد برهاناً ، وأشد أركاناً . مما أفحم المبطلين ، وقطع ألسنة المشككين ، وأزاح بلية تشكيكاتهم وأوهامهم عن عقول المسلمين .

وإن اكتمال هذا المؤلف لم يكن عفو البديهة وفيض الخاطر ، كما أن تقصي حقائقه والبحث عنها ما كان أمراً هيناً ، فقد أنفق الشيخ خالد محمد علي الحاج أكثر من خمس سنوات باحثاً ومحققاً ، اطلع خلالها على ما يزيد عن مائتي مرجع وكتاب منقباً فيها ومدققاً ، حتى تكامل لديه هذا المؤلف الجليل الفائدة .

وإن إدارة إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر ليسرها أن تضع بين أيدي القراء المسلمين ، والعرب بصورة خاصة ، هذا الكتاب النافع المفيد ، مساهمة منها في الذود عن حمى الدين وتبصرة للمسلمين وذكرى .

نسأل الله تعالى أن يجزي المؤلف عنا وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ، وأن يجزل له الأجر والثواب ، ويشركنا معه في صالح قوله وعمله . اللّهمّ آمين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

عبد الله بن ابراهيم الأنصاري

مدير عام إدارة إحياء التراث الاسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه الطاهرين والتابعين لهم بإحسان ، والمجاهدين في سبيل الله المخلصين الموحدين إلى يوم الدين .

أما بعد :

فهذا هو الجزءُ الثاني من كتاب : **الكشاف الفريد عن معاول الهدم ونقائض التوحيد** ، نقدمه للقراءِ الكرام ، سائلين المولى عز وجل أن ينفع به ، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يدخره لي إلى يوم المعاد إنه كريم جواد .

خالد بن محمد بن علي الحاج

الباب الأول
في الشرك والابتداع والتدليس

الفصل الأول
نقائض التوحيد

التوحيد جوهر الإسلام

تمهيد :

إن نعمة التوحيد التي أنعمها الله سبحانه على عباده ، نعمة عظمى لا تساويها نعمة ؛ فمن الناس من أقبل على دين الله وانقاد لأمره واستسلم إلى حكمه ، فنال سعادة الدنيا ونعيم الآخرة . ومنهم من نكص على عقبيه وحُرم نعم الله عليه ، ورضي أن يكون عبداً للهوى والشيطان من دون الله ، فخسر دنياه وساءت له عقبى الدار .

ومما يجدر ذكره أن العقيدة الصحيحة السليمة هي أساس المجتمع الإسلامي ، وأن التوحيد الخالص هو جوهر هذه العقيدة وروح الإسلام كله . أما أهم ما يسعى إليه الإسلام فهو حماية العقيدة وصيانة التوحيد من عبث المفسدين ودعوات المبطلين ، حتى يتحرر المجتمع المسلم من ضغوط الضلال ، ولوثات المفسدين وشوائب الشرك ورواسب الخرافة .

التوحيد وأقسامه

معنى التوحيد :

هو إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة ، ونفي المثل والنظير عنه ، وعدم الإشراك به سبحانه وتعالى .

وهو دين الرسل الذي أرسلهم الله به إلى عباده .

فالتوحيد ـ الذي بعث الله به رسله[1] وأنزل به كتبه ، وخلق الخلق لأجله ـ ثلاثة أقسام :

١ ـ **توحيد الربوبية والملك** : وهو اعتقاد أن الله تعالى رب كل شيء ومليكه ، وخالق كل شيء ورازقه ، والمتصرف فيه وحده بمشيئته وعلمه وحكمته . وهذا القسم قد أقرّ به مشركو العرب .

قال تعالى : (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ)[2] ، وهذا التوحيد لا يكفي وحده ولا يدخلُ في الإسلام وحده ، بل لا بد أن يأتي العبد معه بلازمه وهو القسم الثاني : توحيد الأُلوهية .

٢ ـ **توحيد الأُلوهية** : وهو مبني على إخلاص التأله لله تعالى وإفراده بجميع العبادة . وهذا التوحيد هو الذي افتتح به الرسل دعوتهم ، كما قال أول الرسل نوح عليه السلام لقومه : (اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ)[3] .

٣ ـ **توحيد الأسماءِ والصفات** : وهو العلم والاعتقاد بأن الله تعالى بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، حي قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ،

(١) التوحيد : هو أعظم فريضة جاء بها الرسول ﷺ ومن أعظم فرائض الإسلام ؛ كالصلاة والصوم وغيرهما ، وقد جاء به الإسلام قبل غيره من الفرائض .

(٢) سورة يونس : ٣١ . (٣) سورة الأعراف : ٥٩ .

منزَّه عن كل عيب ونقص ، له المشيئة النافذة والحكمة البالغة ، سميع بصير رؤوف رحيم على العرش استوى ، العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون . له الأسماءُ الحسنى والصفات العلى ، فما أثبت الله لنفسه وأثبته له رسوله ؛ من صفات الكمال ونعوت الجلال ، وجب إثباته له على ما يليق بجلال الله تعالى وعظمته ، إثباتاً بلا تمثيل ، وتنزيهاً بلا تعطيل . وهذا هو الذي عليه الصحابة والتابعون والأئمة الأربعة ومن في طبقتهم ، ومن بعدهم من أهل الحديث ، والفقهاءُ من أهل السنة والجماعة[1] .

أصل الإسلام

إن الإسلام مبني على أصلين عظيمين هما :

١ ـ عبادة الله وحده . ٢ ـ ولا يعبد سبحانه إلا بما شرع لعباده .

فالمسلم الحقيقي هو الذي يتعبد الله تعالى بما أمر به ولا يتجاوز ذلك . ولا يعبده بالبدع المخترعة . قال تعالى : (فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)[2] . وقال سبحانه : (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)[3] .

(١) بتصرف عن الجامع الفريد : ص ٥٣٧ ـ ٥٣٨ . وقارن الفتح المجيد وشرح العقيدة الطحاوية.
(٢) سورة الكهف : ١١٠ .
(٣) سورة الملك : ٢ .

قال الفضيل بن عياض : المقصود من ذلك أخلصه وأصوبه . قالوا : يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه ؟ . قال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً وصواباً ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة والكتاب .

هذا كله لأن دين الله بلّغه عنه رسوله ، فلا حرام إلا ما حرمه الله ، ولا دين إلا ما شرعه الله . والله تعالى ذم المشركين ، لأنهم شرعوا في الدين ما لم يأذن به الله ، فحرموا أشياء لم يحرمها الله ؛ كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وشرعوا ديناً لم يأذن به الله ؛ كدعاء غيره وعبادته ، والرهبانية التي ابتدعها النصارى[1] .

فالإسلام الحنيف دعا أتباعه إلى التقيد بالشرع وعدم التزيد عليه ، بل لابد من الالتزام بالأمر الإلهي ؛ إذ لا يجوز لأحد أن يعدل عما في الكتاب والسنة واتفق عليه سالف الأمة ، وليس لأحد أن يضع للناس عقيدة ولا عبادة من عنده ، بل عليه أن يتبع ولا يبتدع ، ويقتدي ولا يبتدئ ، فإن الله سبحانه وتعالى يقول : (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)[2] .

فالله سبحانه قد أرسل رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وقال له : (قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَىٰ اللهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ

(١) بتصرف عن الجامع الفريد : ص ٤١٥ – ٤١٦ .
(٢) سورة الحشر : ٧ .

أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)[1] . وقال تعالى : (أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)[2] .

وقد علَّم الرسول ﷺ المسلمين جميع ما يحتاجونه من العبادات والاعتقادات .

ولما كان الحق رائد المسلم فلا ينبغي له أن يعدل عنه ، بل عليه التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ففيهما الحل لكل نزاع ، فإذا قال أحد قولاً يخالف ما دل عليه الكتاب والسنة أو الإجماع رد قوله وبطل ، أما إذا صح قياسه على مدلول كتاب أو سنة ولم يكن هنالك فارق فأكثر العلماء يقول مثل هذا ويحتج به[3] .

نقائض التوحيد - الشرك

توطئة :

لما كان التوحيد هو حق الله على العبيد ، وأهم ما ينبغي على المسلم معرفته ومعرفة ما ينقضه ويفسده - وهو الشرك بالله سبحانه ، الذي يبطل سائر الأعمال ، ويعرض متلبسيه لغضب الله وسخطه - لذا كان جديراً بالمسلم الحق أن يحرص على معرفة التوحيد وأركانه ، ويتحصن

(١) سورة يوسف : ١٠٨ .

(٢) سورة المائدة : ٣ .

(٣) الجامع الفريد : ص ٥٣٧ .

به ويدعو إليه ، وتبيان ما يناقضه ليتلاشى الوقوع في فتنة نقيضه ؛ ألا وهو الشرك ، وهو أعظم ما نهى عنه الشارع الحكيم .

معنى الشرك :

هو دعوة غير الله معه ، وأن تجعل لله نداً في العبادة ، وهو خلقك . وهو أعظم شيء نهى الله عنه[1] ، ودليل ذلك قوله تعالى : (وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا)[2] . وقوله سبحانه وتعالى : (فَلَا تَجْعَلُوا لِلهِ أَنْدَاداً)[3] .

قال شيخ الإسلام : الشرك نوعان ؛ أكبر وأصغر . فمن خلص منهما وجبت له الجنة ، ومن مات على الأكبر وجبت له النار ، ومن خلص من الأكبر وحصل له بعض الأصغر ، مع حسنات راجحة على ذنوبه دخل الجنة . فالشرك يؤاخذ به العبد إذا كان أكبر أو كان كثيراً أصغر . والأصغر القليل في جانب الإخلاص الكثير لا يؤاخذ به[4] .

وللوقوف على نواقض التوحيد فإني أقدم إلى القارىء الكريم أهمها وهي:

١ ـ الشرك في عبادة الله تعالى . قال تعالى : (إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)[5] . ومن أمثلته : الذبح والنذر لغير الله ؛ كمن يذبح للجن أو للموتى والأولياء مثلاً .

---

(١) فالشرك الأصغر أعظم من الكبائر . ومن أمثلته : الرياء ، وقول القائل : لولا الله وأنت ، والحلف بغير الله ؛ كمن يحلف بشرفه أو بأبيه أو بشيخه أو بالولي وغيره . أما الشرك الأكبر فهو كالدعاء والسجود والركوع والذبح والنذر لغير الله .

(٢) سورة النساء : ٣٦ .
(٣) سورة البقرة : ٢٢ .
(٤) تيسير العزيز الحميد .
(٥) سورة النساء : ٤٨ .

٢ – من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة ويتوكل عليهم ، فهذا يكفر بإجماع علماء المسلمين .

٣ – من لم يكفّر المشركين أو يشك في كفرهم أو صحح مذهبهم كَفَرَ .

٤ – من اعتقد أن غير هدي النبي ﷺ أكمل من هديه . أو أن حكم غيره أحسن من حكمه ؛ كالذي يفضل حكم السلاطين أو الشيوخ أو الزعماء أو غيرهم من الطواغيت المؤلهين من دون الله ، فهو كافر .

٥ – من أبغض شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ أو عمل به كَفَرَ .

٦ – من استهزأ بشيء من دين الرسول ﷺ أو ثوابه أو عقابه كَفَرَ . والدليل قوله تعالى : (قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ)[1] .

٧ – السحر : ومنه الصرف والعطف ؛ فمن فعله أو رضي به كفر .

٨ – مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين . والدليل قوله تعالى : (وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)[2] .

٩ – من اعتقد أن بعض الناس يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى عليه السلام ، فهو كافر .

١٠ – الإعراض عن دين الله بحيث لا يتعلمه ولا يعمل به[3] . والدليل

(١) سورة التوبة : ٦٥ – ٦٦ .

(٢) سورة المائدة : ٥١

(٣) انظر الجامع الفريد : ص ٢٧٧ – ٢٧٨ بتصرف .

قوله تعالى : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ)[1] .

وبعد : فهذه هي أهم نواقض الإسلام ؛ وهي من أظلم الظلم وأفسد المفاسد . ينبغي على المسلم أن يحذرها وينبه المسلمين من ويلاتها. لاجتنابها لأنها مفسدة للدين والدنيا .

وفي الصفحات التالية عرض موجز لأهم ألوان الشرك ، نسأل الله أن يجنبنا موجبات غضبه وأليم عقابه .

الاستغاثة بغير الله ودعاء غيره

من المعلوم من الدين بالضرورة أن العبادات كلها من خصائص الألوهية ، فلا يجوز أن تصرف لغيره سبحانه وتعالى . ومن صرف واحدة منها لغير الله فقد أشرك بالله عز وجل ، ومن بين هذه العبادات الاستغاثة والدعاء .

قال شيخ الإسلام – رحمه الله : الاستغاثة هي طلب الغوث ؛ وهو إزالة الشدة . كالاستنصار أي طلب النصر ، والاستعاذة طلب العوذ[2].

لقد أنكر الله على من يدعو أحداً من دونه ممن لا يملك نفعاً ولا ضراً . فقال سبحانه : (قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)[3]

(١) سورة السجدة : ٢٢ .

(٢) فتح المجيد : ص ١٧٠ .

(٣) سورة المائدة : ٧٦ .

وقال : (وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ)[1] .

إن كل أمر شرعه الله لعباده وأمرهم به ، ففعله لله عبادة ، فإذا صرف من تلك العبادة شيئاً لغير الله فهو مشرك ، مصادم لما بعث الله به رسوله[2] من قوله : (قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي)[3] .

قال الإمام ابن تيمية : طلب الدعاء مشروع من كل مؤمن لكل مؤمن . حتى قال رسول الله ﷺ لعمر لما استأذنه في العمرة : « لَا تَنْسَنَا يَا أَخِي مِنْ دُعَائِكَ » . إن صح الحديث[4] . قال تعالى : (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)[5] .

وقال أيضاً : (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ...)[6] . يتبين من هذه الآيات أن يلجأ المسلم إلى الله في سرائه وضرائه ، فهو سبحانه الكفيل بقضاء الحاجات ، وتحقيق المطالب ، وإغاثة المكروب ، ودفع الضر والبلاء .

قال شيخ الإسلام : فأما ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى ، فلا يجوز أن يطلب إلا من الله سبحانه ، لا يطلب ذلك من الملائكة ، ولا من الأنبياء ، ولا من غيرهم . ولا يجوز أن يقال لغير الله : اغفر لي . واسقنا الغيث . وانصرنا على القوم الكافرين . واهد قلوبنا ، ونحو ذلك .

---

(١) سورة يونس : ١٠٦ . (٢) فتح المجيد : ص ١٧٢ . (٣) سورة الزمر : ١٤ .
(٤) راجع كتاب التوسل والوسيلة ص ١٣٤ ، الحديث رواه أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن صحيح . (٥) سورة المؤمن : ٦٠ . (٦) سورة البقرة : ١٦٨ .

ولهذا روى الطبراني في معجمه أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين ، فقال الصديق : قوموا بنا نستغث برسول الله ﷺ من هذا المنافق . فجاؤوا إليه فقال : « إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي ، وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللهِ »[1] .

وفي الاستعانة مثل ذلك ، فليتدبر المسلمون هذا .

قال ابن القيم ـ رحمه الله : ومن أنواعه ـ يعني الشرك ـ طلب الحوائج من الموتى ، والاستغاثة بهم ، والتوجه إليهم ـ وهذا أصل شرك العالم ـ فإن الميت قد انقطع عمله ، وهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، فضلاً عمن استغاث به ، أو سأله أن يشفع له إلى الله ، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده[2] .

قال أحد العلماء : من جعل بينه وبين الله وسائط ؛ يتوكل عليهم ، ويدعوهم ، ويسألهم ، كفر إجماعاً . وفي الفتاوى البزازية من كتب الحنفية : قال علماؤنا : من قال : أرواح المشايخ حاضرة تعلم ، يكفر[3] . وفي دعاء موسى عليه السلام : « اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ وَإِلَيْكَ الْمُشْتَكَىٰ وَأَنْتَ الْمُسْتَعَانُ وَبِكَ الْمُسْتَغَاثُ وَعَلَيْكَ التُّكْلَانُ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلاَّ بِكَ » . وقال أبو عبد الله القرشي : استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون[4] .

---

(١) راجع كتاب التوسل والوسيلة : ص ١٧٣ .

(٢) فتح المجيد : ص ١٧٣ .

(٣) فتح المجيد : ص ١٧٣ .

(٤) راجع كتاب التوسل والوسيلة : ص ١٣٦ . ومن أراد مزيد بيان فليراجع هذا السفر النافع .

وخير ما نختم به هذا الفصل قول الحق تبارك وتعالى : (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ)[1] .

الاستعاذة بغير الله

معنى الاستعاذة : الالتجاءُ والاعتصام . ولهـذا يسمى المستعاذ به معاذاً وملجاً . فالعائذ بالله قد هرب مما يؤذيه أو يهلكه إلى ربه ومالكه ، واعتصم واستجار به والتجأ إليه[2] .

ومن الشرك الخبيث : الاستعاذة بغير الله ، فالاستعاذة من أنواع العبادات التي أمر الله تعالى بها عباده ليفردوه بها . قال تعالى : (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)[3] .

وقوله سبحانه : (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) . و (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ).

وعن خولة بنت حكيم قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً فَقَالَ : أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ . لَمْ يَضُرَّهُ شيءٌ حَتَّىٰ يَرْحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذٰلِكَ »[4] .

---

(١) سورة الأحقاف : ٥ .

(٢) راجع فتح المجيد : ص ١٦٧ .

(٣) سورة فصلت : ٣٦ .

(٤) رواه مسلم .

شرع الله لأهل الإسلام أن يستعيذوا به ، بدلاً عما يفعله أهل الجاهلية من الاستغاثة بالجن ، فشرع الله للمسلمين أن يستعيذوا بأسمائه وصفاته[1] .

وقال ابن القيم ـ رحمه الله : ومن ذبح للشيطان ودعاه ، واستعاذ به وتقرب إليه بما يحب ، فقد عبده ، وإن لم يسم ذلك عبادة ويسميه استخداماً . وصدق ؛ هو استخدام من الشيطان له ، فيصير من خدم الشيطان وعابديه ، وبذلك يخدمه الشيطان ، لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عبادة ، فإن الشيطان لا يخضع له ولا يعبده كما يفعل هو به . [2] أ . هـ .

التطير ـ التشاؤم

راجت في العصور المتعاقبة ضلالة التطير أو التشاؤم ، التي كانت منتشرة في عهد الجاهلية ، وكانت سوقها رائجة لدى أولئك القوم الذين لم يعرفوا الإسلام ولم يذوقوا طعم الإيمان ، وعندما تشرفت البشرية بظهور نور التوحيد وبزوغ فجر الإسلام ، الذي أبطل دعوات الجاهلية وخرافاتها ، ومن بينها فتنة التطير ، عندئذ عاد للإنسانية قدرها وناموسها .

فبالإسلام عادت للبشرية معالم فطرتها ، واستعادت الإنسانية كيانها

(١) فتح المجيد ص : ١٦٩ .
(٢) المصدر السابق .

وقدسيتها ؛ إذ التشاؤم ـ الذي لا يزال كثير من الناس يعيشون في أسره في هذه الأيام ، متأسين بجهلاء الجاهلية الأُولى ودعواتها الباطلة ـ قد حاربه الإسلام ووضع حداً له . وقديماً قال قوم نبي الله صالح عليه السلام له : (اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ)[1] . وكثيراً ما قال الكفار الضالون ـ حينما ينزل بهم بلاءُ الله ـ لدعاتهم ولرسل الله إليهم : (إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ)[2] . وكان جواب هؤلاء المرسلين : (طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ)[3] أي سبب شؤمكم مصاحب لكم ؛ وهو كفركم وعنادكم وعتوكم على الله ورسله .

ونظم النبي ﷺ التطير مع الكهانة والسحر في سلك واحد قال : « لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ ، أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ »[4] .

إن المسلم الحقيقي صاحب العقيدة السليمة لا يكترث لهذه اللوثات الساقطة ؛ كالتشاؤم ببعض الأيام والشهور ، أو الطيور أو المنازل أو الأماكن أو الأشخاص وما شابه ذلك ، لأنها أوهام جاهلية ، واعتقادات شركية ، يترفع عنها المسلم صاحب النهج القويم ، الذي يلتزم بالإسلام منهجاً وتشريعاً .

والإسلام لا يقبل لأتباعه الارتماء في أحضان الشرك والضلال . إن

---

(١) سورة النمل : ٤٧ .
(٢) سورة يس : ١٨ .
(٣) سورة يس : ١٩ .
(٤) رواه الطبراني عن ابن عباس بإسناد حسن . انظر الحلال والحرام : ص ٢٣٥ .

التطير أمر قائم على غير أساس من العلم أو الواقع الصحيح ، إنما هو انسياق وراء الضعف وتصديق للوهم ، وإلا فما معنى أن يصدق إنسان عاقل أن النحس في شخص معين ، أو مكان معين ، أو ينزعج من صوت طائر – كالبوم – أو حركة عين أو سماع كلمة ؟ ![1] ... وقال ﷺ : « لَا عَدْوَىٰ وَلَا طِيَرَةَ وَلَا هَامَةَ وَلَا صَفَرَ » . وزاد مسلم : « وَلَا نَوْءَ وَلَا غُولَ » . رواه الشيخان .

قال عكرمة : كنا جلوساً عند ابن عباس فمر طائر يصيح ، فقال رجل من القوم : خير ، خير . فقال له ابن عباس : لا خير ولا شر . فبادره بالإنكار عليه لئلا يعتقد تأثيره في الخير والشر[2] .

الذبح والنذر لغير الله

قال تعالى : (قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)[3] . وقال سبحانه : (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ)[4] . وقال رسول الله ﷺ : « لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ ... »[5] .

---

(١) راجع الحلال والحرام : ص ٢٣٦ .

(٢) فتح المجيد : ص ٢١٣ – ٢١٥ .

(٣) سورة الأنعام : ١٦٢ – ١٦٣ .

(٤) سورة الكوثر : ٢ .

(٥) رواه مسلم . قطعة من حديث شريف .

قال الإمام النووي : المراد بقوله : « لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ » . أن يذبح باسم غير الله تعالى ؛ كمن يذبح للصنم ، ومثله من يذبح لصاحب القبر ، أو نحو ذلك . وكل هذا حرام ، ولا تحل هذه الذبيحة. نص عليه الشافعي ، واتفق عليه أصحابنا ، فإن قصد مع ذلك تعظيم المذبوح له هذه الذبيحة ـ غير الله والعبادة له ـ كان ذلك كفراً ، فإن كان الذابح مسلماً قبل ذلك ، صار بالذبح مرتداً . ذكره في شرح مسلم ونقله كثيرون[1] .

قال الزمخشري : كانوا إذا اشتروا داراً أو بنوها ، أو استخرجوا عيناً ذبحوا ذبيحة خوفاً أن تصيبهم الجن ، فأُضيفت إليهم الذبائح لذلك .

وذكر إبراهيم المروزي : أن ما ذبح عند استقبال السلطان تقرباً إليه ، أفتى أهل بخارى بتحريمه ؛ لأنه مما أهل به لغير الله[2] .

وهكذا حمى الإسلام جناب التوحيد ، وحارب الضلالة ، وسد منافذ الشرك ، وأبطل دعوات الجاهلية . وأما النذر فمعناه ـ كما يقول اللغويون : هو ما كان وعداً على شرط ، أو أن توجب على نفسك ما ليس بواجب لحدوث أمر[3] ...

إن الأموال والهدايا والذبائح والأطعمة التي تحمل إلى أضرحة المشايخ أو الأولياء ـ بقصد الوفاء بالنذر ـ هي عمل باطل ، ومعصية لله

(١) انظر رسالة تقاليد يجب أن تزول .

(٢) راجع فتح المجيد : ص ١٥٢ .

(٣) انظر المفردات للراغب . والقاموس المحيط للفيروز أبادي .

ولا يجب الوفاءُ بهذا النذر ، لأن الرسول ﷺ قال : « مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ وَمَنَ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلَا يَعْصِهِ »[1] .

أما ما يقوله الجهلاءُ والمبتدعة ، بخصوص الذبائح والأطعمة والهدايا المنذورة ، التي تحمل للقبور وأضرحة الشيوخ والأولياء ؛ بأن الولي أو الشيخ الذي حملت إليه لا يأخذها ولا يناله منها شيءٌ ، إنما يأخذها الفقراءُ والمحتاجون ، الذين ينتظرون بفارغ الصبر تلك الموالد المباركة والمواسم الكريمة – على حد زعمهم – ليحصلوا منها على أرزاقهم وحاجاتهم . إن هذا لهو الضلال ، وأي ضلال أعظم من ضلالهم ؟ ؟ .

أقول : إن الله تبارك وتعالى قد بين لنا أن العبادات بأسرها هي من خصوصياته سبحانه ، ولا يجوز أن يشرك معه غيره كائناً من كان ، ومن بينها النذر – وهو عبادة أيضاً – والله تعالى يقول : (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً)[2] . لذا فلا يجوز حمل الذبائح والنذور إلى الأولياء والشيوخ ، أو إلى زواياهم أو مشاهدهم – مقاماتهم .

إن الشارع الحكيم قد نهى أن تحمل النذور إلى مكان فيه صنم ، أو يقام فيه عيد من أعياد الجاهلية ، كالموالد التي تقام اليوم لأصحاب القبور والأضرحة من الشيوخ والأولياء[3] . ، فقد ورد في كتب السنة

(١) رواه الشيخان .

(٢) سورة الإنسان : ٧ .

(٣) إن هذا الأمر مشاهد ومعروف ، وخاصة قرب مشهد النبي موسى – عليه السلام – قرب أريحا بفلسطين . وضريح الصحابي أبي عبيدة في غور الأردن ، وضريح أحمد البدوي بطنطا في مصر ، وغيرها من الأضرحة والمشاهد ، التي أصبحت محط رحال الكثير من أدعياء الصوفية والمبتدعة . ألا ساء ما يصنعون .

عن ثابت بن الضحاك قال : نذر رجل في عهد رسول الله ﷺ أن ينحر إبلاً ببوانة ، فأتى النبي فقال : إني نذرت أن أنحر إبلاً ببوانة . فقال النبي ﷺ : « هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ ؟ » . قالوا : لا . قال : « هَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ ؟ » . قالوا : لا . قال رسول الله ﷺ : « أَوْفِ بِنَذْرِكَ إِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ »[1] .

فالرسول الكريم لم يبح للناذر أن يوفي بنذره ـ مع أنه خالص لله ـ إلا بعد أن تأكد أن بوانة لم يكن بها وثن ، ولم يكن يقام بها مولد أو عيد من أعياد الجاهلية ؛ حتى لا يضيع أجر عمل الرجل بإيقاعه في مكان يعصى الله فيه[2] .

وفي كتب الحنفية : أن النذر الذي يقع للأموات من أكثر العوام ، وما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت ونحوها إلى أضرحة الأولياء[3] الكرام تقرباً إليهم ، كأن يقول : يا سيدي فلان إن رد غائبي ، أو عوفي مريضي ، أو قضيت حاجتي ، فلك من النقد أو الطعام أو الشمع

(١) رواه أبو داود . (٢) راجع صراع بين الحق والباطل : ص ١١٤ بتصرف .

(٣) ومن المضحك أنه وجد في أحد صناديق النذور عقد اتفاق قانوني بين السيد صاحب الضريح ـ الميت ـ والسيدة الناذرة وفيه : إن الطرف الثاني يتعهد بأن يدفع للطرف الأول مبلغ جنيه واحد كل شهر بدون تأخير ولا مماطلة ولا تسويف إذا ما توسط الطرف الأول ـ عند الله طبعاً ـ في أن يعيش ابن الطرف الثاني . يا لها من مأساة يعيشها أبناء القرن العشرين ، الذين ينتسبون لأمة محمد ﷺ فهؤلاء يعتقدون في الأموات بدفع الضر وقضاء الحاجات ، التي لا تطلب بحق إلا من رب الأرض والسموات . ولا يقول بهذه الترهات إلا كل ضال معتوه جاهل . فلا حول ولا قوة إلا بالله .

أو الزيت كذا . فهو بالإجماع باطل وحرام لوجوه منها :

١ – أنه نذر لمخلوق ، والنذر للمخلوق لا يجوز ؛ لأنه عبادة ، وهي لا تكون إلا لله .

٢ – أن المنـــذور له ميت ، والميت لا يملك .

٣ – أنه إن ظن أن الميت يتصرف في الأُمور دون الله تعالى ، فاعتقاده ذلك كفر[١] . والعياذ بالله .

لذا كان حرياً بكل موحد لِلَّهِ من أبناء القرن العشرين أن يتدبر هذا ، وأن ينكر على من يجاري الجاهليين في أعمالهم الشركية ، وينهاهم عن ذبح الذبائح حول القبور أو على مداخل البيوت ، ومقدمة السيارة ، كما يفعل كثير من جهلاء المسلمين والمبتدعة في هذا الزمان . وفي هذا محادة لله ولرسوله العظيم ، الذي أرسله تعالى منقذاً ومخلصاً للإنسانية من جبروت الشرك وهيمنة الجاهلية .

والناذر حين ينذر للشيخ أو للولي إنما يريد إرضاءهما لا إرضاء الله تعالى ؛ فهو يذهب إلى الشيخ أو الولي حاملاً له النذر ، ليدفع عن نفسه ما رسخ في اعتقاده من أن الشيخ أو الولي سيصيبه بمكروه في نفسه ، أو في ماله ، أو في أحد من أجله إذا لم يوف بنذره[٢] .

فالأولى والأجدر بالناذر أن يتحرى عن الفقراء من أهله ومعارفه ،

(١) راجع كتاب فقه السنة : ج ٣ – ص ٣٨ .
(٢) راجع صراع بين الحـــق والباطل .

بعيداً عن الموالد وأعياد الجاهلية وتقاليد الصوفية ، وسيجد الكثير من الأُسر المستورة التي هي بحاجة لنذره وصدقته ، وبهذا يكسب رضوان الله ، وينقذ الفقراء من أنياب الفاقة ، ويصون عقيدته وتطيب حيـاته .

الحلف بغير الله

للأشقياء وسائل مختلفة ومسالك متنوعة يستخدمونها للوصول إلى أغراضهم ، حيث يلجأُ كثير من هؤلاء ـ وخاصة المفتونون منهم بشيوخهم وساداتهم ـ فيرفعون منزلتهم ويقدسونهم من دون الله ، كما يكثرون من إطرائهم ويتباهون بالانتساب إليهم ويحلفون بهم .

وبعد وفاة هؤلاء ـ المعظمين في دنياهم ـ تعلو مكانتهم وتسمو درجاتهم في نفوس المولعين بحبهم ، فيرفعون قبورهم لتصبح مزاراً أو مكاناً مقدساً للتوسل ؛ لدفع الضر وجلب الخير .

والإسلام الحنيف يحرم على أتباعه أن يعظموا المخلوقات أو يؤلهوهم ـ كما يفعل المبتدعة والمشركون ـ أو يحلفون بهم ، لأن التعظيم والتقديس والإجلال لا ينبغي لأحد من المخلوقات ، بل هي من خصائص الله جل عـلاه .

فالحلف والتقديس والإجلال تعظيم للمحلوف به ، وقد منع رسولنا الأعظم ﷺ أن يحلف المسلم بغير الله تعالى فقال : « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله

فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»[1] . وقال أيضاً : « أَلاَ إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ فَمَنْ كَانَ حَالِفاً فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ »[2] .

لذا كان المطلوب من كل مسلم ألا يحلف بالآباء أو الأُمهات ، أو الشيوخ أو الزعماء ، أو الأولياء أو الأنبياء أو الكعبة ، أو الشرف أو كلمة الطلاق ، أو أي شيء آخر يكون عزيزاً عند الحالف .

وعن حذيفة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « لَا تَقُولُوا : مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ فُلَانٌ . وَلَكِنْ قُولُوا : مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ »[3] .

قال ابن تيمية رحمه الله : من أيمان الشرك أن يحلف المرءُ بتربة أبيه أو بالكعبة ، أو بنعمة السلطان أو بحياة الشيخ ، أو غيره من المخلوقات . فهذه أيمان غير منعقدة ولا كفارة فيها بالحنث باتفاق أهل العلم[4] .

أقول : إنها أيمان خطرة على الدين والدنيا ، وهي ذرائع شركية قد تهلك صاحبها بالدارين .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً « لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ وَلَا بِأُمَّهَاتِكُمْ وَلَا بِالْأَنْدَادِ وَلَا تَحْلِفُوا بِاللهِ إِلاَّ وَأَنْتُمْ صَادِقُونَ »[5] . وهذا الحديث دليل واضح على النهي عن الحلف بغير الله تعالى ، وهو التحريم .

---

(١) رواه الترمذي وحسّنه ، وصحّحه الحاكم .

(٢) رواه البخاري ومسلم . انظر سبل السلام : ج ٤ – ص ١٠١ .

(٣) رواه أبو داود بسند صحيح . راجع فتح المجيد : ص ٤٢٦ – ٤٢٧ .

(٤) راجع الفتاوى الكبرى : ج ٣ – ص ٤ .

(٥) رواه النسائي وأبو داود . انظر سبل السلام : ج ٤ – ص ١٠١ .

لقد كانت الجاهلية الأُولى تعظم الأَصنام وتحلف بها لتأكيد أيمانها ؛ لهيبتها في نفوس معظميها ، وثمة ما نعاني في جاهلية عصرنا من تشابه بين الجاهليتين ، فتجد من يحلف بالسلطان والرئيس أو الملك أو بالأَنبياء والأَولياء . وأصحاب الأَضرحة ؛ كالدسوقي والحسين والسيدة زينب والبدوي، وسيدنا الخضر وضريح الأَنبياء – في مدينة الخليل بفلسطين – وضريح الصحابي أبي عبيدة في غور الأُردن ، وغيرهم من الأَحياء والموتى ، المؤلهين المقدسين من دون الله تعالى لدى جمهرة كبيرة من المنحرفين ، الذين استحوذ عليهم الشيطان ، فعميت لديهم القلوب والأَبصار .

ولنتأَمل أيضاً قول الرسول ﷺ حيث يقول : « لَيْسَ مِنَّا مَنْ حَلَفَ بِالْأَمَانَةِ وَمَنْ خَبَّبَ – أفسد – عَلَىٰ امْرِىءٍ زَوْجَتَهُ أَوْ مَمْلُوكَهُ فَلَيْسَ مِنَّا »[1].

من هذا وغيره يعلم[2] أن الإنسان لا يجوز له أن يحلف بغير الله ، لئلا يدخل في عداد المشركين المغضوب عليهم[3] .

---

(١) رواه أحمد وابن حبّان ، وصحح إسناده المنـذري في الترغيب . راجع سلسلة الأحاديث الصحيحة : ج ١ – ص ٣٥ .

(٢) ومما يجدر ذكره أن الله سبحانه وتعالى قد نعى على كثير الحلف ، فقال : (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ) . . سورة القلم : ١٠ . وكما هو معلوم فإن وقوع الحلف يكثر من قبل التجار وأرباب المهن والصنائع وأشباههم . فعلى هؤلاء وغيرهم عدم الإسراف في الأيمان لمناسبة أو غير مناسبة .

(٣) راجع العبادة في الإسلام . وصراع بين الحق والباطل : ص ١١٦ .

الاشتغال بالسحر

ومن الشرك الملعون ، الاشتغال بالسحر ، وتصديق من يشتغل به . ومعنى السحر نفسه : عبارة عما خفي ولطف سببه . ولهذا جاء الحديث : « إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْراً »[1] . وسمي السَحَرُ سحراً لأنه يقع خفياً آخر الليل .

قال ابن فارس في معجمه : السحر – قال قوم – هو إخراج الباطل في صورة الحق . ويقال : هو الحذيقة . قال أبو محمد المقدسي في الكافي : السحر عزائم ورقى وعقَد ، يؤثر في القلوب والأبدان ؛ فيمرض ويقتل ويفرق بين المرء وزوجه . وقال سبحانه : (وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي ٱلْعُقَدِ)[2] . يعني السواحر اللاتي يعقدن في سحرهن ، وينفثن في عقدهن . ولولا أن للسحر حقيقة لم يأمر الله تعالى بالاستعاذة منه .

وقال الراغب في المفردات : خداع وتخيلات لا حقيقة لها ، نحو ما يفعله المشعبد بصرف الأبصار عما يفعله لخفة يده ، وما يفعله النمام بقول مزخرف عائق للأسماع . وجاء في القرآن : (يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ)[3] .

وكذلك يعني استجلاب معاونة الشيطان بضرب من التقرب إليه ، بقوله سبحانه : (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ ٱلشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ)[4] .

---

(١) رواه مالك وأحمد والبخاري وغيرهم . (٢) سورة الفلق : ٤ .

(٣) سورة طه : ٦٦ .المشعبد : الهازىء كالمشعوذ (٤) سورة الشعراء : ٢٢١ ، ٢٢٢ .

وقد سمى الله تعالى السحر كفراً بقوله : (وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ)[1] . وحذرنا الله من الاشتغال بالسحر ، لأَن الشياطين يعلمونه للناس عن طريق الوسوسة إليهم ، ويعرفونهم كيف يثيرون الفتن ويوقدون نار العداوة بين الزوجة وزوجها بالوشاية ، وفي هذا العمل قطع للأَرحام وخراب للبيوت[2] . قال تعالى :

(فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ)[3] . وقد ذم الله عمل الساحر ، ووصم ما يفعله بالخسران في قوله تعالى : (وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ)[4] .

كما أَن الرسول ﷺ يقول عن السحر والساحر : « مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ وَمَنْ تَعَلَّقَ بِشَيْءٍ وُكِلَ إِلَيْهِ »[5] . ويقول أيضاً : « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ » . قالوا : يا رسول الله ما هن ؟ . قال : « الشِّرْكُ بِاللهِ وَالسِّحْرُ وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ، وَأَكْلُ الرِّبَا وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ »[6] .

واختلفوا : هل يكفر الساحر أو لا ؟ . فذهب طائفة من السلف إلى

---

(١) سورة البقرة : ١٠٢ .

(٢) راجع صراع بين الحق والباطل : ص ١٢٧ .

(٣) سورة البقرة : ١٠٢ .

(٤) سورة طـه : ٦٩ .

(٥) حـديث رواه النسائي .

(٦) حـديث رواه الشيخان وأبو داود ، وقد عـد رسول الله ﷺ السحر من الكبائر ، وذكره بعد الإشراك للإشارة إلى أنه نوع منه ، وأن حكم الساحر حكم المشرك والمرتد .

أنه يكفر . وبه قال مالك وأبو حنيفة وأحمد ـ رحمهم الله ـ قال لأصحابه : إلا أن يكون سحره بأدوية وتدخين وسقي شيء لا يضر فلا يكفر .

وقال الشافعي : إذا تعلم السحر قلنا له : صف لنا سحرك . فإن وصف ما يوجب الكفر ؛ مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة ، وأنها تفعل ما يلتمس منها فهو كافر ، وإن كان لا يوجب الكفر ؛ فإن اعتقد إباحته كفر . أ.هـ.

وقد سماه الله كفراً بقوله : (إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ)[1] . قال ابن عباس في هذه الآية : وذلك أنهما علما الخير والشر والكفر والإيمان ، فعرفا أن السحر من الكفر[2] .

وعن بجالة بن عبدة قال : كتب عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أن اقتلوا كل ساحر وساحرة . قال : فقتلنا ثلاث سواحر[3] .

وصح عن حفصة ـ رضي الله عنها ـ أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقتلت[4] . ويلحق بالسحر ما في معناه من العرافة والعيافة ـ التي هي زجر الطير ـ والطرق بالحصى ، وخط الرمل ونحو ذلك مما يدعي أصحابه أنهم يعلمون الغيب بواسطته . قال الشاعر :

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع

(١) سورة البقرة : ١٠٢ .

(٢) انظر فتح المجيد : ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧ .

(٣) حديث رواه البخاري في صحيحه .

(٤) رواه مالك في الموطأ . راجع الجامع الفريد ص ١١٢ ، ١١٣ .

وعن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – في قوله تعالى : (يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ)[1] . قال : الجبت ، السحر . والطاغوت ، الشيطان[2] وقال تعالى : (وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ)[3] . قال ابن عباس – رضي الله عنهما : أي ليس له نصيب .

وقال الحسن رحمه الله : أي ليس له دين . فدلت الآية على مفارقة الساحر لدينه[4] . وكما حرم الإسلام على المسلم الذهاب إلى العرَّافين ، لسؤالهم عن الغيوب والأسرار ، حرَّم عليه أن يلجأ إلى السحر أو السحرة ، لعلاج مرض ابْتُلِيَ به ، أو حلِّ مشكلة استعصت عليه[5] . فهذا ما برئ رسول الله ﷺ منه . قال : « لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ » ، « وَمَنْ أَتَىٰ كَاهِناً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ »[6] .

ماجاء في النشرة – فك السحر

قال أبو السعادات : النشرة ضرب من العلاج والرقية ، يعالج به من يظن أن به مسًّا من الجن . سميت نشرة لأنه ينشر بها عنه ما خامره من الداء . أي يكشف ويزال[7] .

---

(١) سورة النساء : ٥١ .
(٢) دعوة التوحيد ص : ٨٠ .
(٣) سورة البقرة : ١٠٢ .
(٤) دعوة التوحيد ص : ٧٩ .
(٥) الحلال والحرام : ص ٢٣١ .
(٦) رواه البزار بإسناد جيد . فتح المجيد ٣٠٢ – ٣٠٣ .
(٧) راجع فتح المجيد : ص ٣٠٧ .

عن جابر أن رسول الله ﷺ سئل عن النشرة فقال : « هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ »[1] .

وقال ابن الجوزي : النشرة حل السحر عن المسحور ، ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر . وروي عن الحسن أنه قال : لا يحل السحر إلا ساحر .

قال ابن القيم : النشرة حل السحر عن المسحور وهي نوعان ، أحدهما : حل بسحر مثله ؛ وهو الذي من عمل الشيطان ، وعليه يحمل قول الحسن ، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب ، فيبطل عمله عن المسحور . والثاني : النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة فهذا جائز .

وكذلك فالنشرة بالتعويذ والرقى بأسماء الله وكلامه من غير تعليق ، فلا أعلم أحداً كرهه[2] . وقد قال ﷺ : « عِبَادَ اللهِ تَدَاوَوْا وَلَا تَدَاوَوْا بِحَرَامٍ » . وقال : « ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ : مُدْمِنُ الْخَمْرِ ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ »[3] . والحاصل أن ما كان منه بالسحر فيحرم ؛ وما كان بالقرآن والدعوات والأدوية المباحة فجائز . والله أعلم[4] .

---

(١) رواه أحمد بسند جيد .

(٢) راجع تيسير العزيز الحميد . وفتح المجيد : ص ٣٠٩ .

(٣) رواه أحمد وابن حبان في صحيحه . راجع تيسير العزيز الحميد : ص ٤٤٩ .

(٤) راجع فتح المجيد : ص ٣١٠ . ومن أراد الاستزادة فعليه بهذا السفر الفريد فهو زاخر بمآثر السلف الرشيد .

الأحجبة والتمائم والرقى والأوتار

ومن الشرك الملعون عمل الأحجبة والرقى وتعليق الأوتار ؛ وقد عرف الجاهليون قديماً هذه الأعمال الشركية نتيجة اعتقادات وهمية باطلة ، ولما جاء الإسلام الحنيف حارب هذه الاعتقادات ، وقضى على تلك العادات الفاسدة والخرافات الساقطة ، التي تفسد العقائد وتشوه معالم الحيـــاة .

ونظراً لما يترتب على هذه الأعمال الشركية من شرور ومفاسد ، فقد حذر رسولنا ﷺ من أخطارها وويلاتها فقال : « إِنَّ الرُّقَىٰ وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ »[1] . وقال أيضاً : « مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ »[2] . وقال : « مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ »[3] .

وهذا وعيد وتهديد لمن يتعلق قلبه بالتمائم والأحجبة ، وفيه أيضاً دعاءٌ عليه بعدم تحقيق المطالب .

ومما يؤسف له أن كثيراً من المبتدعة ، المنتسبين للإسلام اليوم ،

---

(١) انظر الأحاديث الصحيحة: رقم ٤٩٢ ، ص ٢٦٥ . راجعه فهناك فوائد كثيرة . الرقى : دعاءٌ يقرأ على المريض .

التولة : شيءٌ يصنعه الناس ليحبب المرأة إلى زوجها والرجل إلى امرأته . وقيل : هو نوع من السحر .

التمائم : جمع تميمة ؛ وهي خرزات زرقاء كانت العرب تعلقها على الأولاد لرد العين عنهم . ولازالت هذه العادة الشركية مستعملة حتى الآن . وقد روى الحديث الإمامان أحمد ، وأبو داود .

(٢) رواه أحمد في مسنده .

(٣) رواه الإمام أحمد .

يعتنقون عقائد أهل الجاهلية المشركين نفسها ؛ حيث يعتقدون أن الأحجبة والتمائم والأوتار - التي يعلقونها على الأطفال و الرجال والنساء ، والدواب والمنازل والسيارات وما شابه ذلك - تعمل خلاف ما هو مسجل عند الله ، فتشفي بعض الأمراض ، وتطيل الأعمار ، وترد العين عن الإنسان والدواب والسيارات والعمارات ، وتمنع عنها عين الحاسد ، وتسلمها من الآفات ، وتحفظها من كل سوء أكثر مما قدره الله لها ، كما تحيل الشقاء إلى سعادة والكراهية إلى محبة .

ومن وراء هذه العقيدة الفاسدة الملوثة ، يعيش قوم من المشايخ الدجاجلة والمبتدعة الفسقة ، الذين يطلقون لحاهم ، ويعلقون المسابح الطويلة بأعناقهم وصدورهم - كما هو حال الرهبان - ليموهوا على بسطاء المسلمين ، بل وحتى شخصيات كبيرة ، على جانب كبير من العلم ، لم يسلموا من تضليلهم ، فوقعوا أسرى خرافاتهم وشركهم . وهكذا راجت تجارة الأحجبة والرقى الشركية والأوتار الجاهلية لدى طائفة كبيرة من هؤلاء الحجابين المتمشيخين ، وأدعياء علم الغيب المشركين ، فلعبوا بعقول أبناء المسلمين ، وزينوا لهم الباطل ، وسطروا لهم الأحجبة والتمائم وغيرها من الأعمال الكفرية ، وبذلك تمكنوا من سرقة أموال الناس بهذه الطرق الشيطانية الملتوية ، وراجت تجارتهم وأصبحت لهم المنزلة لدى الكثيرين من المفتونين بهم ، فأطلقوا عليهم الأسماء والألقاب ؛ كالولي ، والشيخ المتصل ، وصاحب الخطوة ، مع أنهم دجاجلة مشعوذون وأولياءٌ للشيطان ، وأعداءٌ لله ، وخونة لصوص

في المجتمع يجب محاسبتهم وتقليم أظفارهم ، وتطهير المجتمع من شرورهم .

والإسلام الحنيف لم يهمل جانب الجسم ، وما يتعرض له الإنسان من آفات وأمراض ، بل أمر بالتداوي ومعالجة كل داءٍ . وقد صرح بذلك رسولنا ﷺ حين قال : « إِنَّ اللهَ أَنْزَلَ الدَّاءَ وَالدَّوَاءَ وَجَعَلَ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً فَتَدَاوَوْا وَلَا تَدَاوَوْا بِحَرَامٍ »[1] . بهذا أرشدنا الرسول ﷺ إلى الأخذ بسنن الله في الحياة ، وهي التداوي بالعقاقير الطبية التي يقررها الطبيب المختص ، بعد الكشف على المريض ، وهذا هو الطريق الشرعي لصلاح أمراض الأبدان ، أما أمر الشفاء فهو موكول إلى الله الرحيم بعباده ، العليم بآلامهم ومصائبهم[2] .

جاء في الصحيح عن أبي بشير الأنصاري ، رضي الله عنه أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره ، فأرسل رسولاً « أَنْ لَا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ ، أَوْ قِلَادَةٌ مِنْ حَبْلٍ إِلاَّ قُطِعَتْ »[3] .

قال البغوي في شرح السنة : تأول مالك أمره عليه السلام بقطع القلائد على أنه من أجل العين ؛ وذلك أنهم كانوا يشدون تلك الأوتار والتمائم ، ويعلقون عليها العوذ ، يظنون أنها تعصمهم من الآفات ، فنهاهم النبي ﷺ وأعلمهم أنها لا ترد من أمر الله شيئاً .

---

(١) رواه أبو داود .

(٢) انظر صراع بين الحق والباطل : ص ١٢٣ ، ١٢٤ بتصرف .

(٣) حديث متفق عليه .

وقال أبو عبيد : كانوا يقلدون الإبل الأوتار لئلا تصيبها العين ، فأمرهم النبي عليه الصلاة والسلام بإزالتها إعلاماً بأن الأوتار لا ترد شيئاً . وكذا قال ابن الجوزي وغيره[1] .

قال العلماءُ : المنهي عنه من الرقى ما كان بغير لسان العرب فلا يُدرىٰ ما هو ، ولعله قد يدخله سحر أو كفر ، فأما إذا كان مفهوماً ، وكان فيه ذكر الله تعالى فإنه مستحب[2] . والرقية حينئذ دعاءٌ ورجاءٌ إلى الله ، لا علاج ودواءٌ . وقد كانت رقى أهل الجاهلية ممزوجة بالسحر والشرك والطلاسم ، التي ليس لها معنى مفهوم[3] .

إن ضلالة التمائم والحجب ما زالت فاشية ، وتنتشر بين البدو والفلاحين خاصة ، وسكان المدن عامة ، فأينما ذهبنا نشاهد هذه الشركيات ؛ فبعض سائقي السيارات يضعون الخرزات الزرق في سياراتهم ، حيث يعلقونها أمامهم في السيارة على المرآة ! وبعضهم يعلق نعلاً في مقدمة السيارة أو في مؤخرتها ! وغيرهم يضع نعل فرس في واجهة الدار أو الدكان ! .

كل ذلك لدفع العين وطرد الشيطان ، الذي أصبح مهيمناً على عقولهم الزائفة ، بسبب الجهل بالتوحيد ، وما ينافيه من الشركيات والوثنيات

(١) راجع فتح المجيد ص : ١٢٩ ، ١٣٠ .

(٢) وهذا لا يعني أن يذكر بعض الألفاظ القرآنية في الرقى ، ثم تخلط بها أدعية شركية وثنية ؛ كالاستغاثة بالجن ومخاطبتهم ، أو الكتابة بالحروف المقطعة ، وبخطوط متعرجة كالطلاسم ، كما يفعل أصحاب العزائم في رقاهم المخترعة وحجبهم الممتهنة المبتدعة .

(٣) راجع الحلال والحرام : ص ٢٣٤ .

التي ما بعثت الرسل وأُنزلت الكتب إلا من أجل إبطالها والقضاء عليها ، ليعود للبشرية سمو فطرتها ونقاؤها .

ولم يقف الأمر ببعضهم عند مجرد المخالفة ، بل تعداه إلى التقرب بها إلى الله تعالى ، فهذا الشيخ صاحب دلائل الخيرات يقول في الحزب السابع ، في يوم الأحد – ص ١١١ . ط . بولاق : اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد ، ما سجعت الحمائم ، وحمت الحوائم ، وسرحت البهائم ، ونفعت التمائم[١] .

والتمائم هي الشاهد في قول صاحب الدلائل ، وهي التي يتقرب بها إلى الله تعالى – كما يزعم – مع أن التمائم هي الخرزات – كما قال ابن الأثير عند إطلاقها – ولا دليل في الشرع على أن التميمة بهذا المعنى تنفع ، وقد ذكر ذلك كثير من السلف الصالح[٢] .

فإلى الله المشتكى[٣] من جهل المسلمين اليوم وبعدهم عن الدين .

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة : ج ١ ص ٢٦٦ .

(٢) للاستزادة راجع تعليق الألباني على الكلم الطيب : ص ٤٤ ، ٤٥ .

(٣) أذكر الذين يصابون بالأمراض وتنزل بهم العاهات ، بأن يلجؤوا إلى أطبّاء متخصصين في الطبّ والمعالجة . وقد بيّن لنا الرسول الكريم هذا الطريق فقال : « إِنْ كَانَ شَيْءٌ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ خَيْرٌ فَفِي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ أَوْ شَرْبَةِ مِنْ عَسَلٍ ، أَوْ لَذْعَةِ بِنَارٍ ، وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَكْتَوِيَ » . رواه البخاري ومسلم وغيرهما . أما أدعياء الطب العربي – المشعوذون – الذين يدعون بالتخصص في معالجة المرضى المزمنين ، وإخراج الجن من أجسام المصابين لابتزاز أموال المسلمين ، فهذا طريق غير مشروع ، لم يأذن به الشارع الحكيم . أما الطريق المشروع فقد بينه الرسول الكريم منذ أربعة عشر قرناً حين قال : « إِنَّ اللهَ أَنْزَلَ الدَّاءَ وَالدَّوَاءَ وَجَعَلَ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً فَتَدَاوَوْا وَلَا تَدَاوَوْا بِحَرَامٍ ». رواه أبو داود .

شرك الكهان والعرافين

ومن الشرك الخبيث ما يقوم به الكهان والعرافون وأشباههم ، من أعمال الدجل والضلال ؛ كدعوى معرفة علوم الغيب وما يبيته المستقبل أو الإخبار بما في ضمير الإنسان .

وفي الصحيحين ومسند أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت : سئل رسول الله ﷺ عن الكهان فقال : « لَيْسُوا بِشَيْءٍ » . فقالوا : يا رسول الله ، إنهم يحدثون أحياناً بالشيء ويكون حقاً ! .

فقال رسول الله ﷺ : « تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الْحَقِّ يَخْطَفُهَا الْجِنِّيُّ فَيَقُرُّهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ قَرَّ الدَّجَاجَةِ فَيَخْلِطُونَ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كِذْبَةٍ »[1] .

وعن النبي ﷺ أنه قال : « مَنْ أَتَىٰ عَرَّافاً أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ مَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ »[2] . ؟

قال القرطبي : المراد بالمنزَّل:الكتاب والسنة . أ . . هـ.

قال الإمام البغوي : العراف ، الذي يدعي معرفة الأُمور بمقدمات يستدلّ بها على المسروق ، وبمكان الضالة ونحو ذلك .

وقال أبو العباس ابن تيمية : العراف اسم للكاهن والمنجم والرمّال

(١) متفق عليه . انظر شرح الطحاوية : ص ٥٦٧ .

(٢) رواه الأربعة والحاكم وقال : صحيح على شرطهما .

ونحوهم ، ممن يتكلم في معرفة الأُمور بهذه الطرق ، أو كمن يدعي علم الغيب أو يدعي الكشف[1] .

يقف الإسلام من الكهان والعرافين وأضرابهم موقفاً صارماً ؛ لارتكابهم أسوأ المنكرات التي نهى عنها الشارع الحكيم ، كما أن عاقبتهم وخيمة حيث يؤولون إلى البوار والفشل . إن هؤلاء الدجاجلة يستحقون التعذيب والتنكيل والسجن والقتل في الدنيا ، والخزي والعار والخلود في نار جهنم ، التي أُعدت لكل من يكفر بالإسلام ، ويرتد عنه ويصر على ضلاله وكفره .

فمن ادعى معرفة الغيب الحقيقي فهو كاذب على الله وعلى الناس وعلى الحقيقة .

وقد جاء بعض الوفود إلى النبي ﷺ فظنوا أنه ممن يزعمون الاطلاع على الغيب ، فخبؤوا له شيئًا في أيديهم وقالوا له : أخبرنا ما هو ؟ . فقال لهم في صراحة : « إِنِّي لَسْتُ بِكَاهِنٍ وَإِنَّ الْكَاهِنَ وَالْكِهَانَةَ وَالْكُهَّانَ فِي النَّارِ »[2] .

أقول : على أبناء الأُمة أن يتحمل كل مسؤوليته ، لتخليص الأُمة من رواسب الجاهلية الفاسدة ، والعقائد الزائغة ، والإشاعات الكاذبة ، التي تخل بعقول أبناء الأُمة وتفسدها . وقد صحّ عن الرسول ﷺ أنه قال:

---

(١) انظر فتح المجيد : ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ .

(٢) راجع الحلال والحرام : ص ٢٢٩ .

« إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ »[1] . رواه ابن ماجه وصحَّحه الترمذي .

إن أدعياء علم الكهانة والعرافة والحجابين وكافة المشعوذين ـ الذين يتعاطون هـذه الأعمـال الشركية كمهنة للتكسب ـ يفسدون العقول ويأكلون أموال الناس بالباطل . هؤلاء بمجموعهم بؤر للمفاسد وحرب على القيم والأخلاق . فلا صلاح للأمة إلا بتطهير المجتمع من آثارهم وضلالهم ، حتى يتخلص الإنسان من ضغوط الشرك وربقة الوثنية .

تصديق الكهان كفر

صبّ الإسلام جام غضبه ، ووعد وتهـدد الكهان والعرافين وأشباههم لخروجهم على تعاليم الدين وأمر الشارع الحكيم .

ولم تقتصر حملة الإسلام على هذه الطوائف الشاذة والدعوات الضالة وحدها ، بل نجده قد أشرك معها في الإثم والمعصية والخذلان من يلجؤون إليهم ويسألونهم ويصدقونهم في أوهامهم وتضليلهم . وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام : « مَنْ أَتَىٰ عرَّافاً فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ فَصَدَّقَهُ بِمَا قَالَ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْماً »[2] .

وقال: « مَنْ أَتَىٰ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا قَالَ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ »[3] .

(١) حديث صحيح مخرج في المشكاة . راجع كتابنا : مصرع الشرك والخرافة ص : ٢٤٠ .
(٢) رواه مسلم .
(٣) رواه البزار بإسناد جيد قوي . انظر الحلال والحرام : ص ٢٣٠ .

مما تقدم يتبين لنا أن الإسلام قد نهى وحذّر المسلمين من الذهاب إلى العرافين والكهان ، وكل من كان على شاكلتهم ، وذلك واضح مما ورد على لسان رسولنا عليه الصلاة والسلام ، الذي أمرنا الله باتباعه والتزام شرعه الحكيم . فلا ينبغي تصديق هؤلاء الدجالين ، والإيمان بما يدّعون من علوم غيبية ، لأن هذا يعتبر كفراً بالرسول ﷺ وخروجاً عن القرآن والسنة المطهرة .

ومن المعلوم مما أُنزل على محمد ﷺ أن الغيب لله وحده ، وأن محمداً ﷺ لا يعلم الغيب ولا غيره من باب أولى . قال تعالى : (قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ)[1] .

فإذا عرف المسلم هذا من قرآنه ـ صريحاً واضحاً ـ ثم صدّق أن بعض الخلق يكشفون القدر ، ويعلمون ما يكنّه صدر الغيب من أسرار ، فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ[2] .

---

(١) سورة الأنعـــام : ٥٠ .

(٢) انظر كتاب الحـــلال والحرام : ص ٢٣٠ .

علم الغيب من خصائص الله سبحانه

ورد في القرآن الكريم والسنة المطهرة نصوص مستفيضة ، تبين أن علم الغيب هو من خصائص الأُلوهية ، استأثر به الله تبارك وتعالى . ومن هذه النصوص الصريحة قوله تبارك وتعالى : (قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إلاَّ اللهُ)[1] . وقوله عز وجل : (يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً)[2] .

وقوله سبحانه : (قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ)[3] . وكما ورد في الحديث الصحيح ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « مِفْتَاحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لاَ يَعْلَمُهَا إلاَّ اللهُ ، لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَا يَكُونُ فِي غَدٍ ، وَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَا يَكُونُ فِي الْأَرْحَامِ ، وَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، وَمَا يَدْرِي أَحَدٌ مَتَى يَجِيءُ الْمَطَرُ »[4] .

إطلاع الملائكة والرسل على الغيب

إن الله عز وجل لم يطلع أحداً من خلقه على علم الغيب ، ولكنه سبحانه وتعالى قد استثنى الملائكة والرسل الكرام من هذا ، وأخبر أنه أطلعهم على ما شاء لهم من الغيب أن يعرفوه ، بقصد تبليغ رسالاته

(١) سورة النمل : ٦٥ .
(٢) سورة الأحزاب : ٦٣ .
(٣) سورة الأنعام : ٥٠ .
(٤) انظر جواهر البخاري . ٢٦ — ٢٨ .

وأوامره العلية ، وبما لا يخرج عن النطاق الذي يكون فيه مصلحة البشر ومنفعتهم .

فقال تعالى : (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَداً إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ، لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً)[1] .

أما خلاف ذلك فلا يحيط أحد من خلقه بشيءٍ ، مما استأثر بعلمه من الغيب ، حتى الرسول ﷺ نفسه نفى الله عنه علمه بالغيب وقال سبحانه : (قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ)[2] . وقوله تعالى : (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ . . .)[3] .

فإذا كان الرسول ﷺ – وهو سيد البشر وأفضل المرسلين – نفى الله عنه علمه بالغيب ، إلا ما يوحى إليه وينزل به عليه الملك بأمره سبحانه[4]

---

(١) سورة الجن : ٢٦ – ٢٨ .

(٢) سورة الأنعام : ٥٠ .

(٣) سورة الأعراف : ١٨٨ .

(٤) ومن المؤسف حقاً أن يلجأ بعض المتسبين لأُمتنا فيكذبون على الله وعلى الرسول . فيدعون – زوراً وبهتاناً – أن الله سبحانه قد أطلع رسولنا الكريم ﷺ على علوم الغيب كلها – ما كان وما سيكون – مع أن هذا الادعاء يناقض آيات الله البينات ، وما جاء على لسان رسولنا ﷺ من السنن المطهرات ، والله تعالى يقول : (قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ) .
وقد ناقشت في هذه المسألة الكثير ممن لا يتوقفون عند النصوص الشرعية ، بل يطلقون لعقولهم القاحلة وعقائدهم الزائغة العنان ، ولم يقبلوا إلا ما ورثوه عن شيوخهم المنحرفين ، وما لبسه =

فكيف إذن يزعم الجهال والمبتدعون والدجاجلة الحجابون ، معرفتهم للغيب واطلاعهم على أمور المستقبل ؟ ![1] .

استخدام الجن وعلم الغيب

يفتري كثير من الناس الكذب على الله ؛ فيموهون الحقائق ، ويلبسون الحق بالباطل ، ويطلقون المزاعم والأوهام ؛ فيحاربون بها الحق وأهله ، ويشيعون الفساد والرذيلة في جنبات المجتمع ، مما يفسد الحرث والنسل ويشوه معالم الحياة .

ومن هذه المزاعم ما يفتريه بعضهم على الله بأن الجن يعرفون غيب الماضي فقط ، أما غيب المستقبل فلا يعلمونه ، مع أن الله قد نفى عن الجن معرفتهم بالغيب كله . وهذه قصة الجن الذين كانوا يعملون بين يدي سليمان عليه السلام ، بإذن الله تعالى ، وفيهم يقول الله سبحانه :

= عليهم الشيطان الرجيم . مع أن معظمهم من ذوي المراتب الرفيعة ؛ كالقضاة والمحامين وحملة الشهادات العليا وغيرهم . إن مثل هذا الاعتقاد الفاسد قد يؤدي بصاحبه إلى النار إذا لم يتب ويقف عند حدود الشرع ، ونحن نقول بأن الله سبحانه قد أطلع رسوله الكريم على بعض علم الغيب لا كله ، كما يزعم المبطلون . إن مثل هؤلاء الأدعياء – الذين يعرفون بما لا يعرفون – مرض خطير في الأمة ، حيث ينخدع البسطاء من المسلمين بضلالهم ، مع أن الثقافة والعلوم والمراكز التي يتبوؤونها ليست المقياس الحقيقي لاستقامة الإنسان ، فكثير من الرؤوس المتعلمة – مع الأسف – نجدها فارغة من الإيمان ، كافرة بمبادىء الدين وتعاليمه . فعلى الأمة الحذر الحذر ، واليقظة الدائمة من أمثال هؤلاء .

(١) انظر كتابنا مصرع الشرك والخرافة . وكتاب صراع بين الحق والباطل : ص ١٣٦ .

(فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ[1] فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ)[2] .

يقول ابن كثير – رحمه الله – في تفسير هذه الآية : يذكر تعالى كيفية موت سليمان عليه السلام ، وكيف عمّى الله موته على الجان المسخرين له في الأعمال الشاقة ؛ فإنه مكث – النبي سليمان – متوكئاً على عصاه – وهي منسأته – كما قال ابن عباس رضي الله عنهما ، ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد ، مدة نحواً من سنة ، فلما أكلتها دابة الأرض – وهي الأرضة – ضعفت وسقط إلى الأرض ، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة ، وتبينت الجن والإنس أيضاً أن الجن لا يعلمون الغيب ، كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك[3] .

إذن لو كان الجن يعلمون الغيب حقاً ما ظلوا في عذاب مدة من الزمن؛ وهم يعتقدون أن سليمان حيٌ ، بينما هو ميت لا يدري من أمرهم شيئاً[4] .

وخلاصة القول : إذا كان الجن قد جهلوا موت سليمان – عليه السلام– الذي حدث قبل اكتشافهم له بمدة طويلة قد تصل إلى سنة ! فكيف إذن يعلمون الماضي ، فضلاً عن غيب الحاضر والمستقبل ؟ ! .

---

(١) منسأته : عصاه . (٢) سورة سبأ : ١٤ .

(٣) تفسير ابن كثير : جـ٣ ، ص : ٥٢٩ .

(٤) صراع بين الحق والباطل : ص ١٣٩ .

وكذلك فالقرآن الكريم يصرح بأن الجن قد نفوا عن أنفسهم معرفة الغيب كلية ، وهذا ما نجده في قوله سبحانه : (وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا)[1] .

لقد غفل ضعفاءُ العقول من الناس عن هذه الحقائق الثابتة ، وصدقوا هذه الأوهام والخيالات التي تحكى عن الجن ، وعلمهم بالغيب ؛ الذي هو من خصائص الألوهية ، ومع الأسف فقد ظنوها من عقائد الإسلام وهو منها براءٌ .

أما دعاة الباطل ، وما يتبجح به المشعوذون المرتزقة ، والنصابون الفسقة ، والحجابون الدجاجلة الذين يدعون ـ زوراً وبهتاناً ـ بأنهم يحكمون الجن ، ويستخدمونهم لقضاء مصالحهم ؛ وذلك للمنزلة الدينية والكرامات الربانية التي حباها الله لهم ! ! .

أقول : إن الواقع ينفي هذا ويدحضه ، حيث لم نسمع أو نقف على مصدر نقلي أو عقلي يؤيد هذا التخرص ، ولم يرد عن السلف الصالح ما يؤيد هذا الزعم وهم خير القرون ـ الصحابة ـ وأفضل الخلق بعد الأنبياء والرسل الكرام .

ولكن حصول هذا قد يتم على أيدي البشر ـ وهم شياطين الإنس ـ الذين يتمردون على شرع الله ، ويصبحون عبيداً للشيطان من دون الله ، ويستسلمون لرغبات الجن الفسقة ، ويكفرون بالله تعالى .

---

(١) سورة الجن : ١٠ .

ونخلص من هذا كلـه ؛ أن الادعاء بأن الإنسان الصالح المؤمن يستطيع أن يحكم الجن ويتصل بهم ، فهذا قول فاسد ، لا يقول به إلا الفسقة المبتدعة والمشركون الضالون ، فالاتصال مع شياطين الجن يتم مع شياطين الإنس فقـط ، الذين أصبحوا عبيداً للشياطين يأتمرون بأمرهم ، وقد أمرنا الله بالاستعاذة من شياطين الإنس وشياطين الجن فقال :

(قُـلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ . مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ)[1] . وقوله تعالى : (فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ)[2] .

فيجب الحذر واليقظة من هؤلاء الشياطين ، ومطاردتهم وتطهير المجتمع من شرورهم ومن رجسهم . والله المستعان وهو على كل شيء قدير .

اتخاذ القبور مساجد

حرم الإسلام على أتباعه كل نوازع الشر ومنابت الضلال ، وتشدد كثيراً في كل ما من شأنه إحباط عمل الفرد وإفساد مسعاه .

وكما هو معلوم فقد حارب الإسلام كافة الشرور ، وصب جام غضبه على الشرك الخبيث لأنه أشدها ضرراً ، وأكثرها فتكاً وتأثيراً على حياة الفرد والجمـاعة .

(١) سورة الناس .
(٢) سورة الأعراف : ٢٠ .

ومما لا ريب فيه فإن الشرك هو الداءُ العضال ، والوباءُ المعدي ، والسرطان الفتاك ، الذي ما حل بأرض إلا وشوّه معالمها ، وأهلك أهلها وعطل مسيرتها .

أما أخطر الشرك في هذه الأيام ـ وإن زعم بعضهم عدم وجوده ـ فهو الذي يتمثل في بناء المساجد على القبور ! ! . وقد حرم الإسلام بناء المساجد على القبور ، وأغلظ أشد الغلظة على مرتكبي هذه الجريمة البشعة ، التي تودي بالفرد إلى دار البوار . ولنستمع إلى رسولنا الأعظم صلى الله عليه وسلم حيث يقول :

« لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ »[1] .

وقال : « شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا عَلَىٰ الْقُبُورِ مَسَاجِدَ »[2] .

يتبين لنا من هذه النصوص الشريفة ، بأن مقت الله وغضبه سيحلان بالذين يبنون المساجد على القبور ، كما نزلت لعائن الله على اليهود والنصارى ، الذين ارتكبوا هذه المنكرات والشركيات .

وعن عائشة قالت : لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه ، فإذا اغتم بها كشفها فقال ـ وهو كذلك : « لَعْنَةُ اللهُ عَلَىٰ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ ». ـ يحذر ما صنعوا ـ

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه أحمد وابن ماجه .

ولولا ذلك أُبرز قبره ، غير أنه خُشي أن يتخذ مسجداً[1] .

قال القرطبي في معنى هذا الحديث : وكل ذلك يقطع الذريعة المؤدية إلى عبادة من فيها ، كما كان السبب في عبادة الأصنام . أ . هـ[2] .

والأصل في تحريم بناء المساجد على القبور ، هو خشية تعظيم الميت لدرجة تجعل الإنسان يعطي ما يجب أن يكون لله – من الحب والتعظيم والخشية والرجاء والتقديس – لهذا الميت ، معتقداً أن الميت بيده النفع والضرر ، فالتعظيم والخشية والرجاءُ والذل ، يجب أن يكون لله وحده ؛ لأنه الرب الحي الخالق الرازق المانع المعطي المالك لكل شيء في الوجود ، أما المقبور الذي يدعوه الإنسان ويسأله فهو عبد ميت ، لا يخلق ولا يرزق ولا يعطي ولا يعز ولا يذل[3] ، بـــل هو فقير محتاج كالذي يدعوه تماماً .

وقد قال الله تعالى لمن يرتادون مساجد الأضرحة : (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)[4] .

فعندما يبنى المسجد على قبر شيخ أو أي مخلوق آخر ، ويزين بالستائر والقباب وغيرها ، يخرج من عداد المساجد الصالحة للصلاة ؛ لأن مساجد القبور ليست لله ، بل هي لمن فيها من الأموات المعظَّمين لدى المفتونين بهم من الأحياء ، الذين يعتبرون الصلاة فيها تزيدهم منزلة ودرجة .

---

(١) رواه الشيخان .
(٢) فتح المجيد : ص ٢٣٨ .
(٣) صراع بين الحق والباطل : ص ٩٣ .
(٤) سورة الأعراف : ٢٩ .

وصدق الله العظيم : (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً)[1] .

ليكن المسجد لعبادة الله وحده ، واعبده كما أمر سبحانه ، ولا تعظم أيّ أحد غيره ، لأن تعظيمك وحبك للميت الذي أُقيم المسجد على ضريحه يصرفك عن عبادة الله الحقة . فعلى المسلم أن يحذر هذه المفاتن ، ويغلق الباب في وجه كافة المسالك التي قد تسبب الانحراف بالجماعة الإسلامية عن مسار الإسلام الصحيح .

زيارة القبور

أنعم الله تبارك وتعالى على عباده بنعم كثيرة ، لا يمكن الإحاطة بها أو حصرها ، ومع ذلك فقد أعرض الجاحدون ، وتنكر المتمردون عن حمده عز وجل ، والثناء عليه بما هو أهل له ، وفي هذا يقول سبحانه : (وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ)[2] .

ولما كانت الحياة الدنيا هي دار العمل والجنى ، والآخرة هي دار الحساب والثواب ، حيث تجد كل نفس ما عملت محضراً – من خير أو شر : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)[3] .

لذا كان حرياً بكل إنسان عاقل ، أن يؤدي حق الله كاملاً على الوجه المشروع ، لينال الخير والسعادة والثواب الجزيل ، الذي أعده الله

(١) سورة الجن : ١٨ .
(٢) سورة سبأ : ١٣ .
(٣) سورة الشمس : ٩ ، ١٠ .

لأهل طاعته ، العاملين وفق شريعته ، للفوز بالدرجات العلى ، التي وعد الله بها عباده المؤمنين ، الذين يتقربون إليه بالقربات ويسارعون في الخيرات . والله كفيل بمضاعفة الأجر والمثوبة لمن يشاءُ من عباده (وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ)[1] .

إن مجالات الخير والإحسان متنوعة ، وطرقها كثيرة لا يحصيها إلا الله سبحانه ، ومن هذه الطرق : زيارة القبور التي أمر الشارع الحكيم بأدائها للاتعاظ والاعتبار ، حيث الخير والإحسان للأحياء والأموات ، فينال الميت الدعاء والاستغفار من قبل الحي ـ الزائر ـ ويعتبر الحي بما يشاهده في زيارته ، فيستعد لمؤونة الرحيل الأبدية ـ الموت ـ بإكثاره من عمل الخير والتزود بالتقوى ، ومن هنا تتعدد موارد الخير لتحقيق سعادة الفرد حياً وميتاً . وقد وردت عدة نصوص شريفة تحث على زيارة القبور ومنهـا قوله ﷺ : « كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمُ الْآخِـرَةَ »[2] .

أما كيفية الزيارة المشروعة للميت فهي ؛ عندما يصل الزائر إلى القبر عليه أن يستقبل وجه الميت ويسلم عليه ويدعو له[3] .

وقد وردت عدة أدعية ، كان عليه الصلاة والسلام يدعو بها ، ومنها هذين الدعائين : عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ مر بقبور

(١) سورة البقرة : ١١٠ .

(٢) رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن .

(٣) راجع كتاب فقه السنة : ج ١ ـ ص ٥٦٥ .

المدينة ، فأقبل عليهم بوجهه فقال : « السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْقُبُورِ . يَغْفِرُ اللهُ لَنَا وَلَكُمْ . أَنْتُمْ سَلَفُنَا وَنَحْنُ بِالْأَثَرِ »[1] .

وقال بريدة رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقول قائلهم : « السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ . نَسْأَلُ اللهَ لَنَا وَلَكُمُ الْعَافِيَةَ»[2].

لقد انتشرت المنكرات في هذا العصر وعمّت وطمّت ، حتى عادت لعهد الجاهلية الأُولى ؛ إذ ارتكبت البدع والمحظورات والخرافات عند القبور وأضرحة الأموات[3] ، حيث يطوف الجهلاءُ والقبوريون حول الأضرحة ، ويستغيثون بالأموات ويسألونهم قضاء الحاجات ، وهذه بدع منكرة وشركيات مكفرة ، يجب اجتنابها ، ويحرم فعلها لمخالفتها تعاليم الإسلام الحنيف ، فعلى المسلم الكَيِّس أن يكون متبعاً لا مبتدعاً ، لأن الخير كل الخير في الاتباع ، والشر كله في الابتداع .

ومما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في زيارة القبور : إن منهم – الزوار – من يجعل الحج إليها أعظم من الحج إلى الكعبة . وهو يرى

(١) رواه الترمذي وقال : حديث حسن . انظر الأذكار النووية : ص ١٤٢ .

(٢) أخرجه مسلم . راجع : الكلم الطيب : ص ٨٥ تحقيق الألباني .

(٣) لقد كانت فتنة القبور من أعظم الفتن التي ابتلي بها الناس ، حتى أشركوا بالله سبحانه . وهذا حال القبوريين والمبتدعة الذين فتنوا بأضرحة الشيوخ والأولياء ، الذين أضحوا مقدسين ومؤلهين في نفوس معظميهم من دون الله سبحانه ، فنجدهم يتمسحون بالقبور ويحملون إليهم الذبائح والنذور ، ويستغيثون بهم لجلب الخير ودفع الضر من دون الله ، كما يستعطفونهم ويستغفرونهم ويتضرعون إليهم . وهو بعينه فعل المشركين بالأصنام ، وهو شرك عظيم ومحادّة لله ولرسوله القائل : « إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ . . . » .

-رحمه‌الله -أن هذه المغالاة في تعظيم القبور والمشاهد وشد الرحال إليها ، لم يرد بها كتاب ولا سنة ولا عمل من صحابة أو تابعين[1] .

لقد نهى الشارع الحكيم عن رفع القبور وتزيينها بالستائر ، وتجميلها أو إسراجها ، لئلا يفتتن بها الناس ويقدسونها ، لأن فتنة القبور كانت من أكبر الأبواب التي دخل منها الشرك على ابن آدم .

فإذا ما عُظِّمت القبور أو زينت ، فإنها ستصبح مزاراً للتبرك والتقديس والتوسل ، أو السؤال بها من دون الله . ولعمر الله فهذه نافذة كبيرة من أهم النوافذ التي بواسطتها دخل الشرك إلى حظيرة الإسلام ، فضاع ضعاف العقائد وتشوهت ضمائرهم . وقد حسم الإسلام هذه الفتنة وحذر منها وأغلق مسالكها وسدها سداً محكماً ، وبذا خلّص الإنسانية من حمأة الشرك وبراثن الجاهلية .

عبادة الأهواء

ومن الشركيات المظلمة انقياد الإنسان لهوى نفسه ، فلا تميل نفسه إلى شيء أو يهواه إلا اتبعه ، وهذا ما ذكره القرآن :

(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً)[2] .

فاتباع الهوى من الآفات الكبرى ؛ إذ حين يذهب العلم يبرز الهوى ليقود ويستعلي ، ويلمح ذلك من الآيات التي تذكر الذين يتبعون

(١) راجع منهاج السنن .
(٢) سورة الفرقان : ٤٣ .

أهواءهم . قال : (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُـدًى مِّنَ اللهِ)[1] . وقال تعالى : (بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ)[2] .

ومن أبرز الأهواء التي ألّهها الإنسان ، وصيّر نفسه عبداً لها ؛ المال والجاه والحسب . فالمال ـ ذلك المعبود الطاغي ـ الذي سيطر على عقول كثير من الناس ، وجعل حياتهم مسخرة لجمعه ، وطلب الرفاهية عن طريقه ، والاقتتال في سبيل جمعه ، فألهى الناس عن ربهم ، وصرفهم عن القيام بواجب الشكر له والتزام حدود أوامره .

والقرآن لم يغفل عن التحذير من سلطان المال ، وتأثيره على الجماعات فقال : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)[3] .

فالمـال يصبح عدواً للإنسان عندما يسيطر على حواسه ، ويؤدي به إلى ترك عبادة ربه . والبذل في سبيل مرضاته ، لهذا حذر أنبياءُ الله الجماعات البشرية من طغيان المادة ، فقد قال رسول الله ﷺ : « تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ ... »[4] . وقوله ﷺ : « اثْنَانِ لَا يَشْبَعَانِ طَالِبُ عِـلْمٍ وَطَالِبُ مَالٍ » .

وقال السيد المسيح ـ عليه السلام ـ في وعظه هذه الجملة الرائعة : لا تعبدوا ربّين : الله والمـال[5] .

---

(١) سورة القصص : ٥٠ .
(٢) سورة الروم : ٢٩ .
(٣) سورة المنافقون : ٩ .
(٤) قطعة من حديث رواه البخاري وابن ماجه . كشف الخفاء : ج ١ ـ ص ٣٦٦ .
(٥) روح الدين الإسلامي .

والإنسان عندما لا يهتدي بسنة الله ، ولا يهتدي بالعلم والهدى الذي جاء من عند الله ، يميل به هواه ؛ لأنه فقد الميزان ، فصار سهلاً عليه أن يميل مع هواه ، حيث لا يخشى سنة ولا علماً ، فكيف يخشاهما[1] وهو لم يشعر بقوانينهما في الحياة ، وأسلوب كشفهما للباطل ؟ ! ! .

فلذا نجد أن ضيق نظره والمحدودية في إدراكه يسهلان عليه اتباع الظنون وما تهواه نفسه ، دون أن يخشى نكيراً .. ولنستمع لهذه الآية الكريمة : (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ...)[2] .

قال الجنيد معلقاً على هذه الآية : والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة لنهدينهم سبل الإخلاص ، ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر إلا من جاهد هذه الأعداء باطناً ، فمن نُصِرَ عليها نُصِرَ على عدوه ، ومن نُصرت عليه نُصِر عليه عدوه[3] .

وحكي عن عبد الرحمن بن مهدي أن رجلاً سأل إبراهيم النخعي عن الأهواء : أيها خير ؟ . فقال : ما جعل الله في شيء منها مثقال ذرة من خير . وما هي إلا زينة الشيطان ، وما الأمر إلا الأمر الأول . يعني ما كان عليه السلف الصالح[4] .

عبادة الشخصية الإنسانية

كانت دعوة التوحيد حرباً على الشرك والوثنية وعبادة النيران والإنسان ، وجعل الأمر كله لله الواحد الديان ، فلا قدسية لفرد ولا

(١) انظر كتاب حتى يغيروا ما بأنفسهم .
(٢) سورة العنكبوت : ٦٩ .
(٣) انظر الفوائد : ص ٧٩ .
(٤) انظر مصرع الشرك والخرافة : ص ٤٣٦ .

عبادة لإنسان حتى ولو كان نبياً ، فإن القرآن العظيم يأمر الرسول الكريم في أن يبلغ الناس أنه بشر يوحى إليه فقال سبحانه : (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ)[1] .

وغاب عن بعض الناس أن يتخذوا آلهة من البشر يتبعون آراءهم ، ويسيرون على هواهم بدون تفكير ولا تمييز : (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ)[2] . والحقيقة أنهم لم يتخذوهم آلهة يسجدون لهم ، ولكنهم اتبعوا آراءهم بدون وعي ولا إدراك ولا كبير فهم ولا عظيم عقل ؛ فأسود اليوم أبيض الغد ، وحلال اليوم حرام الأمس ، وقبيح الأمس حسن اليوم ... يتبعهم أتباعهم في كل ما يقولون وما يصنعون ، وهكذا فقد لفظت أمتنا حياة الجاهلية بقبحها وعفونتها وشركها وعبودية غير الله ، وانطلقت تفكر بحرية وانعتاق .

فكثيراً ما ألَّه الناس بعض أبناء جنسهم اعتقاداً منهم بأنهم يتمتعون بميزات وخواص ينفردون بها عن سائر البشر .

وقد كان لهؤلاء البشر المتألِّهين عدة سبل للوصول إلى غاياتهم ؛ منها: استغلال البسطاء من الناس والسذج خاصة والتدجيل عليهم ، واستعمال وسائل العنف والإرهاب في أحيان كثيرة ؛ حيث استغلوا الإنسان أسوأ استغلال لتحقيق مطامعهم وتنفيذ مخططاتهم ، وقادوهم إلى الإذلال والخسران .

(١) سورة الكهف : ١١٠ .

(٢) سورة التـــوبة : ٣١ .

وقد لاقت الجماعات البشرية من شرور هؤلاء المتألهين ما تضيق به الصدور وما تلفظه الأنفس ، هذا ما كان يعانيه كثير من الشعوب البدائية والشعوب المتحضرة .

فستالين ـ أحد أساطين روسيا الشيوعية ـ الذي كان شبه إلٰه في قومه ، كفر به الشعب الروسي بعد موته ؛ فمزقوا صوره وحطموا تماثيله ورفعوا الصيحات من كل جانب باستهجان عبادة الشخصية الإنسانية . وأمثال هذا كثيرون كالميكادو امبراطور اليابان ، وأباطرة العجم والفرس وغيرهم[1] .

وقد جاءت المبادئ العظيمة في القرآن الكريم ـ منذ أربعة عشر قرناً ـ تلك المبادئ السامية الداعية إلى عبادة الله وحده ، وعدم عبادة الشخصية الإنسانية بأي صورة كانت ، فانظر كيف يوجه الإسلام الخطاب إلى اليهود والنصارى ، واضعاً الأسس الراسخة التي يجب أن تلتقي حولها هذه الديانات الثلاث ، في سبيل إسعاد البشرية ورفع الظلم والاستغلال ، اللذَيْن تؤدي إليهما عبادة الشخصية الإنسانية : (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ)[2] .

(١) ومما يؤسف له أن عدوى هذه العبادة والتأله قد سرت إلى أوساط كثيرة من المسلمين ، بتقليدهم الكفار في ذلك ، وهذا ممثل أصدق تمثيل بقيام المصلين للحاكم إذا دخل المسجد ، وهم يصفقون له ويهتفون وكأنهم في مهرجان أو احتفال . ناسين أنهم في بيت الله وبين يديه . ونظير ذلك مشاهد لدى الصوفية الذين يقفون لشيخهم متى دخل عليهم ، ولو كانوا داخل المسجد .

(٢) سورة آل عمـــران : ٦٤ .

ولما كان بعض الأنبياء والمصلحين اتخذهم قومهم ـ بعد مماتهم ـ آلهة أو أنصاف آلهة ، فقد بين القرآن بطلان هذا الشطط والانحراف في المعتقد بقوله : (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ)[1] .

فعبادة المصلحين والأنبياء أمر مشهور في كثير من الأُمم ؛ فالمعلم ـ بوذا ـ مثلاً لم يدّع الألوهية في حياته ، ولكن كثيراً من أتباعه ألّهوه بعد مماته ، ونصبوا التماثيل له[2] . وكذلك يفعل المبتدعة وبعض الصوفية المنحرفون مثل هذا لشيوخهم المقبورين ، وكذلك تنصبُ الأضرحة وترفع بناياتها لتصبح مزارات ، بدعوى أنها قبور للأولياء والصالحين ، ومثل هذا كثير ومعروف .

وقد عمل الإسلام على معالجة هذه النظريات الضالة ـ القائلة بتألّيه الأولياء والأنبياء والصالحين ـ احتياطاً ودرءًا للمفاسد . وقد كان من صميم المعتقدات الإسلامية أن محمداً ﷺ بشر كسائر البشر وأنه عبد الله ورسوله ؛ فها هو رسول الإسلام يأمره الله أن يخاطب أتباعه قائلاً :

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ

(١) سورة آل عمران : ٧٩ ـ ٨٠ . (٢) انظر روح الدين الإسلامي : ص ٩٨ .

لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)[1] . وجاء في القرآن الكريم في هذا المعنى : (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ)[2] . وكان رسول الله ﷺ وهو أكرم الخلق على ربه واحداً من أمته لا يفضلهم بطعام ولا شراب ، يأكل مما يأكلون،ويشرب مما يشربون ، ويسر كما يسرون ويحزن كما يحزنون .

دخل عليه أحد الوفود فسلم بسلام الملوك في الجاهلية ، بقوله[3] : أبيت اللعن . فقال عليه الصلاة والسلام : « مَا أَنَا بِمَلِكٍ ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ فِي مَكَّةَ » . قالوا : فيم أنت ؟ . قال : « أَنَا أَبُو الْقَاسِمِ » . فقالوا : يا أبا القاسم ، ثم ذكروا حاجتهم . فهو ينفي عن نفسه المنزلة الخاصة غير منزلة النبوة ومكان الرسالة ، وهكذا ربّى ﷺ أصحابه على عبادة الله وتقديس كلام الله . وإنه ﷺ يلحقه الموت وغير الموت مما يلحق الناس ؛ من خير أو شر في أجسامهم وأحوالهم الدنيوية وأموالهم ، حتى عاب الكفار عليه ذلك واعتبروا أنه لا يمكن أن يكون الرسول من جنسهم ؛ يأكل من أكلهم ويمشي في أسواقهم : (وَقَالُوا مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ)[4] .

لما رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن المسلمين بدؤوا يزورون شجرة الرضوان ، التي تمت البيعة تحتها يوم أن أراد الرسول ﷺ وصحبه

(١) سورة الأعراف : ١٨٨ .

(٢) سورة الكهف : ١١٠ .

(٣) انظر رسالة أضواء كاشفة للشيخ أسعد بيوض التميمي . نفع الله به المسلمين .

(٤) سورة الفرقان : ٧ .

أن يدخلوا مكة معتمرين فمنعتهم قريش ، وجاءت الأنباءُ بمقتل عثمان رضي الله عنه ، وكان سفير الرسول ﷺ إلى أهل مكة ، فبايع أصحاب الرسول نبيهم على الموت تحت تلك الشجرة ، فأخذ المسلمون يزورونها فيما بعد ، فقطعها عمر لئلا يقدسها المسلمون ويعودوا إلى وثنيتهم الأُولى .

وأعجب لأُمتي هذه ـ التي ورثت حضارة الإسلام وعظمة الإسلام ، وبين أيديها كتاب الله تتلوه صباح مساء ـ ما لها تقدس بشراً من الحكام ، وزعماء من القادة وناساً من الناس ... حتى استَخَفّوا بها ورقصوا على أشلائها ، وكادوا أن يبيعوها أو هم قد باعوها في سوق النخاسة الدولية .

والأُمة التي تبرر للزعيم أو الحاكم خطأَه المتعمد ورأيه القبيح ، وتقلبه وانتهازيته وأخذه للمبادىء يستوردها ، إنما هي تعبده من دون الله . ولقد سبب ذلك غُضب الله وسخطه . وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ »[1] .

ومما لا ريب فيه أنه قد يظهر بين حين وآخر ـ في كل أُمة من الأُمم ـ أفذاذ منها يبلغون درجة عظيمة في التقوى والاستقامة ، أو في العلم أو في العبقرية أو في الإخلاص لأُمتهم وبلادهم ، وقد يكتب الله على أيديهم الظفر والازدهار والنجاح الباهر والتوفيق العظيم ، وما إلى ذلك من رغائب ، فيعظمهم الناس ويمجدونهم ، ثم يبالغ بعضهم في ذلك حتى يصل تقديسهم في نفوس الرعاع السذج أو الجهلاء أو ناقصي

(١) رواه الإمام البغـوي في شرح السنة ، والنووي في سند صحيح .

التفكير إلى حد توهم الألوهية أو جزء منها فيهم ، وينحرفون بذلك عن منهج التفكير السليم ويتجاوزون كل حد مقبول في العقول السليمة ، وقد يشجعهم على بعض ذلك الأذكياء الذين يستطيعون استغلالهم من خلال هذه العقائد الباطلة . ولقد أصيب بهذا الداء شعوب كثيرة ، جعلت زعماءها وعظماءها آلهة من دون الله ، أو جعلتهم شركاء لله في خلقه وأمره ، واتخذت لهم أنصاباً وأوثاناً ؛ يقدسونها ويعبدونها ويقربون لها القرابين زاعمين أنها آلهتهم من دون الله .

ومن الذين ضلوا بهذا السبب معظم الوثنيين الأولين ؛ الذين اتخذوا الأوثان والأصنام لعظمائهم ثم عبدوها من دون الله ؛ ومنهم النصارى الذين ألّهوا سيدنا عيسى عليه السلام مبالغة في تعظيمه وتقديسه[1] .

إن القرآن الكريم قد لفتنا إلى وثن أو إله خطير يتعبد له الملايين – – وهم لا يشعرون – ذلك هو الهوى : (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ)[2] . (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً)[3] .

وكذلك من الأوثان ما يعبده الناس ويقدمون له الولاء[4] ؛ كموالاة

(١) العبادة في الإسلام ، ورسالة العبودية لابن تيمية رحمه الله .

(٢) سورة الجاثيـــة : ٢٣ . (٣) سورة الفـــرقان : ٤٣ .

(٤) لقد كان تعدد الأحزاب وتفرق الجماعة الواحدة واختلافها فيما بينها من الأسباب الرئيسية لضعف المسلمين وتفرقهم ، فقد ألف الحزبية – والتشرذم – بالإسلام والمسلمين أضراراً بالغة ، لا ينكرها إلا جاهل مغرور . والحق عندي هو اتباع الكتاب والسنة ؛ وهما الفيصل لكل أمر ، ثم الاقتداء بالسلف الصالح ، وإني لا أرى الرشد والهداية ملـكاً لجماعة فقهية أو لمدرسة عصرية أو تجمع أو طريقة إلا إذا كان لذلك أصل عند السلف الصالح .

المريد لشيخه ، والفرد والعنصر لحزبه أو رئيسه ، وإن لم يسموه وثناً أو إلهاً أو رباً ، ولم يسموا ما يقدمونه إليه عبادة ، ولكن العبرة بالمقاصد لا بالألفاظ ولا بالمسميات ولا بالأسماء .

اتباع الآباء والأسلاف والشيخ

إن المتتبع لأحداث التاريخ وتراجم الماضين - قديماً وحديثاً - ليقف حائراً مدهوشاً لما يرى من وقائع مذهلة أقدمت عليها طوائف من الناس ، فأسبغت قدسية وتعظيماً على الآباء والشيوخ والأجداد ، وأطلقت عليهم من الصفات والنعوت ما يطلق عادة على الآلهة .

إن الذين يفقدون السنن والقوانين في أحداث الكون وحوادث البشر ، يستبدلون تقاليد الآباء والشيوخ بالسنن ! ولتقاليد الأسلاف سلطان قوي يأخذ بمخانق البشر ! . وسلطان الأجداد والشيوخ يجب أن يقف عند حد معين لا يتجاوزه ، وإلا كان وبالاً ومصيبة على البشرية لا يعرف مداها إلا الله .

وقد ادعى العالم - تايلور - أن عبادة الأجداد نشأت من الاعتقاد بالأرواح ؛ فالآباء والأجداد - في القبائل البدائية - كانوا رؤساء الأسر وبيدهم مقاليد الأمور . لأنهم أخبر بشئون الحياة ، فإذا ماتوا فإن أرواحهم ترفرف في سماء الأسرة ، لتقيها شر النوائب ورد أذى الأعداء[1] .

(١) تاريخ الأديان وفلسفتها : ص ٦٨ ، للأستاذ طه الهاشمي .

وكذلك تمجيد الأبطال والخوف منهم هو الذي حمل البشر على عبادة الأسلاف[1] .

أي مفكر في حقيقة هذا المعتقد الفاسد يجده غريباً بعيداً عن التصديق والإقناع . فمن هم الأسلاف لنتفكر بأصلهم ومصيرهم ؟ ! . إنهم من البشر يأكلون ويشربون ويمرضون ثم يأتيهم الموت ، وبعده ينخر الدود أجسامهم ويحيلها إلى البلى ، ومن كان هذا أصله ومآله ، فهل من العقل اللجوءُ إليه وطلب المعونة أو تحقيق المطالب منه ؟ ! .

إن عبادة الأسلاف تشتمل على كثير من الخرافات والأساطير ، والقيام بشعائر وطقوس يمكن وصفها بالإجمال بأنها نوع من التخديرات التي خدرت الشعوب ، وحالت دون تقدمها ورقيها .

فمن آثار عبادة السلف عند العلماء : حلق الرأس وإحداث جروح في الجسد ، واحتفالات دفن الموتى ، ولبس المسوح ، والعناية بالقبور ، والصلاة عليها أو إقامة شعائر دينية فوقها[2] .

ومن روعة القرآن أنه لم يغفل عن هذه الأباطيل التي طرأت على الجنس البشري ، فكانت تعاليمه تحض على تخليص الإنسان منها . قال تعالى : (لَا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ)[3] .

فتأمل ـ أخي القارئ ـ استهلال هذه الآية بوصف قدرة الله في

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام : ج ٥ ص ٣٤ . جواد علي .
(٢) روح الدين الإسلامي .
(٣) سورة الدخـــان : ٨ .

الإحياء وفي الإماتة ، بينما الأسلاف والشيوخ الغابرون لا يملكون هذه الصفة ، بل هم أموات ، فما أبعد الميت عن نفع غيره ، ثم تأمل كيف أن الآية أعلنت أن الله هو ربهم ورب آبائهم ، وإذا كان الله رب الجميع فقد أبطل الدعوة إلى عبادة الأسلاف ، والاستمرار في منهج الآباء والشيوخ التي تجاوزتها الأحداث .

إن الالتزام بما كان عليه الأجداد والشيوخ يعيق الحركة ويعطل المسيرة ويرهق الأجساد ، ثم يتحول إلى الآصار والأغلال : (إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ)[1] . لأن إحلال الآباء محل آيات الله وسننه ، أمر جذاب شديد الإغراء .

وللاستفادة مما كان عليه الآباءُ ينبغي أن يخضع ـ ما كان عليه الآباءُ ـ للعلم والهدى ، ويجري عليه التصحيح دائماً ، وعلى المسلم أن لا يضع الآباء المسلمين ـ المتقدمين منهم والمتأخرين ـ مكان القواعد والسنن المأثورة ، ومهما أحسنا الظن فيهم فإنهم ليسوا فوق أن نختبر ما هم عليه ، على أساس الآيات والسنن والعلم والقوانين[2] .

يقول الإمام الشاطبي[3] : إن اتباع ما كان عليه الآباءُ والأشياخ وأشباه ذلك هو التقليد المذموم ، فإن الله ذم بذلك في كتابه[4] كقوله :

(١) سورة الصافات : ٦٩ ـ ٧٠ .

(٢) انظر كتاب حتىً يغيّروا ما بأنفسهم : ص ١٧٤ .

(٣) الاعتصام : ج ٢ ـ ص ١٨٠ ـ ١٨٢ .

(٤) قوله : فإن الله ذم بذلك في كتابه كقوله ، كذا في الأصل ، ولعل ذلك تحريف من الناسخ وربما كان الأصل : فإن الله ذم ذلك في كتابه بقوله . وعلى ذلك يستقيم ويظهر المعنى جلياً .

(إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ)[1] ... الآية . (قُلْ أَوَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)[2] . وقوله : (هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ)[3] . فنبههم على وجه الدليل الواضح ، فاستمسكوا بمجرد تقليد الآباء : (قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ)[4] .

وهو مقتضى الحديث الشريف في قوله ﷺ : « اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤَسَاءَ جُهَّالاً .. »[5] فإنه يشير إلى الاستنان بالرجال كيف كان ، وأن الإنسان لا ينبغي له أن يعتمد على عمل أحد البتة حتى يتثبت فيه ويسأل عنه حكمه ، إذ لعل المعتمد على عمله يعمل على خلاف السنة .

وكذلك قيل : « لَا تَنْظُرْ إِلَىٰ عَمَلِ الْعَالِمِ ، وَلَٰكِنْ سَلْهُ يَصْدُقْكَ »[6] .

قال الشاطبي : إذا ثبت أن الحق هو المعتبر دون الرجال ، فالحق أيضاً لا يعرف دون وسائطهم ، بل بهم يتوصل إليه ، وهم الأدلاء على طريقه[7] .

(١ ، ٢) سورة الزخرف : ٢٣ ، ٢٤ .

(٣ ، ٤) سورة الشعراء : ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ .

(٥) قطعة من حديث رواه الشيخان . انظر مشكاة المصابيح : جـ ١ ص ٧٢ ؛ تحقيق الألباني .

(٦) راجع كتابنا مصرع الشرك والخرافة : ص ٤٢٩ .

(٧) الاعتصام : جـ ٢ — ص ٣٦٢ .

البَاب الأول

الفصل الثاني

الابتداع والتدليس

الإسلام دين الأنبياء

لما كانت الخلائق وسائر الأكوان من إبداع الله ـ سبحانه بديع السمٰوات والأرض ، المهيمن عليها وبيده مقاليدها ـ فهو يصرف الأُمور كيفما يشاءُ وعنده لكل أجل كتاب ، لا معقب له سبحانه الكبير المتعال ، وهو الخبير سبحانه بخفايا أكوانه والبصير بحاجاتها ، يدبرها وفق مشيئته العلية ، تدبيراً حكيماً .

خلق الله سبحانه الخلق لمهمة عظيمة وغاية سامية ، وقد هيأ سبحانه لهذه الخلائق ـ ومنذ عهد أبي البشر آدم عليه السلام ـ هيأ لهم رجالاً أُمناءَ على وحيه ، فبلغوه لأُممهم على الطريق السوي ؛ إذ لا يعقل أن يعيش الناس بغير رعاية أو توجيه أو هداية ، ولكن العناية الإلٰهية والرعاية الربانية كانت راعية ومهيمنة على خلق الله تعالى ، توجههم حسب مقتضى المشيئة الإلٰهية وضمن الإطار الذي يعيش في كنفه خلق الله .

وقد كانت بعثات الأنبياءِ والرسل تتعاقب على سطح هذا الكوكب لتبلغ أوامر الله لخلقه ، وقد كان أول الأنبياءِ سيدنا آدم عليه السلام ، ثم مروراً بنوح وموسى وأنبياءِ بني إسرائيل ؛ داود وسليمان وزكريا ويحيى وغيرهم ، ثم عيسى ـ عبدالله ورسوله ـ ثم بخاتم الأنبياءِ والمرسلين سيد الخلق محمد بن عبد الله عليه وعلى أنبياءِ الله ورسله

أفضل الصلاة وأتم التسليم . وقد كان الذي حمله أنبياءُ الله ورسله جميعاً ديناً واحداً هو الإسلام ؛ فدين محمدﷺ إنما هو آخر حلقة من حلقات دين الله الذي هو الإسلام ، ويتحدث القرآن عن ذلك فيقول : (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ، وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُسْلِماً)[1] .

ويورد دعاء سيدنا يوسف عليه السلام مخاطباً ربه : (. . . أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)[2] . ودعاءُ إبراهيم وإسماعيل : (رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ)[3] . ووصية إمام الحنفاء إبراهيم خليل الله عليه السلام : (وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)[4] .

فالإسلام هو دين الأولين والآخرين من الأنبياء والرسل الكرام . ويوجه الله سبحانه المسلمين إلى ذلك فيقول لهم : (قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ – إلى قوله – وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)[5] .

قال ابن تيمية رحمه الله : والحقيقة – حقيقة الدين ، دين رب العالمين – هي ما اتفق عليها الأنبياءُ والمرسلون ، وأن لكل منهم شرعة ومنهاجاً ؛ فالشرعة هي الشريعة ؛ قال الله تعالى : (لِكُلٍّ جَعَلْنَا

(١) سورة آل عمران : ٦٧ . انظر الشفاء : جـ ١ ص ٤٨٩ .
(٢) سورة يوسف : ١٠١ .
(٣) سورة البقرة : ١٢٨ .
(٤) سورة البقرة : ١٣٢ .
(٥) سورة البقرة : ١٣٦ .

مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً)[1] . والمنهاج : هو الطريق . قال تعالى : (وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً)[2] .

فالشرعة بمنزلة الشريعة للنهر ، والمنهاج هو الطريق الذي سلك فيه ، والغاية المقصودة هي حقيقة الدين ؛ وهي عبادة الله وحده لا شريك له وهي حقيقة الإسلام ؛ وهي أن يستسلم العبد لله رب العالمين ، لا يستسلم لغيره ، فمن استسلم لغيره كان مشركاً ، والله (لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ)[3] . ومن لم يستسلم لله بل استكبر عن عبادته ، كان ممن قال الله فيه : (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)[4] . ودين الإسلام هو دين الأولين والآخرين من النبيين والمرسلين[5] .

جاء في شرح الطحاوية : ودين الله في الأرض والسماء واحد ؛ وهو دين الإسلام . قال تعالى : (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ)[6] . وقال تعالى : (وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً)[7] ، وهو بين الغلو والتقصير ، وبين التشبيه والتعطيل ، وبين الجبر والقدر ، وبين الأمن والإياس . وثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ دِينُنَا وَاحِدٌ »[8] ، ويأمر الله سبحانه رسوله

---

(١) سورة المائدة : ٤٨ .
(٢) سورة الجن : ١٦ – ١٧ .
(٣) سورة النساء : ٤٨ .
(٤) سورة غافر : ٦٠ .
(٥) انظر كتاب الفرقان : ص ٦٧ .
(٦) سورة آل عمران : ١٩ .
(٧) سورة المائدة : ٣ .
(٨) رواه أحمد – صحيح – راجع شرح الطحاوية : ص ٥٨٥ .

محمداً ﷺ فيقول له : (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)[1] .

وخاطب السحرةُ فرعون فقالوا له : (وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ)[2] .

ويخاطب نوح عليه السلام قومه فيقول لهم : (فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)[3].

وينقل القرآن عن أتباع عيسى بن مريم عليه السلام فيقول : (فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَىٰ اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)[4] .

وفي حديث القرآن عن إيمان قوم لوط يقول : (فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)[5] .

وهكذا نجد الإسلام دين جميع الأنبياء ؛ من لدن آدم عليه السلام حتى خاتمهم محمد ﷺ وهذا باعتراف الأنبياء السابقين وأقوامهم ، فكلهم أعلنوا أنهم مسلمون ، ودينهم هو الإسلام ، ووجدناهم يوصون أقوامهم باتباع الإسلام إذا أدركهم وهم على أديانهم ، وعيسى عليه

(١) سورة الأنعام : ١٦١ .
(٢) سورة الأعراف : ١٢٦ .
(٣) سورة آل عمران : ٥٢ .
(٤) سورة يونس : ٧٢ .
(٥) سورة الذاريات : ٣٦ .

السلام كان بالطبع من هؤلاء الذين دعوا أقوامهم إلى ذلك[1] .

ومما يجدر ذكره بأنه لا حجة بالمسلمين اليوم على الإسلام ، فغالبية المسلمين في جميع أنحاء الأرض على غير الإسلام ، بحيث لم يعملوا بنصوصه ولم يطبقوا تشريعاته ، ولذلك لم يتحقق فيهم ما جاء به القرآن من عزة المسلم وتفوقه ، بل هم كما قال فيهم المرحوم الشيخ محمد عبده في مطلع هذا القرن : مسلمون قولاً لا عملاً ، وأهل أوروبة مسلمون بالعمل لا بالقول . واتباع العمليات يسبب التفوق في الدنيا وإن كانت الأُمة أو الأُمم التي تفوقت لا يؤمنون بهذا الدين الذي جاء بتلك العمليات ، على حسب قاعدة الأسباب والمسببات التي جاء بها الدين[2] .

نخلص من هذا كله إلى القول : فمن آمن بنبي وكفر بآخر أو كذبه فليس بمؤمن ؛ لأن الدين وحدةٌ واحدةٌ والأديان والأنبياءُ يصدق بعضهم بعضاً ؛ فمن آمن بواحد من الأنبياء الكرام فقد آمن بجميع الأنبياء وإن لم يكذب أحداً منهم ، ومن كذب بواحد منهم فقد كذب بالجميع؛ وخرج من حظيرة الأديان كلها ، لأن التكذيب برسول يلزمه التكذيب بالبقية ، والتكذيب بهم تكذيب بالحقائق والصفات الإلٰهية التي جاء بها عن الله عز وجل : (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّه وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِه وَكُتُبِه وَرُسُلِه)[3] .

(١) مجلة التوحيد ، العـدد ١٠ لسنة ١٣٩٤ . هـ . القاهرة .

(٢) المصدر السابق .

(٣) سورة البقرة : ٢٨٥ .

فيجب على الدعاة إلى الله أن يفهموا هذه الحقائق ، ويعلنوها على الملأ ويسعوا جادين لإعادة مجد الإسلام كما كان ذات يوم ، وعندها يفرح المؤمنون بنصر الله .

المسلم من التزم بأحكام الشريعة

الإسلام لغة : الانقياد والخضوع ، أو الدخول في السلم – ضد الحرب –

ويقـــال في الشرع على ضربين :

أولهما : الاعتراف اللساني بالله وبرسوله ﷺ ... ألخ . وافق القلب اللسان أو خالف .

وثانيهما : التصديق بالقلب إلى التصديق باللسان مع الوفاء بالفعل والاستسلام لله في جميع ما قضى وقدر[1] .

والإسلام[2] بهذا المعنى شامل خضوع جميع المخلوقات له سبحانه ، كما يندرج تحته رسالات رسل الله صلوات الله عليهم وسلامه . يقول الله تعالى : (أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَـهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)[3] .

---

(١) القاموس المحيط ولسان العرب .

(٢) المسلم : اسم فاعل من أسلم بمعنى أذعن وانقاد لربه وخالقه سبحانه عز وجل ، وخالف الهـــوى وصدع لأمر الله وسنة نبيه ﷺ .

(٣) سورة آل عمران : ٨٣ .

فالإسلام هو الدستور الكامل ، والمنهج الرباني الذي استهدف إقامة حياة إنسانية رفيعة سامية ، يتحرر فيها العقل والضمير ، وتستغل فيها الإرادة والتفكير في ظلال العدل الإلٰهي ، بعيداً عن الجور وشوائب التقصير . يقول تعالى : (وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)[1] .

ويقول سبحانه عن نبيه يوسف عليه السلام : (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)[2] .

وقوله سبحانه : (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلٰكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)[3] ، فجميع شرائع الله عز وجل تلتقي في إخلاص العبادة لله ، والخضوع له والاستسلام لشرعه ، والالتزام بأمره ونهيه ، وإن تنوعت الشرائع وتعددت المناهج . كما ورد في الحديث الشريف: « نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عَلَّاتٍ دِينُنَا وَاحِدٌ » .

وهكذا يظهر جلياً أن أنبياء الله ورسله الكرام كانت دعواتهم واحدةً ؛ من حيث عبادة الله ، وإخلاصها لله الواحد القهار ، ومنافاتها للشرك بكل أشكاله وألوانه .

وبعد بعثة رسوله الخاتم ـ عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ـ أصبح

(١) سورة البقرة : ١٣٠ .
(٢) سورة يوسف : ١٠١ .
(٣) سورة آل عمران : ٦٧ .

الإسلام عَلَماً على شريعته ، وعنواناً لأهل ملته ومصدر سعادة للعاملين بهديه ، والمتمسكين بأحكامه وتعاليم نبيه ﷺ ، ولا يسع أحد من الجن والإنس الخروج عن دين الإسلام الذي بعث به رسوله الهادي لسائر الأنـــام .

وهذه بعض النصوص القرآنية أضعها بين يدي القارىء الكريم ليتخذها برهاناً وحجة ، ويستلهم منها العبرة ويقيم على الناس الحجة ، ويدحض شبهات الملحدين ودعوات المبطلين .

قال تعالى : (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ، فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِي ، وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ، فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)[1] .

ويقول سبحانه : (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)[2] ، ويقول سبحانه : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـــوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)[3] .

وقد فسر النبي ﷺ الإسلام في حديث جبريل المشهور بقوله : « الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ

(١) سورة آل عمران : ١٩ – ٢٠ .
(٢) سورة آل عمران : ٨٥ .
(٣) سورة آل عمران : ١٠٢ .

وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً »[1] .

وفسر عليه الصلاة والسلام الإيمان في حديث جبريل بقوله : « أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ » . والإسلام والإيمان لفظان إذا جمع بينهما في الذكر،عني بالإسلام الأعمال الظاهرة ، وبالإيمان الأعمال الباطنة ، كما في حديث جبريل هذا ، فإذا ذكر كل واحد منهما منفرداً عن الآخر عني به الأعمال الظاهرة والباطنة معاً .

وهكذا فالإسلام عقيدة وعمل ، دين ودولة ومنهج حياة في جميع المجالات .

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في تعريف الإسلا م بأنه الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك[2] .

ونحن نطمئن الحيارى والتائهين – إذا أرادوا لأنفسهم الطمأنينة وسعادة الدارين – عليهم الالتزام بالإسلام قولاً وعملاً واعتقاداً ؛ لأن المسلم هو من وُفِّقَ للدخول في الإسلام والنشأة عليه حتى يأتيه اليقين .

(١) حديث صحيح رواه مسلم ؛ أي الإيمان بالله وحده لا تشرك به شيئاً ، وأن تؤمن برسول الله ﷺ وتتبع سنته وتقف عند حدودهاولا تتجاوزها وتحارب من خالفها .

(٢) لزيادة الفائدة راجع كتابي مصرع الشرك والخرافة وكتاب فتح المجيد .

كيف يلتزم المسلم بالشرع

هذه الشريعة الكاملة الشاملة الخالدة ، التزام المسلم بأحكامها لازم لا بد منه ، ولا خيار للمسلم فيه ، وحاجة المسلم إلى السير طبقاً لتعاليم الشريعة الإسلامية فوق كل حاجة ، وضرورته إلى ذلك فوق كل ضرورة ليفوز برضى الله عز وجل وينجو من سخطه وأليم عقابه .

يقول الله عز من قائل : (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً)[1] . ويقول سبحانه : (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)[2] .

ويقول سبحانه : (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)[3] ، ويقول عز وجل : (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)[4] .

فالتزام المسلم بأحكام شرعه الحنيف ودينه القويم ، وتطبيقه قولاً وعملاً ، والرجوع إليه عند الخلاف والتنازع ، وتقديمه على غيره من الأقوال المخالفة والمصادمة لأحكامه ونصوصه ـ مهما ارتفعت المراتب والمنازل للمخالفين في كل زمان ومكان ـ فالتزام المسلم هو أساس فلاحه

(١) سورة الأحزاب : ٣٦ .
(٢) سورة الحشر : ٧ .
(٣) سورة النور : ٦٣ .
(٤) سورة النساء : ٦٥ .

وعنوان سعادته وسبب عزه ونصره على أعدائه ، ومصدر أمنه واستقراره ؛ ومتى كان حاله بعكس ذلك حصل له الخسران والهلاك والذل والهوان . وقد أقسم سبحانه بالعصر على خسارة كل إنسان : (إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)[1] .

كما أن كتاب الله - عز شأنه - وسنة رسوله ﷺ مليئان بالنصوص التي توضح هذه الحقيقة ، وما سجلته كتب السير والتواريخ من حصول العزة لمن أطاعه سبحانه وتعالى ، والذلة والإهانة والضراء لمن عصاه وتنكب تعاليم أنبيائه ورسله بصدق ذلك . والواقع المشاهد أصدق برهان . وصدق الله العظيم : (وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)[2] .

وقال تعالى : (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)[3] . وقال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)[4] . هكذا قال الله في حق من أطاعه واتقاه والتزم شرعه وهداه .

وهذه بعض النصوص القرآنية نضعها بين يدي القارئ الكريم لتبين مكانة ومنزلة المعرضين عن أمر الله ، الذين لم يلتزموا بشرعه وتعدوا حدوده واستبدلوا الأدنى بالذي هو خير . ولنتأمل ما يقوله سبحانه : (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ

(١) سورة العصر : ٣ .
(٢) سورة آل عمران : ١٠١ .
(٣) سورة العنكبوت : ٦٩ .
(٤) سورة محمد : ٧ .

الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ . قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً قَالَ كَذٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذٰلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ وَكَذٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ)[1] .

ويقول سبحانه : (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ)[2] .

ويقول الرسول ﷺ في الصحيح : « كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ أَبَىٰ » قيل : يا رسول الله ، ومن يأْبى ؟ !. فقال : « مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَىٰ »[3] . وقوله عليه الصلاة والسلام : « مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هٰذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ »[4] .

وقد حدثت صحائف التاريخ أخبار انتصار المسلمين الصادقين على أعدائهم وتغلبهم عليهم ليس لكثرة عددهم وعُددهم ، وإنما هو بسبب قوة إيمانهم وتمسكهم بكتاب ربهم وسنة نبيهم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، مع أخذهم بالأسباب التي أمرهم الله بها : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)[5] . فظفروا بنصر الله لأنهم نصروه ، وجاهدوا في سبيله لتكون كلمته العليا وكلمة أعدائه السفلى ، فكان لهم ما أرادوا نصراً في الدنيا وسعادة في الآخرة . وصدق الله إذ يقول : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)[6] .

---

(١) سورة طه : ١٢٤ – ١٢٧ .
(٢) سورة الزخرف : ٣٦ ، ٣٧ .
(٣) حديث صحيح رواه البخاري .
(٤) رواه البخاري ومسلم وابن ماجه . كشف الخفاء : ج ٢ – ص ٣١٠ .
(٥) سورة الأنفال : ٦٠ .
(٦) سورة محمد : ٧ .

وصدق هذه الحقيقة ظاهر لكل ذي عينين . وكمثال عصري نضربه شاهداً ودليلاً على انتصار المسلمين سابقاً ، كان بسبب التزامهم شريعة الإسلام التي اختارها الله لهم ، أما الآن فإنهم ينهزمون لزهدهم فيها وبعدهم عن الأخذ بتعاليمها . وشاهدنا الواضح على هذه الحقيقة هو هزيمة جيوش العرب أمام عصابات الصهاينة في فلسطين وغيرها ، وفي هذه الحرب تجلت هذه الحقيقة بوضوح ، ذلك أن العرب الذين أعزهم الله بالإسلام ، لما لم يلتزموا في هذا العصر – إلا من شاء الله له منهم – بشرع الله ، ولم يحكموا الوحي الذي نزل به جبريل من الله على رسوله محمدﷺ واختاروا لأنفسهم التحاكم إلى قوانين وضعية رخيصة مستوردة ما أنزل الله بها من سلطان ، لما لم يلتزموا بهذه الشريعة الكاملة الشاملة الصالحة لكل زمان ومكان ظفروا بالخذلان ، وصارت لهم الذلة أمام من كتب الله عليهم الذلة والمسكنة .

وأي ذل وهوان أشد من هذا الذل والهوان ، الذي آلت إليه أمتنا الممزقة المتصدعة . وسيسجل التاريخ ذلك للذين يأتون من بعد ، كما سجل ما جرى من خير وشر للذين مضوا من قبل . ولن يقوم للمسلمين قائمة إلا إذا رجعوا إلى الاعتصام بحبل الله ، والالتزام بشريعته وسنة نبيهﷺ وصدق الله العظيم : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)[1] .

(١) سورة الأنفال : ٢٩ .

وجوب الإيمان بكتب الله ورسله

أمر الإسلام الحنيف أتباعه بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله الكرام ؛ والإيمان برسل الله وكتبه من صلب عقيدة المسلمين ، ومن أركان الإيمان التي لا يكون المرءُ مسلماً إلا باعتقادها . وقد وردت بعض الآيات القرآنية التي توجب الإيمان بالكتب السماوية وبرسل الله وأنبيائه الكرام ، منها قوله تعالى : (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ)[1] .

وذكر القرآن من هذه الكتب التوراة المنزلة على نبي الله موسى ، والإنجيل المنزل على السيد المسيح عيسى عبد الله ورسوله ، والزبور وهو كتاب نبي الله داود ، وصحف إبراهيم عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم .

والقرآن يدعو إلى الإيمان بالرسل جميعاً . قال تعالى : (قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)[2] .

فالمسلم الحق هو من آمن بالله وكتبه ورسله ، الذين أرسلهم الله لتبليغ الناس دعوته ، فقاموا بما أُمروا به وكانوا بحق هداة ورحمة للعالمين .

---

(١) سورة البقرة : ٢٨٥ .

(٢) سورة البقرة : ١٣٦ .

فالقرآن مصدِّق لما سبقه من الكتب الإلٰهية ، ولما بقي من أجزائها الأصلية التي فيها الخير للإنسانية ، وتصحيح لما طرأ عليها من البدع والإضافات الغريبة الزائفة .

قال تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ : (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ، لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً)[1] .

ومعنى الآية : أنزلنا إليك أيها الرسول الكتاب ـ وهو القرآن ـ مصدقاً لما تقدمه من الكتب الإلٰهية ـ كالتوراة والإنجيل ـ ومهيمناً أي رقيباً عليها ، وشهيداً بما بيّنه من حقيقة أمرها ، فاحكم بين اليهود والنصارى بما أنزل إليك من الأحكام ، ولا تتبع أهواءهم ، فقد جعلنا لكل أمة شريعة أوجبنا عليهم إقامة أحكامها .

بعض مزايا القرآن الكريم

مر على البشرية حين من الدهر والأوامر الإلٰهية التي جاءت بها الكتب السماوية ما زالت بعيدة عن أيدي المشوهين ، ومصونة من عبث العابثين وفساد المفسدين ، ومع مرور الزمن اختلفت المشارب وتنكرت النفوس لما جاءت به رسالات السماء ، وامتدت إليها يد التحريف والتبديل ،

(١) سورة المائدة : ٤٨ .

وبلغت الاختلافات الدينية مبلغاً كبيراً ، كانت البشرية في خطر المروق من دين الله والاستسلام للوثنية والإلحاد ، وأصبح العالم في حاجة ماسة إلى وحي من الله يجنبه مواطن الضلال ويهديه إلى سواء السبيل .

وقد اختلف الناس في حقيقة الدين ومعرفة الخالق سبحانه ، فجاء القرآن يبين الحق من الباطل ويبين للناس ما أُشكل عليهم ؛ وفي هذا يقول الله تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ : (تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)[1] .

فالقرآن الكريم قد تضمن خلاصة تعاليم الكتب السابقة ، وفيه كلمة الله الأخيرة لهداية البشرية . وهو محفوظ من قبله سبحانه ؛ لا تمتد إليه يد العبث والتشويه . وفي حقه يقول سبحانه : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)[2] .

وهو الرسالة الخالدة الخاتمة السهلة الجامعة لكافة مصالح البشرية ، وحلول مشاكلها في كل زمان ومكان ، وصدق الله العظيم : (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)[3] .

---

(١) سورة النحل : ٦٣ – ٦٤ .

(٢) سورة الحجر : ٩ .

(٣) سورة فصلت : ٥٣ .

تحريف التوراة

إن الإيمان بالتوراة المقدسة ـ التي أنزلها الله تعالى على كليمه موسى عليه السلام ـ ركن من أركان الإيمان ، ولا يكمل إيمان المسلم إلا إذا اعتقد بها وبصاحبها الذي أُرسل بها . وقد أخبرنا الله سبحانه أن فيها نوراً وهدى ورحمة ، وأثنى عليها سبحانه بقوله : (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ)[1] .

ومع هذا فتوراة سيدنا موسى عليه السلام التي أُرسل بها غير موجودة ـ كما هو مسلّم من الجميع[2] ـ حيث لحق بها التزوير والتحريف والتشويه والإفساد ، فضاعت ولم يبق منها سوى الاسم فقط .

ومن جهة ثانية نجد الأُستاذ سعيد حوى يقول : إن الدراسات النقدية للتوراة لم تعترف بالصحة إلا لسفر واحد من أسفارها هو سفر (ارمياء) كما يذكر ـ مونيه ـ في تاريخ الكتاب المقدس . وليس الإنجيل بأسعد حالاً ، فقد ألغى مجمع أساقفة (نيقيه) كثيراً من أخباره ؛ مما زرع الشك حول ما تبقى منه ـ وهو الأناجيل . وهذه الأخيرة بدورها لا تعتبر الآن من الصحاح ، لأن النقد أثبت أنها قد وضعت بعد المسيح بأكثر من قرن ، أي بعد عصر الحواريين الذين تنسب إليهم التعاليم النصرانية، وعلى هذا فإن شكوكاً كثيرة تحوم الآن حول القيمة التاريخية للوثائق اليهودية والنصرانية[3] . أ . هـ .

(١) سورة الأنبياء : ٤٨ .
(٢) العقائد الإسلامية : ص ١٦٦ .
(٣) كتاب الرسول : ج ١ ـ ص ٦١ ، ٦٢ .

فالتوراة المتداولة الآن قام بكتابتها أكثر من كاتب ، وفي أزمان مختلفة ؛ علاوة على ما دخلها من التحريف والتزييف .

يقول المرحوم الأُستاذ محمد فريد وجدي : ومن أدلة التحريف الحسية أن التوراة المتداولة لدى النصارى تخالف التوراة المتداولة عند اليهود .أ . هـ[1] .

وقد أثبت القرآن هذا التحريف ، ونعى على اليهود التغيير والتبديل الذي أدخلوه على التوراة . يقول سبحانه : (أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ، ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)[2] .

فهم تجرؤوا على كتاب الله ؛ فحرفوه وشوهوه ليخفوا ما فيه من الحق ؛ ونسوا قدراً مما ذكرهم الله به في التوراة ، وهذه جبلتهم التي جبلوا عليها ؛ وهي الغش والمخادعة والتضليل ، فالذي عندهم من التوراة الصحيحة هو بعضها فقط ، والقرآن يكشف ذلك فيقول : (وَمِنَ الَّذِينَ هادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ)[3] .

وأول دليل على حجة نقد القرآن للتوراة المتداولة ، وأنها ليست كلها هي توراة موسى عليه السلام ، التي جعلها الله نوراً وهدى ، ما جاء في التوراة من وصف الله بما لا يليق بجلاله وكماله ؛ ففي سفر التكوين : وقال الرب الإله : هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا ؛ عارف بالخير والشر .

(١) راجع العقائد الإسلامية : ص ١٦٦ . (٢) سورة البقرة : ٧٥ .
(٣) سورة النساء : ٤٦ .

وفيه : فحزن الرب أنه عمل الإنسان وتأسف في قلبه[1] .

فهل يقبل العاقل أن يكون هذا كلام رب العالمين ؟ ! . وهل يصح أن ينسب إليه الحزن والأسف على شيء عمله ؟ ! . تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

والقرآن الكريم يتحدى حملة التوراة وأتباعها في مواقف عديدة ، على أن يأتوا بالتوراة ليثبتوا ما يدعونه ، يذكر القرآن خلافه ؛ ومنها قوله سبحانه وتعالى : (كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)[2] .

وكذلك ما جاء في التوراة مما يمس شرف الأنبياء ، ويتنافى مع ما لهم من عصمة ومكانة رفيعة وخلق متين . فقالوا عن إبراهيم عليه السلام : إنه كذاب . وإن لوطاً زنى بابنتيه ، وهارون عليه السلام دعا الإسرائيليين إلى عبادة العجل . وسليمان عليه السلام عبد الأصنام إرضاءً لزوجته[3] .

فهل ثمة دليل على التحريف أقوى من هذا ؟ . لقد اضطر النقاد من مصلحي اليهود أنفسهم إلى الاعتراف بهذه الحقيقة ، وأن التوراة قد حرفت ، وقد أورد مذهبهم حاخام باريز ـ جوليان ويل ـ في كتابه اليهودية : ص ٢ .

(١) العقائد الإسلامية : ص ١٦٧ . وكتاب الرسول : ج٢ ص ٦٢ .
(٢) سورة آل عمران : ٩٣ .
(٣) راجع العقائد الإسلامية : ص ١٦٧ .

وعلى العموم فالكتب السماوية ومن ضمنها التوراة قد لحق بها التحريف والتبديل ، فحصل انحراف ضخم نتيجة هذا التخبط والضياع ، وطال أمده إلى أن قضت إرادة الله وكلمته خلاصاً للبشرية لنهوضها من كبوتها وإعادتها إلى سيرتها الأُولى ، فأنزل سبحانه القرآن على خاتم أنبيائه ؛ سيدنا محمد ﷺ .

وقد جاء القرآن منذراً وموبخاً ومطالباً بالعودة إلى رحاب الله ، واتباع طريقه المستقيم . وفي هذا يقول القرآن : (إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)[1] . وقوله سبحانه : (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[2] .

تحريف الإنجيل

إن من أركان الإيمان وجوب الإيمان بالسيد المسيح عيسى ـ عبدالله ورسوله عليه السلام ـ وأنه مبعوث من قبل الله ، وأُنزل عليه الإنجيل ، شأنه كشأن سائر الأنبياء والرسل ، عليهم وعلى رسولنا أفضل الصلاة والسلام.

فالإنجيل المنزل على روح الله عيسى بن مريم عليه السلام هو كلام الله ، كما أن التوراة التي نزلت على كليم الله موسى عليه السلام

(١) سورة النمل : ٧٦ .
(٢) سورة المائدة : ١٩ .

هي أيضاً كلام الله عز وجل ، وفيهما الحكمة والنور والهدى ، إلا أن الإنجيل لم يكن أسعد حظاً من التوراة ، فقد لحقه من التبديل وشابه من التشويه ما لحق التوراة من التحريف والتبديل .

ولنلاحظ ما يقوله القرآن : (وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)[1] .

لقد ألغى مجمع أساقفة نيقيه كثيراً من أخبار الإنجيل ، مما زرع الشك حول ما تبقى منه ـ وهو الأناجيل الأخيرة ـ وهي بدورها لا تعتبر الآن من الصحاح ؛ لأن النقد أثبت أنها قد وضعت بعد المسيح عليه السلام بأكثر من قرن ، أي بعد عصر الحواريين الذين تنسب إليهم التعاليم النصرانية[2] ، وهذا يزيد من الشبهات والشكوك حول قيمة الوثائق اليهودية والنصرانية تاريخياً[3] .

إن إنجيلاً واحداً نطق به المسيح عيسى بن مريم عليه السلام على أنه كلمة الله ، فلِمَ يكون الإنجيل أربعة ؟ ! . ولم كان بينها اختلاف وتعارض وزيادة ونقص ؟ ! .

ولقد طعن أرميا في سفره المذكور ـ أقلام النساخ الكاذبة ـ[4] .

---

(١) سورة المائدة : ١٤ ، ١٥ .

(٢) كتاب الرسول محمد ﷺ : ج ٢ ص ٦١ ـ ٦٢ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) العقائد الإسلامية : ص ٦٨ .

ويكفي لصحة التدليل على التحريف في الأناجيل المتداولة بأيدي النصارى الآن أنها أربعة ، اختيرت من نحو سبعين إنجيلاً ، وهذه الأناجيل تناولت الكتابة عن سيرة سيدنا عيسى عليه السلام ، ومؤلفوها معروفون وأسماؤهم مكتوبة عليها ، وقد قرر نقاد النصرانية أنفسهم أن عقائد الأناجيل هي رأي بولس دون سائر الحواريين ، ودون أقرب الأقربين إلى عيسى عليه السلام[1] .

ومن الدلائل القاطعة على صحة تزوير وتحريف الإنجيل وغيره من الكتب السماوية ـ علاوة على أقوال النقاد والمنصفين ـ ما يقصه علينا القرآن الكريم الذي يقول : (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ . فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هٰذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ، فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ)[2] .

ويقول إنجيل متى ـ الباب التاسع عشر ـ ١٦ :

وإذا واحد تقـــدم وقال : أيها المعلم الصالح ، أي صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية ؟ . فقال له : لماذا تدعوني صالحاً ؟ ! . ليس أحد صالحاً إلا أحد ، وهو الله[3] .

وهذا نص صريح في الإنجيل الحالي يثبت أن دعوة سيدنا عيسى

(١) العقـائد الإسلامية : ص ١٦٨ . وروح الدين الإسلامي : ص ١٤٥ .

(٢) سورة البقرة : ٧٨ ـ ٧٩ .

(٣) كتاب الرسول : جـ ٢ ـ ص ٦٣ .

كانت توحيدية وأنه رسول الله ، ثم كان الانحراف وأتى القرآن ليصحح الانحراف .

يقول القرآن : (وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ)[1] .

وقد وجد في مكتبة أمير من الأمراء في باريس نسخة من إنجيل برنابا ـ وقد طبعته مطبعة المنار بعد ترجمته إلى العربية ـ وهو يخالف الأناجيل الأربعة[2] المعروفة مخالفة كبيرة[3] .

الاختلاف في الدين

إن نظرة سريعة لأدوار التاريخ ترينا ما آل إليه حال المجتمع الإنساني من اختلاف وتفرق ، وكان مرد ذلك إلى الاختلاف في الدين ، وكثيراً ما وقع الاختلاف بين الجماعات المتباينة في مشاربها ومذاهبها المختلفة ، وكانت كل جماعة من هذه الجماعات تثور على مخالفيها في العقيدة والدين .

وقد نشأ من جراء ذلك مذابح وحشية وفتن مروعة تقشعر لها الأبدان ،

(١) سورة المائدة : ٤٦ .

(٢) لقد كثرت الأناجيل كثرة عجيبة بعد السيد المسيح ، وأجمع على ذلك مؤرخو النصرانية ، ثم أرادت الكنيسة في أوائل القرن الأول الميلادى أن تختار الأناجيل المعتبرة ، فوقع اختيارها على الأربعة التالية : إنجيل متى ، وإنجيل مرقص ، وإنجيل لوقا ، وإنجيل يوحنا .

(٣) العقائد الإسلامية : ص ١٦٨ .

وبالتالي فقد كان لها الأثر الأكبر في تشويه معالم الحياة وتعطيل سيرها .

لقد كان الضلال والبغي على الدين - عبر العصور المتعاقبة - من الأسباب الهامة للاختلاف فيه ؛ حيث انشق الناس على بعضهم ، وتمزقت وحدتهم وأصبحت كل طائفة تدعي أنها على الحق وغيرها على الباطل ، فاتسع الخرق وتداعت كل طائفة لدعم موقفها وتعزيزه بما يتفق وأهواءها حتى وصل الأمر إلى التحريف والتزوير في جانب العقيدة وأصول الدين ، لتحقيق المصالح الشخصية والوصول إلى الرياسة وكل ما يتعلق بحظوظ الدنيا .

وكانت رسالة الإسلام التي أنزلت على خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله ﷺ لإظهار هذه الحقيقة ، والتي فيها دعوة الناس جميعاً ليجتمعوا على الدين الإسلامي . وفي هذا يقول سبحانه وتعالى : (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ . فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)[1] .

ولذا كان الدين واحداً لا يجوز الاختلاف فيه ، فهذا الخلاف الذي حصل من أتباع الأديان اليهودية والنصرانية والإسلامية ، وافتراق كل طائفة إلى فرق ، وحصول العداوة بينهم ، هو مخالف لتعاليم الله ،

(١) سورة آل عمران : ١٩ ، ٢٠ . الأميين : الذين لا كتاب لهم وهم مشركو العرب .

الذي ما أنزل الأديان إلاَّ لتكون سلاماً على الأرض ، ومحبة بين الأفراد والأمم . ولهذا كانت رسالة محمد ﷺ التوفيق بين المتخالفين ببيان الحق الذي حادوا عنه ، وكان القرآن محذراً أتباعه من الاختلاف ، ولهذا يقول القرآن الكريم مخاطباً أتباع رسول الله ﷺ : (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ[1] ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ وَمَا تَفَرَّقُوا[2] إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمَ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ)[3] .

هذه حقيقة أعلنها القرآن ، وهي تدحض شبهات الماديين والملحدين وأصحاب الأهواء والنحل ، الذين ينكرون الأديان بسبب اختلافها في تشريعها . فادعاؤهم بأن كل نبي يأتي من عنده بدين يناقض سابقيه . قول فاسد مردود ولا يمت إلى حقيقة الأديان بصلة ، فالدين واحد في أصوله – في نظر القرآن – ولكن تختلف الأديان في تشريعاتها لاختلاف أحوال الأمم الاجتماعية ودرجة استعدادها العقلي .

ولقد اختتم الله سبحانه الأديان بالدين الإسلامي وهو مسك الختام .

---

(١) أقيموا الدين : إقامة الشيء توفيته حقه من علم وعمل . والدين المراد هو الإسلام .
ولا تتفرقوا فيه : تحذير للمسلمين من الاختلاف والتفرق .

(٢) تفرقوا : يعني اليهود والنصارى .

(٣) سورة الشورى : ١٣ – ١٤ .

وأعطى الله سبحانه خيرة خلقه من رسله محمداً ﷺ شريعة خاتمة نسخت ما قبلها من الشرائع ، مظهراً في الإسلام كنه الدين الحق .

وهذه الشريعة توافق ما اقتضاه التطور العقلي للإنسان ، وتصلح لكل زمان ومكان . وأنها هي الشريعة المقبولة عند الله لا يقبل غيرها[1] . كما صرح بذلك القرآن : (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)[2] .

أسباب انحراف الناس عن الحق

خلق الله الخلق وأهّلهم بمؤهلات ، وزودهم بقوى فطرية متباينة لحكمة بالغة وأمر حكيم . كما هيأ الإنسان وزوده بقدرات فطرية قدرها بقدرته العلية ؛ فطرة الله التي فطر الناس عليها ، فاطر السموات والأرض ومبدعها ، سنة الله : (فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً)[3] .

فالحق تبارك وتعالى خلق عباده على الفطرة التي فطرهم عليها ، وبعث إليهم رسله ، وأنزل عليهم كتبه ، فصلاح العباد وقوامهم بالفطرة المكملة بالشرعة المنزلة .

وهؤلاء الذين تنكروا للفطرة الإلٰهية وانساقوا وراء الهوى والشهوات ، بدلوا وغيروا فطرة الله ولم يستعملوا حواسهم ، وتمردوا على شرع الله

(١) راجع روح الدين الإسلامي : ص ٢١ .
(٢) سورة آل عمران : ٨٥ .
(٣) سورة فاطر : ٤٣ .

ولم يحتكموا للنفس الملهمة بأمر الله : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)[1] .

وهكذا فطر الله الناس على الفطرة السليمة الدالة عليه سبحانه ، كما أن إبداع الله للأكوان وعظيم آياته تدل على وحدانيته وكمال صفاته ، وتنزهه عن كل نقص في صفاته العلية .

إن ما يلقيه الله من إلهام ، وما يفيضه من رحمة وحنان على عباده ، وبيان لطريق الصواب على صفحات القلوب والوجدان ، يجعل بين الخلائق وخالقهم صلة دائمة لا تنقطع : (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)[2] .

وفي كل العصور لم يستطع أحد إنكار وجود الله العلي العظيم إلا جحوداً وكفراً ، إذ لو اجتمع أهل الأرض والسماء ، وكان بعضهم لبعض ظهيراً ، ما استطاعوا تصوير شبهة تحجب دلائل وحدانيته وتفرده وتدبره ، لما شوهد من قدرته وعظمته وبديع صنعه[3] .

أما الذين أبوا دعوة الله ، ولم يرتضوها منهاجاً لهم ، ولم يقبلوا هدى الله الذي بعث به رسوله ﷺ ولم يرفعوا به رؤوسهم ، فهؤلاء هم الأشقياء الذين تمردوا على خالقهم والتجؤوا إلى الطاغوت ، واستسلموا للهوى فما ربحت تجارتهم فكانوا من الخاسرين .

(١) سورة الشمس : ٩ ــ ١٠ . (٢) سورة البقرة : ١٨٦ .
(٣) انظر كتابنا : مصرع الشرك والخرافة : ص ٨٠ ــ ٨٣ .

إن هذا الصنف المعاند المكابر المنحرف ، قد فسدت طويته وخابت مقاصده ، ولم يجن إلا البوار وسوء عقبى الدار ؛ إنه صنف الأشقياء الذين يقول الله عنهم سبحانه : (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً)[1] .

وصفوة القول : فقد تفرعت عن الظلم والضلال والبغي أسباب الكفر والانحراف والتفرق ؛ فعبد قوم الشمس والقمر والنجوم والأوثان وغيرها من الطواغيت ، بعد أن جحدوا وكفروا بالله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم وسول لهم أن يرغموا غيرهم على هذه العبادة ، ليضلوا عن سواء السبيل وليكونوا شركاء ، فكانوا أئمة الكفر والضلال ، عناداً وكبراً وعتواً . (وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَالَنَا مِنْ مَحِيصٍ)[2] .

وقال تعالى : (يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً)[3] .

وكان هؤلاء الطغاة في الأرض بعد كفرهم سبب كل مصائب البشر ، وسبب ضلال كثير من الناس بعد الهدى وكفرهم بعد الإيمان ، فانطمست

(١) سورة الجمعة : ٥ .
(٢) سورة ابراهيم : ٢١ .
(٣) سورة الفرقان : ١٧ – ١٨ .

العقول وعميت البصائر ، فدخل خلق كثير في تبعيتهم ، وصموا آذانهم عن نداء الحق ودعوة الرسل ، وعطلوا عقولهم فهم في غفلة معرضون ؛ لأنهم وجدوا في الكفر خروجاً عن ربقة التكاليف ، وهدماً لصرح العدل الذي كرهوه ، وتجرؤوا على الحقوق تكبراً وتجبراً اتباعاً للهوى والشهوات .

هذا ولم يكن ذلك خاصاً بزمن دون زمن ، فكم أضل البغي والظلم والكبر والهوى قوماً بعد إيمانهم من أتباع المرسلين ؛ فغيروا الأحكام طبقاً لمشتهاهم ، واشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً ، يبدلونها تبديلاً ، فكفروا بعد إيمانهم وضلوا وأضلوا كثيراً .

بعض أسباب الكفر والانحراف

وإلى القارىء الكريم أهم أسباب الضلال والكفر والانحراف موجزة كما يلي :

أولاً : الغرور بالدنيا وشغف الناس بالشهوات ، فيلهيهم الأمل عن اتباع الواجب والعدل في الأمور ، فيتأخرون في البغي والظلم والتمتع بحق وبغير حق ، ويكفرون بعد الإيمان استحباباً في كل متاع عاجل ويأساً من كل خير موعود[1] .

قال سبحانه : (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ

(١) جريدة منبر الشرق سنة ١٩٤٥ .

وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)[1] .

وهؤلاء الذين استهوتهم الشهوات كالأنعام بل هم أضل ، يرتعون في المنكر ما شاء لهم الهوى ، وهم عاجزون عن القيام بالقسط لانعدام إنسانيتهم ، لا يستحيون من الله ولا يستحيون من الناس ، يحرمون الناس حقوقهم ؛ يسلبونها سلباً لا يرعون فيهم إلاً ولا ذمة ، وكذلك فهم يهزؤون من الحق ، ويعتبرون التمسك به ضعفاً وعجزاً عن بلوغ المعالي والرغبات .

ثانياً : استخفاف الطغاة بشعوبهم واستبدادهم بهم ، أو إغراؤهم لهم بالمال والجاه حتى يعبدوهم من دون الله استخفافاً بعقولهم ، ويزينون لهم ذلك حتى يألفوا عبادتهم ، فلا يخرجون من طاعتهم وطاعة ذراريهم لأبنائهم ، وهذا مشاهد لدى أبناء المشرق الإسلامي في هذه الأيام ، وقد أخبر سبحانه عن فرعون وقومه إذ قال جل شأنه : (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ)[2] .

وقال سبحانه : (وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ)[3] . ولم تنفع فيهم الآيات البينات ولا النذر ، حتى أخذهم الله بذنوبهم أخذ عزيز مقتدر .

وفي بطون التاريخ وصفحاته أمثال فرعون ؛ ممن خلعوا على أنفسهم ثوب الألوهية ، وغرتهم الحياة الدنيا وغرهم بالله الغرور .

(١) سورة آل عمران : ١٤ .
(٢) سورة الزخرف : ٥٤ .
(٣) سورة طـه : ٧٩ .

ثالثاً : طبع كثير من الناس على التقليد الممقوت ؛ يقلدون الغالب ويقلدون قومهم وآباءهم ـ كما هو واضح في هذا العصر ؛ حيث يتسابق دعاة التفرنج بتقليد الغرب الكافر في كل تفاهاته ، حتى انخلعوامن كل فضائل دينه وتقاليده الرفيعة ـ وهكذا تطبع العقائد والعادات في نفوس المقلدين بلا بحث ولا تعقل ، ويتعصبون لما هم عليه من ضلال وإفك ، ويصمون آذانهم عن دعوة الحق ، بل يقولون : في آذاننا وقر . وقلوبنا غلف : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ)[1] .

وهكذا يشوِّشون على غيرهم بعنادهم وأباطيلهم ، يلتمسون أوهى الأدلة ، ويدللون على أن النور ظلام والظلام نور ، ويعقدون السهل ويدخلونه بتأويلات ساقطة ، تعيد إلى الأذهان تأويلات بعض سخفاء أساطين الصوفية البلهاء ومبتدعة العصور ، وهي في مجموعها خرافات وأباطيل ما أنزل الله بها من سلطان ، والله سبحانه يقول في شأنهم وشأن كل من يقف في وجه دعوة الحق ، ويمجد عفن الآباء وخرافات الشيوخ الماضين : (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ)[2] .

رابعاً : التعصب والغلو في الدين ، امتناعاً عن إعطاء الحق لأهله وتكبراً . حتى لا يكونوا تابعين بعد أن كانوا متبوعين ، وحباً في

(١) سورة البقرة : ١٧٠ .
(٢) سورة الملك : : ١١ ، ١٢ .

الزعامة وتبعاً للأهواء والمنافع الشخصية ، فيحاربون الرسل وأهل الحق والإصلاح ؛ يكذبونهم تارة وتارة يبخسونهم ويحقرونهم ؛ بالتغالي في رفع أقدار السابقين إلى مقام الألوهية ، ويكرمون زعماءهم وشيوخهم وقادتهم وأولي الرأي في نحلتهم أو حزبهم[1] ، مما يوقعهم في الشرك ، ولا يخافون ربهم فيحرفون الكلم عن مواضعه ، ويلبسون الحق بالباطل حتى يغيب الحق عن أبصار المبصرين .

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ)[2] .

ومن هؤلاء الأصناف والطوائف[3] من غيروا في الكتب المنزلة وحرفوا ؛ ليشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً ، ومنهم من وقف في سبيل الرسل ودعاة الخير والإصلاح يكذبونهم بغير الحق ظلماً وبغياً ؛ حتى تبقى لهم الزعامة والكبرياء والمنزلة بين الناس في الأرض : (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ ، فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)[4] . مع أنهم لم يطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون .

(١) وهذا ما كنت ألمسه من أمثالهم – الضالين المضلين – عند التعرض لبعض المسائل الدينية فقهاً أو عقيدة ، وذلك أثناء إلقاء الدروس في المساجد أو الحوار والمناقشة ، وخاصة في مدينة الزرقاء بالأردن ومحافظة خليل الرحمن – الخليل – في فلسطين .

(٢) سورة المائدة : ٧٧ .

(٣) ومن أمثال هؤلاء المغالين ، المبتدعة وبعض أتباع الصوفية ودعاة الضلال ، والمتعصبة للتقاليد الفاسدة ، وأفراد الأحزاب وأتباع النحل والتجمعات المختلفة ، وهذا واضح في عصرنا ولا يخفى على عاقل .

(٤) سورة البقرة : ١٦ .

خامساً : رأى كثير من الملوك والسياسيين أن المبادئ السياسية والاقتصادية والاجتماعية لا تصلح أساساً ثابتاً لتملك زعامة الشعوب ، وتثبيت سلطانهم وقضاء مآربهم ، لأن أتباع هذه المبادئ أبعد الناس عن الثبات عليها لمدد طويلة ، وأقلهم تضحية من أجلها ، فهم كثيرو التحول من مبدأ لآخر ، تبعاً للمنافع والأغراض والشهوات ، وتبعاً للغالب الذي يرهب جانبه ، ويؤمل في مؤازرته الأمن والفوز والرخاءُ بلا غضاضة على نفوسهم .

ورأوا أتباع الأديان أسلس قياداً منهم ، متفانين في مبادئهم الدينية ، يضحون في سبيلها بكل مرتخص وغال ، يصعب تحويلهم عنها ، يطيعون زعماءهم طاعة تقديس عمياء .

وهكذا وجد الساسة المنحرفون في الدين الأسلحة الناجعة لمحاربة الخصوم ؛ يستنفرون به الناس على أعدائهم ، فجعلوا من أنفسهم حراساً على العقائد حتى ولو لم يعتنقوها[1] .

ولما كانت العقائد الصحيحة حقاً مشاعاً للبشر ، ولكل شريعة حراس من أهلها المصلحين ، لجأ السياسيون إلى الحيل وأستهواء بعضهم بالمال والجاه ليؤيدوا بهم سلطانهم ، فإن لم يطاوعوهم ولم يجدوا فيهم مأرباً ، سلطوا عليهم المرتزقة من الكتاب وأصحاب الذمم المنحرفة والأقلام المأجورة ، لتحقير شأنهم وإثارة الجدل والشبهات في العقائد وإكراههم على ما يريدون ، وهكذا تدب الخلافات وتظهر الفتن . وهذه

(١) انظر كتاب : الإيمان والروح : ص ٥٥ ــ ٥٧ . بتصرف .

أمور مشاهدة ومحسوسة في الزمان لدى المتسلطين على رقاب الشعوب ، ومصاصي الدماء من الحكام والزعماء المرتزقة الذين يتاجرون بكراسيهم وهي مثلهم العليا .

وهـكذا تشيع أهل الدين الواحد وصاروا فرقاً وأحزاباً مختلفة . وصدق الله العظيم : (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَىٰ اللهِ ، ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)[1] .

وقد يعمد بعض الساسة والمتنفذين ـ عند اشتداد العناد ـ إلى تغيير الدين والتجديد فيه ـ إما في أُصوله أو فروعه ـ ليأْتوا بعقيدة جديدة تخالف عقائد الآخرين ، لِيُلقِّحُوا أذهان الجماهير والعامة ويرهفوا إحساسهم بالجديد ، ولا يرهبون في بعض الأَحيان من وضع دين جديد يختصون بالدفاع عنه ، ويكون سلاحاً قوياً في أيديهم ، وهذا هو حال دعاة الضلال والابتداع ؛ كالدعوة البهائية والقاديانية ـ الساقطتين ـ وكذلك فرقة الآغاخانية والبهرة والدرزية وغيرها من دعوات الباطل .

ومع ذلك فإن هذه العقائد والأَديان المصطنعة لن تقوى على البقاء وسط العقائد الصحيحة ، إلا بالملاحدة والفلاسفة الضالين والكتاب المأْجورين والشعـراء المتكسبين والشيوخ المشعوذين وبيـان ذلـك في مقـالات رنانة ودلائل مزيفـة منهـارة . والله جـل شأْنه يقول : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَلَا هُدىً وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ

(١) سورة الأنعـام : ١٥٩ .

ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ)[1] .

ومن هؤلاء السياسيين ذاقت الأُمم والأَديان في كل العصور هواناً وقهراً ، ولعبت بها الأَهواءُ ؛ فأَفسدوا على الناس عقائدهم ، وعرضوا للعناءِ حياتهم وقل أَمنهم ، وتعرضوا لسخط رب العالمين . أُولئك الذين يقول الله في شأْنهم : (الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ)[2] .

سادساً : فئة أَخفقت ولم تفلح في حياتها ، وحسدت من نجح وحمل راية الحق والكرامة واستظل بها ، وهكذا اتخذت سبيل المخالفة في الرأْي والعقيدة سبيلاً لإثبات وجودها بين الشخصيات البارزة والأَعلام المرموقة.

وهذه هي التي ينطبق عليها المثل : خَالِفْ تُعْرَفْ . من أَمثال علماءِ السوءِ المتفيهقين والفلاسفة المغرضين ، الذين يزينون دعواهم المخترعة بالأَلفاظ الخلابة وزائف المنطق ، ليستهووا بذلك العقول الضعيفة ، مع أَنهم في قرارة أَنفسهم يعتقدون أَنهم كاذبون وأَنهم على الحق مجترئون .

إن الجهل بالحق والخوف من الأَصحاب والعشيرة والقوم ، وأُلفة

(١) سورة الحـج : ٨ ، ٩ .

(٢) سورة الأَعراف : ٥١ . راجع كتاب الإيمان والروح : ص ٥٨ ، ٥٩ . للشيخ أحمد عبد المنعم الحلواني .

المرء لمرباه وتقاليد وعادات الآباء والشيوخ والزعماء المعظمين من دون الله ، لهي من الأسباب الرئيسية لانحراف الناس عن الحق وضلالهم . وصدق الله العظيم :

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ)[1] .

الابتداع

مقدمة في تعريف السنة والبدعة

معنى السنة لغة وشرعًا :

قال الأزهري : السنة ؛ الطريقة المحمودة المستقيمة[2] .

وقيل : معنى السنة ؛ الوجه أو دائرته ، أو الصورة أو الجهة ، أو السيرة والطبيعة[3] ومعنى السنة عند علماء الأصول : هي ما صدر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير[4] . ويعرفها علماء الحديث بأنها : ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير ، أو صفة خلقية أو خلْقيّة ، وما يتصل بالرسالة من أحواله الشريفة قبل البعثة ونحو ذلك[5] .

(١) سورة الأنعام : ١١٦ .
(٢) لسان العرب : جزء ١٧ – ص ٦٠ .
(٣) القاموس المحيط ولسان العرب .
(٤) فواتح الرحموت : ج ٢ – ص ٩٧ .
(٥) الحديث والمحدثون : ص ١٠ .

أما البدعة ؛ فمعناها ـ كما عرفها الإمام الشاطبي ـ بأنها : طريقة في الدين مخترعة ، تضاهي الشرعية ، ويقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله تعالى[1] .

وأصل مادة بدع : للاختراع على غير مثال سابق . ومنه قوله تعالى : (بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ)[2] . أي مخترعها من غير مثال سابق[3] .

وقوله تعالى : (قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ)[4] .

جاء في القاموس : البدعة ؛ الحدث في الدين بعد الإكمال . أو : ما استحدث بعد الإكمال . أو ما استحدث بعد النبي عليه الصلاة والسلام من الأقوال والأعمال .

قال الشيخ محمد بخيت في رسالته عن البدعة: إن البدعة الشرعية هي التي تكون ضلالة ومذمومة . وأما البدعة التي قسمها العلماء إلى واجب وحرام إلخ. فهي البدعة اللغوية ؛ وهي أعم من الشرعية لأن الشرعية قسم منها[5] .

ويقول ابن حجر العسقلاني : البدعة أصلها ما أحدث على غير مثال سابق ، وتطلق في الشرع في مقابل السنة فتكون مذمومة[6] .

---

(١) الاعتصام : ج ١ ـ ص ١٢٧ .
(٢) سورة البقرة : ١١٧ .
(٣) الاعتصام ج ١ .
(٤) سورة الأحقاف : ٩ .
(٥) الفتاوى الحديثية : ص ٢٠٥ ـ لابن الحجر الهيثمي .
(٦) فتح الباري : جزء ٥ ـ ص ١٥٦ للعسقلاني .

التحذير من البدع

وقد حذر النبي ﷺ وأصحابه ومن بعدهم أهل زمانهم من البدع ومحدثات الأمور ، وأمروهم بالاتباع الذي فيه النجاة من كل محظور .

وجاء في كتاب الله تعالى من الأمر بالاتباع بما لا يرتفع معه الترك وفي هذا يقول سبحانه : (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)[1] .

وقال تعالى : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)[2] .

وقال عز وجل : (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً)[3] .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال : « مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ »[4] . وفي رواية : « يَهْتَدُونَ بِهَدْيِهِ وَيَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِهِ ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَٰلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ » .

---

(١) سورة الأنعام : ١٥٣ .
(٢) آل عمران : ٣١ .
(٣) سورة النساء : ٥٩ .
(٤) رواه مسلم .

وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يقول في خطبته : « خَيْرُ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ ، وَخَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ » .

وفي سنن أبي داود عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما : « كُلُّ عِبَادَةٍ لَا يَتَعَبَّدُهَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَلَا تَعَبَّدُوهَا ، فَإِنَّ الْأَوَّلَ لَمْ يَدَعْ لِلْآخِرِ مَقَالاً فَاتَّقُوا اللهَ يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ وَخُذُوا طَرِيقَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ »[1] . وعن الحسن رحمه الله قال : قال رسول الله ﷺ : « عَمَلٌ قَلِيلٌ فِي سُنَّةٍ خَيْرٌ مِنْ عَمَلٍ كَثِيرٍ فِي بِدْعَةٍ »[2] .

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : « مَا بَالُ رِجَالٍ بَلَغَهُمْ عَنِّي أَمْرٌ تَرَخَّصْتُ فِيهِ فَكَرِهُوهُ وَتَنَزَّهُوا عَنْهُ فَوَاللهِ لَأَنَا أَعْلَمُ بِاللهِ وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً » . وقال عليه الصلاة والسلام : « مَنْ أَحْيَا سُنَّةً مِنْ سُنَنِي قَدْ أُمِيتَتْ بَعْدِي كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقِصَ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا ، وَمَنِ ابْتَدَعَ بِدْعَةً ضَلَالَةً لَا يَرْضَاهَا اللهُ وَلَا رَسُولُهُ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ عَمِلَ بِهَا لَا يُنْقِصُ ذَلِكَ مِنْ أَوْزَارِ النَّاسِ شَيْئًا »[3] .

ونختم القول في هذا المجال بهذا الحديث الجامع الذي يشتمل على رد

---

(١) انظر الباعث على إنكار البدع : ص ١٦ .

(٢) انظر المصدر السابق : ص ١٦ .

(٣) أخرجه ابن ماجه والترمذي وقال : هذا حديث حسن .

كل محدث في الدين ، ويعطي الميزان الصحيح لتمييز ما هو من الدين مما ليس من الدين ؛ قال ﷺ : « مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هٰذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ » . وفي رواية : « مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ »[1] . وفي كلتا الروايتين ما يبين أن من عمل بالبدعة كمن ابتدعها ؛ في الخروج عن الدين ، وإن تفاوتا في قيمة الوزر .

وفيما يلي بعض آثار السلف الصالح :

١ ـ فعن ابن مسعود قال : الاقتصاد في السنة أحسن من الاجتهاد في البدع[2] . وعنه أيضاً أنه قال : « اتَّبِعُوا وَلَا تَبْتَدِعُوا فَقَدْ كُفِيتُمْ »[3]

٢ ـ وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « مَا أَتَىٰ عَلَى النَّاسِ عَامٌ إِلاَّ أَحْدَثُوا فِيهِ بِدْعَةً وَأَمَاتُوا فِيهِ سُنَّةً حَتَّىٰ تَحْيَا الْبِدَعُ وَتَمُوتَ السُّنَنُ »[4]

٣ ـ وقال الشافعي رحمه الله : إذَا رأيت رجلاً من أصحاب الحديث ، فكأني رأيت رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ[5] .

٤ ـ وقال الجنيد رحمه الله : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام[6] .

---

(١) رواه الشيخان وغيرهما .

(٢) انظر قواعد التحديث ص : ٤٩ وما بعدها . وكتاب : الاعتصام جـ ١ .

(٣) رواه الطبراني في الكبير ، ورجاله رجال الصحيح .

(٤) رواه الطبراني في الكبير ، ورجاله موثقون : جـ ١ ـ ص ١٨٨ .

(٥) انظر قواعد التحديث ، والاعتصام جـ ١ .

(٦) الرسالة للقشيري : جـ ١ ـ ص ٥٥ . عن البدعة : تحديدها وموقف الإسلام منها : ص ١١٠.

أهم أسباب البدع

إن أسباب البدع كثيرة ، يصعب حصرها أو تعدادها . وفيما يلي أهمها :

أولاً : القول في الدين بغير علم ، وممارسة الجاهل لأمور التعليم والفتوى .

ثانياً : الجهل بأساليب اللغة العربية أو تجاهلها .

ثالثاً : الجهل في السنة الشريفة ومكانتها من التشريع .

رابعاً : عدم التمييز بين الأحاديث الصحيحة وغيرها ـ الضعيفة والموضوعة .

خامساً : اتباع الهوى والشهوات والتسليم لغير المعصوم[1] .

سادساً : اتباع المتشابه ابتغاء الفتنة من العلماء المبتدعين ، وابتغاء تأويله من الجهلة المتعالمين .

أساس البدع وأخطارها

إن التنبيه على المنكر أمر واجب على المسلمين ، وبخاصة على أهل العلم . ولما كانت البدع من أعظم المنكرات ، فقد حذر الشارع الحكيم من أخطارها ومفاسدها ؛ لأنها تبطل العبادة وتفسد الأعمال ، ويخرج صاحب البدعة من الدين كما تخرج الشعرة من العجين .

(١) انظر كتاب الاعتصام : ج ١ . للإمام الشاطبي رحمه الله .

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال عليه الصلاة والسلام : « .. وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ ... »[1] .

وفي حـديث معاذ مرفوعاً : « إِذَا حَدَثَ فِي أُمَّتِي الْبِدَعُ وَشُتِمَ أَصْحَابِي فَلْيُظْهِرِ الْعَالِمُ عِلْمَهُ ، فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ »[2] .

وكما هو معلوم فالابتداع هو الإفلات من دائرة الحق والاستقامة وولوج دائرة الباطل ، ومسار الهوى والغواية فضلاً عن اغتيال للقيم والمعاني الرفيعة ، وطمس لمعالم الخير والفضيلة وإغلاق لآفاق المعرفة ؛ وانقلاب على سنن الفطرة وتمرد على نواميس الكون[3] .

وقد تبرأ الله ورسوله من أصحاب البدع لآثارها المدمرة وعواقبها الوخيمة على الأُمة ، وقال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ)[4] .

وجاء في الحديث الشريف : « مَا ابْتَدَعَ قَوْمٌ بِدْعَةً إِلاَّ تَرَكُوا مِنَ السُّنَّةِ مِثْلَهَا »[5] .

وقد قال تعالى : (فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ

---

(١) رواه مسلم .

(٢) كتاب السنة ، ذكره الآجري من طريق الوليد بن مسلم .

(٣) انظر كتابنا مصرع الشرك والخرافة ص : ٣٤٥ وما بعدها .

(٤) سورة الأنعـام : ١٥٩ .

(٥) رواه الإمام أحمد .

وَالْبَغْضَاءَ)[1] . فلما تركوا حظًّا مما ذكروا به اعتاضوا بغيره ، فوقعت بينهم العداوة والبغضاء . قال تعالى : (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ)[2] . وقال تعالى : (اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ)[3] . فأمر باتباع ما أُنزل ، ونهى عما يضاد ذلك ، وهو اتباع أولياء من دونه ، فمن لم يتبع أحدها اتبع الآخر ، ولهذا قال سبحانه ، : (وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ)[4] .

قال العلماء : من لم يكن متبعاً سبيلهم كان متبعاً غير سبيلهم . فاستدلوا بذلك على أن اتباع سبيلهم واجب ، فليس لأحد أن يخرج عما أجمعوا عليه[5] .

وعن ابن عباس قال في قوله تعالى: (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ)[6] قال : تبيض وجوه أهل السنة وتسود وجوه أهل البدعة[7] .

وعن ابن عمر قال : صلاة السفر ركعتان . من خالف السنة كفر[8] . ولعل معنى الحديث : من خالف مكذباً لما ورد في السنة .

---

(١) سورة المائدة : ١٤ .
(٢) سورة الزخرف : ٣٦ .
(٣) سورة الأعراف : ٣ .
(٤) سورة النساء : ١١٥ .
(٥) الإيمان : ص ١٦٤ – ١٦٥ للإمام ابن تيمية .
(٦) سورة آل عمران : ١٠٦ .
(٧) راجع تفسير ابن كثير : ج ١ ، سورة آل عمران .
(٨) الاعتصام : ج ١ – ص ٨٠ .

قال ابن الجوزي : وتأملت الدخل الذي دخل في ديننا من ناحيتي العلم والعمل ، فرأيته من طريقين قد تقدما هذا الدين وأنس الناس بهما ؛ فأما أصل الدخل في العلم والاعتقاد فمن الفلسفة ؛ وهو أن خلقاً من العلماء في ديننا لم يقنعوا بما قنع به رسول الله ﷺ من الانعكاف على الكتاب والسنة ، فأغلوا في النظر في مذاهب أهل الفلسفة ، وخاضوا في الكلام الذي حملهم على مذاهب رديّة أفسدوا بها العقائد .

وأما أصل الدخل في باب العمل فمن الرهبانية ؛ فإن خلقاً من المتزهدين أخذوا عن الرهبان طريق التقشف ، ولم ينظروا في سيرة نبينا ﷺ وأصحابه ، وسمعوا ذم الدنيا وما فهموا المقصود ، فاجتمع لهم الإعراض عن علم شرعنا مع سوء الفهم للمقصود ، فحدثت منهم بدع قبيحة ؛ فأول ما ابتدأ به إبليس أنه أمرهم بالإعراض عن العلم فدفنوا كتبهم وغسلوها ، وألزمهم زاوية التعبد فيما زعم ، وأظهر لهم من الخزعبلات ما أوجب إقبال العوام عليهم فجعل إلٰههم هواهم ، ولو علموا أنهم منذ دفنوا كتبهم وفارقوا العلم انطفأ مصباحهم ما فعلوا ، لكن إبليس كان دقيق المكر يوم جعل علمهم في دفين تحت الأرض ، وبالعلم يعلم فساد الطريقين ويهتدى إلى الأصوب[1] .

قال الشيخ محمود شلتوت في فتاويه : كل مبتدع في ابتداعه هواه ، والهوى متشعب النواحي مختلف الأهداف ، ومن هنا نجد الشخصية الدينية التي انتابها الابتداع لا تقف في العقيدة الواحدة أو العبادة

(١) راجع صيد الخاطر : ص ٢٢٦ – ٢٢٧ للإمام ابن الجوزي .

الواحدة عند وضع واحد ، بل تتعدد في أوضاعها وصورها بتعدد الأهواء التي أدخلت عليها الابتداع ، ومن ثم تصير الشخصية الدينية الواحدة ـ التي نزلت للتوحيد بين الناس فيما يتقربون به إلى الله الواحد ـ شخصيات متعددة تقف كل شخصية منها عند مبتدع من المبتدعين ، وأتباعه الذين يسلكون طريقه ، ومن هنا تفقد الأُمة وحدتها الدينية ويتحكم بين هيئاتها الابتداعية تنافس العداوة والبغضاء . وكثيراً ما يشتد التنافس والخصام وتشتعل نارها فيقع بينهم التكفير ، واستحلال الدماء وتنقلب الأُمة يضرب بعضها رقاب بعض . وقد جاء ـ حفظاً لوحدة الأُمة في هذا الجانب ـ قوله تعالى : (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا)[1] .

وقد عرفنا ـ من تاريخ الأديان والشرائع ـ أن التحريف الابتداعي قد أصابها من جهات ثلاث :

١ ـ من جهة العقيدة : ومنها دخل الشرك ، وعبادة غير الله ، ودعاؤه . والاستعانة به ، واللجوءُ إليه .

٢ ـ ومن جهة العبادة : ومنها دخل التغيير بالزيادة أو النقص والتغيير في الكيفية[2] .

---

(١) سورة آل عمران : ١٠٣ .

(٢) وكما هو معلوم ، فإن الابتداع في الدين ـ كالزيادة فيه أو النقصان ـ أمر محظور لا يجوز فعله ، ولا أجر لصاحبه فيه ، حتى ولو كان لنية العبادة لله عز وجل ، فقد قال ﷺ : « مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ » .
والبدعة شر من المعصية ؛ لأن في الابتداع تغييراً للدين ولأحكام الشرع ، واتهاماً له بنقصانه =

٣ - ومن جهة الحلال والحرام : ومنها حرِّم الحلال واحتيل فحلل الحرام .

فهل لعلمائنا الفقهاء أن يعملوا على إحياء الجانب الديني ليكون سليماً نقياً ، وعلى وحدة المسلمين فيه والرجوع بهم إلى المحجة البيضاء التي تركها الرسول ﷺ ، وظلت قائمة بمصادرها الخالدة من كتاب وسنة[1] ؟ .

نماذج من البدع

أولاً : من بدع الأذان

قال إمام الحرمين : وإذا أذن المؤذن فلا يستحب أن يترسلوا في الأذان ؛ بل إن وسع الوقت ترتبوا ، وإن ضاق تبددوا في أطراف المسجد وأذنوا ، فيكون كل واحد منفرداً بأذانه ، يظهر أثر ذلك في الإسماع والإبلاغ ، ثم لا يقيم في المسجد إلاَّ واحد وإن كثر المؤذنون[2] .

قلت : يريد بذلك الأذان الأول - الذي هو الإعلان بدخول الوقت - وهو الذي يفعل على المنائر ، وأما الأذان بين يدي الخطيب بعد صعوده المنبر فلا ينبغي أن يكون إلا من واحد ، لأنه لإقامة الشعار والإعلام

= أو بحاجته إلى تكميل وتعديل ، وهذا أمر خطير لا يجوز اعتقاده أو العمل بموجبه ، إذ أن العمل الصالح هو ما كان خالصاً لله ووفق شريعة الإسلام ، حتى إن الرسول ﷺ توعد المبتدعين وحذر من شرورهم حين قال : « إِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة . . . » فالخير كل الخير لمن تمسك بالسنة وعمل بما جاء به الشرع ووقف عند حدود الله .

(١) الفتاوى : ص ١٨٥ وما بعدها . للشيخ محمود شلتوت رحمه الله .

(٢) الباعث على إنكار البدع : ص ٨٩ .

بصعود الخطيب المنبر ، لإنصات الناس الحاضرين، والسنة فيه إفراد المؤذن .

ومنع القاضي أبو الحسن الماوردي - في كتاب الحاوي - الترسل في الأذان أيضاً وقال: يؤذن واحد بعد واحد؛ لأن الصوت يختلط باجتماعهم فلا يفهم إلا أن يكون البلد كبيراً والمسجد واسعاً ، فلا بأس أن يجتمعوا في الأذان دفعة واحدة كالبصرة ؛ لأن اجتماع أصواتهم أبلغ في الإعلام . ويتفق في الأذان إذا اجتمعوا عليه كلمة واحدة ، فإن اشتراكهم في كل كلمة منها أبين وإذا اختلفوا فيه اختلط[1] .

ومنها : الاكتفاء بأذان واحد لعموم مساجد المدينة ، كما في عمان بالأردن مع أن السنة تخصيص كل مسجد بمؤذن . ومنها:الأذان من داخل المسجد في السماعة مع أن السنة أن يصعد المؤذن على سطح المسجد أو المنارة . كما سمعنا ذلك من المحدث الشيخ ناصر الدين الألباني .

ثانيًا: ومن بدع الصلاة

صلاة ليلة القدر الموضوعة . قال المجد اللغوي في سفر السعادة : وصلاة ليلة القدر وصلاة كل ليلة من رجب وشعبان ورمضان ، هذه الأبواب لم يصح فيها شيءٌ أصلاً ، وإن قراءة قصة المعراج بدعة ولم يقم دليل على ليلة الإسراء .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - حينما سئل عن صلاة

(١) المصدر السابق : ص ٨٩ - ٩٠ بتصرف .

ليلة القدر : إن هذه الصلاة لم يستحبها أحد من أئمة المسلمين ، بل هي بدعة مكروهة . إلى أن قال : والذي ينبغي أن تترك وينهى عنها . أ . هـ[1] .

ومن البدع المكروهة : صلاة ليلة عيد الفطر ويومه ؛ وهي مائة ركعة بالفاتحة والإخلاص عشر مرات ، ويستغفر بعدها مائة مرة . . ألخ . حديث طويل ذكره الجلال السيوطي في اللآلىء المصنوعة وقال : موضوع . وكذا صلاة نهارها[2] .

ثالثا: ومن بدع الجنائز

ما يفعله الناس اليوم في جنائزهم ، من مخالفات ومحظورات ومنكرات لا تليق بأتباع الإسلام ، وتخالف سنة سيد الأنام ﷺ ؛ حيث ترك الإسراع بها والقرب منها والإنصات فيها . ومن قراءتهم بالقرآن بالألحان ، واتباعهم[3] في تزيينها والمباهاة بالحاضرين لها ، وحديثهم

(١) السنن والمبتدعات : ص ١٥٦ . ومن الصلوات الموضوعة صلاة الرغائب وليلة المعراج .

(٢) المصدر السابق : ص ١٦١ . ومن أشنع البدع صلاة الظهر بعد صلاة الجمعة بحجة أن العدد ناقص عن الأربعين كما يتوهم بعضهم ، أو أن المأمومين لا يحسنون القراءة . إن هذه البدعة الضالة تجر إلى الكفر إن اعتقد أن صلاة الظهر بعد الجمعة فرض ، كما تجر إلى الضلال إن اعتقد أنها سنة ، وهذه بدعة مذمومة يواظب عليها جمهرة المتصوفة الذين يرفضون السنة في كثير من الأحيان ، ويتأولون الأحاديث والروايات الموضوعة التي يمليها عليهم شيخهم الشيطان .

(٣) ومن المؤسف أن تنتشر في هذه الأيام البدع والمنكرات ؛ حيث تحمل الجنازة في سيارة خاصة مزودة بمكبرات الصوت ، يُتلى منها القرآن الكريم في موكب حاشد من السيارات ، كما ترتفع الأصوات بالتكبير والتهليل والهرج والمرج والضجيج ، وهذه مخالفة صريحة للسنة المطهرة ، وآدابها في تشييع الجنائز ، حيث يفقد الخشوع والتفكر بالموت والتأمل والاعتبار =

فيها فيما خلفه من المال والأولاد[1] .

وفي ترجمة عبد الرحمن بن سليمان قال هارون المعروف : حدثنا ضمرة ، حدثنا رجاءُ بن جميل قال : شهدت رجاءَ بن حيوه في جنازة عبد الرحمن بن سليمان بن عبد الملك بعسقلان فسمع رجل يقول : استغفروا له ، غفر الله لكم . فقال رجاءُ : اسكت ، دق الله عنقك .

وجاءَ عن النبي ﷺ أنه كان إذا اتبع جنازة أكثر الإنصات ورؤي عليه الكآبة وأكثر حديث النفس[2] .

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : كانوا إذا كانوا في جنازة يعرف ذلك فيهم ثلاثة أيام . قال : ورأى ابن مسعود رجلاً يضحك في جنازة فقال : تضحك ؟ . لا أُكلمك أبداً .

وعن سعيد بن المسيب أنه قال في مرضه : إياي وحاديهم ؛ هذا الذي يحدوه لهم ويقول : استغفروا الله ، غفر الله لكم . وكرهه الحسن والنخعي وأحمد وغيرهم .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع قائلاً يقول ذلك فقال له : لا غفر الله لك . وإنما كره ذلك لما فيه من التشويش على المشيعين[3] .

ومن البدع المذمومة أيضاً اتباع بعض الأموات ـ كالزعماء والقادة ـ بالموسيقى العسكرية وإطلاق النار عند الدفن ، وكذلك استخدام الطبول

= الذي يتوخى منه في مثل هذه المناسبات ، وكفى بالموت واعظاً .

١ ، ٢ ، ٣ الباعث الحثيث : ص ٩١ ، ٩٢ .

والدفوف والمزامير ـ العدة ـ أثناء تشييع الأموات ؛ كما يفعل ذلك المبتدعة وأتباع الصوفية .

وكذلك زيارة قبور الكفرة وزعمائهم ، خاصة من قبل أبناء الإسلام وقادتهم الذين يضعون أكاليـــل الزهور والورود على ضرائحهم ومشاهدهم ويتلون سورة الفاتحة على أرواحهم ويترحمون عليهم ، كما يؤدي بعضهم التحية العسكرية لتماثيلهم ومشاهدهم ـ كما يفعل ذلك لتحية العلم ؛ تلك الضلالة القبيحة المستوردة ـ وهذا يتم أثناء الزيارات الرسمية وغير الرسمية لتلك الدول الكافرة ، أو الاحتفال بذكرى وفاة أولئك الزعماء الكفرة أو ميلادهم ، وغير ذلك من مناسبات مذمومة .

ومنها أيضاً: **إسقاط الصلاة عن الميت واتخاذ الطعام من أهل الميت أول خميس**[1] . **ومن العادات القبيحة ما يفعله الجهلة** ، الذين يضعون حلي النساء والملابس الثمينة والمجوهرات مع الموتى في القبور ، وبخاصة مع الشابات اللواتي لم يتزوجن بعد .

ومن البدع القبيحة والأعمال الشنيعة أيضاً ما يفعله أولياء الميت ؛ كإقامة السرادقات ، وإحضار القراء لتلاوة القرآن باستخدام مكبرات الصوت ، وتوزيع السجائر على المعزّين أثناء مدة التعزية التي قد تزيد على سبعة أيام ، **هذا وغيره يفعل أيضاً بعـــد مرور أربعين يوماً على الوفاة ـ الأربعينية ـ وهذا تبذير وإسراف وابتداع يتنافى وتعاليم الدين .**

(١) أحكام الجنائز وبدعها : ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ . للمحدث الشيخ ناصر الدين الألباني بتصرف . وفقه الله لخدمة الإسلام والمسلمين .

وتتأكد حرمته خاصة إذا كان للمتوفى أطفال صغار يحتاجون للرعاية والنفقة .

رابعًا : ومن بدع الحج

افتتان العامة بجبل عرفات ـ في هذا الزمان خاصة ـ حيث أخطؤوا في أشياءٍ كثيرة من أمره ومنها :

- أنهم جعلوا الجبل هو الأصل في الوقفة بعرفات ، فهم بذكره مشغوفون وعليه دون باقي بقاعها يحرصون ، وذلك خطأٌ منهم . وانما أفضلها موقف رسول الله ﷺ عند الصخرات عن يسار الجبل .

- وكذلك إيقاد النيران عليه ليلة عرفة ، واهتمامهم لذلك باستصحاب الشمع له من بلادهم ، واختلاط الرجال بالنساءِ في ذلك صعوداً وهبوطاً بالشموع المشتعلة الكثيرة ، وقد تزاحم المرأة الجميلة بيدها الشمع الموقد كاشفة عن وجهها . وهي ضلالة شابهوا فيها أهل الشرك في ذلك الموقف الجليل . وإنما أحدثوا ذلك من قريب ؛ حين انقرض أكابر العلماء الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، وحين تركوا سنة رسول الله ﷺ [1] .

- وكذلك تنتج المشقة والازدحام والعسر عند صعود جبل الرحمة ؛ حيث يتدافع الناس فتحصل المصائب ، وتنكشف العورات لصعود الجبل ؛ حيث اختلاط الرجال بالنساءِ وتلاصقهم معاً ،

(١) الباعث على إنكار البدع والحوادث : ص ٩٤ وما بعدها .

وبذلك يحصل التقرب إلى الشيطان بدلاً من التقرب إلى الرحمن ، وهذه مخالفات شنيعة يندى لهـا جبين الإنسان ، علاوة على مخالفتها لأمر الشارع الحكيم .

ومن العامة من إذا حج يقول : أقدِّس حجتي . ويذهب فيزور بيت المقدس ، ويرى أن ذلك من تمام الحج وهو غير صحيح . وزيارة بيت المقدس مستحبة . ولكنها مستقلة ولا تعلق للحج بها[1] .

ومن بـدع الحج أيضاً: مرافقة النساء للرجال الأجانب عنهن أثناء تأدية الفريضة بدعوى أنهم قد تآخوا ، حيث يقولون فيما بينهم - بين الذكر والأنثى : أنت أختي بعهـد الله . وتـرد عليه بقولها : وأنت أخي بعهد الله . وهدف ذلك أن يصبح الرجل الأجنبي محرماً للمرأة ، وهذه دسيسة شيطانية ومن تلبيس إبليس ، ولم يقرها عقل ولا شرع . ومثيلتها ما يفعله بعض الجهلة الذين لبَّس عليهم الشيطان ؛ حيث يجري عقد نكاح صوري بين الرجل والمرأة ؛ على أن لا يقرب أحدهم الآخر - وفي الغالب تكون المرأة زوجة لزوج آخر - وهذا تحايل على الشرع ومفسدة دينية ، ومن جراء هذه المفاسد تنتشر الفاحشة وتعم المنكرات ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ومنها أيضاً: ما يفعله بعض الجهال ؛ من إرسال السلام مع الحجاج إلى النبي ﷺ وصحابته الكرام ، وتقديم الاعتذار عنهم لعدم تمكنهم من الزيارة لذلك العام .

(١) نفس المصدر : ص ٩٥ .

وبعضهم يطلب من الحجاج أن يرمي عنه الجمرات ـ الحجارة ـ ويضرب إبليس عدة ضربات موجعة ـ كأنه يراه حقيقة ـ وذلك لعدم تمكنه من إشفاءِ غليله منه والتشنيع به ، وهذا يدل على الجهل الفاضح الذي يسيطر على أبناءِ هذا العصر .

خامسًا : ومن بدع الاعتقادات

اعتقاد العوام أن جبريل عليه السلام لم ينزل ولن ينزل بعد موت النبي ﷺ بناءً على بعض آثار في ذلك، دلت على أن جبريل عليه السلام لما اجتمع بالنبي ﷺ اجتماعه الأخير ودعه وقال له : لا أنزل الأرض بعدك . وهذا لا أصل له ، ويرده خبر الطبراني : « مَا أُحِبُّ أَنْ يَرْقُدَ الْجَنْبُ حَتَّىٰ يَتَوَضَّأَ فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يُتَوَفَّىٰ وَمَا يَحْضُرُهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السلامُ »[1] . فإنه يدل على أن جبريل عليه السلام ينزل الأرض ويحضر موت كل مؤمن مات على طهارة . ذكره ابن الهيثمي[2] .

وقد نشأ من هذا الاعتقاد الفاسد ، ومن خبر باطل موضوع ـ لا وحي بعدي ـ اعتقاد العامة أن لا وحي على الإطلاق بعد رسول الله ﷺ .

سئل ابن حجر : هل يوحى إلى عيسى عليه السلام ؟ . فقال : نعم . يوحى إليه عليه السلام وحي حقيقي كما في حديث مسلم وغيره ؛ عن النواس بن سمعان ، وفي رواية صحيحة : « فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَٰلِكَ إِذْ أَوْحَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ : يَا عِيسَىٰ إِنِّي أَخْرَجْتُ عِبَاداً لِي لَا يَدَ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ فَحَوِّلْ

(١) رواه الطبراني .

(٢) انظر الإبداع في مضار الابتداع : ص ٣٣٨ .

عِبَادِي إِلَىٰ الطُّورِ »[1] . وذلك الوحي على لسان جبريل عليه السلام ؛ إذ هو السفير بين الله تعالى وأنبيائه ، لا يعرف ذلك لغيره . وخبر : لا وحي بعدي . باطل[2] .

ومنها أيضاً الاعتقاد بأن النبي ﷺ لما أراد العروج ليلة الإسراء ، صعد على صخرة بيت المقدس وركب البراق ، فمالت الصخرة وارتفعت لتلحقه ، فأمسكتها الملائكةُ ، ففي طرف منها أثر قدمه الشريف ، وفي الطرف الآخر أثر أصابع الملائكة عليهم السلام ، فهي الصخرة واقفة في الهواء قد انقطعت من كل جهة ، لا يمسكها إلا الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض سبحانه وتعالى . وهذا من الأكاذيب المشهورة ، لا أصل له في الدين .

سادسًا : ومن بدع المساجد ومنكراتها

التشويش على القراء في المسجد . ففي فتاوى الإمام تقي الدين رحمه الله : مسألة في مسجد يقرأ فيه القرآن والتلقين بكرة وعشية ، ثم على باب المسجد شهود يكثرون الكلام ، ويقع التشويش على القراء ، فهل يجوز ذلك أم لا .؟

الجواب : ليس لأحد أن يؤذي أهل المسجد ؛ أهل الصلاة أو القراءة أو الذكر أو الدعاء ، ونحو ذلك مما بنيت المساجد له ، فليس لأحد أن يفعل في المسجد ـ ولا على بابه قريباً منه ـ ما يشوش على هؤلاء ، بل قد خرج النبي ﷺ على أصحابه ـ وهم يصلون ويجهرون بالقراءة ـ فقال :

(١) رواه مسلم وغيره .
(٢) الإبداع في مضار الابتداع : ص ٣٣٩ .

« أَيُّهَا النَّاسُ ، كُلُّكُمْ يُنَاجِي رَبَّهُ فَلَا يَجْهَرْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْقِرَاءَةِ »[1] .

فإذا كان قد نهى المصلي أن يجهر على المصلي ، فكيف بغيره ؟ ! . ومن فعل ما يشوش به على أهل المسجد ، أو فعل ما يفضي إلى ذلك منع من ذلك . والله أعلم[2] .

ومنها أيضاً : الإعراض عن سماع خطبة العيد ؛ ما أجهل العامة بمقاصد الدين وما أعماهم عن سر التشريع ! . ترى كثيراً من العامة ينفضون بعد صلاة العيد ، ويعرضون عن سماع الخطبة ، مع أن الاستماع لها من تتمة الصلاة بل هو نتيجته ، لأن الخطبة هي الواعظ الشفاهي ، والصلاة واعظها القلبي ، وليست حجتهم جهل بعض الخطباء الذين يتسنم ذروة المنابر ، وهم في حضيض الجهالة عن فهم ما أقيموا فيه مما كان مرقى الأكابر العلماء والحكماء ، ولا عذرهم أنهم لا يفقهون كثيراً من الخطب المتداولة ، ولا أنها لا تهديهم إلى سنة الكون ؛ بل انصرافهم مجرد إعراض تعجلاً إلى الرجوع إلى اللهو ، مع أن الخطب المعلومة ـ على ما هي عليه مما ذكرنا ـ لا تخلو مما يفيد العامة من الحض على التقوى ، والتمسك بالسبب الأقوى وتلاوة آيات كريمة وأحاديث

(١) ومع أن السنة المطهرة حذرت من التشويش والمضايقة لأهل المسجد ، إلا أنه ـ وللأسف ـ تقع منكرات كثيرة في المساجد التي ما ابتنيت إلا لإقامة الشعائر الدينية ، حيث الحديث في أمور الدنيا ونشدان الضالة ، وسؤال الصدقة ، وتعدد صلاة الجماعة في المسجد الواحد في لحظة واحدة ، وعدم المحافظة على نظافة الجسم قبل دخول المسجد .

(٢) إصلاح المساجد : ص ١٢٤ .

عظيمة ، يكفي لمن ينصت لها أن يخشع قلبه وينيب إلى ربه .

فعلى العامي أن يتقي الله في هذه المخالفات ، وأن يطلب نجاته بطلب العلم والفقه في الدين فإنه مرقاة النجاة[1] .

ومن المنكرات المنتشرة حول المسجد ما يقدم عليه بعض المصلِّين ، الذين يرتكبون المنكرات بقصد أو عن غير قصد ، داخل المسجد وبأطرافه حيث البصاق أو المخاط من قبل جهلة المتوضئين ، مما تستقذره الأنفس ، وهذه الخطيئة من السيئات التي لا تكفر إلا بإزالتها .

روى الشيخان وغيرهما عن أنس رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « **البُصَاقُ فِي الْمَسْجِدِ خَطِيئَةٌ وَكَفَّارَتُهَا دَفْنُهَا** » . وفي حديث أبي ذر عند مسلم قال : قال النبي ﷺ : « **وَوَجَدْتُ فِي مَسَاوِىءِ أَعْمَالِ أُمَّتِي النُّخَامَةَ تَكُونُ فِي الْمَسْجِدِ لَا تُدْفَنُ** » .

قال القرطبي : فلم يثبت لها حكم السيئة لمجرد إيقاعها في المسجد ، بل به وبتركها غير مدفونة .

وروى سعيد بن منصور عن أبي عبيدة بن الجراح أنه تنخم في المسجد ليلة ، فنسي أن يدفنها حتى رجع إلى منزله ، فأخذ شعلة من نار ثم جاء فطلبها حتى دفنها ثم قال : الحمد لله الذي لم يكتب علي خطيئة الليلة[2] .

---

(١) بتصرف عن إصلاح المساجد : ص ١٢٥ وما بعدها .

(٢) ومما يجدر ذكره أن كثيراً من العادات الذميمة قد انتشرت بين بعض المصلين ، الذين يرتادون المساجد ، حيث يعمد بعضهم إلى تقليم أظفاره ، وإزالة بعض أدرانه وإلقائها في =

قال: فدل على أن الخطيئة تختص بمن تركها ، وعلة النهي ترشد إليه ؛ وهي تأذي المؤمن بها [1] .

خرافة دوران الميت بنعشه

كثر ادعاءُ الناس حول دوران الميت بنعشه ـ وخاصة في القرى ـ زاعمين أن المتوفي بوسعه دفع الجنازة إلى جهة ما ـ كرهاً ورغماً عن حامليها ـ ثم جذبها إلى أُخرى كذلك ، ويحصل ذلك من تعلق الميت ببعض الأماكن ، وكلما أكثر المشيعون من الأذكار ازداد الدفع والجذب ، وهكذا إلى أن ينتهي بهم المطاف إلى القبر بعد جهد وعناءٍ .

إن هذا الاعتقاد لا أصل له في الدين ، ولم يرد في الكتاب ولا في السنة ما يشير إلى وقوع مثل ذلك لنبي أو ولي ، لا في الأُمم السابقة ولا في هذه الأُمة ، وما أُثر شيءٌ من ذلك في صدر الإسلام وعهد الصحابة والتابعين ـ وهم خير القرون وأفضلها ـ ولا عن إمام من أئمة المسلمين المعتبرين . ولو وقع ـ مما تتوافر الدواعي على نقله بلا ريب ـ لنقله إلينا الثقات ، كما نقلوا إلينا صحيح الأخبار والآثار . ومن المعلوم أن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه كان إمام أهل الحديث ، وأتقى

= المسجد ، كما أن بعضهم لا يحلو له النوم والجلوس إلا في المسجد ! وخاصة في شهر رمضان ؛ شهر العبادة والعمل والتفقه في الدين وطلب العلم . فيا ليت أبناء أُمتي يفيقون من كبوتهم ، ويعودون إلى رشدهم ، فيتخذوا المسجد مكاناً للعبادة ومدرسة للتعليم ، ومجلساً للشورى والتباحث في أمور المسلمين .

(١) إصلاح المساجد : ص ٢١٥ .

الأُمة في عصره ، وقد أفاض المؤرخون في وصف جنازته ، إذ وصفوها وصفاً دقيقاً ، ولم يقل أحد منهم أنه فعل مثل ذلك من أفعال اخترعها أُناس مبتدعة .

فالمؤمن التقي العابد لم يفعل مثل تلك الحركات ـ المصطنعة التي يزعمها أتباع الشيطان ـ ولكنه ـ المؤمن ـ يكون مقبلاً على ربه فرحاً بما بشر به من النزل في دار المقام ، ومن الزلفى عند الملك العلام . كما ورد في الأحاديث الصحيحة أن ملائكة الرحمة تحف المؤمن وهو في سياق الموت ؛ مبشرات بما أعد الله له في الدار الآخرة من النعيم المقيم . ومن كان هذا شأنه يود لو يسرع به الناس إلى القبر ليخلص من دار الشقاء وينعم بدار الكرامة والنعيم ، والقبر للمؤمن روضة من رياض الجنة ، ولو استطاع هذا المتوفى من المؤمنين أن يطير بنفسه إلى قبره ـ لم يلْوِإلى جهة ذات الشمال وذات اليمين ـ مؤثراً له على الدنيا وما فيها من متاع ومال وبنين وغيرها . أما دعوى المبتدعة والخرافيين بأن الميت يستطيع التصرف بنعشه ، ويحركه حيثما يشاءُ ، فهذا ما لا يسعفه دليل ولم يستند إلى برهان ، أو يؤيده منطق سليم . بل هو وحي شيطاني وتدبير إبليسي ما أنزل به الله من سلطان .

إن الميت جثة هامدة ، وروحه التي ترفرف عليها في شغل بأمرها عن هذه الحركات ، والناس هم الذين يأتونها بتأثيرات نفسية وانفعالات عصبية ؛ تدافع فيما بينهم وتزاحم ، ويكفي أن يتجه واحد من حملة النعش إلى جهة ، فيتجه إليها الباقون اضطراراً من غير شعور .

أرأيت لو وضع النعش فوق سيارة يقودها سائق غريب نازح من بلد آخر ، أكان يفلت منه قيادها وتسلب منه إرادته ويتولى المسير بها ذلك الميت إلى غير طريقها المرسوم ؛ إلى نهر أو ترعة أو بلد آخر أو إلى داره التي أُخرج منها . . . ! ![1] .

وما أحرانا نحن معشر المسلمين أن نتمسك بكتاب الله وسنة نبيه ، فهما طريقا الصلاح والفلاح والسيادة وعزة الدارين . كما علينا أن أن نبثَّ في نفوس الناشئة روح هذا الدين ، وأن نبين لهم قيمه ومزاياه الفريدة التي ترفع من شأن الفرد والجماعة . كما علينا أن نترفع عن خرافات المبتدعة وترهاتهم التي لا تستند إلا على الباطل . لقد كان سلفنا الصالح حرباً على الشرك والخرافة ، ودعاة حق وخير وفضيلة ، فهم أسوتنا وقدوتنا ، وهم مشكاة النور ، وعلمهم هو النبع الصافي الذي لم تكدره الدلاء ، ونهجهم صراط الله المستقيم . أولئك هم خير البرية. لذلك ، فالخير كل الخير في الاتباع ، والشر كل الشر في الابتداع . فلنقتد بسلف هذه الأُمة ولنطبق منهاجهم ، ولنسر على دربهم ؛ درب الخير وطريق النجاة . وفي مثل ذلك فليتنافس المتنافسون .

(١) فتاوى شرعية : ج ٢ – ص ٥٣ وما بعدها . للعلامة حسنين محمد مخلوف .

شبح القتيل، خرافة وخيال

ومن المعتقدات الخرافية والأوهام الخيالية اعتقاد الناس أن من مات قتيلاً يظهر له شبح في المكان الذي قتل فيه ؛ يمثل حركاته وصوته كما كان أثناء حياته ... إن هذه الخرافة بدعة ضالة واعتقاد فاسد لا أصل له في الدين ، بل نهى الدين عن الاعتقاد بها . وقد شاعت هذه الخرافة في الجاهلية الأولى ؛ حيث كان دعاتها يزعمون أن أرواح الموتى أو عظامهم – التي بليت – تصير طيراً يسمى الهامة ، ويسمى الصدى قال لبيـــد :

فليس الناس بعدك في نفيـــر ولا هـــم غيـــر أصداءٍ وهـــام

وأن روح القتيل – الذي لم يدرك ثأره – تصير هامة فتزقو عند قبره وتقول : اسقوني ، اسقوني . وما تزال كذلك حتى يدرك ثأره فعند ذلك تطير ولا تعود . وفي ذلك يقول ذو الأُصبع :

يا عمرو إن تدع شتمي ومنقصتي أَضربْك حتى تقول الهامة اسقوني

وقد زعموا ذلك لما جُبِلوا عليه من الحمية والأَنفة ، وما استقرت عليه عاداتهم من الحرص على الأَخذ بالثأْر ، فتخيلوا أن روح القتيل لا تفتأُ ترفرف على قبره تشكو الظمأَ وتطلب السقيا ، إلا أنها لا تبغي الري بالماء وإنما تبغيه بالدماء ، فإذا ثأَر أولياءُ الدم من القاتل تبدل ظمؤها رياً ، وشفيت مما تجد،وطارت إلى غير رجعة هانئة هادئة[1] .

(١) فتاوى شرعية وبحوث إسلامية : جـ ١ – ص ٢٠٠ وما بعدها .

وعندما بزغ نور الإسلام بدد هذه العقيدة وغيرها من مزاعم الجاهلية وأوهامها ، وبين رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام أنه لا حقيقة لمزاعمهم وترهاتهم ، فقال ﷺ فيما رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه : « لَا عَدْوَىٰ وَلَا طِيَرَةَ وَلَا هَامَةَ وَلَا صَفَرَ »[1] . وزاد الإمام مسلم : « وَلَا نَوْءَ وَلَا غُــولَ » .

ومراده عليه الصلاة والسلام بالنفي النهي عن هذا الاعتقاد الباطل ، ووجوب تطهير العقول من هذا الوهم الكاذب .

ومنه ما يزعمه جهلة العوام على غرار تلك الخرافة العتيدة والضلالة البغيضة ؛ من ظهور روح القتيل في المكان الذي قتل فيه ، وذهابها ومجيئها بحركات تماثل ما كان عليه في حياته . وكل هذا وأضرابه وهم وخيال واعتقاد أهل الضلال ، نهى عن اعتقاده الإسلام بدلالة هذا الحديث الذي ذكرناه ، وما بعد الحق إلا الضلال . وعلى المسلمين أن يتواصوا بالقضاء على هذه المزاعم الفاسدة والمعتقدات الباطلة ، وينصح العامة حتى لا يقعوا في حبائل دعاة الضلال وأدعياء الخرافة . والله ولي المصلحين .

---

(١) أخرجه الشيخان . قال الفراء : الهــامة : طير من طير الليل . كأنه يعني البومة .
قال ابن الأعرابي : كانوا يتشاءمون بها إذا وقعت على بيت أحدهم . يقول : نعت إلي نفسي أو أحداً من أهل داري . فجاء الحديث الشريف بنفي ذلك وإبطاله . . وبذلك تخلص المجتمع من الشركية ومزاعم الجاهليــة ولوثاتها المدمــرة . يستحسن مراجعــة فتــح المجيد : ص ٣١٦ وما بعدها .

القرآن محفوظ من عند الله

الحمد لله على نعمة الإسلام ؛ تلك النعمة العظمى التي امتن بها الله على أمة القرآن ، تلك الأُمة العظيمة التي حملت أمانة السماء وتعهدتها ، فكانت بحق خير أمة أُخرجت للناس .

لقد تعهد سبحانه وتعالى بحفظ دينه ، ولم يترك أمر حفظه لأحد ، فكان الذي أنزله عز وجل محفوظاً إلى أن يرفع القرآن المجيد من الصدور والسطور ؛ فقد حفظ سبحانه الدين من أن يزاد فيه أو ينقص منه ، وقد ورد ذلك في القرآن فقال تعالى : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)[1] .

لقد حاول أعداءُ الإسلام والمسلمين – قديماً وحديثاً – الانتقاص من هذا الدين ومحوه عن الوجود[2] ، فما استطاعوا لذلك سبيلاً ، مع أنهم استعملوا كل الوسائل للدس والتشويه والتزوير ، وحاولوا بطرق شيطانية مختلفة صرف الناس عن الدين الحق ، ولكنهم لم يوفقوا بل ردت حرابهم إلى صدورهم ، وباؤوا بالفشل والخسران .

---

(١) سورة الحجر : ٩ .

(٢) ففي العصور السابقة قام أعداءُ الإسلام – وعلى رأسهم بعض أتباع اليهودية والنصرانية والفلاسفة والزنادقة ودعاة الباطنية وأشباههم – بالتشكيك بالإسلام وحضارته . وحديثاً قام المستشرقون والمنصّرون وتلاميذهم من المستغربين والدساسين ، هؤلاء بمجموعهم حاولوا الدس والتشويه والتحريف والتشكيك في القرآن والسنة المطهرة ، وقد باءت جميع حملاتهم المسعورة بالخذلان والفشل الذريع .

هذا ما دلنا عليه التاريخ الصادق ، عن ابتلاء الدين الحنيف ـ في كل عصر ـ بنفوس نزاعة إلى الغواية ، تتنكب عن الحقائق وتمشي في تحريف كلمه مكبَّةً على وجهها . . . وهذا ما يتاجر به أصحاب الضلال والنزعات والأهواء ؛ ككثير من زعماء الفرق الضالة الزائغة عن الحق المنحرفة عن الرشد ، وكذلك ما يزعمه دعاة الباطل من المتنبئة الكفرة والمبتدعة الفجرة ، والتاريخ يطفح بمثل هذه الضلالات واللوثات التي لا يسمح المجال هٰهنا لاستعراضها .

وعلى الرغم مما سدده أعداؤنا لهذا الدين من مطاعن ، مما امتلأت به جعبهم من سهام مسمومة ، وعلى الرغم من الموضوعات الكثيرة التي وضعها الكذابون في بعض الأحاديث ، وعلى الرغم من الاسرائيليات العديدة التي بثها المرجفون والمغفلون والزنادقة في كتب التفسير وكتب الدين .

وعلى الرغم من التأويلات الباطلة التي قالها المتأولون من الباطنية وغيرهم ؛ من أهل التناسخ والحلول والتصوف والفلاسفة الذين زاغوا عن السبيل ، على الرغم من كل ذلك ، فقد بقيت الشريعة الإسلامية محفوظة في أصولها وفي فروعها ، واضحة المعالم بينة المقاصد متينة القواعد باسقة المشاهد ، وما ذلك إلا لأن مصدرها الأساسي هو كتاب الله عز وجل ، وقد التزم سبحانه وتعالى بحفظه حين قال : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)[1] .

(١) سورة الحجر : ٩ .

وعلى الرغم من محاولات الأعداء ، والمجهودات التي بذلت لهدم الإسلام والتآمر عليه ؛ إذ غير خفي ما قامت به الجمعيات الباطنية السرية من وسائل ومؤامرات لتفكيك عرا المسلمين ، وإفساد العقيدة الإسلامية وتحطيم دولة الإسلام ، وغرس الخرافات والأوهام في المجتمع الإسلامي .

ومع ذلك فقد بقي الإسلام غضاً طرياً كما هو ، رغم وقوع الإضلال لبعض أتباعه ، وهذا لا يمس المهتدين قليلاً ولا كثيراً . ومن لطف الله بدينه وشريعته أن قيّض لهما في كل عصر من يقومون بحمايتهما والذب عن حماهما ، وحفظ مراسمهما، وقد ضمن النبي ﷺ ذلك حين بشر به ، وهو الصادق المصدوق فقال : « يَحْمِلُ هٰذَا الدِّينَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الغَالِينَ وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ » .

وبشرنا عليه السلام حين قال : « إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَىٰ رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا »[1] . إذن فالانحراف عن الدين ، وقيام الطوائف المختلفة وغيرها من النحل والأحزاب المنحرفة لا يضر الإسلام نفسه في شيء ، وإنما يضر المنحرفين والمخالفين . فالذكر محفوظ ، وأهله لابد أن يوجدوا ، ولابد أن يقوموا بمهمة التجديد ونفي الانحراف والانتحال واستبعاد التأويلات الجاهلة .

وقد وقع فعلاً هذا كله في العصور السابقة ، فقيّض الله للأمة من يصلح أمرها ويوقظ وعيها ، ويهديها إلى البعث الصحيح والإحياء

(١) رواه أبو داود وغيره . راجع السلسلة الصحيحة للألباني .

النافع ، ناهيك بأحمد بن حنبل وما لاقاه في سبيل الدفاع عن العقيدة والشريعة ، وناهيك أيضاً بالأشعري وابن تيمية وابن القيم والشاطبي وابن عبد الوهاب من رجالات الإسلام الذين قامت على أكتافهم العصور المسلمة السابقة .

لذا فليطمئن المؤمنون بنصر الله وتأييده ، فقد تكفل بذلك ووعده الحق . والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

فتنة خلق القرآن

كانت فتنة خلق القرآن السبب المباشر لاندلاع الحرب بين فئتين ، بعدت بينهما الشقة وكمنت البغضاء .

الأولى: تمثل جمهور العلماء ومعهم الأمة ؛ وهم يرغبون في المحافظة على الثقافة التقليدية للمسلمين ، وما كان عليه الصحابة والسلف الصالح ، ويرفضون المشي مع الخيالات المستوردة والمجادلات النظرية التي لا قيمة لها ولا جدوى منها .

والأخرى: المعتزلة ومعهم السلطة الحاكمة ؛ وهم يرغبون في شغل الأذهان بمسائل الفلسفة اليونانية بعد خلطها بتعاليم الدين ، وخلق مزيج غريب منها ، ترى فيه النقل مشوهاً والعقل جانحاً إلى أوهام باطلة .

ونحن على انقضاء ألف عام على هذه المحنة نسأل : أكان المعتزلة

مخلصين للعقل ومنطقه يوم استعانوا بسيف الحكومة على إيذاء خصومهم في الرأي ؟ ! .

إن مجادلات بيزنطة انتقلت للأسف إلى محافل هذه الحضارة الطريفة النظيفة ، فلوت عنانها وهدت كيانها ، لكن الترف العقلي الآثم أتاح لذوي السلطة ومن مالأهم من المعتزلة أن يحدثوا هذا التيار الدخيل ، وأن يحاولوا سوق الأمة جمعاء معه .

بيد أن العلماء القادة قاوموا بعنف وجِدٍّ هذا الابتداع ، وقرروا أن يحيوا التراث الإسلامي ويصونوه ، وتولى إمامة الناس إلى هذا الهدف الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى[1] .

ومن الخطأ الظن بأن النزاع الذي احتدم كان من أجل أن يقول الإمام أحمد : إن القرآن مخلوق ... ألخ .

١ ـ إن النزاع دار حول التزام خطة السلف أو المروق منها .

٢ ـ وحول شغل الناس ببدع علم الكلام ، أو شغلهم بالجهاد والإنتاج ؛ كما كانوا مع رسول الله ﷺ وخلفائه رضي الله عنهم .

٣ ـ وحول وظيفة الحاكم ؛ أهي تيسير اللغو للناس وسوقهم إليه ؟ . أم فقه الإسلام وحمل لوائه ؟ .

هذه حقيقة المعركة التي التف فيها جموع المسلمين حول ابن حنبل

(١) دفاع عن العقيدة والشريعة . محمد الغزالي .

ضد الحاكم الشارد وحواشيه من العلماء المرتزقة . والذين تتبعوا الجدل الذي دار يعرفون هذه الحقيقة .

فإن ابن حنبل كان بادي الحرص على تجنب لسانه النطق بكلمة تنبئ بأي إقرار لموضوع البحث ؛ إنه لم يقل بقدم القرآن ، ولم يوافق على القول بحدوثه ، لأنه يريد أن يقول : هذا مشروع لا أعترف بمَشْرُوعِيَّةِ الكلام فيه سلباً أو إيجاباً .

الرجل يريد التزام المنطق الإسلامي ، الذي ألفه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، ويكره ـ تحت آلات التعذيب وكي السياط ـ أن يحيد عن هذا الصراط قيد أنملة .

ولكي نعرف الأثر العلمي والاجتماعي لوقفة ابن حنبل هذه ، نذكر كلمة لإمام السنة ـ وهو علي بن المديني الذبي يقول : إن الله عز وجل أيد هذا الدين بأبي بكر الصديق يوم الردة ، وبعمر بن عبد العزيز حين رد المظالم إلى أهلها ـ لما استبد ملوك بني أمية بالأمة ـ وبأحمد بن حنبل يوم محنته .

لقد خرج ابن حنبل من السجن بعد سنتين ، ولكن جلادته واستماتته قتلتا المعتزلة ، وأبقت كتلة الأمة بمنجاة عن اعتناق قضايا كهنوتية متطفلة على العقل الإسلامي وفقهه[1] .

---

(١) نفس المصدر السابق .

صورة كتاب ابن حنبل لمسدد بن مسرهد

ولزيادة الفائدة فقد رأيت أن أضع بين يدي القارىء الكريم ، صورة الكتاب الذي كتبه الإمام أحمد بن حنبل إلى مسدد بن مسرهد ؛ في القول بخلق القرآن والقدر والرفض والاعتزال ، إلى غير ذلك من الأشياء التي حصلت بسببها الفتن :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل في كل زمان بقايا من أهل العلم ، يدعون من ضل إلى الهدى ، وينهون عن الردى ، ويحيون بكتاب الله الموتى ، وبسنة رسول الله ﷺ أهل الجهالة والردى ، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه ، وكم من ضال تائه قد هدوه ، فما أحسن آثارهم على الناس ؛ ينفون عن دين الله تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الضالين ، الذين عقدوا ألوية البدع وأطلقوا عنان الفتنة ، مخالفين في الكتاب ، يقولون على الله وفي الله - تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً - وفي كتابه بغير علم ، فنعوذ بالله من كل فتنة مضلة ، وصلى الله على محمد النبي وآله وسلم تسليماً .

أما بعد : وفقنا الله وإياكم لكل ما فيه رضاه وطاعته ، وجنبنا وإياكم ما فيه سخطه ، واستعملنا وإياكم عمل الخاشعين له العارفين به

الخائفين منه ، فإنه المسؤول ذلك . وأُوصيكم ونفسي بتقوى الله العظيم ولزوم السنة والجماعة ، فقد علمتم ما حل بمن خالفها وما جاء فيمن اتبعها ، فانه بلغنا عن النبي ﷺ أنه قال : « إِنَّ اللهَ لَيُدْخِلُ الْعَبْدَ الْجَنَّةَ بِالسُّنَّةِ يَتَمَسَّكُ بِهَا » . وأمركم أن لا تؤثروا على القرآن شيئاً فإنه كلام الله ، وما تكلم الله به فليس بمخلوق ، وما أخبر به عن القرون الماضية فليس بمخلوق ، وما في اللوح المحفوظ وما في المصحف ، وتلاوة الناس ، وكيفما قرئ وكيفما وصف فهو كلام الله غير مخلوق ، فمن قال : مخلوق ، فهو كافر بالله العظيم ، ومن لم يكفره فهو كافر . ثم من بعد كتاب الله سنة نبيه ﷺ والحديث عنه وعن المهديين من أصحاب النبي ﷺ والتابعين من بعدهم ، والتصديق بما جاءت به الرسل ، واتباع السنة نجاة ، وهي التي نقلها أهل العلم كابراً عن كابر.

واحذروا رأي جهم ؛ فإنه صاحب رأي وكلام وخصومات ، وأما الجهمية ، فقد أجمع من أدركنا من أهل العلم أنهم قالوا : إن الجهمية افترقت ثلاث فرق ؛ فقالت طائفة منهم : القرآن كلام الله وهو مخلوق. وقالت طائفة : القرآن كلام الله . وسكتت ، وهي الواقفة الملعونة . وقالت طائفة منهم : ألفاظنا بالقرآن مخلوقة . فهؤلاء كلهم جهمية كفار يستتابون ، فإن تابوا وإلا قتلوا . وأجمع من أدركنا من أهل العلم على أن من هذه مقالته - إن لم يتب - لم يناكح ، ولا يجوز قضاؤه ، ولا تؤكل ذبيحته .

والإيمان قول وعمل يزيد وينقص ؛ زيادته إذا أحسنت ، ونقصانه

إذا أسأت . ويخرج الرجل من الإيمان إلى الإسلام ، فإن تاب رجع إلى الإيمان ، ولا يخرجه من الإسلام إلا الشرك بالله العظيم ، أو يرد فريضة من فرائض الله جاحداً لها ، فإن تركها كسلاً أو تهاوناً بها كان في مشيئة الله ، إن شاء عذبه ، وإن شاء عفا عنه .

وأما المعتزلة : فقد أجمع من أدركنا من أهل العلم ، أنهم يكفرون بالذنب ومن كان منهم كذلك ؛ فقد زعم أن آدم كان كافراً ، وأن إخوة يوسف ـ حين كذبوا أباهم يعقوب عليه السلام ـ كانوا كفاراً ، وأجمعت المعتزلة على أن من سرق حبة فهو كافر . وفي لفظ : في النار ؛ تبين منه امرأته ، ويستأنف الحج إن كان حج ، فهؤلاء الذين يقولون بهذه المقالة كفار ، وحكمهم ألا يكلموا ، ولا يناكحوا ، ولا تؤكل ذبائحهم ولا تقبل شهادتهم حتى يتوبوا .

وأما الرافضة ؛ فقد أجمع من أدركنا من أهل العلم أنهم قالوا : إن علي بن أبي طالب أفضل من أبي بكر . فمن زعم أن علي بن أبي طالب أفضل من أبي بكر فقد رد الكتاب والسنة . يقول الله تعالى : (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ) ، فقدم الله أبا بكر بعد النبي ، ولم يقدم علياً ، وقال النبي ﷺ : « لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً ، وَلَكِنَّ اللهَ قَدِ اتَّخَذَ صَاحِبَكُمْ خَلِيلاً ـ يعني نفسه ـ وَلَا نَبِيَّ بَعْدِي » .

ومن زعم أن إسلام علي كان أقدم من إسلام أبي بكر فقد أخطأ ، لأن أبا بكر أسلم وهو يومئذ ابن خمس وثلاثين سنة ، وعلي يومئذ

ابن سبع سنين ؛ لم تجر عليه الأحكام ولا الحدود ولا الفرائض .

ونؤمن بالقضاء والقدر ، خيره وشره وحلوه ومره من الله ، وأن الله خلق الجنة قبل خلق الخلق وخلق لها أهلاً ، ونعيمها دائم ، فمن زعم أنه يبيد من الجنة شيءٌ فهو كافر . وخلق النار قبل خلق الخلق وخلق لها أهلاً ، وعذابها دائم ، وأن الله يخرج أقواماً من النار بشفاعة الرسول ﷺ وأن أهل الجنة يرون ربهم بأبصارهم لا محالة . وأن الله كلم موسى تكليماً . واتخذ إبراهيم خليلاً . والميزان حق والصراط حق ، والأنبياء حق ، وعيسى بن مريم عبد الله ورسوله وكلمته ، والإيمان بالحوض والشفاعة ، والإيمان بالعرش والكرسي ، والإيمان بملك الموت ، وأنه يقبض الأرواح ، ثم ترد إلى الأجساد في القبور ويسألون عن الإيمان والتوحيد والرسل ، والإيمان بمنكر ونكير وعذاب القبر ، والإيمان بالنفخ في الصور . والصور قرن ينفخ فيه إسرافيل .

وأن القبر الذي هو بالمدينة قبر النبي ﷺ معه أبو بكر وعمر . وقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن عز وجل ، والدجال خارج في هذه الأمة لا محالة ، وينزل عيسى بن مريم إلى الأرض فيقتله بباب لد ، وما أنكرته العلماء من أهل السنة من الشبهة فهو منكر .

واحذروا البدع كلها ، ولا عين تطرف بعد النبي ﷺ أفضل من أبي بكر ، ولا عين تطرف بعد أبي بكر أفضل من عمر ، ولا بعد عمر عين تطرف أفضل من عثمان ، ولا بعد عثمان بن عفان عين تطرف أفضل من علي بن أبي طالب . قال أحمد كنا نقول : أبو بكر وعمر

وعثمان ونسكت عن علي ، حتى صح لنا حديث ابن عمر بالتفضيل .

قال أحمد : هم والله الخلفاءُ الراشدون المهديون . وأن نشهد للعشرة أنهم في الجنة ؛ أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح ، فمن شهد له النبي ﷺ بالجنة شهدنا له بها .

ورفع اليدين في الصلاة زيادة في الحسنات ، والجهر بآمين عند قول الإمام : (وَلَا الضَّالِّينَ) ، والصلاة على من مات من أهل هذه القبلة ، وحسابهم على الله عز وجل ، والخروج مع كل إمام خرج في غزوة وحجة . والصلاة خلف كل بر وفاجر ، صلاة الجمعة والعيدين ، والدعاءُ لأئمة المسلمين بالصلاح ، ولا نخرج عليهم بالسيف ، ولا نقاتل في الفتنة ، ولا نتألى على أحد من المسلمين أن يقول : فلان في الجنة وفلان في النار . إلا العشرة الذين شهد لهم النبي ﷺ بالجنة ، والكف عن مساوئ أصحاب رسول الله ﷺ .

تحدثوا بفضائلهم وأمسكوا عما شجر بينهم . ولا تشاور أهل البدع في دينك ، ولا ترافق أحداً منهم في سفرك ، وصِفوا الله بما وصف به نفسه ، وانفوا عن الله ما نفاه عن نفسه ، واحذروا الجدال مع أصحاب الأهواء ، ولا نكاح إلا بولي وخاطب وشاهدي عدل ، والمتعة حرام إلى يوم القيامة ، والتكبير على الجنائز أربع ، فإن كبر الإمام خمساً فكبر معه ، كفعل علي بن أبي طالب . قال عبد الله بن مسعود : كبر ما كبر إمامك . قال أحمد : خالفني الشافعي ، فقال : إن زاد

على أربع تكبيرات تعاد الصلاة ، واحتج بحديث النبي ﷺ أنه صلى على جنازة فكبر أربعاً . وفي رواية صلى على النجاشي فكبر أربعاً .

وزاد ابن مفلح في المقصد الأرشد : من طلق ثلاثاً في لفظ واحد فقد جهـل وحرمت عليه زوجته . ولم أجد هذه الزيادة في رواية الحافظ ابن الجوزي .

والمسح على الخفين للمسافر ثلاثة أيام ولياليهن ، وللمقيم يوم وليلة . وصلاة الليل والنهار مثنى مثنى ، ولا صلاة قبل العيد ، وإذا دخلت المسجد فلا تجلس حتى تصلي ركعتين تحية المسجد ، والوتر ركعة والإقامة فرادى . أحيوا عمل أهل السنة ، على ما كان منهم . أماتنا الله وإياكم على الإسلام والسنة ، ورزقنا وإياكم العلم ، ووفقنا وإياكم لمـا يحب ويرضى[1] . أ . هـ .

التكسب بالقرآن

منّ الله على أمة الإسلام بكتابه السماوي المقدس ، وبخاتم رسله محمد ﷺ الذي أنقذ البشرية من جهالة الجاهلية ومن الظلمات إلى النور ، كما دعا القرآن الكريم إلى محاربة وترك ما درج عليه الآباءُ وتعبدوه ؛ حيث أعلن الحرب على الوثنية ودعاتها ، ودعا إلى توحيد الله سبحانه وتعالى ، وتخليص الإنسانية من التردي والضياع .

(١) انظر المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل : ص ٩ – ١٢ لابن بدران .

كما أبان لأهل العقيدة والتوحيد أهدافه السامية التي يجب التزامها ، وأن يعضوا عليها بالنواجذ ، والتي تكاد تلتقي عند هدف واحد ؛ هو هداية الناس ، والدعوة إلى عبادة رب الناس عن علم ومعرفة وتبصر ، للوصول إلى سعادتي الدنيا والآخرة ، والفوز في الدارين .

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى : (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)[1] . وقوله : (هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)[2] وقوله : (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)[3] .

لأجل هذا أُنزل القرآن على رسول الإسلام ﷺ لخير البشرية وسعادتها في الدنيا والآخرة .

وفي أيامنا هذه ـ وأمام المساجد الكبرى ـ يتكدس حفظة القرآن على الأبواب ؛ يتكسبون ببعض آيات كتاب الله ، ويعرضون على زوار الأضرحة بعض سور القرآن وبأبخس الأثمان ، وأيام الجمع والمواسم والأعياد تزدحم المقابر بهؤلاء القراء ليستجيبوا ـ في نظير قروش ـ لرغبات المترحمين على موتاهم بتلاوة بعض السور ، هذه سلعتهم التي ينفقونها بأرخص الأثمان ! ![4] .

(١) سورة ابراهيم : ١ .

(٢) سورة الجاثية : ٢٠ .

(٣) سورة الإسراء : ٩ .

(٤) أما مدارس الشعوذة والحجابة والدجل ، الذين يتخذون القرآن مهنة للتكسب والارتزاق ، فقد راج سوقهم وعم بلاؤهم ؛ فهم يستخدمون بعض السور والآيات في أعمالهم الشركية =

أما ما لا يجوز إغفاله والتهاون فيه ، فهو تلاوة آي الذكر الحكيم وترتيله ، حيث أصبح مهجوراً ، بل ونسياً منسياً . ذلك أن تلاوة القرآن تحتاج إلى نظرة تصحيح . قال السيوطي : يكره اتخاذ القرآن معيشة يتكسب به[1] .

وحول استئجار بعض المقرئين لتلاوة القرآن وإهدائه للميت ، فهذا لم يفعله أحد من السلف ، ولا أمر به أحد من أئمة الدين ولا رخص فيه ، والاستئجار على التلاوة نفسها غير جائز بلا خلاف ، وإنما اختلفوا في جواز الاستئجار على التعلم ونحوه ، مما فيه منفعة تصل إلى الغير . والثواب لا يصل إلى الميت إلا إذا كان العمل لله[2] .

إننا لا نريد أن يكون هذا الكتاب العزيز شارة للمتعطلين وذوي العاهات ، ومورداً للمرتزقة يقرؤونه على أبواب المساجد وقارعة الطريق ، وعلى الموتى في قبورهم ؛ يشترون به ثمناً قليلاً . فقراءة القرآن وسؤال الناس بعدها أمر مذموم ، فإن القرآن أمانة الله لدينا ، وأعظم شيء بيننا ؛ لأنه كلام الله فلا يكون عرضة لحطام الدنيا الفاني ، فقد ورد في حديث رواه الترمذي وحسنه ، أن عمران بن حصين رضي الله عنه

= وشعوذاتهم الشيطانية ، وعندما يخاطب الدجال أحد المخدوعين بقوله : إذا أردت أن تربح القضية الفلانية فاقرأ سورة الإخلاص ألف مرة ، وسورة الحاقة ١٢ مرة . . . وإذا كان الأمر يتعلق بأعداء لهذا المخدوع يقول له الدجال : إذا أردت أن تخرب بيت فلان ، فعليك بقراءة سورة يس مائة مرة فسوف تبور تجارته ، أو يلحق به الأذى والهلاك . وعلى المسلمين الحذر واليقظة من هؤلاء .

(١) انظر الاتقان للإمام السيوطي .

(٢) انظر شرح الطحاوية : ص ٥١٧ .

مر على قارئ يقرأ ، ثم سأله فاسترجع[1] ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَلْيَسْأَلِ اللهَ بِهِ فَإِنَّهُ سَيَجِيءُ أَقْوَامٌ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ يَسْأَلُونَ بِهِ النَّاسَ » .

إن من بطر الحق وغمط النعمة أن يتحول القرآن من دنيا المسلمين إلى صحيفة طويلة تحوي القرآن كله بخط دقيق ، توضع داخل إطار يزينون به غرفهم ، أو إلى مصاحف ثمينة تستقر داخل علب مغلفة بالحرير ، يتبادلها الناس هدايا في مناسباتهم ، ويضعونها في واجهات المتاجر أو السيارات لتجلب البركة وتدفع السوء كحرز وغيره ، كما يفعل ذلك بعض البلهاء وغيرهم من أصحاب الطرق الصوفية .

أقول : إن بركة القرآن في العمل به وإفساح المجال أمامه ليؤدي رسالته في الحياة : (وَهٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)[2] .

إن القرآن أصبح تراثاً سماوياً يملكه المسلمون ، وهو للإنسانية مصدر غنى واسع ينفحها بكل خير وبر ، فلا تذكر فضيلة إلا ويذكر معها القرآن ؛ فهو أبوها وباعثها ، وما تواصى الناس بعدل أو مرحمة إلا وجدوا أن ذلك منبعه القرآن .

فمتى يدرك الناس ذلك يا ترى ؟ ! . لا نريد من المسلمين أن يستوعبوا

(١) معنى ذلك قال : إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . أي كأنه رأى السؤال بالقرآن مصيبة فاسترجع لها . فأين نحن وما كان عليه السلف .

(٢) سورة الأنعام : ١٥٥ .

آيات قرآنهم إتقاناً وتجويداً ثم يعزلوه عن حياتهم ، فلا يزكي لهم نفساً ولا يرفع لهم رأساً . نريد أن يتحول القرآن في صدور القراء إلى علم نافع وثقافة رشيدة ، وبهذا يترجمون ما فهموه إلى عمل نافع ، حيث تأخذ الحياة به سيرها الآمن ، ومنطلقها الرشيد ، وقرارها المطمئن[1] . فما أُنزل القرآن إلا ليفهم الناس روحه ، ويفقهوا شرائعه ومقاصده ، ويلتزموا حدوده وآدابه ، وبهذا تتحقق الغايات ، فهو لهذه الحياة فرقانها وروحها ونورها حيث تعم السعادة وتهنأ النفوس . والله تعالى يقول :

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)[2] . وكذلك قوله تعالى : (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ)[3] .

وفي القرى والمدن يستغل كتاب الله أسوأ استغلال ؛ في كتابة التعاويذ والأحجبة ، كما يعلق على الصدور قصد التبريك ، ولكتّاب الأحجبة فلسفة خاصة في تسخير القرآن ، يعجز عن إدراكها فلاسفة اليونان الأقدمون ! !.

إن الدجالين المشعوذين والمتاجرين بالقرآن لازالوا يدلسون على المسلمين ، يعالجون بآيات الله شتى الأمراض ، والجهلة من المسلمين

---

(١) راجع كتاب الإسلام المصفى .

(٢) سورة محمد : ٢٤ .

(٣) سورة ص : ٢٩ .

مضطرون إلى الانسياق وراء عاطفتهم تاركين سنة الله في الطب . ولو حاولت مناقشة هؤلاء المعوقين لسنة الله والواضعين كتاب الله موضع الحرج ، أجابوك بقول الله تعالى (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)[1] . ولهم عذرهم فإن غباوتهم قد حالت بينهم وبين أن يفقهوا أن الشفاء المشار إليه هو الشفاءُ من الجهل والمروق والعناد ، وما إلى ذلك من الأمراض المتركزة في الصدور ، كما وضحته الآية الكريمة الأُخرى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)[2] .

إن العشاق والوالهين في الحب ، والراغبين في التفرقة – حتى بين الزوجين – والساعين في كل أنواع الشر ، ليجدون عند كتاب الأحجبة ما يحقق رغباتهم ، بل إن طلاب الشفاء من الأمراض المستعصية – وهم في الغالب من السذج الجهلة – ليس لهم ملجأٌ في الريف أو البادية أو المدن إلا كتاب الأحجبة ، الذين يأخذون من القرآن ما شاؤوا لمن شاؤوا .

إن القرآن الكريم أنزله الله تعالى على نبيه ﷺ ليتلوه المؤمنون ، فتنشرح بهذه التلاوة صدورهم وتستنير أفئدتهم وقلوبهم ، وينالوا به مثوبة الله يوم القيامة – وما تقرب أحد إلى الله تعالى بمثل كلامه – ثم ليكون بعد ذلك دستور حياتهم ، ونظام مجتمعهم ، ليرسم لهم طرائق الحياة السعيدة في الحياة الدنيا ، وطرائق الفوز والنجاح في العقبى .

(١) سورة الإسراء : ٨٢ .
(٢) سورة يونس : ٥٧ .

لا أن يهجر ويترك للتسول والحجب والشعوذة[1] . والله تعالى يقول .

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَـهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)[2] .

فليس المقصود من القرآن مجرد التلاوة ، أو التماس البركة للتعويذات ، والقراءة على الأموات والتسول في الطرقات ، وفي الطرب والتغني ، كما يفعل بعض المشعوذين والدجالين[3] .

إن القرآن مبارك حقاً ، ولكن بركته الكبرى في تدبره وتفهم معانيه ومقاصده ، ثم تحقيقها في الأعمال الدنيوية والدينية على السواء ، ومن لم يفعل ذلك أو اكتفى بمجرد التلاوة بغير تدبر ولا عمل ، فإنه يخشى أن يحق عليه الوعيد الذي يرويه البخاري عن حذيفة رضي الله عنه : « يَا مَعْشَرَ ٱلْقُرَّاءِ اسْتَقِيمُوا فَقَدْ سَبَقْتُمْ سَبْقاً بَعِيداً فَإِنْ أَخَذْتُمْ يَمِيناً وَشِمَالاً فَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلَالاً بَعِيداً »[4] .

نسأل الله تعالى أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ، وأن يجعلنا من

---

(١) راجع كتاب الإسلام المصفى . (٢) سورة طـــه : ١٢٤ .

(٣) ومما يؤسف له أن القرآن أصبح مهجوراً عند جمهرة كبيرة من أبناء الإسلام ، ولم يعد له قيمة عندهم ، سوى أنه يتلى في المناسبات ؛ وعلى قبور الأموات والمآتم والأربعينيات ، كما يستجدي به الملحنون والعجزة على قارعة الطريق ، وله قيمة كبيرة عند المبتدعة والحجابين للتدليس على أبناء المسلمين ؛ بكتابة التمائم والحجب الشركية الممزوجة ببعض الآيات ، مع حروف مقطعة كالطلاسم لا تعرف ، بدعوى أنه يزيل المرض ويحقق الغرض ، وهو في الحقيقة ضلال في ضلال ، ما أنزل الله به من سلطان . فعلى المسلمين محاربة هؤلاء ومطاردتهم ، وتطهير المجتمع من فسادهم . فما أقل حياء من يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً ، وما أكثر استهتارهم بكتابه ؟ . (أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ) .

(٤) رواه البخاري .

العاملين بأحكامه والمهتدين بهديه . (رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)[1] .

هجر القرآن والإعراض عنه

إن القرآن الكريم هو كلام الله سبحانه ، وهو الحبل المتين ، وسبيل المسلمين إلى مرضاة الله رب العالمين ، تلقاه المسلمون الأولون من نبيِّهم محمدﷺ بحب وشغف ، كما يتلقى الظمآن الماء العذب الفرات ، فأولوه عنايتهم البالغة حتى أصبح شغلهم ومحط عنايتهم ورعايتهم .

لقد كان القرآن الكريم الرسالة السماوية الخاتمة ، الناسخة لما سبقها من كتب سماوية أُنزلت على أنبياء الله ورسله الكرام لفترات محدودة استنفدت أغراضها بتقدير العليم الحكيم . وبمشيئة الله وبالغ حكمته الربانية اختار للبشرية القرآن المجيد ، الدستور الخالد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

لقد عانت الإنسانية من الظلم والخسف والهوان ، وتجرعت كؤوس المنون على أيدي الطغاة والكفرة المستبدين ، الذين أعرضوا عن سبيل الله وابتغوا سبيل الطاغوت ، ودام ذلك سنين طويلة ، ولما شاء الله للحق أن يظهر وللباطل أن يدحر ، أنزل القرآن على رسوله محمدﷺ وأمره أن يبلغه لعباده فقال : (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ

(١) سورة آل عمران : ٨ .

وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ)[1] . وقال تعالى أيضاً : (مَا عَلَىٰ الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ)[2] . فبلغ ﷺ رسالة ربه ؛ فبشر وأنذر وحث وحذر ، وبين وأوضح وعلم وربى على نهج كتاب ربه أمة مؤمنة قوية عادلة ، لم تطلع الشمس على مثلها في العالم ؛ إيماناً وطاعة وهدى وفضلاً وقوة في الدين وعدلاً ، استظلت بالقرآن واعتصمت به في كل سبيل ، وعاش في كنفه منها كل قبيل ، وحرصت كل الحرص على استذكار آياته وتدبر معانيها ، وتلاوتها مع فهم مقاصدها ومراميها ، فكانت أعدل أمة بل أثمن درة في تاج تاريخ الأمم .

ذلك شأن أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان من أمة القرآن ، في عهد ازدهار الإسلام ونضارته وصولته وقوته ، وانفعال النفوس به والحفاظ على جدته ، ثم خلت قرون وتبدلت شؤون وتتابعت أحداث ، وخلف من بعدهم خلف قد استهواهم الشيطان ، فلم يسلكوا سبيل أسلافهم في القيام بحق القرآن حفظاً وتلاوة وتدبراً وفهماً ، فنالهم بشؤم ذلك كثير من الذل والهوان[3] .

أهملوا حفظ القرآن في مكاتب تحفيظه ، بل أهملوا بعد ذلك إنشاء هذه المكاتب نفسها ، فحرم الأبناء من حفظ القرآن في حداثة السن وبداية التربية ، ثم أهملوا حفظ القرآن وتدريسه في مراحل التعليم بعد ذلك في المدارس والمعاهد ، فتخرج الأبناء منها أخلياء من القرآن حفظاً ودراسة

(١) سورة المائدة : ٦٧ .
(٢) سورة المائدة : ٩٩ .
(٣) الإسلام المصفى .

قال ابن القيم رحمه الله : هجر القرآنأنواع ؛ أحدها هجر سماعه والإيمان به ، والإصغاء إليه . والثاني هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه ، وإن قرأه وآمن به . والثالث هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه ، واعتقاد أنه لا يفيد اليقين وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم .

والرابع هجر تدبره وتفهمه ، ومعرفة ما أراد المتكلم به منه . والخامس هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها ؛ فيطلب شفاء دائه من غيره ، ويهجر التداوي به .

وكل هذا داخل في قوله تعالى : (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا)[1] . وإن كان بعض الهجر أهون من بعض[2] . أ.هـ.

وحينما قررت بعض البلدان حفظ قليل من القرآن وتدريسه بمدارسها ، جعلوه مادة إضافية بين مواد التعليم ، لا يترتب على الرسوب فيها أثر ، وكأن شيئاً لم يكن ، وبذلك تقلص ظل القرآن في المدارس – في هذه الأزمنة الأخيرة – في معظم البلدان حفظاً وتعليماً . كل ذلك تنفيذاً لمخطط إجرامي أثيم اصطنعه وأحكم تدبيره أعداء القرآن والإسلام ؛ من الأجانب والمستعمرين الذين بأيديهم مقاليد التعليم في البلاد التي منيت بهم ، وتبعهم في ذلك بعض الضعفاء الإمّعات والمنافقين

(١) سورة الفرقان : ٣٠ .

(٢) الفوائد : ص ١٠٩ – ١١٠ لابن قيم الجوزية رحمه الله .

والمأجورين من أبناء البلاد[1] .

ويمكننا أن نقول - من غير مبالغة أو مغالاة : إن الشباب المسلم محروم الآن - في أكثر بلاد الإسلام - من حفظ القرآن ودراسته في المرحلة الثانوية - من مراحل التعليم - وفي الجامعات بأسرها ، وهم في السن التي يحتاجون فيها أشد الاحتياج إلى ضبط النفوس وقمع الشهوات ، والتربية الدينية والتهذيب والتوجيه إلى الخير والصلاح بوازع ديني محكم قويم ، وذلك بحفظ كثير من آيات الذكر الحكيم ، ودراسة تفسيرها وفهم معناها القويم[2] .

---

(١) بعد إبعاد المسلمين عن دينهم وقرآنهم ، من قبل أعدائهم الذين استغلوا بعض المغفلين من أبناء المسلمين لتنفيذ مآربهم الشريرة ، وذلك بقطع الصلات بين المسلم ودينه ، وتعطيل الشرع ، حتى لم يبق للقرآن وجود في المحاكم أو الشؤون العامة للمسلمين ، بل بقي تلحينه فناً من الفنون ، يذاع ضمن الأغاني والموالد والحفلات ، ويرتزق به الحجابون الدجاجلة والملحنون ، وبعض الناس يتبرك به فيعلقه - المصحف - في صدره ، أو يعلقه في مقدمة سيارته أو في ظهرها ، أو يضعه كزينة في ركن من أركان البيت كحرز للتبرك والحفظ من الشيطان ، ومع ذلك فقد يكون من الذين لا يصلون ولا يصومون ولا يفتحون المصحف - في الغالب - وهذا عمل ظاهره الطاعة وحقيقته تميمة وحرز ؛ وتعليق التمائم الشركية محرم شرعاً .

وبعد أن اطمأن الكفار والمستعمرون إلى عدم تأثير القرآن في قلوب أتباعه ، أصبح يذاع من محطات الكفر ؛ كإذاعة بريطانيا - لندن - وأميركا وإسرائيل . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

(٢) وقد ثبت عجز طلابنا وجهلهم بالقرآن أثناء المسابقات التلفزيونية ، وفي برنامج ، فكر واربح ؛ وذلك بين طلاب الجامعة الأردنية ، وقد عجز طلاب الفريقين المتسابقين عن تلاوة سورة الكوثر غيباً . وقد شاهد ذلك كل من يتابع بث التلفزيون الأردني - كما سمعت - فلا حول ولا قوة إلا بالله .

وبالإضافة إلى هذا فقد ينتهي الطالب من دراسة المرحلة الثانوية ، وليس لديه ما يقوله عن مصادر التشريع الإسلامي ، ومنزلة السنة الشريفة ـ المصدر الثاني بعد القرآن الكريم ـ **ولا شك أن في ذلك خطراً كبيراً على المجتمع الإسلامي ، وسبباً قوياً لانحلاله وتمزقه ، يحمل** تبعاته الجسام من لم يحسن الرعاية من المسؤولين عن التعليم في البلاد ، بل استهان بالأمر حتى استفحل الشر وساءت العقبى ، وأصبح الإسلام غريباً كما بدأ .

روى ابن عبد البر ، عن الضحاك بن مزاحم : « يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يُغْلَقُ فِيهِ الْمُصْحَفُ حَتَّى يُعَشْعِشَ عَلَيْهِ الْعَنْكَبُوتُ لَا يُنْتَفَعُ بِمَا فِيهِ وَتَكُونُ أَعْمَالُ النَّاسِ بِالرِّوَايَاتِ وَالْأَحَادِيثِ »[1] .

إن سبيل الرشد في هذه العماية أن نعود إلى القرآن ، فنجعله دستورنا ونطبق أحكامه في دنيانا ونلتزم بها ، فإذا وصلنا إلى درجة التشبع منه نظرنا في السنة المطهرة ، فانتفعنا بحكمة رسول الله ﷺ وسيرته العطرة وأخلاقه وعبادته . ولا يجوز أن يتكلم في السنة رجل قليل الخبرة بالقرآن أو بالمرويات ، أو ضعيف البصر والمعرفة بمناسباتها ومواقفها المختلفة .

إن طريق الخلاص من هذا الخطر الماحق والشر الداهم ـ الذي أصبح يحيط بنا من كل جانب ـ هو باتباع تعاليم الإسلام وتأمين تطبيقه

(١) انظر فقه السيرة : ص ٤٦ للأستاذ الشيخ محمد الغزالي .

وتنفيذه ، ولا يتأتى ذلك إلا باتباع السبل التالية – التي نراها كعلاج شاف لهذا الحال ، الذي نعيشه في غياب القرآن :

١ – الإكثار – في البلاد الإسلامية – من إنشاء مكاتب التحفيظ للقرآن الكريم ؛ يذهب إليها الأطفال في بدء نشأتهم ليحفظوا بعض أجزاء من القرآن الكريم عن ظهر قلب ، مع قليل من المعلومات الأولية . على أن يكون التعليم فيها إجبارياً .

٢ – وجوب حفظ أجزاء من القرآن ، لا تقل عن ثلثه في المرحلة الابتدائية للتعليم ، موزعاً في سنواتها العديدة ، مع تفسير المحفوظ تفسيراً بسيطاً للمفردات والمقصود من الآيات[١] .

٣ – متابعة ذلك في المرحلة الإعدادية والثانوية ، مع قليل من التوسع في التفسير يناسب نمو المدارك في هذا السن .

٤ – تكميل هذه المراحل في التعليم الجامعي ، حيث يكون الطالب قد كمل استعداده ، فيتم له حفظ أغلب القرآن وفهم أكثر معانيه ، وحسن التوجيه إلى أحكامه ومراميه .

(١) ويجب التنبيه على صحة النطق أثناء قراءة القرآن ، والتعود على النطق الصحيح . ولقد وصف الله هذا القرآن بقوله سبحانه : (لساناً عربياً غير ذي عوج) . ونجد من القراء – أثناء الصلاة مثلاً – من يبدل الجيم قافاً والقاف همزة أو غيناً ونحو ذلك – وهذا يكثر عند العوام وأشباههم – لذلك يجب الاحتراز من هذا الصنيع المذموم ، خوفاً من تحريف كلمات القرآن عن مواضعها . فمثلاً يختلف معنى الذين عن معنى الزين ، ومعنى القادر عن معنى الآدر ، ومعنى الرازق عن معنى الرازىء ، والسوق عن السوء . . . الخ .

لذا يجب على المسلم الحرص والعناية بكتاب الله وصيانته ، وبيانه لمن يجهلونه ولا يعرفون آدابه وأحكامه .

٥ – وفي كل هذه المراحل ، يكون هذا التعليم مادة إجبارية أساسية في التعليم ، يترتب على الرسوب فيها عدم الانتقال إلى صف أعلى . وتوضع مناهج حفظ القرآن لكل مرحلة بل لكل سنة ، على غرار مناهج العلوم الأُخرى في المدارس ، في جميع المراحل .

٦ – يختار لتدريس مادة تفسير القرآن وتحفيظه للطلاب من يتوافر فيهم العلم والصلاح والتقى والغيرة الإسلامية ، وأهلية الدعوة إلى الإسلام من المدرسين .

٧ – تخصيص مكافآت شهرية أو سنوية لمن يلي أمر التحفيظ في مكاتب التحفيظ في سائر القرى ، كما تخصص مكافآت مماثلة للحفاظ المتفوقين من الطلاب ترغيباً لهم وتشجيعاً .

٨ – إنشاءُ معاهد في البلاد الإسلامية لتجويد القرآن – بعد حفظه – وتلقي الروايات السبع المعروفة ، وذلك لتخريج حفاظ ثقات يعرفون – بإتقان – علم الروايات والقراءات ، وبعد ذلك تبقى سلسلة الروايات متصلة ، وذلك من الفرائض في حق القرآن .

٩ – على المسلمين الذين يقيمون ببلاد غير إسلامية أن ينشئوا مكاتب لتحفيظ القرآن وتدريسه ، ويمولوها بقدر الإمكان . وعليهم أن يتصلوا بالدول الإسلامية لمدهم بما في الإمكان من المساعدة . وبهذا يتمكن الأبناءُ من معرفة كتاب الله وفهمه وحفظه ، كما نستطيع بهذا السلاح الخالد أن نجابه الغزو الصليبي، وأعداءَ الإسلام

المتربصين به والمحاربين أبـــداً لعقيـــدة الموحدين . وكفى بالله وكيلا[1] . يقول تعالى : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)[2] .

مؤامرة جديدة على القرآن

لقد تتابعت الدعوات الهدامة والدس الرخيص على تراثنا الإسلامي وحضارتنا الزاهرة ، وكانت المؤامرة الجديدة هذه المرة على القرآن الكريم ؛ دستور الإسلام الخالد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وكما هو معلوم فقد تكفل الله سبحانه بحماية القرآن وصيانته ، وحفظه من عبث العابثين حيث قال تعالى : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)[2] .

أصدرت مجلة الهلال ـ المصرية ـ عدداً خاصاً عن القرآن ، نظرة عصرية جديدة ـ رقم العدد ١٢ وتاريخه كانون أول عـــام ١٩٧٠ م ، وكان العدد شاملاً لكثير من القضايا التي ركز عليها أصحاب فكرة إصدار هذا العدد ، والتي تعبر عن فحواها العبارة التي كتبت على غلاف العدد : القـــرآن ... نظرة عصرية جديدة[3] .

---

(١) مجلة هدي الإسلام ـ عمان ـ من قرارات المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي باختصار .
(٢) سورة الحجر : ٩ .
(٣) مجلة هـــدي الإسلام ـ عمان .

ولا أُريد أن أُناقش كل ما ورد في هذا العدد من مواضيع ، وليس بوسعي ذلك ، فهي كثيرة ؛ من دعوة إلى تفسير تاريخي اجتماعي عصري للقرآن ! ! . ولماذا لا تظهر قصص القرآن في السينما والمسرح ؟ ! . والقومية والأُممية في القرآن ، وتلحين القرآن بين أهل الفن ورجال الدين .

إنها مواضيع كثيرة ومختلفة ، ولذلك أود التعليق فقط على افتتاحية العدد ، وهي بقلم رئيس التحرير ، التي اختار لها عنوان: حرِّروا القرآن من هذه القيود . وهو عنوان عجيب ومثير في آن واحد .

مثير حين يقرؤه الإنسان لأول وهلة ، فيخيّل إليه أنها دعوة صادقة لإطلاق القرآن من عقاله ، الذي عقله به حكام المسلمين وحكوماتهم ، ليعود مرة أُخرى عزيزاً منيعاً يصنع مستقبل هذه الأُمة حين يحكم في كل شأن من شؤونها .

وعمّن تصدر هذه الدعوة ؟ ! . عن مجلة كالهلال ، وأُسرة تحرير كأُسرة الهلال ؟ ! . وهذا هو المثير في الأمر ، حين يقع في نفس القارئ بأن الدعوة صادقة قبل أن يعرف ما تحت هذا العنوان ؛ إنه الدس الرخيص ، والكيد الخبيث والخداع والتواطؤ . وعجيب ، حين تمضي مع الافتتاحية فتجد أن تحرير القرآن المقصود ، لا يعدو عن تحريره من كل قيمة وإجلال ، بل من كل أثر بقي له في النفوس . فما هي هذه القيود التي يريد الكاتب – الغيور – تحرير القرآن منها ؟ ! .

يبدأ الكاتب مقالته بهذا التساؤل : كيف يمكن أن ننظر للقرآن نظرة عصرية ؟ . ويقول في السياق بأنه يجب أن نتحدث بصراحة ، ونضع النقاط على الحروف ـ وذلك على حد زعمه ـ من أجل إنقاذ القرآن وتحريره من قيوده ، ولو أدى ذلك إلى ثورة دينية كثورة لوثر على الكنيسة . ويحدد الكاتب أول هذه القيود وهو : الإصرار على عدم كتابة المصحف بالخط العصري المعروف من قبل علماء الدين الإسلامي ، وهذا يشكل عقبة رئيسية أمام كل الأجيال الجديدة التي تريد أن تقرأ القرآن ، إذ أن القرآن بخطه القديم يصعب على الفهم .

وحين تصل في قراءتك للافتتاحية إلى هذا الحد تصاب بخيبة أمل شديدة ، حين ترى أن الثورة الدينية ليست على من وضعوا القرآن على الرفّ وعزلوه عن الحياة ، بل على الذين يريدون له شيئاً من بقاء ، وليت الكاتب ـ لو كان مخلصاً في هذا البند الذي أثاره ـ ليته دعا إلى قيام المعاهد الخاصة لتدريس القرآن ، وإلى زيادة حصص الدين ، وتعليم القرآن بحيث تصبح في كل مكان ـ وكقدوة خيرة ودعوة سباقة لخير الإسلام وحمايته لعقيدة المسلمين ـ ليت صاحب هذه الدعوة ـ الهدامة ـ انبرى عاملاً لإيقاظ المسلمين وإيضاح الخطر الذي يهددهم ، لا أن يكون بوقاً ناعقاً ومعولاً للهدم ، وأداة طيعة للتنصير ، ومنفذاً لمخططاتهم المدسوسة ، وجندياً مجنداً في ذيل جيش الملحدين .

لو كانت دعواه صادقة ـ من حيث صعوبة الخط القديم وعدم معرفته ـ فهذه ليست مشكلة ضخمة تستدعي الثورة والانقلاب ،

وليست بمستوى صكوك الغفران ، التي أصدرتها الكنيسة مما أدى إلى قيام ثورة لوثر . ولم يكن هذا التضليل غريباً أو جديداً على المسلمين ، بل هو صورة طبق الأصل لمزاعم الدساسين ، ونسيج الملحدين الموتورين المعادين للقرآن .

وثاني هذه القيود : هو عدم وجود تفسير عصري سهل للقرآن ، حتى يتسنى لكل شاب من شبابنا أن يفهم القرآن دون الرجوع إلى مراجع معقدة ! ! . وهذا تجاهل إما عن عمد وإما عن عناد لجهود العلماء منذ ظهور القرآن حتى الآن في التفسير والتحليل ، كل بأُسلوب عصره ، حتى يقربوا القرآن والمعاني القرآنية إلى أذهان الجميع دون عناء . وما أكثر هؤلاء العلماء لو نعدهم ، ولكنها دعوة ملفقة بالزيف والتضليل والغش والبهتان ، ولا تعدو عن نسف لكل المحاولات الصادقة التي بذلها أُصحابها في الدراسات والتفاسير ، من أجل تقريب الآيات القرآنية الكريمة إلى أذهان هذه الأجيال من أبناء المسلمين . إذ أنها تفاسير لم ترق للملحدين ولا للصليبيين الحاقدين ؛ حيث يريدون تفسيراً هزيلاً بعيداً عن نواحي التشريع أو سياسة **الأمة** ، فحينذاك لا يكون تفسيراً عصرياً ! ! .

ويدخل الكاتب في عقبات أعمق وأبعد تكبل القرآن وتقيده ! ! . ذاك [أن المؤسسات الدينية عندنا ترفض إلى أبعد الحدود الاعتراف بوسائل التأثير العصرية مثل السينما والمسرح والموسيقى والرسم والإذاعة والتليفزيون] على أن هذه المؤسسات تمنع بقوة تصوير قصص القرآن

في السينما أو تمثيلها على المسرح ، أو تلحينها في [سيمفونيات] موسيقية ؛ أو حتى لا تسمح هذه المؤسسات برسم معاني القرآن على شكل لوحات فنيـــة جذابة لتقربها إلى القرآن [فقـــد امتلأت الكنائس الغربية باللوحات الفنية الرائعة ، بل إن هناك مدرسة دينية فذة في الفنون التشكيلية] ! ! .

ولا ينسى الكاتب أن يذكر لنا أن السينما والمسرح ـ هناك ـ اعتمد على كثير من قصص الإنجيل ، حتى إن فيلماً خاصاً ظهر في الغرب عن الإنجيل ، ولهذا في نظره [إن مثل هذا الموقف ـ يعني موقف المؤسسات الدينية عندنا ـ يجب أن يتغير ، ومثل هذه القيود يجب أن تزول . . .] .

وهنا نصل مع الكاتب إلى الذروة ـ أقصد الذروة في استهجان القارئ ـ وخاصة المثقف إسلامياً ـ فهو يريد أن يلفق الدعوة إلى تمزيق قيمة القرآن في النفوس ، بدعوى تقريبها إلى العقول والأذهان . فيا لعلمائنا من رجعيين لا يقدرون قيمة هذه الدعوات ! ! . فيباعدون بين الدين والفن ، فيكونون بهذا أكبر عقبة أمام هذه الدعوة العصرية الجديدة لفهم القرآن وتحريره من قيوده ! ! . فلا قطعة موسيقية رائعة تنتشي بها الأسماع ، ولا لوحة فنية جميلة أخاذة تبهر الناظرين ، ولا فيلماً سينمائياً تصفق له النظارة ! ! .

وإنها الطامة الكبرى ؛ أن تصدر هذه المجلة صباح مساء ، وتوزع على أعين المسلمين وحكامهم دون محاسبة . وكأن شيئاً لم يكن ، وإنه

لحال يندى له الجبين ، ولتنظر أجيالنا القادمة من ينتصر ؛ أهؤلاء الدساسون المتآمرون . أم من أنزل القرآن الذي يقول : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)[1] .

تأويل القرآن وتصغير الخط

للقرآن الكريم أحكام وآداب عامة يجب على المسلمين مراعاتها وتدبرها ، لأن القرآن هو الدستور الخالد والنور الإلٰهي والعدل السماوي بين الناس ، لذا كان من الواجب على أتباع الإسلام فهم أحكام دينهم ، وآداب قرآنهم ، والالتزام بهما علماً وعملاً وتطبيقاً وحفظاً واحتراماً .

ومما يجدر ذكره أن فئات جاهلة بأحكام القرآن تقدم ـ عن قصد أو غير قصد ـ على تأويل الآيات الكريمة ، وإخراجها عن مضمونها ومرماها . لأهداف شخصية ومصالح تجارية ؛ فنجد مثلاً بعض الآيات الكريمة مكتوبة في المتاجر والمطاعم والمشارب والفنادق والملاهي وما شابه ذلك . إذ يكتب صاحب المطعم ـ في داخل مطعمه أو على بابه مثلاً قوله تعالى : (وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ هَنِيئاً)[2] . ومثل قوله تعالى : (وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ)[3] .

وهاتان الآيتان تتحدثان عن أكل وشرب أهل الجنة ، التي لا يدخلها إلا المؤمنون[4] . ومن المعروف أن المطعم يدخله المؤمن والكافر والبر

(١) سورة الحجر : ٩ . (٢) سورة المرسلات : ٤٣ (٣) سورة الواقعة : ٢١ .
(٤) راجع تفسير الجلالين : ص ٤٥٣ .

والفاجر ، فكيف يأكل الكفرة والعصاة طعام المؤمنين ؟ !. وهذا تأويل لآيات الله يخرجها عما أنزلت بخصوصه .

ولو كتب صاحب المطعم مثل قوله تعالى : (وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُواْ)[1] لكان أفضل ، ولكن هذا لا يروق لصاحب المطعم الجشع الذي يريد جمع المال بأي وسيلة .

وكذلك ما يفعله أصحاب المشارب ـ محلات المشارب كمحال عصير الفواكه ـ فإنا نجدهم يكتبون مثل الآية : (وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً)[2] . وقوله : (وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ)[3] . ومن المعلوم أن الكأس الممزوج شرابه بالزنجبيل مخصوص به أهل الجنة فقط . وكما نعلم فمحلات العصير ـ في دنيانا ـ يدخلها الصالح والطالح ، فكيف بالكفرة والمجرمين يشربون من تلك المشروبات التي جعلت للمؤمنين من أصحاب الجنة ؟ !. وهذا أيضاً خروج بآيات الله عن مضمونها .

أما أصحاب الأندية والفنادق والملاهي فنجدهم يكتبون مثلاً : (أُدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ)[4] . وهذه الآية أيضاً قصد بها أهل الجنة[5] . وما قيل عن المطاعم والمشارب يقال هنا وأشد منه ؛ لأن من الملاهي

(١) سورة الأعراف : ٣١

(٢) سورة الإنسان : ١٧ .

(٣) سورة الواقعة : ٣١ . انظر تفسير الجلالين : ص ٤٥٣ .

(٤) سورة الحجر : ٤٦ .

(٥) بتصرف عن كتاب كيف نتأدب مع المصحف : ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

والفنادق ما ترتكب فيها الفاحشة والمنكر[1] .

لذلك كان حرياً بالمسلمين التنبه والحذر من أمثال هذه الضلالات والمنكرات ، التي تنطوي على إفساد القرآن وإخراجه عن مضمونه والغاية التي من أجلها أُنزل ؛ وهي حفظ الدنيا والدين ومصالح المسلمين .

وكذلك فقد انتشرت في هذا العصر كتابة القرآن بخط صغير ، ظناً أن ذلك أيسر لحمل المصحف وأقل كلفة ، كما يعمد بعض الناس إلى كتابة القرآن في ورقة كبيرة جامعة لسوره بخط صغير جداً ـ مع أن قراءته شاقة ومجهدة ـ فهذه طرق غير مناسبة وجلال القرآن ومنزلته السامية .

أما تصغير الخط ، وكتابة القرآن في مصاحف صغيرة وبخط صغير ؛ والتي يسميها بعضهم مصاحف الجيب ، فهذا أمر مكروه أيضاً ... لأن المطلوب في كتابة القرآن الكريم أن تكون بخط واضح ، بحيث يستطيع القارئ له القراءة بدون تكلف أو مشقة أو إجهاد نظر ، وذلك لتيسير القراءة والحفظ ، أما لو كتب بخط صغير جداً تصعب قراءته ، فهذا مكروه وغير مناسب في حق كتاب الله سبحانه .

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ في مقدمة تفسيره : ومن حرمته ـ أي القرآن ـ أن لا يصغر المصحف[2] .

(١) ويجب التنبيه على أنه لا يجوز كتابة الآيات القرآنية على جسم الحائط ـ حتى المساجد ـ فلا يجوز كتابتها على جدرانها ، بل كل ذلك مكروه ، والأفضل أن تكون الآيات مكتوبة داخل إطار أو برواز محفوظ داخله ، إن كان لابد من الكتابة على المسجد .

(٢) مقدمة تفسير القرطبي : جـ ١ ـ ص ٢٥ ط دار الشعب القاهرة .

وروى الأعمش عن إبراهيم عن علي رضي الله عنه قال : لا يصغر المصحف . قلت : وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه رأى مصحفاً صغيراً في يد رجل فقال : من كتبه ؟ . قال : أنا . فضربه بالدرة وقال : عظموا القرآن . أ.هـ[1] .

وروى ابن أبي داود السجستاني عن ابن المسيب قال : لا يقول أحدكم: مسيجد . أو مصيحف . ما كان لله تعالى فهو عظيم . أ.هـ[2] .

وقال الإمام الزركشي : وتكره كتابته في القطع الصغير[3] .

وبعد: فهذه بعض الأحكام الشرعية المتعلقة بالقرآن الكريم ، خاصة ما يتعلق منها بتأويله وكتابته ، فالمطلوب أن تكتب بخط واضح بارز جميل ؛ لأنه كلام الله العزيز ، ويجب إجلاله[4] واحترامه ، وصيانته بما هو أهل له ، وعلينا الالتزام به والعمل بمضمونه ونشره بين الناس ؛ لأنه الرسالة الخاتمة والدستور الخالد ، الذي يهدي للتي هي أقوم .

---

(١) الاتقـــان في علوم القرآن : ج ٢ – ص ١٧٢ ، ١٧٣ للإمام السيوطي رحمه الله تعالى .

(٢) المصدر السابق .

(٣) راجع البرهان : ج ٢ – ص ٤٧٩ .

(٤) ومما يجب التنبيه عليه أنه يجب تعظيم المصحف واحترامه وصيانته من كل دنس وقذر ؛ إذ أجمع المسلمون على ذلك ، وحكم الفقهاء بكفر من ألقى بالقرآن – المصحف – في القاذورات ونصوا على حرمة وضعه في الأماكن المهينة ، وحرمة كتابته بمـــادة نجسة أو الاتكاء عليه واتخاذه كوسادة للنوم ، وعلى حرمة الدخول به في بيت الخلاء ، كما أفتى بذلك الإمام أبو عمرو بن الصلاح . ولا شبهة في أن جسم الميت يتحلل منه بعد الدفن قيح وصديد وسوائل نجسة ، ويصبح كالجيفة ، فإذا وضع المصحف معه – كما يفعل الجهال – تلحقه لا محالة هذه النجاسات وذلك محرم شرعاً . ولا يجوز أن يكتب على الكفن آيات قرآنية مثل : يس والكهف ونحوهما ، خوفاً من صديد الميت . أفتى به الإمام ابن الصلاح رحمه الله . انظر فتاوى شرعية : ج ١ – ص ٤٤ .

ترجمة القرآن وأضرارها

اختار الله سبحانه وتعالى صفوة من خلقه لحمل رسالاته وتبليغها للناس ، واختار من بينهم أُولي العزم من الرسل الكرام ، وكان من بينهم خاتم الأَنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله عليه وعلى أَنبياء الله ورسله أفضل الصلاة وأتم التسليم .

لقد أَنزل الله القرآن الكريم على سيدنا محمدﷺ فحمله وبلغه للناس على الوجه الأَكمل ، وكان نزول القرآن باللغة العربية على الرسول العربي الأُمي ، الذي بلغه باللسان العربي المبين إلى الثقلين ؛ الإنس والجـان .

قال سبحانه : (يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ)[1] . في هذه الآية الكريمة أمر من الله تعالى إلى النبيﷺ بأَن يبلغ تنزيل الله إلى الناس ، ولكن هل إلى قوم مخصوصين ؟ . وبأَي لغة ؟ . لا . فإن القرآن يبين المقصودين بوصول الدعوة إليهم ، ويحدد لغة التبليغ . فقال تعالى : (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)[2] .

وهكذا صدر الأَمر الإلٰهي لرسولنا محمدﷺ ليقوم بدعوة التبليغ ، وإنذار الأُمم المختلفة في لغاتها ولهجاتها ، بلسان التنزيل العربي .

(١) سورة المـائدة : ٦٧ .

(٢) سورة الشعراء : ١٩٢ ــ ١٩٥ .

فإما النطق بنص التنزيل تلاوة ، وإما لا . ولذلك تحرم قراءته بألفاظ عربية مرادفة لألفاظ القرآن[1] .

حكم ترجمة القرآن

وبخصوص ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية ؛ فقد أجمع علماءُ المسلمين على تحريم قراءة القرآن وكتابته بغير اللغة العربية ، التي نزل بها من عند الله عز وجل . وفيما يلي أقوال علماء الإسلام في حكم ترجمة القرآن :

١ – قال صاحب البرهان : لا تجوز قراءته بالعجمية ؛ سواءٌ أحسن العربية أو لا ؛ في الصلاة وخارجها ؛ لقوله تعالى : (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً)[2]. ثم قال : واستقر الإجماع على أنه تجب قراءته على هيئته التي يتعلق بها الإعجاز ؛ لنقص الترجمة عنه ، ولنقص غيره من الألسن عن البيان الذي اختص به دون سائر الألسنة . وإذا لم تجز قراءته بالتفسير العربي – لمكان التحدي بنظمه – فأحرى أن لا تجوز الترجمة بلسان غيره . أ . هـ[3] .

ثم ذكر الزركشي أقوال العلماء في ذلك فقال :

٢ – قال القفال : عندي أنه لا يقدر أحد أن يأتي بالقرآن بالفارسية[4]

(١) بتصرف من كتاب كيف نتأدب مع المصحف : ص ٩٧ .

(٢) سورة يوسف : ٢

(٣) انظر البرهان : جـ ١ – ص ٤٦٤ وما بعدها . للإمام الزركشي رحمه الله تعالى .

(٤) أي بأي لغة أخرى غير عربية . انظر البرهان : جـ ١ – ص ٤٦٥ .

قيل له : فإذن لا يقدر أحد أن يفسر القرآن . قال : ليس كذلك ، لأن هناك يجوز أن يأتي ببعض مراد الله ويعجز عن بعضه، أما إذا أراد أن يقرأه بالفارسية فلا يمكن أن يأتي بجميع مراد الله . أي أن الترجمة إبدال لفظة بلفظة تقوم مقامها ، وذلك غير ممكن بخلاف التفسير .

٣ ـ قال أبو الحسين بن فارس في كتابه فقه العربية : لا يقدر أحد من التراجمة على أن ينقل القرآن إلى شيء من الألسن . ثم قال : لأن العجم لم تتسع في الكلام اتساع العرب ؛ ألا ترى أنك لو أردت أن تنقل قوله تعالى : (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ)[1] . لم تستطع أن تأتي بهذه الألفاظ ، مؤدية عن المعنى الذي أودعته ، حتى تبسط مجموعها ، وتصل مقطوعها وتظهر مستورها فتقول : إن كان بينك وبين قوم هدنة وعهد ، فخفت منهم خيانة ونقضاً ، فأعلمهم أنك قد نقضت ما شرطته لهم ، وانْذنهم بالحرب ، لتكون أنت وهم في العلم بالنقض على سواءٍ . أ . هـ .

٤ ـ وفي مذهب المالكية : جاء في حاشية الدسوقي[2] على شرح الدردير ج ١ : لا يجوز قراءة القرآن بغير العربية ، ولا يجوز التكبير في الصلاة بغيرها ، ولا بمرادفها من العربية .

٥ ـ وفي مذهب الحنابلة : قال صاحب المغني : ولا تجزئه القراءة

---

(١) سورة الأنفال : ٥٨ .

(٢) راجع مناهل العرفان : ج ٢ ص ٥٨ بتصرف .

بغير العربية ، ولا إبدال لفظ بلفظ عربي ، سواءٌ أحسن القراءة بالعربية أم لم يحسن[1] .

٦ ـ وقال ابن حزم الظاهري : من قرأ أم القرآن ـ أي الفاتحة ـ أو شيئاً منها ، أو شيئاً من القرآن ـ في صلاته ـ مترجماً بغير العربية ، أو بألفاظ عربية ـ غير الألفاظ التي أنزل الله تعالى ـ عامداً لذلك ، أو قدم كلمة أو أخرها عامداً لذلك ، بطلت صلاته وهو فاسق ، لأن الله تعالى قال : (قُرْآناً عَرَبِيًّا) . وغير القرآن ليس عربياً فليس قرآناً . وإحالة عربية القرآن تحريف لكلام الله . وقد ذم الله تعالى من فعلوا ذلك فقال[2] : (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ)[3] . أ . هـ .

إن القرآن الكريم معجز بلفظه ومعناه ، فلا يجوز أن يسمى قرآناً ما كان بلغة غير العربية لقوله تعالى : (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا) . وقوله تعالى : (قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ)[4] .

فإذا أريد تقريب معانيه لقوم لا يعرفون العربية ، فلتكن تلك المؤلفات من باب التفاسير أو الترجمات اللفظية للمعاني ، وليست بمصاحف على الإطلاق[5] .

جاء في رسالة حكم ترجمة القرآن : ومن أسوأ هذه الأعمال وأكثرها شراً وأعظمها ضرراً وأشدها اجتراءً على كتاب الله ، ترجمته ترجمة

(١) المغني : جـ ١ للإمام ابن قدامة رحمه الله تعالى .

(٢) انظر المحلى : جـ ١ للإمام ابن حزم الظاهري رحمه الله رحمة واسعة .

(٣) سورة المائدة : ١٣ . (٤) سورة الزمر : ٢٨ .

(٥) راجع كتاب التجويد وعلوم القرآن : ص ١١٤ .

حرفية ؛ فإنها ضرب من التحريف والتغيير والتبديل ، فيما تولى الله ورسوله حفظه ، وأمرنا بالمحافظة عليه[1] .

أضرار ترجمة القرآن

ومن أوجه الحكمة في المحافظة على لغة القرآن العربي[2] ، ولئلا يلحق بالقرآن التغيير والتحريف ، وحفاظاً على سلامته ، فإني أذكر هنا بعض الأضرار التي قد تنجم عن ترجمة القرآن ، وفيما يلي بيان ذلك :

أولاً :

إن الترجمة الحرفية تستلزم المحال ، وما يستلزم المحال محال . والمحال هنا هو أنه لا بد من الوفاء بجميع المعاني الأولية والثانوية للقرآن ، وبجميع مقاصده الرئيسية ؛ التي هي الهداية والآية والتعبد .. وهذا مستحيل ؛ لأن المعاني الثانوية للقرآن مدلولة لخصائصه العليا التي هي مناط بلاغته وإعجازه ، وما كان لبشر أن يحيط بها ، فضلاً عن أن يحاكيها في كلام له .

ثانياً :

إن هذه الترجمة تشجع غير العرب على انصرافهم عن الأصل العربي ،

(١) انظر رسالة حكم ترجمة القرآن . ط مصر سنة ١٩٢٥ ، نقلاً عن ذيل الملل والنحل : ص٧٢ .
(٢) انظر مناهل العرفان : ج ٢ بتصرف .

مكتفين بما يشاع عندهم من الترجمات ، فإذا ما امتد الزمن وتعاقبت الأجيال عليها فسوف يقال : إنها القرآن . ولا يقال : ترجمة له . وربما طفح الكيل فقيل : قرآن إنجليزي أو فرنساوي أو هندي مثلاً . وبذلك يضيع ، وضياعه نكبة تغري النفوس على التحريف في دين الله ، ما دامت قد ضعفت هيمنته على اللسان العربي .

ثالثاً :

إذا فتحت أبواب الترجمة فسيؤدي ذلك إلى التزاحم الخطير عليها ؛ بمعنى أن كل أمة تترجم القرآن إلى لغتها ، وتقوم هي الأخرى بنفس الدور من لغتها إلى لغات غير لغتها ، وهكذا دواليك . وحينذاك لا يستطيع أحد أن يميز الأصل من الفرع ، ولا الصواب من الخطأ ، فتضيع الحقيقة . وأخذت كل أمة تقول ـ ادعاءً : قرآننا أصح من قرآن غيرنا[1] . وهذا أخطر الخطر ، وينطوي على الكفر الصريح .

رابعاً :

إن هذه الترجمة تذهب بالعامل المهم في مقومات المجتمع الإسلامي ، الذي يعتبر الدين هو رباطه المتين ، في علاقات الأوطان الإسلامية

(١) ونحن لا نزال نذكر ما حصل من مآسي النصرانية ؛ لاختلافاتها في أناجيلها المتعددة ؛ حيث ادعت كل طائفة من طوائفها بصحة إنجيلها ، مما أدى بهم إلى التفرق والاختلاف ؛ نتيجة للتحريف والتبديل في أناجيلها ، وغيرت معالمها حتى اختلفت نصوصها ، ولم يبق من أصول الإنجيل الأصلية إلا النزر اليسير ، لما أدخل عليه من التشويه والتزوير ، وما اعتراه من مسخ على أيدي أتباعه من الرؤساء والأحبار والرهبان وغيرهم . وفي هذا تذكرة لأولي الألباب . والعاقل من اتعظ بغيره .

داخلياً وخارجياً ، وعماد الدين الإسلامي هو القرآن العربي . .ثم إن أمة الإسلام بمثابة العقد المنظوم بحبل الله الذي يقول : (وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا)[1] . فإذا انقطع الحبل تفرقت حبات العقد وتناثرت[2] .

هذه هي الحكم التي وقى الله بها المسلمين مما كان يحيق بهم من التصرف في لغة القرآن . ولا يخفى ففي بطون التاريخ وجوه من أساطين المسلمين وأعيانهم الذين برزوا في سائر فروع العلم والمعرفة ، مع أنهم ينتمون إلى سلالات غير عربية ولكنهم تشرفوا بالإسلام ، ومن هـؤلاء:الصحابي سلمان الفارسي ـ المحارب الحـاذق . وأمير المؤمنين في الحديث الإمام البخاري ، وكذلك النسائي والترمذي ، وابن رشد في الفقه والفلسفة ، والقرطبي في التفسير ، والزمخشري في البلاغة ، هؤلاء كلهم من أصل فارسي ، وقد كان الزمخشري متعصباً للعربية فقد قال :

الحمد لله الذي جعلني من علماء العربية ، وجبلني على الغضب للعربية ، وأبى لي أن أنفرد عن صميم أنصارهم وأمتاز ، وأنضوي إلى لفيف الشعوبية وأنحاز ، وعصمني من مذهبهم الذي لم يُجْد عليهم إلا الرشق بألسنة اللاعنين ، والمشق بأسنة الطاعنين .

---

(١) سورة آل عمران : ١٠٣ .

(٢) كيف تتأدب مع المصحف : ص ١٠٠ ، ١٠١ ، وقد استفدنا من هذا السفر فوائد عظيمة . جزى الله مؤلفه عنا خيراً .

ويقول أبو الريحان البيروني – وهو أيضاً من أصل غير عربي : الهجو بالعربية أحب إليّ من المـدح بالفارسية[1] .

ولعلنا بهذا البيان نكون قد أوضحنا الحق ، واستقر في الأذهان حكم ترجمة القرآن بنصه ترجمة حرفية ، من لغته العربية إلى اللغات الأجنبية[2] .

وكذلك نأمل بأن يكون قد وضح للقارئ ما يترتب على ترجمة القرآن من أضرار تلحق بالمسلمين وقرآنهم ، الدستور الخالد الذي يهدي للتي هي أقـوم .

(١) ذكـر قولي كل من الزمخشري والبيروني الشيخ محمد سليمان في كتابه : من أخلاق العلماء . عن كتاب كيف تتأدب مع المصحف : ص ١٠١ ، ١٠٢ .

(٢) أما ترجمة تفسير القرآن – التي هي ليست بنقل لنص الآيات – ولكن المترجم يقوم بنقل ما يدل على معاني كلمات القرآن إلى كلمات غير عربية ، فهذه جائزة شريطة أن يعنونها المترجم بأنها ترجمة تفسير . والله تعالى أعلم . للمزيد راجع كتاب : كيف تتأدب مع المصحف .

الإسرائيليات في التفسير والحديث

تمهيد :

لقد كان القرآن الكريم هو المعجزة التي أيد الله بها نبيه محمداً ﷺ ؛ والدستور الذي وضعه الله لعباده ؛ فقضى به على الضلالة ، وبدد به ظلمات الجهالة .

(قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)[1] .

ومنزلة السنة الشريفة من القرآن الكريم منزلة المبيَّن من المبيِّن ، وهي في حقيقة أمرها وحي من الله يجب اتباعه ، مصداق ذلك قوله تعالى : (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ)[2] . وقوله تعالى : (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)[3] . وقوله تعالى : (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)[4] . ـ الضمير عائد للرسول ﷺ أو عائد لله تعالى لأنه الآمر حقيقة[5] ـ لذا كان القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة هما أساس الدين ودعامته ، وعليهما تقوم دعوة الإسلام ، ومنهما ينبثق الهدى والرشاد ، وتستمد البشرية سعادتها في الدنيا والآخرة .

---

(١) سورة المائدة : ١٥ ، ١٦ .
(٢) سورة النجم : ٣ ، ٤ .
(٣) سورة الحشر : ٧ .
(٤) سورة النور : ٦٣ .
(٥) أفاده العلامة أبو السعود في تفسيره .

ومن أجل هذا عُني المسلمون بكتاب ربهم؛ كتابة وحفظـاً وفهماً ، كما عنوا بسنة نبيهم ﷺ وتمسكوا بقول رسولهم عليه الصلاة والسلام حيث يقول : « تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّىٰ يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ »[1] .

وقد فهم المسلمون السنة وحفظوها ودونوها ، وقَعَّدوا لها القواعد التي تبين صحيحها من سقيمها ، وجعلوا للرواية أُصولا تقوم عليها ، وللرواة شروطاً لا بد من توفرها فيهم ، حتى يجنبوا السنة زيف المزيفين وعبث المغرضين . غير أن القرآن ـ على صفائه ونقائه ـ والسنة ـ على سلامتها وصحتها ـ لم يسلما من عبث العابثين ، فإذا بالقرآن وقد تسربت إليه أفهام سقيمة ، وشرح الكثير من نصوصه بما لا يتفق والغرض الذي نزل من أجله . وإذا بالسنة وقد تطرق إليها الدخيل ، والتبس الصحيح منها بالعليل ، وكان الدافع لهذا كله أغراض سيئة وأحقاد ملأت قلوب الحاقدين والحانقين على الإسلام والمسلمين[2] .

ولقد قيض الله للمسلمين ـ من بينهم ـ صفوة من العلماء الأعلام ، نفوا هذا الزيف وكشفوا عن هذا العبث . ورغم شدة التحذير فقد تسرب إلى التفسير والحديث بشكل واضح ذلك اللون من القصص الاسرائيلي الذي لا يصح الكثير منه ، والذي دخل معظمه إليهما عن طريق أعداء الإسلام ، الذين قصدوا تشويه جماله والحط من كماله ، والذي تناقله عنهم ـ بسلامة نية وعدم روية ـ بعض المشتغلين بالتفسير

(١ ، ٢) : الاسرائيليات في التفسير والحديث .

والحديث ، وسودوا به الكثير من كتبهم . فاغتر بها الناس وحسبوها ـ ـ ما دامت تنسب إلى هذا النفر من علماء المسلمين ـ سليمة من الزيف بعيدة عن العبث ، فصدقوها وآمنوا بها على ما فيها من أباطيل وأكاذيب[1] .

معنى الإسرائيليات

معنى الإسرائيليات : لفظ الإسرائيليات جمع مفرده إسرائيلية ؛ وهي قصة أو حادثة تروى من مصدر إسرائيلي . والنسبة فيها إلى إسرائيل ؛ وهو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ، أبو الأسباط الاثنى عشر[2] . والمقصود من الإسرائيليات أو معناها الاصطلاحي ـ كما قال بعض الباحثين المحدثين : هي اصطلاح أطلقه المدققون من علماء الإسلام على القصص والأخبار اليهودية والنصرانية التي تسربت إلى المجتمع الإسلامي ؛ بعد دخول جمع من اليهود والنصارى إلى الإسلام ، أو تظاهرهم بالدخول فيه[3] .

---

(١) الاسرائيليات في التفسير والحديث .

(٢) الاسرائيليات في التفسير والحديث : ص ١٢ .

(٣) الآلوسي مفسراً . عن الاسرائيليات وأثرها في كتب التفسير : ص ٧٣ .

أعظم ما رزئ به الإسلام

قـال الشيخ محمد عبده رحمه الله :

لم يرزأ الإسلام بأعظم مما ابتدعه المنتسبون إليه ، وما أحدثه الغلاة من المفتريات عليه ، فذلك مما جلب الفساد على عقول المسلمين ، وأساء ظنون غيرهم فيما بني عليه الدين . وقد فشت للكذب فاشية على الدين المحمدي في قرونه الأولى ، حتى عرف ذلك إلى عهد الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بل عهد الكذب على النبي ﷺ في حياته ، إلا أن عموم البلوى بالأكاذيب حق على الناس بلاؤه في دولة الأمويين ؛ فكثر الناقلون وقل الصادقون ، وامتنع كثير من أجلة الصحابة عن الحديث إلا لمن يثقون بحفظه ؛ خوفاً من التحريف فيما يؤخذ عنهم . أ.هـ.

روى الإمام مسلم في مقدمة صحيحه قال : ما رأيت أهل الخير في شيء أكذب منهم في الحديث[1] .

وهـكذا فقد اتسع شر الافتراء ، وتفاقم خطب الاختلاف ، وامتد بامتدادات الزمان . ولقد تصدى علماء الإسلام ـ سلفاً وخلفاً ـ لكشف دسائس الأعداء وسوء طويتهم ؛ هذه الدسائس التي لقيت رواجاً وقبولاً لدى بعض العامة ـ والخاصة أحياناً ـ وسيقف القارئ في الفقرات

(١) الاسرائيليات في التفسير والحديث ، للدكتور محمد حسين الذهبي رحمه الله . ومن أراد الاستزادة فعليه بهذا الكتاب الذي أجاد فيه وأفاد المرحوم الشيخ الذهبي ، جزاه الله عنا وعن المسلمين خيراً . وقد روى مسلم هذه العبارة في مقدمة صحيحة عن يحيى القطان بهذا اللفظ ، وبلفظ : الصالحين بدل أهل الخير . راجع هذه المقدمة في صحيح مسلم . ذكر ذلك الشيخ محمد عبده كما جاء في: أضواء على السنة المحمدية .

التالية على هذه الدسائس ومروجيها وأسبابها ودواعيها ، للوقوف على خطرها وتعرية أعداء الله ، ليكون المسلمون على معرفة بما يراد بهم وما يحاك ضدهم ، وما تعرضت له عقيدتهم ودستورهم التشريعي من تشويه وطعن وافتراء ، ليكون القارئُ الكريم على بَيِّنة مما يقرأ ، فلا تختلط عليه الأخبار الصادقة بالروايات الكاذبة ، ولا يقع فيما يبلبل فكره أو يهز عقيدته .

أسباب انتشار الإسرائيليات في دور التدوين

لقد استمر الشغف بالإسرائيليات . والولع بنقل هذه الأخبار – التي أصبح الكثير منها نوعاً من الخرافة – إلى أن جاء دور التدوين للتفسير ، فوجد من المفسرين من حشوا كتبهم بهذا القصص الإسرائيلي ، الذي كاد يصد الناس عن النظر فيها والركون إليها .

ومما ساعد على كثرة تسرب الإسرائيليات – إلى كتب التفسير وغيرها – ترجمة التوراة وشروحها ؛ فقد ذكر صاحب الفهرست[1] أن أحمد بن عبد الله بن سلام ترجم التوراة ترجمة دقيقة ، وبذلك قدم هذا الرجل وغيره للمفسرين مادة خصبة جديدة من الإسرائيليات يضيفونها إلى تفسير القرآن الكريم ، ومن ثم توسع المفسرون والمؤرخون في الاستعانة بهذه الترجمات في تصوير أخبار ما قبل البعثة ، وكانوا أحياناً يزيدون

(١) الفهرست لابن النديم : ص ٣٢ .

في هذه الأخبار ، وذلك كلما استبد بالمفسر الميل إلى الإغراب والتقصي لجزئيات الحوادث ، وقد جَرَّأهم على ذلك ضعف ملكة النقد عند معاصريهم[1] .

يقـــول الشيخ محمود شلتوت في فتـاويه :

يجب على المفسرين أن يضعوا حداً لصون التفسير عن هذه الإسرائيليات التي أظلمت الجو على طلاب الهداية القرآنية ، وشغلتهم عن اللب والجوهر بما ألصقته بالقرآن ، وقصروا جهودهم على النبش فيما أُلصق . وهذه كريح السموم هبت على كتب التفسير من نواح كثيرة ، في كل أمر غيبي أخبر به القرآن ، ولم يتصل به بيان قاطع عن الرسول عليه السلام مثل: اللوح المحفوظ، يأجوج ومأجوج ، الصُّور،وغيره[2] .

الإسرائيليات في الحديث

لقد حوت بعض كتب الحديث ـ على اختلاف عصورها ـ أباطيل كثيرة من أباطيل الإسرائيليات المندسة بين ثنايا هذه الكتب ، وكذلك الحال في كتب المواعظ التي تقوم على أحاديث الرقائق ، ومن ذلك مسند الفردوس للديلمي ، ونوادر الأُصول للحكيم الترمذي ، وكتاب العظمة لأبي الشيخ ، وغالب ما في هذه الكتب مثبوت في كتب التفسير المولع أصحابها برواية الإسرائيليات . وقد كفانا سلفنا من المحدثين مهمة

(١) انظر المصدر السابق .

(٢) الفتـــاوى للشيخ محمود شلتوت تغمده الله برحمته ورضوانه .

نقد تلك الكتب وبيان الجيد من الفاسد ، ودرجة كل كتاب من كتب الحديث ، وبذلك كشفوا للمسلمين ما دس وما زور من أحاديث كاذبة وأخبار واهية ، حيث التزمت الأمة الصحيح من هذه الأحاديث ونأت عن غيره ، وكل عملهم هذا رحمة للأمة وهداية إلى مصادر الحق والصدق من حديث الرسول ﷺ بأسانيد صحيحة ؛ منها ما يكون تفسيراً لما ورد في القرآن الكريم ؛ كالأحاديث الواردة في تفسير قوله تعالى في الآية ٥٨ من سورة البقرة : (وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ) .[1]

وعن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ : « قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ . فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَىٰ أَسْتَاهِهِمْ فَبَدَّلُوا وَقَالُوا : حِطَّةٌ حَبَّةٌ فِي شَعَرَةٍ »[2] .

ومنها ما خرج مخرج القصص والأمثال والمواعظ بقصد الترغيب والترهيب ؛ ومن أمثلة ذلك ما جاء في رواية للإمام مسلم ، في صحيحه ـ كتاب الزهد والرقائق ـ باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام[3] . ومن ذلك أيضاً قصة الأقرع والأبرص والأعمى ، وحديث جريح العابد ، والثلاثة الذين التجؤوا إلى الغار ... وهذه كلها وردت في صحيح البخاري ـ روايات صحيحة .

---

(١) سورة البقرة : ٨

(٢) رواه البخاري في صحيحه .

(٣) صحيح مسلم : جـ ٤ ، ص ٢٩٩ .

وهذه الأخبار الإسرائيلية التي حدث بها الرسول ﷺ لغرض العظة والعبرة صحيحة مقبولة ، ولقد وجدنا في الحديث أخباراً إسرائيلية كثيرة منسوبة إلى الرسول ﷺ ومدسوسة في الحديث افتراءً وبهتاناً ؛ كما هو الحال في التفسير الذي خالطته المدسوسات الإسرائيلية الموضوعة . ولقد قام بعملية الدس في الحديث الشريف في الغالب طائفتان ؛ هما الزنادقة والقصاص ، وقد وجدت هاتان الطائفتان في مرويات أهل الكتب والأساطير القديمة مادة خصبة ، فاستمدوا من هذين المصدرين ما شوهوا به وجه الإسلام .

من دسائس القصاصين

ما أكثر الدسائس التي حيكت خيوطها لحرب الإسلام ، وتدمير عقائده وأحكام دينه ؛ فقد تعرض الإسلام لأعداءٍ عتاةٍ لا نستطيع الوقوف لهم على حصر ، ومن جملة هؤلاء الأعداء والمعاول كان القصاصون الذين تسلقوا أسوار الإسلام وأفسدوا معاقله .

وإلى القارئ بعض هذه الدسائس :

١ - في الجنة شجرة يخرج من أعلاها الحُلل ، ومن أسفلها خيل بلق من ذهب ؛ مسرجة ملجمة بالدر والياقوت ، لا تروّث ولا تبول ، ذوات أجنحة ، فيجلس عليها أولياءُ الله فتطير بهم حيث شاؤوا [1] .

(١) تنزيه الشريعة المرفوعة : ج ٢ ، ص ٣٧٨ .

٢ - بالغ بعض القصاصين فيما يقصونه على الناس حتى خرجوا بذلك عن حد الشرع والعقل ، الأمر الذي أفزع عقلاء المسلمين ؛ فهذا قاص يحدث بقصة داود وأوريا ، فبلغ ذلك سيدنا علياً كرم الله وجهه فيقول : من حدث بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة جلدة ؛ وذلك حد الفرية على الأنبياء[1] .

وقد بين ابن قتيبة الوجوه التي يدخل فيها الفساد بقوله : والحديث يدخله الفساد من وجوه ثلاثة :

الوجه الأول :

الزنادقة واحتيالهم للإسلام - تحويلهم له عن قصده - وتهجينه بدس الأحاديث المستشنعة والمستحيلة ؛ كالأحاديث التي قدمنا ذكرها من عرق الخيل ، وعبادة الملائكة وغيرها الكثير ، ولا تخفى على أهل الحديث .

الوجه الثاني :

القصاص على قديم الأيام ، فإنهم يميلون وجوه العوام إليهم ، ويستدرون ما عندهم بالمناكير والغريب والأكاذيب من الأحاديث ، ومن شأن العوام القعود عند القاص ما كان حديثه عجباً خارجاً عن فطر العقول ، أو كان رقيقاً يحزن القلوب ويستذرف العيون .

فإذا ذكر الجنة قال فيها : الحوراء من مسك أو زعفران ، وعجيزتها

(١) راجع تفسير النسفي : جـ ٤ ص ٢٩ - ٣٠ .

ميل في ميل ، ويبوِّئُ الله تعالى وليه قصره من لؤلؤة بيضاء ؛ فيها سبعون ألف مقصورة ، في كل مقصورة سبعون ألف قبة ، في كل قبة سبعون ألف فراش ، على كل فراش سبعون ألف كذا وكذا ... فلا يزال في سبعين ألف كذا ، وسبعين ألف كذا ، كأنه يرى أنه لا يجوز أن يكون العدد فوق السبعين ألف ولا دونه . ويقول : لأصغر من في الجنة منزلة عند الله من يعطيه الله تعالى مثل الدنيا كذا كذا ضعفاً . وكلما كان هذا أكثر كان العجب أكثر ، والقعود عنده أطول ، والأيدي إليه بالعطاء أسرع . والله تبارك وتعالى يخبرنا في كتابه عما في جَنَّته بما فيه مقنع عن أخبار القصاص وسائر الخلق . ومنها أيضاً ذكر داود عليه السلام فيقول : سجد لله تعالى أربعين ليلة ، وبكى حتى نبت العشب بدموع عينيه ثم زفر ! ! .

الوجه الثالث :

إذا كان هؤلاء الزنادقة والقصاصون قد روجوا لما رووه من الإسرائيليات ونسبوها للرسول ﷺ وكان ذلك من خبث نية منهم ، فإن بعض علماء المسلمين قد وقع في مثل هذا ؛ حيث رفعوا ما هو موقوف على الصحابة أو التابعين إلى الرسول ﷺ وكان ذلك عن غفلة .

يقول الشيخ رشيد رضا : كان الرواة ينقلون عن الصحابي أو التابعي ما مصدره هذه الإسرائيليات من غير بيان ، فيغتر به بعض الناس فيظنون أنه لا بد أن يكون له أصل مرفوع للنبي ﷺ لأنه

لا يعرف بالرأي ، فيعدونه من الموقوف الذي له حكم المرفوع[1] . أ . هـ.

الإسرائيليات في كتب التاريخ

لم يسلم تاريخنا الإسلامي من الدس والتشويه ، فقد لحق به ما لحق بغيره من العلوم الإسلامية ؛ كالتفسير والحديث وغيرهما . فقد غزته الإسرائيليات وامتدت إليه أيدي السوء الملوثة ، فطمست حقائقه وأفسدت ينابيعه .

ونجد أن كتب التاريخ والسير قد اشتملت على روايات إسرائيلية مكذوبة وحوادث موضوعة ، فيظنها من يغتر بها أنها من الروايات الإسلامية وهي ليست منها في شيء .

والأخباريون والمؤرخون من شأنهم التساهل في إيراد الأحاديث ، ولا يدققون تدقيق المحدثين ، وبخاصة فيما يتعلق ببدء الخلق ، وأسرار الوجود ، وأحوال الأمم السابقة ، والملاحم والفتن المنتظرة .

يقول ابن جرير الطبري في مقدمة تاريخه : فما كان في كتابي هذا ما يستنكره قارئه أو سامعه ، من أجل إنه لم يعرف له وجهاً في الصحة ، ولا معنى في الحقيقة ، فليعلم أنه لم يؤت ذلك من قبلنا ، وإنما أوتي من قبل بعض ناقليه إلينا ، وإنما أدينا ذلك على نحو ما أدي إلينا . أ . هـ[2]

(١) تفسير المنار : جـ ٨ . ص ٣٥٦ .

(٢) تاريخ الطبري : جـ ١ . ص ٧ ، ٨ .

وقال الإمام أحمد : ثلاثة كتب ليس لها أصل ؛ التفسير والملاحم والمغازي . أ.هـ. نقد المحدثون من تصدوا للتاريخ والأخبار ، وبينوا منزلتهم في الحديث .

من رجال كتب السير في الشرق محمد بن إسحق ، ومع كونه عمدة في المغازي فقد وثقه قوم ووهاه آخرون .

ومن أمثلة ما ذكره المؤرخون مما لا صحة له :

١ – ما رواه الحافظ ابن كثير عن كعب الأحبار ؛ أن معاوية سأله عن الصخرة – يعني صخرة بيت المقدس – فقال : الصخرة على نخلة ، والنخلة على نهر من أنهار الجنة ، وتحت النخلة مريم بنت عمران وآسيا بنت مزاحم ، ينظمان سموط أهل الجنة حتى تقوم الساعة .

وروي بطريق آخر عن النبي ﷺ وعلق عليه ابن كثير بقوله : وهذا منكر من هذا الوجه بل هو موضوع . قال الحافظ ابن عساكر : وكونه من كلام بعض الأحبار أشبه .

قلت : وكلام كعب الأحبار هذا إنما تلقاه من الإسرائيليات ، التي منها ما هو مكذوب مفتعل، وضعه بعض زنادقتهم أو جهالهم وهذا منه[1] .

٢ – وفي كتب التاريخ روايات دسّت فيها على يد أعداء الإسلام ، الذين قصدوا من ورائها تشويه سمعة الإسلام ، وسمعة القائمين بالدعوة إلى الإسلام . ومن أمثلة ذلك حديث الغرانيق ؛ وقد رواه غير واحد[2]

(١) البداية والنهاية : ج ٢ . ص ٦٣ .
(٢) انظر الاسرائيليات في التفسير والحديث .

من كتاب السيرة ، وأشار إليه غير واحد من المفسرين ، ووقف عنده كثيرون من المستشرقين طويلاً ، وهو حديث ظاهر التهافت ينقضه قليل من التمحيص .

ومن أمثلة ذلك أيضاً قصة زينب بنت جحش وغيرها من القصص المدسوسة ، التي لم يسعفها أي دليل ، ولا يقبل بها أي منصف ، ولا من كان لديه مسكة من عقل أو بصيص من قيم أو أخلاق .

المستشرقون والإسرائيليات

تعرض الإسلام لمطاعن المستشرقين في معظم علومهم ، وخاصة التفسير والحديث والتاريخ ، وقد اتخذ هؤلاء الدساسون الإسرائيليات مطية لتشويه معالم الإسلام وحضارته ، واتخذوا عدة سبل لتحقيق هدفهم الأسمى ؛ وهو سلخ المسلمين عن دينهم وحضارتهم . وتتسم بحوثهم بالظواهر التالية :

١ – سوءُ الظن بكل ما يتصل بالإسلام في أهدافه ومقاصده .

٢ – سوءُ الظن برجال المسلمين وعلمائهم وعظمائهم .

٣ – تصوير المجتمع الإسلامي في عصوره المختلفة – وخاصة في عهده الأول – بمجتمع متفكك ، تسيطر عليه الأنانية والتعصب .

٤ – تصوير حضارة الإسلام بأسوأ صورة ، واحتقار تلك الآثار[1] .

(١) من المعلوم أن المستشرقين ينتهجون في أبحاثهم منهج التصيد ، الذي يعتمد على الدس والتشويه ، والتشكيك في العلوم الإسلامية وطعنها .

٥ - إخضاع النصوص للفكرة التي يفرضونها حسب شهواتهم ، والتحكم بما ترتضيه أهواؤهم ، والتحريف للنصوص كما تمليه أطماعهم ، وميزانهم الوحيد في نقولهم وأبحاثهم هو تحقيق أطماعهم ومبادئهم ، وما يستقيم معه مخططاتهم وأهدافهم الملتوية .

من هنا فقد بحث هؤلاء كل ما له علاقة بالإسلام والمسلمين - بتشجيع من حكوماتهم - وتخصص كل واحد في فن من الفنون الإسلامية ، متفرعا لهذا الفن ، ممـا ساعدهم على صبغ بحوثهم بصبغة علمية ، مما كان له أثر كبير في رسم السياسة الاستعمارية لتلك الدول التي أرادت أن تجعل من ديار الإسلام مزرعة ، بل مستعمرة لها لتحقيق أطماعها وأهدافهم الخبيثة .

آثار الإسرائيليات على الثقافة الإسلامية

لقد كان لرواية الإسرائيليات تأثير بالغ على الثقافة الإسلامية وعلومها ، وخاصة العقيدة الإسلامية ، ويظهر ذلك بوضوح في النتائج التاليـــة :

١ - استهوت بحوث هؤلاء المستشرقين - المبنية على الروايات الباطلة - عدداً من كتاب المسلمين ؛ حيث قلدوهم وساروا على نهجهم ؛ من حيث استخفافهم بالدين الإسلامي ، ورموا المسلمين بالتأخر والجهـل .

٢ ـ فتحت لأعداء الله ـ من المنصِّرين والمستشرقين ـ منفذاً ينفذون منه إلى طعن شريعتنا الغراء بسهام مسمومة . وكانت الإسرائيليات المزورة دعائم يسندون عليها مناهجهم التضليلية للنيل من الإسلام .

٣ ـ لم ينتبه كثير من أهل العلم والبحث إلى هذه الإسرائيليات ، حيث اغتروا بها وأوردوها في مؤلفاتهم ومناقشاتهم ، حتى غدت في أذهان المسلمين أحاديث صحيحة ، ومما ساعد على ذلك عدم الرجوع إلى أهل التخصص في دراسة السنة النبوية ، وما يتعلق بها من علوم ترجع إلى السند والمتن ، مما عرف عندهم بعلم الرواية والدراية .

٤ ـ كانت هذه الإسرائيليات عقبات وأشواكاً في طريق تقدم الفكر الإسلامي ، لأن علماء المسلمين قضوا وقتاً طويلاً في تنقية الطريق وتخليتها منها ، ومن جهة ثانية فقد ألحقت الإسرائيليات في التفاسير الصحيحة زعزعة واضطراباً ، وصار شغل العلماء بالإجابة عنها وبيانها ، فتشاغلوا بها عما هو أهم منها .

مقترحات

نظراً للشبهات الكثيرة والمطاعن العديدة والأخطار الجسيمة التي تعرضت لها العلوم الإسلامية ـ ومنها كتب التفسير على وجه الخصوص ـ من خلال الإسرائيليات ، والأباطيل الوهمية التي روجها أعداء الإسلام ،

تحدياً للقرآن الكريم ، وتشويهاً لسنة الهادي البشير ﷺ لذلك كان لا بد من وضع خطة حكيمة ، لصيانة كتب التفسير النقلية وحفظها من العابثين ، فإني أقترح على علماء المسلمين الأفاضل تشكيل لجنة متخصصة في فنون التفسير والرواية والنقد والحديث للقيام بما يلي :

١ - نقد هذه المجموعة المركومة من التفسير النقلي وتنقيتها ، واستبعاد ما لا يستحق منها البقاء ، ليقف المسلم الناظر في كتاب الله على ما هو خير وأبقى ، ولتخليص ثروتنا هذه من كل دخيل .

٢ - تخريج الأحاديث الواردة في كتب التفسير كما فعل الحافظ الزيلعي في كتابه - الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف - وبذلك نميز الخبيث من الطيب ، ولا يؤخذ الكل بمعيار واحد .

٣ - إلقاء المحاضرات وتوزيع النشرات ، والكتابة في المجلات والصحف ووسائل الإعلام الأخرى ؛ كالتليفزيون والراديو وغيرها ، لتنبيه أذهان الناس - المسلمين - إلى خطر هذه الإسرائيليات وأثرها . وتشديد الرقابة الصارمة على الأئمة والخطباء والمتصوفة الجهلاء والقصاص البلهاء وأترابهم ، الذين تخصص الكثير منهم في قراءة الموالد - المصنوعة المشوهة - وغسل الأموات - باسم الدين - حيث لا يجيد سوى رواية قصص الإسرائيليات التي تستهوي العامة ، ويجب فرض رقابة على كتب المدارس والوعظ ، وتنقية كتب التفسير والوعظ والإرشاد والتصوف - كإحياء علوم الدين - وبذلك يتمكن المسلم أن يعرف دينه معرفة يقينية خالية من الشبهات .

٤ ـ إعادة طبع كتب السنة المعتمدة ـ وبخاصة تلك التي نبهت على الموضوعات والإسرائيليات ـ مثل المقاصد الحسنة للسخاوي ، واللآلئ المصنوعة للسيوطي والفوائد المجموعة للشوكاني وسلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني ، حتى تتم الفائدة المرجوة بتخليص السنة النبوية مما هو دخيل عليها .

٥ ـ تأليف كتب ورسائل خاصة تجمع فيها الإسرائيليات الموجودة في كتب التفسير والحديث والتاريخ كل على حدة ، والتنبيه على زيفها ، وذلك بجمع الإسرائيليات الموجودة في كل كتاب على حدة .

وبهذا نستطيع جمع كافة الإسرائيليات الموجودة في كتب التفسير والحديث والتاريخ ليتحاشى الناس سمومها وأخطارها التي كانت من أشد الأمراض والآفات التي تعرض لها الإسلام ، وإسفيناً دفيناً زرع في قلب العقيدة وأحكام الإسلام[1] .

إن القرآن الكريم هو عماد الإسلام ودستوره ، لذا يجب على علماء المسلمين أن ينبهوا على ما أُلصق به من مفتريات وأباطيل ، وما يثار حوله من شكوك وأوهام ، وما يوجه إليه من طعون تستهدف النيل منه والقضاء عليه ، فإنه معجزة الله الخالدة ، والكتاب الناسخ لرسالات السماء الذي (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)[2] .

(١) الإسرائيليات في التفسير والحديث بتصرف .

(٢) سورة فصلت : ٤٢ .

الوضع في الحديث

الحديث الموضوع : هو الحديث المختلق المصنوع المنسوب إلى رسول الله ﷺ زوراً وبهتاناً ، سواءٌ كان ذلك عمداً أو خطأً . ورتبته أن يكون مطروحاً لا يستحق الرفع أصلاً ، لأنه ملصق بالنبي ﷺ وهو شر أنواع الحديث[1] .

ووضع الحديث عن رسول الله ﷺ كان - كما قال أحد الأئمة - أشد خطراً على الدين وأنكى ضرراً بالمسلمين من تعصب أهل المشرقين والمغربين ، وإن تفرق المسلمين إلى شيع وفرق ومذاهب ونحل لهو أثر من آثار الوضع في الدين .

وقال المرتضى اليماني في كتابه - إيثار الحق - : إن معظم ابتداع المبتدعين من أهل الإسلام إنما يرجع إلى هذين الأمرين الواضح بطلانهما . وهما : الزيادة في الدين والنقص منه . ومن أنواع الزيادة في الدين الكذب عليه .

قال ابن الجوزي : لما لم يُمَكِّن الله أحداً أن يزيد في القرآن ، أخذ أقوام يزيدون في حديث رسول الله ﷺ ويضعون عليه ما لم يقل ، فأنشأ الله علماء يذبون عن النقل ، ويوضحون الصحيح ويفضحون القبيح .

وقال سفيان الثوري : الملائكة حراس السماء ، وأصحاب الحديث حراس الأرض[2] .

---

(١) انظر تنزيه الشريعة المرفوعة : ص ٥ وما بعدها . لأبي الحسن علي الكناني .

(٢) راجع المصدر السابق .

وقال يزيد بن زريع : لكل دين فرسان ، وفرسان هذا الدين أصحاب الأسانيد .

وذكر الحافظ الذهبي في طبقات الحفاظ : أن الرشيد أخذ زنديقاً ليقتله فقال : أين أنت من ألف حديث وضعتها . فقال الرشيد : أين أنت – يا عدو الله – من أبي إسحق الفزاري وابن المبارك ينخلانها فيخرجانها حرفاً حرفاً[1] .

أسباب الوضع والكذِب

للوضع في الحديث أسباب كثيرة ، وإليك بعضها :

أولاً : ما وضعه الزنادقة – اللابسون لباس الإسلام غشاً ونفاقاً – وقصدهم بذلك إفساد الدين وإيقاع الخلاف والافتراق في المسلمين .

قال حماد بن زيد :

وضعت الزنادقة أربعة آلاف حديث . وهذا بحسب ما وصل إليه علمه واختباره في كشف كذبها ، وإلا فقد نقل المحدثون أن زنديقاً واحداً وضع هذا المقدار . قالوا : لما أُخذ ابن أبي العوجاء ليضرب عنقه قال : وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أحرم فيها الحلال وأُحل الحرام.

ثانياً : الوضع لنصرة المذاهب في أُصول الدين وفروعه ، وذلك بعد تفرق المسلمين شيعاً ومذاهب ، ودار بين المسلمين الجدال والمناظرة .

(١) تنزيه الشريعة المرفوعة .

وإليك حديثاً واحداً من هذه الأحاديث المظلمة : يكون في أمتي رجل يقال له محمد بن إدريس أضر على أمتي من إبليس . ويكون في أمتي رجل يقال له أبو حنيفة هو سراج أمتي .

ثالثاً : الغفلة عن الحفظ اشتغالاً بالزهد والانقطاع للعبادة ، وهؤلاء العباد والصوفية يحسنون الظن بالناس ، ويعدون الجرح من الغيبة المحرمة ، لذلك راجت عليهم الأحاديث وحدثوا عن غير معرفة ولا بصيرة ، فيجب ألا يعتمد على الأحاديث التي حشيت بها كتب الوعظ والرقائق والتصوف ، من غير بيان تخريجها ودرجتها .

رابعاً : ومن أسباب الوضع ما يقع ممن لا دين له ، عند المناظرة في المجامع ، ومن استدلال على ما يقوله كما يظهر له ؛ تنسيقاً لجداله وتقويماً لمقاله ، واستطالة على خصمه ومحبة للغلب وطلباً للرياسة ، وفراراً من الفضيحة إذا ظهر عليه من يناظره . هذا ما أفاده ابن الجوزي رحمه الله .

خامساً : إرضاءُ الناس واستمالتهم لحلفائهم ، ليكونوا أنصاراً لهم ؛ وكذلك شدة الترهيب وزيادة الترغيب لأجل هداية الناس[1] .

ما ذكره الإمام مسلم ـ رحمه الله ـ عن الرواة والقصاصين :

روى الإمام مسلم في مقدمة صحيحه عن عاصم قال : لا تجالسوا القصاص . وكذلك قال يحيى بن سعيد القطان : لم نر الصالحين في

(١) انظر قواعد التحديث للقاسمي رحمه الله . والكتاب جامع مانع يستحسن مطالعته .

شيء أكذب منهم في الحديث . وفي رواية أُخرى : لم نر أهل الخير في شيء أكذب منهم في الحديث . قال مسلم : يعني أنه يجري الكذب على لسانهم ، ولا يتعمدون الكذب .

قال الإمام النووي : لكونهم لا يعانون صناعة أهل الحديث ، فيقع الخطأُ في روايتهم ولا يعرفونه ، ويرون الكذب ولا يعلمون أنه كذب .

جاءَ في الحديث الصحيح أن الرسول ﷺ قال : « سَيَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي أُنَاسٌ يُحَدِّثُونَكُمْ بِمَا لَمْ تَسْمَعُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُمْ لَا يُضِلُّونَكُمْ وَلَا يَفْتِنُونَكُمْ »[1] .

عاقبة من يكذب على النبي ﷺ

عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « مَنْ يَقُلْ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ »[2] .

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا تَكْذِبُوا عَلَيَّ فَإِنَّهُ مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَلِجِ النَّارَ »[3] .

إن الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم هو مشرع كبير ، لم يدع خيراً إلا وقد دل أمته عليه ، ولا شراً إلا وقد نبهها منه ؛ فقد نهى ﷺ المسلمين أن يتحدثوا كذباً عنه ، وهذا واضح في منطوق

(١) رواه مسلم في صحيحه . (٢) جواهر البخاري وشرح القسطلاني .
(٣) متفق عليه . فليلج النار : أي فليدخل فيها . هذا جزاؤه ، وقد يعفو الله عنه بعد توبته .

الحديثين السابقين . والكذب عدم مطابقة الواقع ، والصدق مطابقته ، وهكذا مذهب أهل الحق .

ويجب على الوعاظ خاصة - وباقي المسلمين عامة - أن يتحروا نسبة القول إلى رسول الله ﷺ ويبحثوا عن الكتب الصحيحة الموثوقة ، ولا يجازفوا ولا يطلعوا على الكتب الواهية الضعيفة ، وخاصة بعض كتب الزهد والرقائق والتصوف المحشوة بالأحاديث الموضوعة والضعيفة ، والقصص الخرافي والأساطير الإسرائيلية .

فمن الكبائر الكذب على رسول الله ﷺ وتحريم حلال أو تحليل حرام .

قال النووي : الحديث يشتمل على فوائد ، منها تقرير لقاعدة أهل السنة ؛ أن الكذب يتناول أخبار العامة ، والساهي عن الشيء بخلاف ما هو عليه . ومنها تعظيم الكذب على النبي - عليه الصلاة والسلام - وأنه فاحشة عظيمة ، ولكن لا يكفر بهذا الكذب إلا أن يستحله .

وحكى إمام الحرمين عن والده ؛ أنه يكفر ويراق دمه . ثم من كذب عليه ﷺ عمداً في حديث واحد فسق ، وردت رواياته ، وبطل الاحتجاج بجميعها[1] . أ . هـ .

وقال الخطابي : ظاهره أمر ، ومعناه : خبر يريد أن الله يبوئه مقعده من النار[2] .

---

(١) جواهر البخاري : ص ٨٦ .

(٢) المصدر السابق نفسه .

فتوى الإمام ابن حجر الهيثمي
في خطيب لا يبين مخرجي الأحاديث

في فتاواه الحديثية ـ صفحة ٣٢ طبع سنة ١٣٠٧ هـ ـ القاهرة ـ جاء ما نصـــه :

سئل رضي الله عنه في خطيب يرقى المنبر في كل جمعة ، ويروي أحاديث كثيرة ولم يبين مخرّجيها ولا رواتها ، فما الذي يجب عليه ؟ .

فأجاب بقوله : ما ذكره من الأحاديث في خطبه ، من غير أن يبين رواتها أو من ذكرها ، فجائز بشرط أن يكون من أهل المعرفة في الحديث، أو ينقلها من مؤلفه كذلك . وأما الاعتماد في رواية الأحاديث على مجرد رؤيتها في كتاب ، ليس مؤلفه من أهل الحديث ، أو في خطب ليس مؤلفها كذلك ، فلا يحل ذلك ، ومن فعله عليه التعزير الشديد . وهذا حال أكثر الخطباء ؛ فإنهم بمجرد رؤيتهم خطبة فيها أحاديث حفظوها وخطبوا بها ، من غير أن يعرفوا أن لتلك الأحاديث أصلاً أم لا . فيجب على حكام كل بلد أن يزجروا خطباءها عن ذلك ، ويجب على حكام بلد هذا الخطيب منعه من ذلك إن ارتكب .

ثم قال : فعلى هذا الخطيب أن يبين مستنده في روايته ، فإن كان مستنداً صحيحاً فلا اعتراض عليه ، وإلا ساغ الاعتراض عليه . بل وجاز لولي الأمر ـ أيد الله به الدين وقمع بعدله المعاندين ـ أن يعزله من وظيفة الخطابة ، زجراً له عن أن يتجرأ على هذه المرتبة السنية بغير حق[1].

(١) انظر قواعد التحديث : ص ١٦١ .

علم الكلام

إن علم الكلام تصح دراسته والتوسع فيه ، ولا يمانع فيه ديننا الحنيف ؛ وذلك عندما يكون تصويراً مجرداً للعقائد الإسلامية ، وشرحاً سليماً لبراهينها ، ورداً للشبهات التي قد تثار عليها من أعداء الأُمة ، وذوي الدعوات والنزعات الإلحادية الهدامة .

ومن حيث شيوع علم الكلام ؛ من أبحاث فلسفية ، وتكلفات عقلية ، وتوليدات خلقها الفراغ وتخمينات أساسها الحدس ، فذلك ما يجب نبذه وتطهير الثقافة الإسلامية منه .

وقد شن أئمة السلف حملة شعواء على هذا العلم ؛ لاسترساله في عرض قضايا وفرضها ، مما دعا للهجوم عليه وعلى المروجين وفلسفاتهم وتقعراتهم الكلامية[1] .

وإلى القارىء الكريم بعض المواقف الإسلامية لعظماء المسلمين وفقهائهم حول مواقفهم من علم الكلام ، حيث إن التقعّر في ما وراء المادة ضلال وانحراف .

فهذا الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه يضرب وينفي المصري الذي أرسله ابن العاص إليه ، الذي وجده يتكلم في شيء يشبه علم الكلام ، وذلك بسؤاله عن معنى الاستواء وأمثاله من المتشابه ، كما أمر الناس بمقاطعته .

---

(١) دفاع عن العقيدة والشريعة : ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

والإمام مالك رضي الله عنه لما سئل عن ذلك عد السؤال بدعة ، وجوابه مشهور معروف وقال : لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء . قال أحد أصحابه : أراد أهل الكلام[1] .

والإمام أبو حنيفة نهى ابنه عن مناظرة رجل كان يريد أن يناظره في القدر ، وأمره ألا يعود . ومنع أصحابه من الصلاة خلف رجل كان يتكلم في خلق القرآن . وآخر كان يرد عليه فقيل له : الأول ينكر قدم القرآن ، فما بال الآخر ؟ . قال : ينازع في الدين - بطريق المشاركة - والنزاع في الدين بدعة . وروي عنه النهي عن الصلاة خلف أصحاب الكلام .

والإمام أحمد بن حنبل قال : علماء الكلام زنادقة . وقال : لا يصلح صاحب الكلام أبداً[2] .

والإمام الشافعي قال : حكمي في أهل الكلام ؛ أن يضربوا بالجريد والنعال ، ويطاف بهم في العشائر والقبائل ويقال :

هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة ، وأقبل على الكلام أهل البدعة .

ونقل عنه أنه قال :

لأن يلقى العبد الله بكل ذنب خلا الشرك ، خير له أن يلقاه بعلم الكلام .

---

(١) انظر شرح الفقه الأكبر : ص ٦ . للإمام أبي حنيفة .

(٢) راجع أعلام الموقعين . وتلبيس إبليس : ص ٩١ .

وقال : إذا سمعتم الرجل يقول : الاسم هو المسمى أو غير المسمى ، فاشهدوا أنه من أهل الكلام[1] .

والغزالي - رجع إلى مذهب السلف - ذكر ذلك في كتابه - إلجام العوام - وأعرض عن تلك الطرق جملة حتى مات وصحيح البخاري على صدره[2] .

والشهرستاني يقول في الفلاسفة والمتكلمين :

لعمري لقد طفْتُ المعاهد كلها وسيَّرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعاً كف حائر على ذَقنٍ أو قارعاً سن نادم

جاء في شرح الطحاوية : وسبب الإضلال الإعراض عن تدبر كلام الله وكلام رسوله ، والاشتغال بكلام اليونان والآراء المختلفة ، وإنما سمي هؤلاء أهل الكلام ؛ لأنهم لم يفيدوا علماً لم يكن معروفاً ، وإنما أتوا بزيادة كلام قد لا يفيد ، وهو ما يضربونه من القياس لإيضاح ما علم بالحس .

وإن كان هذا القياس وأمثاله ينتفع به في موضع آخر ومع من ينكر الحس ، وكل من قال برأيه وذوقه وسياسته - مع وجود النص أو عارض

---

(١) المصدر السابق .

(٢) انظر كتاب دفاع عن العقيدة والشريعة . ومن المعلوم أن أبا حامد الغزالي - رحمه الله - واحد من أساطين رجال التصوف والفلسفة وعلم الكلام في عصره ، وقد ترك عدة كتب لا زالت مراجع معتبرة ، يستفيد منها طلاب علم الكلام والفلسفة وغيرها .

النص بالمعقول ـ فقد ضاهى إبليس ؛ حيث لم يسلم لأمر ربه بل قال : (أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)[1] .

وقال تعالى : (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً)[2] .

وقال تعالى : (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)[3] .

أقسم سبحانه بنفسه أنهم لا يؤمنون حتى يحكموه بينهم ، ويرضوا بحكمه ، ويسلموا تسليماً .

قال السيوطي : إنه يحرم الاشتغال بالفلسفة كالمنطق ؛ لإجماع السلف وأكثر المفسرين المعتبرين من الخلف . وممن صرح بذلك ـ التحريم ـ ابن الصلاح والنووي وخلق لا يحصون ، وقد رجع الغزالي إلى تحريمه[4] .

إن الكبوة التي ثوى الفكر الإسلامي فيها أمداً طويلاً ، هي بحوث ما وراء المادة ؛ لقد كان ذلك على حساب البحوث المادية والحيوية ، التي عليها المعول في قيام الإنسانية واتساع نشاطها[5] .

---

(١) سورة الأعراف : ١٢ .

(٢) سورة النساء : ٨٠ .

(٣) سورة النساء : ٦٥ .

(٤) انظر شرح الفقه الأكبر ص ٦ . وكتاب العقيدة وأثرها في بناء الجيل . د . عبدالله عزام .

(٥) المصدر السابق .

داءُ الجدل

داءٌ اعترى الإنسان منذ طفولته الاجتماعية ، واستحكم وتفشى في الأُمم في دور انحطاطها ، فأثمر فرقاً ونحلاً وانشقاقاً مخيفاً .

غزا هذا الداءُ اليهود منذ عصر موسى عليه السلام ؛ فجعل بأْسهم بينهم ثمانية قرون انتهت بالعصر المكابي ، وشطر الامبراطورية الرومية البيزنطية وجعلها مضرب الأَمثال .

ثم جاءَ الإسلام محذراً من أَخطاره ، مكتفياً بالجوهر الفطري ، حاضاً على القدر المشترك ، ناهياً عن السؤال عما لم يقع ، والبحث عما لا يعني ، موجهاً للعمل المثمر ، محاسباً على لحظات تذهب دون جدوى ، فعاش المسلمون أَسعد لحظة من تاريخهم ، بعيدين عن أَوباءِ الجدل .

وما أَن تسلل لهم هذا الغول البيزنطي ـ مغتنماً ظلمة عهود معلومة ـ حتى انغمسنا في مستنقع الجدل ؛ فشرعنا ننازع الله عدله ورحمته ، ونود لو أَملينا عليه إسعاد فلان للجنة ، ودفع فلان إلى النار ، ناسين أَن الله علمنا إغلاق باب الجدل ؛ كما نرى ذلك في قصة أَهل الكهف[1] .

ونهى عن الجدل صراحة حتى مع غير المسلمين ، وأَن رسول الله ﷺ أَرانا الجدل ضلالاً بعد هدى ، وظلمة بعد نور ، فقال عليه الصلاة

(١) مجلة هدي الإسلام ـ عمان . ١٣٧٩ هـ .

والسلام : « مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدىً كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ »[1] . ثم تلا : (مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً)[2] . وقال : « لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً »[3] . وقال ﷺ : « إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَىٰ اللهِ الْأَلَدُّ الْخَصِمُ »[4].

لقد قامت يد الجدل السوداء مقام اللص ، الذي أشعل البيت واختلس متوارياً بالدخان ، مغتنماً فرصة انشغال الناس بالتطفئة ، فأصبحنا نرى التاريخ يعرض علينا الامبراطورية الإسلامية في العصر العباسي الثاني ساحة جدل ، بل قراع لو أُنفق بعضه في سبيل المحافظة على جوهر الإسلام لتغير وجه التاريخ .

فقد حدثنا المسعودي[5] : أن اليمان بن الرباب ألف كتاباً في إثبات إمامة أبي بكر ، وأخاه علياً ألف كتاباً في إثبات إمامة علي بن أبي طالب فكانا يخصصان ثلاثة أيام في العام للجدل ، ويستعدان طوال العام للتفوق في جلسة العام الذي يليه ، ولا ريب أن كليهما كان يفتش عن الغث والسمين تأييداً لرأيه ودعماً لحجته ، ولا حافز غالباً لهذا الجدل المضني إلا التوجيه السياسي ، الذي يلتقط من ساحة الجدل أدلة على شرعية وجوده ، كأن الدين لدى المتجادلين – أو لدى الذين دفعوهم للجدل – سكين للتفرقة وآلة للتفوق ، وميدان للمأجورين

(١) رواه الترمذي وقال : حديث حسن . انظر تخريج الترغيب : جـ ١ ص ٧٩ – ٨١ .
(٢) سورة الزخرف : ٥٨ . راجع شرح الطحاوية : ص ٢٢١ .
(٣) فقرة من حديث شريف .
(٤) متفق عليه .
(٥) راجع تاريخ المسعودي .

والشعوبيين والممزقين ، وسوق تباع فيه الضمائر والأقلام الخبيثة المأجورة .

لقد جر علينا ذلك التناحر في ميدان الجدل وبالاً شغلنا عن معالي الأمور ، وأدخل في ثروتنا الفكرية ما عرقل سيرنا وحال دون اجتماع كلمتنا .

لقد خلت تلك القرون من الفكر ، إلا ومضات لا تكاد تضيءُ حتى تختفي ، فأصبحنا نرى بعض الملوك والقادة يرأسون ساحة الجدل حول أمور لا صلة لها بأركان الإسلام ، ويتعامون عن التتار والفرنجة الذين اتخذوا ديار المجادلين ساحة لصولاتهم وذريعة لأسهمهم ، بل رأينا ملوكاً يعدون الجوائز لمن كانت صولته على إخوانه أشد إثماً وأكثر هدماً ؛ كالجلسة التي عقدت أيام نادر شاه ملك إيران سنة ١١٥٦ هـ. وتأججت بها نار الجدل ، بين السيد عبد الله السويدي وملا باش ، اللذين تطوعا للجدل باسم السنة والشيعة .

وقد استغل الدساسون وطلائع الاستعمار هذه الثغرة ، ونفذوا منها ولا يزالون ينفذون ، فكثيراً ما نرى مجهولاً يكتب أسئلة تتعلق بمرض الجدل ، ويرسلها لبعض المعروفين بضعف العقل الاجتماعي ، وهؤلاء يصولون بالأجوبة ويهدمون ما لمْ يستطع الدهر هدمه من وحدة هذه الأمة ، وينشرون ويذيعون ما شاؤوا أو ما شاءت الأيدي المستترة وراء إقدامهم[1] .

(١) مجلة هدي الإسلام – عمان . الأردن .

وهـكذا كان الجدل باباً من أبواب الارتزاق ، ووسيلة من وسائل التقرب للعامة ، وسلماً يصعده حاملو راية الفتنة ، الذين يلقونها في هشيم الأفكار العتيقة ، فتؤجج نيراناً تلتهم الغافلين والأبرياء والودعاء .

بل لقد بالغ مرض الجدل في الصولة والتحدي ، حتى إذا ما عدموا شخصاً حياً يردون عليه ، شرعوا يردون على قوم ماتوا منذ مئات السنين ؛ كما رد الشيخ عثمان بن سند - المتوفى في القرن الماضي - على دعبل الخزاعي المتوفى منذ ثلاثة عشر قرناً[1] .

وهكذا فقد يحدث شخص قوماً بما لا دليل عليه ، ولا يكاد يعترضه آخر حتى تتأجج نار الجدل ، ناسين أن العار نصيب من نفث من حيث لا يدري .

قال شارح الطحاوية : ولا شك أن من لم يسلم للرسول نقص توحيده؛ فإنه يقول برأيه وهواه . وتفكير ذا رأي وهوى بغير هدى من الله ، فينقص من توحيده بقدر خروجه عما جاء به الرسول ، فإنه قد اتخذ في ذلك إلهاً غير الله . قال تعالى : (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ)[2] . أي عبد ما تهواه نفسه . أ . هـ[3] .

يقول الإمام الغزالي رحمه الله : فإن قلت : فعلم الجدل والكلام مذموم كعلم النجوم ، أو هو مباح أو مندوب إليه ، فاعلم أن للناس

(١) مجلة هدي الإسلام - عمان . الأردن .
(٢) الفرقان : ٤٣ .
(٣) شرح الطحاوية ص : ٢٢٢ .

في هذا غلواً وإسرافاً في إطراف ؛ فمن قائل : إنه بدعة وحرام ، وإن العبد إن يلقى الله بكل ذنب سوى الشرك خير له من أن يلقاه بالكلام . ومن قائل : إنه فرض ؛ إما على الكفاية وإما على الأعيان . وإنه أفضل الأعمال ، وأعلى القربات ، فإنه تحقيق لعلم التوحيد ونضال عن دين الله . قال : وإلى التحريم ذهب الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أئمة الحديث من السلف . وقد قال ﷺ : « هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ » . رواه مسلم . أي المتعمقون في البحث والاستقصاء .

ويخلص الغزالي إلى القول : وأما مضرته فإثارة الشبهات وتحريك العقائد ، وإزالتها عن الجزم والتصميم ، وذلك يحصل بالابتداء ، ورجوعها بالدليل مشكوك فيه ويختلف فيه الأشخاص ، وله ضرر في تأكيد اعتقاد البدعة وتثبيتها في صدورهم ، بحيث تنبعث دواعيهم ويشتد حرصهم على الإصرار عليه ولكن هذا الضرر بواسطة التعصب الذي يثور منه الجدل .

قال : وأما منفعته ؛ فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه وهيئتها ، فليس في الكلام وفاءٌ بهذا المطلب الشريف ، ولعل التخبيط والتضليل أكثر من الكشف والتعريف . ثم ينتهي إلى القول : ولعمري لا ينفك الكلام عن كشف وتعريف وإيضاح لبعض الأمور ، ولكن على الندور[1] . أ . هـ .

ألا لقد انقضى عصر الجدل الذي شغلنا عن معالي الأمور ، ودفع

(١) راجع إحياء علوم الدين .

الغزاة الافرنج والتتار قديماً ـ والمستعمرين وصنائعهم من المستشرقين والمنصِّرين وأدواتهم حديثاً ـ لاكتساح بلادنا .

ألا لقد أمرنا الله بالمحافظة على تركة السماء التي أنارت ظلام الإنسانية ، ونهانا عن الجدل ، فما بالنا نعرض عما أمرنا به ونخوض بما نهى عنه ؟ ! . ومن أراد السلامة فليلتجئ إلى حصن الأمان والسلام والسعادة ، في ظل القرآن المبين وسنة سيد المرسلين . وصدق الله العظيم : (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)[1] .

الوسوسة والهوس الديني

إننا في عصر شغل الناس فيه بحياتهم الدنيا ، وغلبت عليهم النزعة المادية البغيضة ، وللشيطان في الناس سوق نافقة وبضاعة رائجة . ولسنا نريد أن نبتكر لأبناء هذا العصر ديناً سهلاً خالصاً سائغاً للشاربين ، وإنما دين الله نفسه يسر لا عسر فيه . وهو الذي قال : (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ)[2] . وهذا نفي عام لكل حرج في الدين ، فأي حرج حقيقي صادفناه ، فلنعلم أنه من صنع الناس لا من شرع الله .

إن هناك بعض المتدينين الطيبين مصابون بمرض نفسي اسمه الوسوسة ؛ فنراهم يشددون على أنفسهم تشديداً لم يشرعه الله في كتاب ولا سنة ، ولم يرض به أحد من سلف هذه الأمة الصالحين ، الذين حملوا على

(١) سورة الحشر : ٧ .
(٢) سورة الحج : ٧٨ .

الوسوسة وأصحابها وقالوا : إنها خبل في العقل ونقص في الدين .

وأي خبل في العقل وأي نقص في الدين أجلى مما ذكره عنهم الإمام ابن قدامة الحنبلي ـ المتوفى سنة ٦٢٠هـ ـ في رسالته : ذم الموسوسين والتحذير من الوسوسة قال[1] : إن طائفة من الموسوسين قد تحققت منهم طاعة الشيطان ، حتى اتصفوا بوسوسته ، ونسبوا إلى قبول قوله وطاعته ، ورغبوا عن اتباع رسول الله ﷺ وطريقه ، حتى إن أحدهم ليرى أنه إذا توضأ وضوء رسول الله ﷺ أو صلى كصلاته أن وضوءه باطل ، وصلاته غير صحيحة ! ! .

ويرى أنه إذا فعل مثل ما فعل رسول الله ﷺ في مؤاكلة الصبيان ، وأكل طعام عامة المسلمين ، أنه قد صار نجساً يجب عليه تسبيع يده منه ، كما لو ولغ فيها كلب أو بال عليها هر ! ! .

ثم إنه بلغ في استيلاء إبليس عليهم أنهم أجابوه إلى شبيه بالجنون ، وتقارب من مذهب السوفسطائية الذين ينكرون حقائق الموجودات والأُمور المحسوسات ، فإن علم الإنسان بحال نفسه من الأُمور اليقينيات الضروريات .

وهؤلاء يغسل أحدهم عضوه غسلاً يشاهده ببصره ، ويكبر ويقرأ شيئاً بلسانه تسمعه أُذناه ، ويعلمه بقلبه بل يعلمه غيره منه ، ويتيقنه إذا رأى ذلك أو سمعه منه ، وهذا يصدق الشيطان في إنكاره

(١) العبادة في الإسلام : ص ٣١٠ .

يقين نفسه وجحده ، لما رأى ببصره وسمعه بأُذنه ثم يشك : هل فعل ذلك أم لا ؟ !.

وكذلك يشككه في نيته وقصده التي يعلمها من نفسه يقيناً - بل يعلمها غيره منه بقرائن أحواله - ومع ذلك يقبل قول إبليس في أنه ما نوى صلاة ولا أرادها ، مكابرة منه لعيانه وجحداً ليقين نفسه ؛ هل تراه متردداً متحيراً ، كأنه يعالج شيئاً يجذبه ، أو يجد شيئاً في باطنه يستخرجه ، كل ذلك مبالغة في طاعة إبليس وقبولاً من وسوسته.

ومن انتهت طاعته لإبليس إلى هذا الحد فقد بلغ النهاية في طاعته ، ثم إنه يقبل قوله في تعذيب نفسه ، ويطيعه في الإضرار بجسده بالغوص في الماء البارد ، وتارة بكثرة استعماله وإطالة الفرك مبالغة ، وربما فتح عينيه في الماء وغسل داخلها حتى يضر ببصره ، وربما أفضى إلى كشف عورته للناس ، وربما صار إلى حال يسخر منه الصبيان ويستهزئ به من يراه . أ.هـ.

قال ابن قدامة رحمه الله : فمن أراد التخلص من هذه البلبلة ، فليستشعر صحة ما ذكرناه من الحق في اتباع رسول الله ﷺ في قوله وفعله ، وليعزم على سلوك طريقته عزيمة من لا يشك في أنه عليه الصلاة والسلام على الهدي المستقيم ، وأن ما خالفه من تسويل إبليس ووسوسته ، ويتيقن أنه عدو لا يدعو إلى الخير ولا يرشد إلى طائل : (إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ)[1].

(٣) سورة فـاطر : ٦ .

ثم ليعلم أن رسول الله ﷺ وأصحابه ما كان فيهم موسوس ، ولو كانت الوسوسة فضيلة لما ادخرها الله تعالى عن رسوله وصحابته ـ خير الخلق وأفضلهم ـ ولو أدرك رسول الله ﷺ الموسوسين لمقتهم ، ولو أدركهم عمر لضربهم وعزرهم ، ولو أدركهم أحد من الصحابة لنبذهم وكرههم .

لقد كان رسول الله ﷺ يلبس الثياب التي كان ينسجها المشركون ويصلي فيها . ولما قدم عمر رضي الله عنه الجابية بالشام ، استعار ثوباً من نصراني فلبسه حتى خاطوا له قميصه وغسلوه ، وتوضأ من جرة النصرانية .

هذان طريقان واضحان ؛ طريق أولئك المرضى الموسوسين ، وطريق الرسول وأصحابه الطاهرين ، فأيهما أقوم قيلاً وأهدى سبيلاً ؟ . وأيهما أحوط لديننا ، وأجدى على دنيانا إذا اتبعناه ؟ .

لا شك أن طريق رسول الله ﷺ هو الطريق المستقيم الموصل إلى رضوان الله ، وما عداه فهي سبل متشعبة ملتوية ، على كل سبيل شيطان مضل يأمر بالسوء والفحشاء . وصدق الله إذ يقول :

(وَأَنَّ هٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)[1] .

وما أصدق ما قاله الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز : سن لنا

(١) سورة الأنعام : ١٥٣ .

رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده ـ الخلفاءُ الراشدون ـ سنناً ، الأخذ بها تصديق لكتاب الله ، واستكمال لطاعة الله ، وقوة على دين الله . ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ولا النظر فيما خالفها . فمن اقتدى بها فهو مهتد ومن انتصر بها فهو منصور ، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى ، وأصلاه جهنم وساءت مصيراً [1] ، فهذا هو مصير من انحرف عن هدي رسول الله ـ وهو اليسر والتخفيف .

ولكن لهذا الانحراف في الدنيا ثمنه قبل الآخرة ، وأمامنا هذه القصة التالية عبرة ومثلاً :

روى أبو داود وابن ماجه عن جابر بن عبد الله قال : خرجنا في سفر فأصاب رجلاً منا حجر فشجه في رأسه ، ثم احتلم فسأل أصحابه : هل تجدون لي رخصة في التيمم ؟ . فقالوا : ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء . فاغتسل فمات ، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبر بذلك فقال : « قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللهُ ! . أَلا سَأَلُوا إِذَا لَمْ يَعْلَمُوا فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعَيِّ السُّؤَالُ ، إِنَّمَا يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيَمَّمَ وَيَعْصِرَ أَوْ يَعْصِبَ عَلَىٰ جُرْحِهِ خِرْقَةً ثُمَّ يَمْسَحُ عَلَيْهِ وَيَغْسِلُ سَائِرَ جَسَدِهِ » .

فليت شعري إذا كان الرسول قد حكم على هؤلاء بأنهم : « قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللهُ » . مع جهلهم بالرخصة ، فكيف يكون حكمه على الذين يعرفون الرخصة ، ويعرفون محبة الله لإتيانها ثم يشددون على عباد الله ؟ ! ترى كم يقتل هؤلاء بتزمتهم وتشديدهم من الأنفس وهم لا يشعرون ؟ .

(١) العبادة في الإسلام : ص ٣١٢ ـ ٣١٥ . بتصرف .

ومما لا شك فيه فإن الهوس الديني من المعوقات المزمنة ، التي تعترض نهضة الإسلام في بلاد المسلمين ، وهو من أشق الأمراض الهستيرية التي ابتليت بها أمة الإسلام ، واستقرت في عقول كثير من الحمقى ؛ يسيئون إلى الإسلام أكبر إساءة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً . والغلو في الدين من أبرز عناصر الهوس الديني ، ورغم أن هذا الدين يسر ، يتفق وطاقة البشر ، ولا يجد فيه المسلم ما يشق عليه ولا ما يضنيه ويتعبه أو يعوق مصالحه ، إلا أن هؤلاء المغرورين يأبون إلا أن يتشددوا على أنفسهم وعلى المسلمين ، حتى يضعوا الإسلام في صورة مشوهة دخيلة عليه[1] .

ولسنا ندري كيف يتحقق قول الحق تبارك وتعالى في رسالة محمدﷺ : (وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)[2] . إذا كنا في عباداتنا ومعاملاتنا نجعل من الإسلام مضيقاً ومشدداً ومعسراً ؟ ! . وكيف نحقق - مع هذا الهوس - أن الله سبحانه وتعالى لم يجعل علينا في الدين من حرج ؟ ! .

إن الإسلام ينفر من الغلو في العبادات ، لأنه يعطي للأذهان عن الإسلام صورة من التشدد ، الذي لا يقره بحال من الأحوال ، ففي صحيح البخاري أن عائشة ذكرت للرسولﷺ امرأة من بني أسد لا تنام من الليل - أي تظل تتعبد فيه - فقال : « مَهْ . عَلَيْكُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ فَإِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ حَتَّىٰ تَمَلُّوا »[3] .

(١) الإسلام المصفى .
(٢) سورة الأنبياء : ١٠٧ .
(٣) رواه الإمام البخاري .

وفي صحيح البخاري أن الرسول ﷺ دخل المسجد ، فإذا حبل ممدود بين الساريتين فقال : « مَا هٰذَا الْحَبْلُ ؟ » . قالوا : حبل لزينب ، فإذا فترت تعلقت به . فقال النبي : « لَا . حُلُّوهُ . لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ » .

وفي سنن أبي داوُد أن النبي ـ صلوات الله عليه ـ أوصى أصحابه فقال : « لَا تَشَدَّدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ فَيُتَشَدَّدَ عَلَيْكُمْ ، فَإِنَّ قَوْماً شَدَّدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَشُدِّدَ عَلَيْهِمْ ، فَتِلْكَ بَقَايَاهُمْ فِي الصَّوَامِعِ وَالدِّيَارِ رَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ » .

وسأَل النبيَّ عقبةُ بن عامر أن أُخت عقبة نذرت أن تحج ماشية ، وأنها لا تطيق ذلك فقال النبي ﷺ : « إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنْ مَشْيِ أُخْتِكَ »[1] .

وكما ينفر الإسلام من الغلو في العبادات ، فإنه لا يرضى بأَن يكون تشريعه عقبة في سبيل تيسير معاملاتنا ومصالحنا وما تستلزمه تطورات الحياة ، ما دام في ذلك تحقيق الخير وسعادة البشرية .

وكذلك فإن فلسفة التشريع الإسلامي تؤكد لنا أن هذا التشريع لم يوضع إلا وفق طاقة البشر ، وأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها . ولعل من هذه الفلسفة قول الرسول ﷺ فيما رواه عبد الله بن عمر قال : كنا إذا بايعنا رسول الله ـ صلوات الله عليه ـ على السمع والطاعة يقول لنا : « فِيمَا اسْتَطَعْتَ » ! أو قال : « اسْتَطَعْتُمْ »[2] .

(١) رواه الإمام البخاري .
(٢) رواه البخاري ومسلم .

إن فلسفة التشريع تحتم أن يستقر أولاً ما فرض الله في الأذهان ، دون أن يزاحمه التطوع لأن الفرض هو الأصل ولا يحاسب الله غيره ، ومن تطوع فهو خير له . إن الأعرابي الذي جاء من أهل نجد يسأل النبي ﷺ عما فرضه الله عليه ، لم يجبه الرسول بأكثر مما فرض ، وأشار إشارة موجزة إلى التطوع وذلك ليقوم الأعرابي ، وقد استقر في ذهنه الفرض فقط ، ولم تشوش عليه زحمة النوافل . قال له الرسول ﷺ : « إِنَّ مَا فَرَضَ اللهُ عَلَيْكَ ، خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ » فقال : هل عليَّ غيرهن ؟ . قال : « لَا ، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ ، وَصِيَامَ رَمَضَانَ » . فقال : هل عليَّ غيره ؟ . قال : « لَا ، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ » . ثم أدبر الأعرابي وهو يقول : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه . فقال رسول الله ﷺ : « أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ » ، أو « دَخَلَ الْجَنَّةَ إِنْ صَدَقَ »[1] .

من هذا يتبين أن الدين الإسلامي الحنيف كله يسر ، وما على أمة الإسلام إلا أن تتدبره وأن تقتدي برسولها محمد ﷺ وبنهج الصحابة الأبرار ومن سار على دربهم من السلف الصالح ، وبهذا نصل إلى الغاية ونحقق ما ارتضاه لنا ديننا الحنيف ، ونكون بحق من الذين قال الله فيهم : (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)[2] .

وما أروع ما قاله معلم البشرية وسيد الخلق محمد بن عبد الله ﷺ – أرسله الله رحمة للعالمين – في حديثه الشريف الذي يجب أن ننقشه في صدورنا ، ليبقى دستوراً وإلهاماً ينير طريق الحياة، والمتمثل في قوله

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما . (٢) سورة آل عمران : ١١٠ .

عليه السلام : « إنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَيْسَ بِعُسْرٍ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ» . رواه البخاري .

فقدان الوازع الديني

إن الفطرة الإنسانية أقوى من جميع القوى التي تحاول أن تطمسها وتغيير معالمها ، وإن الغلبة لها مهما طال الزمن . والله تعالى يقول : (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)[1] .

إذا كانت للدين هذه الجذور العميقة في النفس الإنسانية ، فإنه لا يتصور أن يأتي يوم يعيش الناس فيه من غير دين ، بل ستبقى النفس تنزع إليه ، لأنها تنزع إلى ما هو من طبيعتها ، وتشعر بفراغ كبير إذا تخلت عنه .

وليست المشكلة هي الدين ـ من حيث هو ـ فالتدين غريزة ـ كما يقرر ذلك الإسلام ـ حيث يقول الحق سبحانه وتعالى : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)[2] . وفي الحديث الصحيح : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الْفِطْرَةِ ... فأبواه ... » .

(١) سورة ابراهيم : ٢٤ ـ ٢٥ .
(٢) سورة الروم : ٣٠ .

لا شك أن الذلة لا تأتي إلا بعوامل وأسباب ، فإن وجدت العوامل فقد تهيأ الأمر لها ، وأهم هذه العوامل التي طوحت بالمسلمين ودفعتهم إلى هذا الحضيض المظلم هو عامل التهاون بالدين .

أجل ، إن التهاون بالدين شر دونه كل شر ، وفساد يتضاءل حياله كل فساد ، فما شرع الله الدين إلا ليعرف الناس ربهم فيتقوه حق تقاته ، ويكفوا عدوان بعضهم عن بعض ، ويحرص كل امرئ على إسعاد نفسه وإسعاد من حوله وإسعاد شعبه وأمته .

وبذلك يبيت كل منا آمناً في سربه ، لا يخشى عدوان المعتدين ولا إجرام المجرمين ، فتحقن الدماء ويسود الأمن ويستتب النظام ، وفي ظل الأمن والنظام يسعى كل امرئ لإصلاح شأنه وتنمية ثروته . ولا جرم أن رقي الأمم وتقدمها وانتصارها رهين برقي أفرادها وتقدمهم ، فما الأمة إلا فرد واحد مكرر ، وإذا استهان الناس بالدين ضعف أثره في نفوسهم ، وقلت مبالاتهم به وخوفهم نذره ، فلا يحرصون على فعل الخيرات التي توجب لهم الثواب ، ولا يتجنبون السيئات التي تعرضهم لشديد العقاب ، بل يسيرون في الحياة كما تسير الأنعام ؛ همها أن تشبع بطونها وترضي شهواتها ، فمثل لنفسك حال أمة هذه سيرة أفرادها ، وتصور المصير الذي ينتظرها ، وعمق الهوة التي تنحدر فيها .

إذا ضعف الوازع الديني في النفس ، وإذا استهان الإنسان بكل حق ، وفرط في كل واجب ، ولم يرقب في أحد إلاًّ ولا ذمة ، واقترف كل

ما تسوغ له نفسه من شر وإثم ومعاونة للأعداء ، فبهذا تفقد كل المروءات وتضيع المحارم وتكثر النكبات ، ولذلك نجد أن الأعداء أول ما تسلطوا عليه ، ونصبوا له المؤامرات هو الدين الحنيف؛ لأنهم يعلمون حقيقته وكيف يربي العزة في نفوس أبنائه وأتباعه ، الذين تمسكوا به تمسكاً حقيقياً لا اعوجاج فيه ولا التواء[1] .

الوازع الديني رقيب على كل إنسان في خلوته ، حارس له في وحدته ، ناصح له في كل أحواله ، فمن استنصحه فقد هداهُ إلى سواء الصراط ، ومن استصحبه كان من المحسنين الذين يعبدون الله كأنهم يرونه رأي العين ، فتمتلئ قلوبهم من خشيته ، ويراقبونه في السر والعلن والخلوة ، ويحرصون على أن لا يراهم حيث يكره ، فيكفون شرورهم عن الناس ، ويقلمون أظفار طغيانهم ، ويكونون أخياراً صالحين تسعد بهم أوطانهم؛ وتعتز بهم أممهم ، ويكونون فخر الجيل الذي به يعيشون .

فالتهاون بالدين داعية وباعث شر بين العباد ، ومقوض دعائم العمران وهادم صروح المدنية ، جالب الشر والدمار والتقهقر والخذلان والذلة والاستعمار .

فالجماعة الإنسانية التي لا تستمسك بدينها ، ولا تقيم منه حارساً على ضمائرها ، تتورط أفراداً وأفواجاً في كل ما يذهب بمجدها ويودي بقوتها ، ويوردها موارد التهلكة والبوار . التهاون بالدين يدفع إلى محاولة التخلص من قيوده السامية ، والتقصي من أحكامه العالية ، واستباحة

(١) ثورة على الاستعمار . هاشم الأعظمي .

حرماته التي تجعل الإنسان يعيش كالبهائم ؛ لا نظام يربطه ولا قانون سماوي يمسكه وينظم سيره .

إن التهاون بالدين معناه التهاون بكل عقيدة صحيحة ، وبكل عبادة مفروضة ، وبكل خلق كريم ، فهو الذي فرق الوحدة الإسلامية ، وقطع أوصالها ، وفرق جمعها ، وبدد شملها ، وأنهر فتقها ورماها بالضعف والوهن ، وأفسد العقيدة وملأ النفوس بالخرافات والبدع والضلالات ، كما رمى بالأُمة في أحضان الأُمم الكافرة والمستعمرة والملحدة ، كل ما انحدرنا إليه من تفرق وضعف وتخاذل وجهل وفقر ومرض وذهاب بأُس ونضوب قوة ، إنما هو من آثار ضعف الدين ، والتهاون بأحكامه ، ومحاربة العقيدة والتهافت على الأخذ بالقوانين الوضعية .

فلو تتبعنا بالبحث والاستقصاء جميع النكبات التي أصابت المسلمين ؛ في نفوسهم وأموالهم وديارهم وعقيدتهم وحرياتهم ، لتبين لنا أن سببها التهاون بالدين ، وهجران أوامره واتباع الهوى والشيطان . قال الله تعالى : (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)[1] . والبركات تشمل جميع أصناف الخير والسعادة . فبسبب تركهم ما أمرهم الله به أذاقهم الله مرارة الخذلان ، وألبسهم لباس الذل والهوان .

إن الدولة الإسلامية ما قام مجدها التليد إلا على أساس من الدين ،

(١) سورة الأعراف : ٩٦ .

والعقيدة الراسخة والفضيلة والإخلاص في العمل ؛ فدينها هو الذي مكن لها في الأرض ، ومنحها البأس الغابر ، والسلطان الدائر وبسط يدها بالحق على شعاب الدنيا ؛ تنشر العدل والسلام بين الناس ، فهي قامت على العدل وبالعدل وبالحق وعلى الحق .

ذلك هو سلاحهم ؛ عقيدة راسخة وإيمان قوي لا يتزعزع ، دنياهم وسيلتهم لأخراهم . إذن فلن نحصل على ما حصله آباؤنا حتى نعمل بأعمالهم ، ونتخذ منهم قدوة حسنة ، ونسير على نهجهم في ظلمات هذه الحياة الذليلة : « لَا يَصْلُحُ آخِرُ هٰذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا بِمَا صَلَحَ بِهِ أَوَّلُهَا »[1] . أي بالرجوع إلى الدين الحنيف وتعاليمه القيمة ، والعقيدة الراسخة التي تنظم الحياة وتجعلنا دائماً وأبداً في مأمن عظيم وعز دائم وكرامة مستقيمة ، لا تتزلزل ولا يتمكن منها العدو والإلحاد وأهله ، مهما بذلت المحاولات وتكالبت الأيدي الخبيثة ، ومهما خادعوا وبذلوا . فلنلتجئ إلى الله ونقوّم النفوس ، ونحارب الضلال وأصحاب الزيف والخزعبلات والدعوات الباطلة وأهل الفساد .

---

(١) هذه قاعدة من قواعد الإمام مالك رضي الله عنه ؛ أحد الأئمة الأربعة المجتهدين ، وصاحب الموطأ في الحديث ، وكان من سلفنا الصالح العاملين بالكتاب والسنة ، الذين نافحوا عن شريعة الإسلام وسنة رسول الله ﷺ فحري بنا أن نقتدي به . رحمه الله رحمة واسعة ، وجزاه عن المسلمين خيراً .

التعصب المذهبي والتقليد

تعتبر بدعة التعصب المذهبي واحدة من الأمراض والفتن ، التي رزئت بها أمة الإسلام في العصور المتأخرة ؛ إذ انقسم المسلمون إلى شيع وطوائف ، وجماعات مختلفة في الدين الواحد ؛ مما أدى إلى وقوع مصادمات بين أهل السنة – بعضهم ببعض من جهة – وبينهم وبين الشيعة والمعتزلة من جهة أخرى ، علماً بأن اختلاف الأئمة والعلماء إنما هو اختلاف في في الآراء ، بسبب نظر كل مجتهد منهم إلى المسائل من طريق يختلف عن المجتهد الآخر .

والتقليد : هو الرجوع إلى قول لا حجة لقائله عليه . وذلك ممنوع عنه في الشرع . بخلاف الاتباع الذي عرفه ابن خوزمنداد البصري المالكي ومعناه : ما يثبت عليه الحجة[1] .

وتؤكد كتب السيرة والتاريخ مواقف الأئمة – بعضهم من بعض – المتصف بالاحترام المتبادل والثقة والمحبة وحسن الظن . والأمثلة كثيرة في هذا المجال ، ومن أراد الاطلاع فليقرأ سيرة الإمام مالك ومناظراته مع الإمام أبي حنيفة ، ورسائل الإمام مالك إلى الليث بن سعد ، وموقف الشافعي من مالك ، ورأي الشافعي في أبي حنيفة ، والصداقة العميقة بين الشافعي ومحمد بن الحسن الحنفي .

ومع كل هذا فقد ظهر في العصور المتأخرة من يدعي الانتساب إلى

(١) القول المفيد للشوكاني : ص ١٦ .

هذه المذاهب ، والتمسك بأقوال إمام معين ، والسير على أصوله وخُطاه ومنهجه ، والالتزام به وعدم الحيدة عنه أبداً . ولم يقف عند هذا الحد بل تعداه إلى الطعن بأتباع المذاهب الأُخرى والاستخفاف بهم ، إلى أن وصل التعصب إلى نتائج مؤسفة وعواقب وخيمة ، يبرأ منها الإسلام وأئمة المذاهب أنفسهم .

فمن ذلك قول الإمام أبي حنيفة : لا ينبغي لمن لا يعرف دليلي أن يُفتي بكلامي . وقال مالك : كلنا يؤخذ من كلامه ويرد عليه إلا صاحب هذا القبر[1] . وقال الشافعي : كل مسألة يصح فيها الخبر عن رسول الله - عند أهل النقل - بخلاف ما قلت ، فأنا راجع عنها في حياتي وبعد مماتي[2] .

وقال ابن حنبل : لا تقلدني ولا تقلد مالكاً ولا الشافعي ، وخذ من حيث أخذوا . وقد حكى الشعراني في الميزان الكبرى اتفاق الأئمة على أنه : إذا صح الحديث فهو مذهبي .

قال العلامة ابن عبد البر وشيخ الإسلام ابن تيمية : لا قول لأحد مع قول رسول الله ﷺ إذا صح الخبر عنه . وقال ابن حزم : إن الفقهاء الذين قُلِّدوا مبطلين للتقليد ، وإنهم نهوا أصحابهم عن تقليدهم ، وكان أشدهم في ذلك الشافعي ؛ فإنه بلغ من التأكيد في اتباع صحاح الآثار والأخذ بما أوجبته الحجة حيث لم يبلغ غيره ، وتبرأ أن يقلد

(١) أعلام الموقعين لابن القيم والميزان للشعراني .
(٢) القول المفيد للشوكاني : ص ٢٦ .

جملة ، وأعلم بذلك . نفع الله به وأعظم أجره فلقد كان سبباً إلى خير كثير[1] .

وخلاصة القول : فإنه يتحتم علينا الرجوع إلى الكتاب والسنة ، وأقوال الأئمة الموافقة لهما ، وترك أقوالهم المخالفة لهما ، مصداقاً لقوله تعالى : (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[2] .

التهجم على الإفتاء

لقد حدد الإسلام السلطة التي تملك التحليل والتحريم ، فانتزعها من أيدي الخلق وجعلها من حق الله تعالى وحده ؛ فلا أحبار ولا رهبان ولا ملوك ولا علماء يملكون أن يحرموا شيئاً تحريماً مؤبداً على عباد الله ، ومن فعل ذلك منهم فقد تجاوز حده واعتدى على حق الربوبية في التشريع ، ومن رضي بعملهم هذا واتبعه فقد جعلهم شركاء لله : (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللهُ)[3] . وقد نعى القرآن الكريم على أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ أنهم وضعوا سلطة التحليل والتحريم في أيدي أحبارهم ورهبانهم ، فقال تعالى : (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهاً وَاحِداً لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)[4] .

(١) المحلى : ج ٦ . ص ١١٨ .
(٢) سورة النور : ٥١ .
(٣) سورة الشورى : ٢١ .
(٤) سورة التوبة : ٣١ .

وقد حرم الله ـ سبحانه ـ القول عليه بغير علم بالفتيا والقضاء ، وجعله من أعظم المحرمات ، بل هو في المرتبة العليا منها ، فقال تعالى : (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُواْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَىٰ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)[1] . وقال تعالى : (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ)[2] .

الترهيب من الإفتاء

كان السلف من الصحابة والتابعين يكرهون التسرع في الفتوى ، ويود كل واحد منهم أن يكفيه إياها غيره . وقد كانوا يتهيبون من الإفتاء مع رسوخ أقدامهم وسعة أذهانهم خشية الزلل ؛ فقد قال ابن أبي ليلى : لقد أدركت في هذا المسجد ـ مسجد الرسول بالمدينة ـ مئة وعشرين من الأنصار ، ما منهم أحد يحدث إلَّا وَدَّ أن أخاه قد كفاه الحديث . ولا يسأل عن فتيا إلا وَدَّ أن أخاه قد كفاه الفتيا .

وروى الإمام الشافعي في كتابه الأُم ، عن القاضي أبي يوسف صاحب أبي حنيفة قال : أدركت مشايخنا من أهل العلم يكرهون الفتيا ؛ أن يقولوا : هذا حرام وهذا حلال ، إلا ما كان في كتاب الله عز وجل بيِّناً بلا تفسير . حدثنا ابن السائب عن الربيع ابن خيثم ـ وكان من أفضل

(١) سورة الأعراف : ٣٣ . (٢) سورة الأنعام : ١٤٤ .

التابعين ـ أنه قال : إياكم أن يقول الرجل : إن الله أحل هذا أو رضيه . فيقول الله له : لم أحلّ هذا ولم أرضه . أو يقول : إن الله حرم هذا . فيقول الله : كذبت لم أحرمه ولم أنه عنه[1] . كما نقل ابن مفلح عن شيخ الإسلام ابن تيمية : إن السلف لم يطلقوا الحرام إلا على ما علم تحريمه قطعاً .

وقال الإمام مالك عن يحيى بن سعيد ، إن بكير بن الأشج أخبره عن معاوية بن أبي عياش أنه كان جالساً عند عبد الله بن الزبير وعاصم ابن عمر فجاءهما محمد بن إياس بن البكير فقال : إن رجلاً من أهل البادية طلق امرأته ثلاثاً ، ماذا تريان ؟ . فقال عبد الله بن الزبير : إن هذا الأمر ما لنا فيه قول . فاذهب إلى عبد الله بن عباس وأبي هريرة فإني تركتهما عند عائشة زوج النبي ﷺ ثم ائتنا فأخبرنا . فذهبت فسألتهما . فقال ابن عباس لأبي هريرة : أفته يا أبا هريرة ، فقد جاءتك معضلة . فقال أبو هريرة : الواحدة تبينها والثلاث تحرمها حتى تنكح زوجاً غيره .

ومن هذا ما نقل عن أبي بكر الصديق أنه لما سألته الجدة عن ميراثها ؛ فلم يدر ما يجيب حتى يسأل الناس . ولبث ابن عباس برهة من دهره ، يفتي بجواز بيع الدرهم بالدرهمين يداً بيد ويقول : « إِنَّمَا الرِّبَا فِي النَّسِيئَةِ » . الحديث . فلما بلغه حديث : « الْفِضَّةُ بِالْفِضَّةِ مِثْلاً بِمِثْلٍ يَداً بِيَدٍ » . رجع ، وجعل يطوف بالسوق أن لا يعملوا على سالف فتواه[2] .

(١) الأم : جـ ٧ . ص ٣١٧ . للإمام الشافعي .
(٢) أعـلام الموقعين : جـ ١ ص ٣٥ وما بعدها .

وقد وردت نصوص شرعية في الترهيب من القول على الله بغير علم . قال تعالى : (وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هٰذَا حَلَالٌ وَهٰذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ)[1] . وقال تعالى : (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً)[2] .

روى أبو داود الطيالسي من حديث عائشة رضي الله عنها ، أنها ذكر عندها القضاة فقالت : سمعت الرسول ﷺ يقول : « يُؤْتَىٰ بِالْقَاضِي الْعَدْلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَلْقَىٰ مِنْ شِدَّةِ الْحِسَابِ مَا يَتَمَنَّىٰ أَنَّهُ لَمْ يَقْضِ بَيْنَ اثْنَيْنِ فِي تَمْرَةٍ قَطُّ » .

وفي السنن من حديث ابن بريدة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « الْقُضَاةُ ثَلَاثَةٌ ؛ اثْنَانِ فِي النَّارِ وَوَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ ؛ رَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَقَضَىٰ بِهِ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ . وَرَجُلٌ قَضَىٰ بَيْنَ النَّاسِ بِالْجَهْلِ فَهُوَ فِي النَّارِ . وَرَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَجَارَ فَهُوَ فِي النَّارِ » .

وقال ﷺ : « مَنْ أُفْتِيَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ إِثْمُهُ عَلَىٰ مَنْ أَفْتَاهُ »[3] .

ويجب على من لا يعلم أن يقول : لا أدري ، أو أن يسأل غيره ، أو يطلب مهلة ليتبين وجه الحق . وقد رسم لنا الرسول ﷺ ـ رغم علمه الوافر واتصاله بوحي السماء ـ هذا المنهج العلمي النزيه ؛ أنه سئل عن

(١) سورة النحل : ١١٦ .

(٢) سورة الإسراء : ٣٦ .

(٣) رواه أبو داود والحاكم .

خير البقاع وشرها فقال : « لَا أَدْرِي » حتى نزل عليه جبريل . رواه أبو داود .

تحضير الأرواح ـ شؤون الروح

إن أعداء الإسلام ومفسدي العقائد ـ من دعاة الإلحاد والانحلال ، وأصحاب الباطل في الماضي والحاضر ـ قد تآمروا ومازالوا يتربصون لهدم الإسلام وتخريبه في جميع معاقله ، وعلى جبهات عريضة متباينة .

لقد شن أعداءُ أمة التوحيد حرباً ضروساً على حملة القرآن ومعتنقي الإسلام ، وذلك لتفريغ هذه الأُمة من قيمها وعقائدها ، حيث كانت موجات متلاحقة كالرياح العاصفة والأمواج المتلاطمة والصواعق المحرقة ؛ للقضاء على دعوة الإسلام ، ولنصرة دعوة الشرك والأوهام ، التي لا بقاء لها إلَّا بزوال جند الحق وكتائبه التي لا تعرف الاستسلام . إن دعاة الهدم والتخريب قد استفحل أمرهم في كل مكان ، وأصبح الناس مشغولين بالجدل والمناقشة حول ما يثيرونه من أباطيل وترهات . تلك الموضوعات التي يسترون مآربهم الهدامة من ورائها ، تحت أسماء خلابة براقة ؛ كالتطور والتحرر وشؤون الروح ـ التي هي موضع بحثنا ـ وقد نسي هؤلاء أو تناسوا أن الدين الإسلامي قد جمع الناس على قيم الخير والفضيلة والمثل العليا ، وهذه قيم موحدة متفق عليها .

ولما كانت دعوة ديننا الحنيف فيها الحض على الفضائل ، ومحاربة البدع والرذائل ، لذلك فإني أضع بين يدي القارئ الكريم مقتطفات تشير إلى بعض هذه الأخطار ، وتكشف بعض الاتجاهات المنحرفة التي تنطوي على خطر مزدوج ، له مردود ماحق ومدمّر للأُمة وعقيدتها في الدنيا والآخرة .

إن هؤلاء المنحرفين - الذين يزرعون قنابل الموت في قلوب أبناء الأُمة لتجريدهم من قيمهم وعقيدتهم - لازالوا ماضين في اتخاذ هذا الأُسلوب نفسه جيلاً بعد جيل ، يزحفون حتى يسدوا على الناس كل سبيل للحق ، أو ليفتح الله باباً من أبواب رحمته ، فيبعث عليهم من ينكل بهم ويذيقهم سوء العذاب ، ويلقنهم درساً لم تلده لياليهم المظلمة ، ويقطع دابر ما يثيرونه من فتن ، وليكونوا عبرة لغيرهم والله شديد العقاب[1] .

إن الدعوة الروحية الحديثة - التي تعتمد على استحضار أرواح الموتى - هي دعوة تعارض مفهوم الإسلام في أنها تخضع عالم الغيب للتجريب ؛ فهي تلبس مسوح العلم وتصطنع اسمه ، حين تزعم أنها تجري التجارب على الاتصال بأرواح من ماتوا ، وتدّعي أن هذا هو سبيلها إلى ردّ الناس عن تيار المادية الطاغية ، والواقع أنها ليست حرباً على المادية كما يدعي أصحابها ، ولكنها إغراق فيها وإمعان في التمسك بها ؛ لأنها لا تقنع بإخضاع المحسوس للمنهج التجريبي ، ولكنها تتطاول إلى ما وراءها

(١) راجع كتابنا مصرع الشرك والخرافة : ص ٦٠٦ - ٦٠٧ .

تريد أن تخضعه للتجربة ، وإذا سلم الناس بذلك انتهى بهم الأمر إلى إنكار كل ما لا يمكن ثبوته عن هذا الطريق[1] .

والشيءُ الذي لا شك فيه أن الروحية في وضعها الراهن شرك من شراك الصهيونية العالمية الهدامة ، وآلة في أيديهم يسخّرونها لهدم الإسلام والنصرانية على السواء ، وهدم العصبية بكل أشكالها قومية كانت أم دينية ، لكي يمهدوا لقيام دولتهم الصهيونية التي يتوهمونها ، وسط أنقاض الخراب العالمي ، والانحلال الشامل يسهل مهمتهم في السيطرة على العالم كله على ما يتخيلونه .

ومن أقوى الأدلة على صلة الروحية بالصهيونية العالمية الهدامة ، المطابقة الكاملة بين مزاعم الروحيين وبين عقائد اليهود في تصوير الثواب والعقاب خاصة ؛ فكلاهما يعتقد أنهما سيكونان في آخر الزمان على الأرض ، ويهاجم الروحيون جميعاً رجال الدين عامة مهاجمة قاسية ، تذكرنا بما جاء بالمادة الرابعة عشرة من مقررات حكماء صهيون : ويعارض فلاسفتنا كل أديان غير اليهود ، ولكن لن يحكم أحد أبداً على ديننا من وجهة نظره الحقة ، لأنه لا يلمّ بها إلماماً تاماً ، سوى رجالنا الذين لن يخاطروا في أية حالة بالكشف عن أسراره . أ.هـ. ويذكرنا كذلك بما جاء في المادة السابعة عشرة من البروتوكولات : لقد عنينا خاصة بالعيب في رجال الدين غير اليهود ، والحطّ من قدرهم في نظر الشعب ، وأفلحنا كذلك في الإضرار برسالتهم التي تنحصر في

(١) حصوننا مهددة من داخلها .

تعويق أهدافنا ، والوقوف في سبيلها حتى لقـد أخـذ نفوذهم ينهار مع الأيام [1] . أ . هـ .

وكذلك سرت هذه الدعوى إلى المشتغلين بالروحية من المسلمين ، الذين يمجدون الفرعونية والفراعنة ، في الوقت الذي ينددون فيه بعلماء الدين .

والمنظمات الروحية تشترك مع كل المنظمات التي تعمل في خـدمة الصهيونية العالمية ، في أنها تهدم الخلق حيث تهدم الدين ، فالدراسات الروحية قد أصبحت أداة هدم كالدراسات النفسية المنحرفة سواء بسواء . فالفرويديون - فرويد عالم صهيوني - يبررون الجريمة حين يصورون المجرم مريضاً ، ويرجعون دوافعهم إلى عقد نفسية مستقرة فيما يسمونه العقل الباطن ، فليس هناك إذن ما يدعو إلى القصاص ، بل ليس هناك ما يدعو إلى أن يخجل مجرم من نفسه ، ولا إلى أن ينبذ المجتمع مجرماً ويطارده بالاحتقار ، ما دامت المسألة مرضاً لا حيلة له فيه . والروحيون يذهبون هـذا المذهب من طريق آخر ، فهم يبررون الجريمة بإرجاعها إلى ما يسمونه المسَّ الروحي .

هـكذا يستمر الروحيون في دعواتهم الباطلة ، لتبرير أغراضهم وتنفيذ مخططاتهم الإجرامية [2] . ومن جهة أخرى فإنا نذكّر هؤلاء وأمثالهم بقول الحق تبارك وتعالى : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) [3] .

(١) بروتوكولات حكماء صهيون .

(٢) راجع حصوننا مهـددة من داخلها .

(٣) سورة الإسراء : ٨٥ .

جاء في كتاب الفتاوى للشيخ محمود شلتوت – في حديثه عن تحضير الأرواح : وكما لم يرد نص في شيءٍ من ذلك كله ، لم يرد شيءٌ فيما يختص بتحضيرها وتسخيرها لدعوة الإنسان ، كما لم يدل عليه حِسٌّ موثوق به أو تجربة صادقة ، وكل ما نسمعه في ذلك لا يخرج عن مظاهر خداع وإلهاءٍ بالخيالات لا يلبث أن ينكشف أمره[1] .

ويستمر الروحيون – دعاة الباطل – في تبرير جريمة المجرم زاعمين أن المجرم في الحالتين مُكْرَهٌ على الجريمة ، يرتكبها تحت عامل داخلي – عند الفرويديين – أو تحت عامل خارجي – عند الروحيين – وكل منهما يهدم التقنين الخلقي من أساسه ؛ لأنه يمحو المسؤولية الفردية التي هي مناط الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة . ومن الواضح أنه يمحو في الوقت نفسه الشرائع السماوية كلها ، بل القوانين الوضعية أيضاً ، فهو عود إلى الجبرية الضالة المفسدة للدين والدنيا جميعاً . وبمثل ما يفسد الروحيون على الناس دنياهم يفسدون عليهم دينهم بما يزعمون لهم من أن الجنة والنار فكرة عقلية أو حالة نفسية ، وأن الناس – على اختلاف أديانهم وعلى اختلاف نحلهم وطبائعهم – يعيشون فيما وراء الموت حياة هي نفسها حياتهم على الأرض وأن فرصة التكفير عن الذنوب لا تنقطع بموتهم ، وهم بذلك يهدمون أكبر رادع للناس عن الظلم والفساد ، وهم في الوقت نفسه يزجون بأنفسهم فيما اختص الله ذاته سبحانه وتعالى بعلمه[2] .

(١) الفتـــاوى : ص ٢٠ . للإمام الأكبر محمود شلتوت .

(٢) انظر كتاب قضايا العصر .

لا ينبغي أن يغيب عن بال الناس أن إطلاق الاتصال بالموتى ـ وجعله في متناول كل إنسان ، والاستعانة بهم في علاج مرضانا ، وفي شؤون دنيانا المختلفة ـ إفساد للحياة التي يقوم بعض عمرانها على التنافس واستباق الخيرات ، وعلى المحاولة المتصلة الدائبة المتكررة في سبيل التفوق ، وفي التغلب على الصعاب ، والانتصار على مصادر التعب والقلق ومن بينها المرض ، وهو كذلك إبطال للحكمة في خلق الموت والحياة ، وما قدّر الله سبحانه وتعالى ، وقضى في إقامة الحجاب بينهما لحكمة يعلمها ، تنتظم بها حياتنا في الدنيا والآخرة .

لقد أغنى الله المسلمين عن التماس الهدى والخير في هذه المجازفات ، والجري وراء الضلالات والمنكرات ، فأنزل عليهم كتاباً لا يضلّون إن تَدبَّروه واتبعوه ، فمن أعرض عنه والتمس الهداية والرشاد في سواه ضلّ وكان الشيطان له قريناً وساء قريناً : (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضنكاً)[1] . وما أرى أولئك إلا أن يختاروا بين الكفر والإيمان ، وبين الضلال والإسلام . إن الصهيونية العالمية الهدامة ، وأعداء الإسلام الذين يجذبون الخيوط من خلف الستار ، ويحركون الدمى التي نراها تتحرك على المسرح ، داعية إلى المجتمع الجديد لا تريد أن تبقي من المجتمع القديم شيئاً ؛ لغته وأدبه ونظمه وأنماط حياته وخلقه ودينه وكل موروثاته الإنسانية[2] .

---

(١) سورة طـه : ١٢٤ .

(٢) انظر كتاب قضايا العصر .

وبعض هذه الدمى يظن في نفسه – ويظن به الغافلون من الناس – أنه هو الذي يتحرك ، وأنه هو الذي يقول ، وهو الذي يفكّر ويعمل ، لأن الأيدي الهدّامة الخبيثة لا تحركه بطريق مباشر ، فهو متأثر بما يقرؤه لأسماءٍ كبيرة في أعين الناس من مروّجي الدعايات الهدامة ، وهؤلاء يهدمون المجتمع القديم في كل ما ذكرت وما لم أذكره من مقوّماته ؛ ليجعلوا مكانها العالمية التي يلوّحون بها للناس ، ويزعمون أنها مفتاح الأمن والسعادة والسلام . ولن يكون بعد عالمية ، ولن يكون إلا الخراب ، ولكن الخراب حائق بالمفسدين ، وذلك وعدالله حيث يقول : (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ ٱلْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ)[1] .

بعض شعوذات الروحيين

ولبيان بعض ما يقوم به دعاة تحضير الأرواح من زيف وتضليل ، فإني أضع بين يدي القارئ المقال التالي كما جاء في كتاب [حصوننا مهددة من داخلها] للدكتور محمد محمد حسين ، والذي يقول فيه : نشرت مجلة صباح الخير – وهي فيما أعلم ويعلم القراءُ أبعد شيءٍ عن شؤون الروح كلها – مقالاً في عددها الصادر في ٤ سبتمبر عام ١٩٥٨ تحت عنوان : مدرس بكلية العلوم يشتغل في تحضير الأرواح ، روت فيه عن الدكتور علي راضي ؛ المدرّس بكلية العلوم بجامعة عين شمس ،

(١) سورة الأعراف : ١٦٧ .

كلاماً كله خلط وتخريف وتزييف للحقائق الدينية . ، وتلبيس لها في أذهان الناس ، يؤدي إلى زعزعتها واضطراب مفاهيمها .

فمن ذلك مثلاً قوله : إن عطارد مهبط الأرواح الخاطئة ، تذهب في أول الأمر لتكفر عن ذنوبها ، فجهنم موجودة في هذا الكوكب .

ومن هذا الخلط والافتراء المضل المفسد مثلاً ، ما رواه الدكتور راضي حين قال : إن أكبر وسيط عالمي قد حضر إلى القاهرة منذ عدة أشهر - إنه أمريكي لا يزيد عمره على ٢١ سنة . وتسميه بعض الصحف الأمريكية نبي القرن العشرين ؛ لكثرة ما أتى من معجزات - كتبت ورقة لأمي أسألها عن حالها ، وأحضر الوسيط الرد كتابة باللغة العربية ، رغم أنه لا يعرف منها حرفاً .

ويمضي في سرد هذه الشعوذات حتى يلقي فريته الكبرى حين يقول : وأغرب ما حدث في هذه الجلسة ، هو ما أعلنته الروح الكبرى - سوزان - وفجأة أعلنت سوزان أن جبريل معنا . ولم يعرف أحد من هو جبريل فضحكت وقالت : ألا تعرفون جبريل الذي كان ينزل بالقرآن على محمد ؟ ! إنه يبارك هذا الاجتماع .

وأكثر من هذا جرأة ، وأوغل منه في التدليس ، ما روته الصحيفة عقب هذا الخبر من أن الدكتور علي راضي قد أبدى أسفه ، لأنه لم يكن يملك وقتذاك آلة لالتقاط الصور بالأشعة تحت الحمراء ، لكي يلتقط بها صورة سيدنا جبريل عليه السلام ! ! .

ويعلّق الدكتور محمد محمد حسين على هذا المقال قائلاً : والواقع أن صانعي الروحية الحديثة ومروّجيها ، لهم منطق خلاب جذاب في تدعيم دعاواهم ولفت الأنظار إليها ، وجمع الأنصار والأصدقاء حولها ، فهم يدعّمون دعاواهم بنصوص مما جاء في الكتب السماوية ؛ من المتشابه الذي يجازفون بتأويله حسب أهوائهم ، ومن الواضح الصريح الدلالة الذي يحرّفونه عن مواضعه ، بعد أن يبتروه من سياقه ويقطعوه عن مناسبته ويخرجوا ألفاظه عن مدلولها ـ جاهلين أو مدلّسين ـ وهم يدعمون هذه الدعاوى أيضاً بنصوص من المأثور في التاريخ ؛ عن السابقين الأولين من المجاهدين والحواريين والصالحين ، بعد أن يخضعوه لمفاهيمهم ويقيسوه إلى أشباه له ، مما ينسبونه لوسطائهم مما جرت نظائره ـ ولا تزال تجري ـ على أيدي المشتغلين بالشعوذة والطلاسم .

ولهم براعة فائقة في تدعيم ذلك كله بالعلم التجريبي الحديث ، وربطه بقواعده وأصوله ، والاستعانة على ذلك بأجهزة وآلات تضفي على أوكارهم ثوب الجدّ والوقار ، الذي ينبغي للبحث العلمي المنزّه عن الأغراض ، والمحاط بالضمانات التي تدفع شبهة الغش والخداع .

لذلك لم يكن عجيباً أن تجتذب دعاواهم كثيراً من الأسماء الضخمة الرنانة في الشرق والغرب ، ولقد خدع بهم الشيخ طنطاوي جوهري رحمه الله ، فأوسع تفسيره نقلاً عن مزاعمهم ودعاواهم ، مما أدخل الضعف والفساد على كتابه ذلك في كثير من المواضع .

وسأُقدّم فيما يلي عرضاً موجزاً عن الروحية الهدّامة ، التي لا أصل لها حقاً إلّا في خيال المشعوذين عقول مردة الشياطين ، ذلك هو الحديث الذي يحدّثنا عنه الأُستاذ الدكتور محمد محمد حسين ، والذي كان ضحية لتلك الزمرة الضالة المنحرفة من دعاة المزاعم الروحية ، عمّا وقع له على أيدي هؤلاء المنحرفين ، وكيف استطاع كشف خزعبلاتهم وأباطيلهم ، بعد أن مَنَّ الله عليه بالهداية وانتهاج سبيل الرشاد .

الروحية دعوة هدامة

بعد أن يتحدث الدكتور محمد حسين عن ملابسات هذه الزمرة المشعوذة وضلالاتها ، وكيف وقف على نتائج أضاليلها يقول : وسيعلم القارئ من أنها ترمي إلى هدم الأديان كلها ، على غير ما تكشف عنه النظرة السطحية . وسيعلم القارئ كذلك أن إصبع الصهيونية العالمية الهدامة ليست بعيدة عنها . ثم يستطرد قائلاً : ولم تسترح نفسي إلى ما كان يجري حولي في هذه الاجتماعات من حركات وإشارات ، ولم يطمئن عقلي إلى ما أرى وما أسمع ، ولم يلبث هذا الشك أن أصبح يقيناً ؛ بأن هذا الذي يجري من حولي ليس إلا ضرباً من الدجل والشعوذة ، فاكتفيت وقتذاك بأن أنسحب في هدوء . وخلاصة ما حدث وقتذاك مما صرفني عن هذه التجارب هو أني لم أطمئن إلى الضوء الأحمر الخافت الذي كان كلّ شيء يجري فيه .

ولم أستطع تعليل الحركات المتشنجة ، وأصوات النفخ المزعج والشخير المنكر ، التي تخرج من فم الوسيط ، عند قيامه بالعلاج الروحي المزعوم . ولم أستطع أن أسيغ ما قيل في تعليل ذلك ؛ من أن العلاج يتم بإشعاعات غير منظورة ، تأتي من عالم الروح عن طريق الوسيط ، فالإشعاعات لا تستلزم هذه الأصوات التي لا تصلح إلا لأن تكون وسيلة من وسائل الاسترهاب ، وزاد في عجبي وفي شكوكي أن الوسيط ـ وكان وقتذاك هو المدعو ياسين ـ كان يتفوّه في غيبوبته المزعومة برطانات غامضة ، زاعماً أن هذا الخليط المضطرب من الأصوات هو اللغة التي تتفاهم بها الأرواح فيما بينها . وكان من السهل على أيّ مدقق أن يكتشف أن هذه الأصوات المتنافرة ، التي تخلو من أيّ ضرب من ضروب النظام أو التناسق لا يمكن أن تكون لغة . وظل الشك يراودني زمناً حتى فوجئت في بعض الجلسات برجل غريب يقتحم علينا اجتماعاً ، زاعماً أن قوة خفية قد ساقته إلى ذلك المكان ، ثم لم يلبث أن وقع في غيبوبة ، ورقد إلى جانب الوسيط الأول وأخذ يتبادل معه الرطانة ، وعند ذلك وجدت الفرصة سانحة للكشف عن حقيقة الأمر . فدفعت بإبرة ـ كنت أحتفظ بها في ثنية معطفي ـ إلى ساق الوسيط الجديد ـ الذي تظاهر بالإغماء ـ وكررت ذلك مرّتين فتململ ، وأتبع ذلك بكلمات وحركات أدركت منها أنه يتمتع بكامل وعيه ، ولم يلبث هذا الرجل الغامض أن اختفى فجأة ، واستوضحت الأستاذ أبا الخير ـ رئيس مجلس تحضير الأرواح ـ حقيقته فقال لي : إنه دجال لا خير فيه

وإنّه لم يجئ إلا طمعاً في مغنم يصيبه من وراء عمله ، ثم لقيت الرجل بعد ذلك مصادفة[1] ، وبعد استدراجه كان حنقه على الأُستاذ أبي الخير لا يقل عن حنق الأُستاذ أبي الخير عليه ، ثم قدم لي من الدلائل ما تأكدت معه أنه لم يكن غائباً عن الوعي كما كان يتظاهر وهذا يعني أن الوسيط الآخر – الذي يقوم بالعلاج الروحي المزعوم – لا بد أن يكون مخادعاً مثله ، لأنه كان يريد مالاً مقابل الرطانة في أثناء تظاهرهما بالغيبوبة ، كما أدركت أنه كان يريد مالاً مقابل هذه التجارب الروحية ، وعندما علم ذلك الأُستاذ أبو الخير تخلص منه .

والمهم في الأمر أن هذا المحتال كان يراطن الوسيط الأول – الذي يبني

---

(١) يطوف على المدارس والمنتديات والملاهي بعض الدجاجلة والمحتالين ، فيقومون بأعمال الضلال والشعوذة وغيرها من المنكرات ، التي تشوه العقائد وتفسد العقول ، زاعمين أنهم يقومون بتجارب علمية وتمارين عقلية وندوات ترفيهية نافعة ، تعود على أبناء الأُمة والمجتمع الطلابي خاصة بالنفع العام .

وفي منتصف السبعينيات شاء الله أن ألتقي بواحد من هؤلاء المرتزقة المحترفين ، في أحد فنادق مدينة الزرقاء في الأُردن ، وقد تحدثت معه طويلاً حول أعماله المفسدة التي يمتهنها ، وبعد أن وقفت على زيف دعواه وباطل نواياه ، بينت له حكم الإسلام في أعماله الفاسدة ، وأنها تتخذ الدجل والخداع وسيلة للتمويه والتضليل ، لابتزاز الأموال بالباطل وتحت إجراء التجارب العلمية والأعمال الرياضية النافعة ، مع أنها تقام على حساب إفساد العقائد وتخريب العقول . وقد أعلمني أنه من مدينة المنصورة بمصر ، وعلمت أيضاً أنه يأخذ إذناً خاصاً من وزارة التربية والتعليم عندما يزور المدارس ، ليقوم ببعض أعماله الضالة أمام الطلاب ، مثل التنويم المغناطيسي ، وتمارين الأكروبات ، وغير ذلك من الخزعبلات الساقطة . وفي حينها تقدمت إلى وزارة التربية والتعليم بتقرير مفصل ؛ أوضحت فيه مفاسد هذه الأعمال وضلال مفتعليها ، وأنها تصطدم مع روح الإسلام وتنافي تعاليمه لردع هؤلاء المحتالين ، وحماية الأُمة من ضلالهم وفسادهم .

عليه أبو الخير - رئيس عصابة تحضير الأرواح - كل نتائج بحوثه الروحية . فإذا ثبت أنه دجال فلابد أن يكون الآخر دجالاً مثله ، ولا بد أن يكون ما نحن فيه باطلاً من أوله إلى آخره . وقد صارحت الأستاذ أبا الخير بكل ما حققته فلم أجد منه إقبالاً على كلامي أو إصغاءً إليه ، ورأيت فيه إسرافاً في حسن الظن بالوسيط ، يتجاوز في تقديري ماينبغي أن يتسم به البحث العلمي الدقيق .

وبعد أن يذكر أستاذنا اعتزاله لتلك الاجتماعات المضللة يتابع حديثه بقوله : وأتاح الله لي بمنه وفضله من أسباب الهداية ما ملأ نفسي يقيناً ، وما أقامني على الجادة ، وكفاني التعرض لهذه المجازفات الخطرة المهلكة ، وأعدت النظر في هذه المزاعم الروحية ، فإذا هي شعبة من الدعوات المريبة التي تأخذ الناس من كل جانب ، والتي تلبس مختلف الأثواب وتخفي حقيقتها تحت مختلف الأسماء ، محاولة بذلك أن تغطي كل الميادين وتتغلغل إلى كل الاتجاهات ، وتقف للناس في كل سبيل ؛ فهي تارة تنتحل اسم العلم ، وفي تارات أخرى تنتحل الثالوث اليهودي المشهور - الحرية ، والمساواة ، والإخاء - أو السلام أو الرحمة أو الحرية أو الإنسانية ، أو محاربة الإلحاد والمادية ، وهي أبعد شيء حقيقة وهدفاً عن كل ما تتستر تحته من أسماء وأغراض .

ثم يستطرد الدكتور قائلاً - بعد أن تبين له كثرة المخدوعين ، الواقعين تحت سلطان هذه الدعوة من الأبرياء الذين تستدرجهم بسبب إيمانهم ، ولتسليمهم إلى خليط مضطرب من الظنون والأوهام ، يتزعزع

معه كل ما استقر في نفوسهم من عقائد دينية ومعايير خلقية : عند ذلك أيقنت أنَّ في عنقي أمانة لا تبرأ ذمتي إلَّا بِأَدائها ؛ وهي أن أشهد بما علمت ، وأكشف عما عرفت من أمر هذه الدعوة الهدامة ، فلعلّ في مقالي هذا الذي أكشف فيه عن أباطيل هؤلاء الهدامين إبراءً لذمّتي من تبعة كتمان الحق ، وقياماً بواجب الشكر على بعض نعم الله سبحانه عليّ . ويختم حديثه قائلاً : كل ما استطعته إزاء هؤلاء المخادعين هو أن أنبّه الناس لشرّهم ، وأكشف الغطاءَ عن ألاعيبهم ، وعلى المخدوعين مراجعة أنفسهم ، وإعادة النظر في كلّ شيءٍ ؛ عليهم إعادة النظر فيما قرؤوا وشاهدوا ، أو فيما يقرؤون وفيما يشاهدون : (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ)[1] . أ . هـ .

يقول أحد الباحثين الروحيين – وهو القس سنتون الأُستاذ بجامعة كوليدج سكول – في مقال له نشرته إحدى المجلات ، عن رواية أَلقتها إليه إحدى الأَرواح[2] : نحن مرسلون من عند الله كما أُرسل المرسلون من قبلنا ، غير أن تعاليمنا أرقى من تعاليمهم ، فإلٰهنا هو إلٰههم ، إلَّا أن إلٰهنا أظهر من إلٰههم ، وأقلُّ صفات بشرية ، وأكثر خصائص إلٰهية .

---

(١) سورة الشعراء : ٢٢٧ .

(٢) الاتجاهات الوطنية : ص ٣٠٣ . للدكتور محمد محمد حسين رحمه الله تعالى .
إن هـذا الكتاب فريد في بابه ، إذ يضم بين دفتيه الكثير من الحقائق التي يحتاج إليها المسلم . لذا أنصح بمطالعته واقتنائه .

ويقول أيضاً : محبّ الإنسانية هو الذي يحبّها لذاتها ، والفيلسوف هو الذي يحب العلم لذاته أيضاً ؛ فأمثال هذين الرجلين هم أحباءُ الله ؛ فالأول لا يقيد حبه للناس اعتباراً لجنس ولا لوطن ولا لاعتقاد ولا لاسم ؛ بل يحيط الإنسانية عامة بحبه الخالص ؛ فيحب الناس باعتبارهم إخواناً ، غير مبال بآرائهم الخاصة ، وليس هو الذي لا يحب إلا الذين يوافقونه في الرأي . والثاني – أي الفيلسوف – هو الذي خلص من وطأة النظريات فيما يجب أن يكون ، ومن الخضوع للآراء الطائفية والتقاليد المذهبية ، فأصبح حراً من أسر المقررات ، ومستعداً لقبول الحقيقة مهما كانت بشرط أن تقدم عليها البراهين ، باحثاً عن مساتير الحكمة الإلٰهية ، فيجد سعادته من وراء هذا البحث . ثم يكشف المقال عن هدفه حين يقول : لا تخضع لأية عقيدة مذهبية ، ولا تقبل – بلا بصر ولا روية – تعاليم لا تستند على العقل ، ولا تأخذ بلا تحفظ وحياً جاء لأحوال خاصة في عصر من العصور ، وستعلم بعد أن الوحي لا ينقطع أبداً ؛ آخذاً في الترقي ، ولا وقت له ولا حد ، وليس هو بامتياز لأُمة دون أُمة ، ولا لشخص دون شخص ، والله يكشف نفسه للإنسان شيئاً فشيئاً . أ. هـ.

ومن هذا يتبين أن الحقيقة في زعم هؤلاء الروحيين – وفيما يروي هذا الباحث عن الروح المزعوم ، الذي أُلقي إليه هذا الكلام – ليست محتكرة لأي دين في العالم ، فإنها لا يصح أن تنحصر في واحد منها ، وأنها أوحيت في أزمان مختلفة لأُمم خاصة احتوتها أحوال خاصة ، وأن ليس

فيها ما يصح الركون إليه في كلّ أدوار البشر وفي جميع أجيالهم ، فإنها في الوقت نفسه تصرح بأنها كلها وحي من الله ، ولكنه وحي مشوب بالخرافات التي كانت عالقة في عقول المرسلين بها ؛ أولئك المرسلين الذين نعتبرهم وسطاء ليس إلّا ، فعلى أبناء أمة الإسلام – عربهم وعجمهم – محاربة هذه الدعوة الباطلة والمكيدة الخبيثة ، والتي ما هي إلّا سهم مسموم قاتل موجه إلى صدر أمّتنا لقطع وريدها ، وإفساد عقيدتها وتدمير قيمها ، لتصبح هشيماً تذروه الرياح ، فلا بدّ من كشف شبهات هؤلاء الأعداء وتعريتهم قبل فوات الأوان . والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ... ولا أظننا بحاجة بعد هذا إلى مزيد من البيان فيما يتعلّق بهذا البحث . والله ولي التوفيق .

الباب الثاني

الفصل الأول

شبهات وردها

شبهات وردها

تمهيد:

إن إثارة الشبهات في وجه دعوة الحق وأهله-أمر قديم ، مضت به سنة الله في خلقه ، يتوارثها دعاة الباطل لتقويض معالم الحق ، وهدم معاقل الإيمان وزعزعة العقائد وإفساد الحياة . وقد قاوم المبطلون دعوات الرسل وشككوا فيها ، ولم ينج منها صاحب الرسالة الخاتمة ؛ رسولنا محمدﷺ فقد تعرض هو أيضاً لشبهات الأعداء ، ولحقه ما لحق بمن سبقه من رسل الله ، وقد بين الله تعالى ذلك في القرآن : (مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ)[1] .

إن هدف الشُّبه هو التشكيك والارتياب والطعن في دعوات الدعاة إلى الله ، وإحاطتها بستار قاتم يحجب عنها الرؤية ويثير حولها الريبة ، مما يمنع من رؤية الحق والاستجابة له .

وغالباً ما ترتبط الشبهة بالمصالح الخاصة والعلاقات الاجتماعية أو العادات الموروثة ، فتؤثر الشبهة بسبب هذه الأُمور ، في ضعفاء النفوس والوصوليين - كمحبي الرئاسة - وتتعلق بها وتحسبها حجة وبرهاناً تدفع به الحق ، وتخاصم الدعاة إلى الله سبحانه ، وقد تعرضت دعوات الأنبياء والمصلحين إلى كثير من الشبهات لإفسادها والتشكيك

(١) سورة فصلت : ٤٣ .

في صحتها ، لذا كان لابد للدعاة أن يوطدوا أنفسهم لمثل هذه المطاعن والاستمرار في الدعوة ؛ لأن الحرب قائمة بين الحق والباطل ولن تتوقف.

محمد صلى الله عليه وسلم بشر

ولم يخلق الكون من أجله

يزعم بعض المبتدعة أن محمداً ﷺ خلق من نور الله . وهذا قول بلا حجة ، ولم يقل به إلا من سفه نفسه ، لأن ذلك يخالف أبسط المفاهيم الإنسانية . ويكثر هؤلاء المبتدعة من ذكر هذه الشبهة في كتبهم السوداء ، وفي تعريفه يقولون : إنه نور انبثق وفاض من الله . ورداً على هذه المزاعم نقول :

إن زعمكم أنَّ محمداً ﷺ نور انبثق من الله يحتاج إلى دليل من الكتاب والسنة .

- فقد أمر الله رسوله أن يخبرنا أنه بشر مثلنا ؛ لكي لا نعتقد أنه نور كما تدعون . فقال تعالى : (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ)[1] .
- ويقول تعالى له : (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ . أَفَإِيْنْمِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ)[2] .
- ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « كُلُّكُمْ لِآدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ » .

(١) سورة الكهف : ١١٠ .
(٢) سورة الأنبياء : ٣٤ .

فهذه الآيات والأحاديث الواضحة تدل على أن محمداً ﷺ من أولاد آدم ؛ المخلوق من تراب ، وأنه بشر من ظهر بشر وبطن بشر ، كما يشهد هو في حديثه : « إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ » . وأنه عليه الصلاة والسلام مرت به جميع أطوار الطفولة كما تمر بكل طفل ، وأنه كان يأكل طعام البشر كما يشرب شرابهم . وقال عنه مشركو الجاهلية الأُولى : (مَا هٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ)[1] .

وكذلك يقظته ونومه ولبسه وكل ما فيه من مظاهر البشرية مثلنا ، ولكن المبتدعة والباطنية يقلبون الحقائق ويصرون في عناد على موقفهم[2] وإن كان مخالفاً للكتاب والسنة ؛ وذلك لاتباعهم للهوى والشيطان . ويقولون : نعم ، إنه ﷺ خلق من نور الله . . تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً . أما ما يزعمه الباطنية وأتباع مدرسة الاتحاد والحلول ـ كابن عربي وأتباعه ـ الذين يشككون في الدين ويموهون على العامة بمقولاتهم السقيمة ، التي تصدر عنهم ابتغاء الفتنة وطمساً لمعالم الإسلام كقولهم : أن الله تبارك وتعالى خلق الكون من أجل محمد ﷺ صاحب رسالة الإسلام .

وهذا القول يناقض تعاليم الإسلام وما جاء به رسول الإسلام ، وهم يريدون بذلك إفساد الدين وإخراج أتباع رسول الإسلام عن حظيرة الإسلام .

---

(١) سورة المؤمنون : ٣٣ .

(٢) انظر كتابنا مصرع الشرك والخرافة : ص ٥٠٦ ، وكتاب صراع بين الحق والباطل .

ومن جملة تخرصاتهم في حق الرسول الأعظم ﷺ : لولاك ما خلقت الأفلاك . ودحضاً لهذه الفرية ، وإبطالاً لهذه المزاعم أستعين الله فأقول : لقد خلق الله الكون بما فيه من إنس وجن وحيوان وكافة الموجودات لأجل غاية واحدة ؛ ألا وهي عبادة الله وحده ؛ لا مثيل له ولا شريك ، سبحانه وتعالى : (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ)[1] .

وقد صرح القرآن الكريم أيضاً بهذا في أوضح عبارة وأجلى بيان إذ قال : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ)[2] . ويقول سبحانه : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)[3] .

نعم . خلق الله الجن والإنس ، وكل دابة في الأرض ؛ لتدين له وحده بالولاء والطاعة والعبودية . ورغبة منه سبحانه في إظهار عظيم قدرته وجميل إبداعه ، فإن من يقلب نظره في الكون ليشاهد من فيه وما فيه ، يدرك حقاً قدرة الله ، التي لا تدانيها قدرة ، وعظمته التي لا تحاكيها عظمة ، وإبداعه الذي لا يماثله إبداع .

ومن هنا يبدو سر خلق الله لهذا الكون البديع النظام المحكم الثابت ، ولا ندري والله كيف يزعمون أن الكون مخلوق من أجل محمد عليه الصلاة والسلام ؟ ! . لماذا خلق الكون من أجله ؟ وما السر في هذا ؟ . نحن نطالب دعاة الضلال وأصحاب الإفك والبهتان ، أن يأتونا بسبب

(١) سورة الإخلاص : ٣ ، ٤ .
(٢) سورة الذاريات : ٥٦ ، ٥٧ .
(٣) سورة الإسراء : ٤٤ .

واحد يدعمون به باطلهم ويؤيدون به بهتانهم . نقول : إن محمداً – عليه السلام – هو بشر ممن خلق الله ، وسبقه كثير من إخوانه الرسل والأنبياء صلى الله عليهم جميعاً صلوات مباركة ، وقد أمرنا سبحانه أن لا نفرق بين أحد من رسله[1] . قال تعالى : (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ)[2] . هذه نصوص القرآن تدحض مزاعم المفترين ، وترد على دعاة الشرك والمبتدعين من أمثال المدرسة الباطنية ، الذين يكذبون آيات الله ، ويتهجمون على رسول الله ، ويحاربون الإسلام وأهله ، مع أن غالبيتهم قد قرأ القرآن ووقف على نصوصه المحكمة ، فهم يقرؤون آيات الله البينات التي تنطق بعكس ما يزعمون . فلو أن محمداً بعث اليوم من مرقده لتبرأ مما يزعمون . ألا قاتل الله كل من يعمل على تزييف الحقائق وإخفاء آيات الله البينات عن الناس .

ونصيحتي لدعاة الباطل الذين تنكبوا الصراط المستقيم ، وتاجروا بتجارة تخالف تجارة أهل الاستقامة والمحجة البيضاء ، عليهم الرجوع إلى الطريق السوي والاقتداء بسيد الخلق ﷺ . وفي ذلك النجاح والفلاح لأولي الألباب . إنها النصيحة في الدين ، والتذكير قبل أن يفلت الزمام . أذكرهم بقول الحق تبارك وتعالى : (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)[3] .

(١) انظر مصرع الشرك والخرافة ، وصراع بين الحق والباطل .

(٢) سورة البقرة : ٢٨٥ .

(٣) سورة الحج : ٤٦ .

خرافة خطيئة الإنسان منذ ولادته

تزعم الغالبية العظمى من أتباع النصرانية بأن السيد المسيح - عبد الله ورسوله - عليه الصلاة والسلام قد صلب من أجلهم ؛ حتى يُكَفِّرَ عنهم خطاياهم وتغفر لهم سيئاتهم ، وأنهم لا يؤاخذون على تصرفاتهم ، ولا يحاسبون على أعمالهم صغرت أم كبرت .

وفيما يلي بعض النقول التي يتذرعون بها كدليل على صدق دعواهم - الساقطة - التي لا يقبل بها منصف ولا تستند على دليل أو برهان . ولنقرأ بعض الحوادث الشيطانية التي تكشف ضلالهم وتثبت فساد عقائدهم :

- ذهبتْ طالبة شابة من جامعة فرانكفورت تقول لمدير الجامعة - مستنجدة - إن والديها يهددانها بالطرد . ولما سألها عن السبب أجابت ؛ لأنها ستضع مولوداً . وقالت إنها لا تعلم اسم أو شخصية والده ؛ لأنه كان يرتدي قناعاً ، حيث إنها ارتكبت الفاحشة في - أيام الكرنفال أو الناشنج - أيام أعيادهم .

وهذه الحادثة ليست إلا قصة صغيرة تقع أمثالها عشرات الألوف كل سنة في بلاد الإباحية ، التي أحيت تقاليد الدعارة الجماعية تحت ستار التطور والتحرر ؛ فكانت أعياد الكرنفال أو الناشنج ، التي تستمر ثلاثة أيام ، وفيها تباح كل الأعراض والحرمات ، بل إنه من المخالف

لآداب التقاليد أن تسير فتاة مع صديقها هذه الليلة ، أو تسهر زوجة بجانب زوجها .

وأيام الإباحية الثلاثة تبدأ رسمياً في الدقيقة ١١ من الساعة ١١ من اليوم ١١ من الشهر ١١ من كل سنة ، مع تفاوت بسيط في مواعيدها بين مدينة وأخرى ، وفي أثناء هذه المهرجانات ـ بهذه المناسبة ـ تتعرى النساءُ من كل شيءٍ تقـريباً ، وهن يختلطن بالرجال ؛ حيث تجـري الدعارة الجماعية ، ومن دون أن يعرف كل رجل ما اسم هذه التي يرافقها ؛ ومن دون أن تعرفه هي أيضاً ؛ لأن الجميع يحرصون على ارتداء الأقنعة. وفلسفة الألمان في هذه الأعياد هي أن من حق البشر أن يخطئوا ؛ لأنهم إذا لم يخطئوا فسيرتفعون إلى مستوى الآلهة ، وهذا غير معقول ، وأن خطاياهم ستغفر لهـم حتماً لأن المسيح قد دفع الثمن وصلب من أجلهم وهم يرددون هذه الفلسفة في صحفهم ومجالسهم في كل مكان[1] .

هذه ثمرة ونتيجة من ثمار ونتائج الفكرة النصرانية القائلة : إن الإنسان خاطئٌ منذ ولادته ؛ لأن أباه آدم قد ارتكب الخطيئة . وإن المسيح عليه السلام صلب ـ بزعمهم ـ حتى يكفر عن البشر خطاياهم ، فهو قد تحمل خطايا البشر . فسبحان الله ! .

أقـول : وهل خلق الله الإنسان عبثاً في هذه الحياة ، وليس عليه أي مسؤولية ، ولا يترتب عليه الجزاءُ على تقصيره ؟ . وهذه لا شك مسألة خطيرة تجر الإنسان إلى التعطيل واللامبالاة بالعواقب ، التي يترتب

(١) انظر كتاب الرسول ﷺ : ج ٢ . ص ١٨٠ ، ١٨١ . للأستاذ سعيد حـوى .

عليها امتلاءُ الأرض بالخطيئة والفاحشة ، حيث ترتد البشرية إلى درجات الحيوانية الوحشية ، وتفسد معالم الفطرة وتتشوه ، وهذا ما يروج له دعاة النصرانية في أمريكا وفرنسا وبريطانيا وألمانيا وغيرها من دول الغرب .

ويترتب على هذه الخرافة النصرانية أن الإنسان غير مسؤول عن أعماله ، بل يلحق به تبعات غيره ، وفي هذا انقلاب على معايير الحياة وقلب لحقائق الكون الثابتة ، وطمس لمعالم الفطرة .

وهكذا تضيع المسؤولية الفردية ،وأن ميراثه ـ الإنسان ـ للخطيئة منذ خَلقِهِ يبرر عدم تسببه في ارتكاب الفاحشة ، وتحمل الذنوب التي لم يكن سبباً في الوقوع فيها على حد زعمه .

وهناك صورة أخرى تنعدم فيها المسؤولية ـ علاوة على النصارى والبراهمة والبوذيين والجينيين أصحاب عقيدة التناسخ ـ تلك الصورة موجودة عند اليهود . يقول الأستاذ سعيد حوى[1] :

فاليهود يعتقدون أنهم شعب الله المختار ، الذي غفر له كل شيء ؛ فمهما فعلوا من جرائم أو مآسٍ أو مفاسد أو مظالم ، فإن خصوصيتهم هذه تجعلهم بمنجى من عذاب الله إلا بشكل بسيط جداً جداً . أ . هـ .

هذه صورة من فرار الإنسان من المسؤولية ، وقد عرفت منذ العهود الغابرة قبل مجيء المسيح عليه السلام ، كما عرفت يوم بعث خاتم

(١) انظر كتاب الرسول ﷺ : ج ٢ . ص ١٨٢ .

النبيين محمد رسول الله ﷺ ولا زالت تردد على الألسنة ، ويروج لها أسراءُ الوهم والخرافة ، وهي في مجموعها صور مشوهة ؛ لا يقبل بها من كان لديه مسكة من عقل أو ذرة من إيمـان ... ولا يخفى على ذوي البصائر ، فإن لهذه المفسدة أخطاراً وسلبيات تنعكس على حياة الفرد والجماعة ، وفي دعوى عدم المسؤولية تعطيل لمصالح العباد ، وانتكاس لسنن الكون ، مما يؤدي بالتالي إلى انحراف مدمر في سلوك البشر ، وهيمنة الطاغوت ، والخروج على أمر الله .

أما موقف الإسلام من مسؤولية الفرد فهو على النقيض مما ذكر تماماً ، وفيما يلي بعض النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تبين مهمة الفرد في الحياة ، وإنه لم يخلق هملاً وبلا ضوابط تردعه :

قال تعالى : (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً . اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً)[1] .

وقوله تعالى : (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[2] وقوله تعالى : (كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ)[3] . وقوله سبحانه: (وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ)[4].

وقال عز وجل : (لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ

(١) سورة الإسراء : ١٣ ، ١٤ .
(٢) سورة البقرة : ١٣٤ .
(٣) سورة الطـور : ٢١ .
(٤) سورة النجـم : ٣٩ .

سُوءًا يُجْزَ بِـــهِ)[1] . كما قال سبحانه وتعالى : (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)[2] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ [3] ».

وعن عروة أن امرأة سرقت في عهد رسول الله ﷺ في غزوة الفتح ، ففزع قومها إلى أُسامة بن زيد رضي الله عنه يستشفعونه ، قال عروة : فلما كلمه أُسامة فيها تلوّن وجه رسول الله ﷺ وقال : « أَتُكَلِّمُنِي فِي حَدٍّ مِنْ حُـــدُودِ اللهِ ؟ ! ». فقال أُسامة : استغفر لي يا رسول الله . فلما كان العشي قَام رسول الله ﷺ خطيباً ؛ فأَثْنى على الله بما هو أَهله ، ثم قال : « أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّمَا هَلَكَ النَّاسُ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَـــدَّ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا »[4] ، ثم أمـــر رسول الله ﷺ بتلك المرأة فقطعت يدها ، فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت.

يتبين لنا من هذه النصوص الشريفة أن الإنسان لا يتحمل إلا مسؤولية أعماله وحده ، فلا يسأَل عن أعمال والده ، أو ذنوب أقاربه ، إلا إذا شارك فيها أو ساهم في تنفيذها . وإن المسؤولية ـ صغرت أو كبرت ـ فستكون أمام الحاكم العادل يوم القيامة . وأما شرع الله في الحياة الدنيا فقد بينه القرآن : (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ)[5] ، فالمسلم يحاسب نفسه

(١) سورة النساء : ١٢٣ .
(٢) سورة الزلزلة : ٧ ، ٨ .
(٣) قطعة من حديث صحيح رواه الشيخان .
(٤) حديث صحيح رواه البخاري .
(٥) سورة الأنعـــام : ١٦٤ .

على الصغيرة والكبيرة ، وفي ذلك تأكيد لحماية المجتمع ، وقطع لدابر الفتنة .

ومقياس تقدم الإنسان وتأخره هو عمله ، وقد قال رسول الله ﷺ : « يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً . يَا بَنِي عَبْدِ مُنَافٍ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً . يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً . وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئاً . وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ، سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئاً »[1] .

هكذا يتحرر ضمير الإنسان من التواكل والاعتماد على غيره ، وقد يصبح للخطيئة شأن لا يذكر ، ومن هنا كان لها أثر بالغ على شخصية الإنسان واستقلاليته ، فيصل المجتمع إلى المكانة اللائقة بعد أن استقام سلوك أفراده ، وفق مشيئة الله وطبقاً لقانون السماء المنظم لسلوك البشر ، الذين كلفوا بحمل أمانة السماء الزاخرة بالمبادئ السامية ، والداعية لخير الإنسانية وتحريرها من ربقة الشرك وهيمنة الخرافة .

(١) حديث صحيح رواه الشيخان .

شبهة منكري البعث

لقد تكفل الشيطان بإغواء الناس وإغرائهم بما يزينه لهم ؛ فأغلق عليهم منافذ الخير وقعد لهم كل مقعد ، حتى أوفى بوعده . وقد كان معظم صرعاه من الفئات الشاذة التي تنساق وراء شهواتها وما يمليه عليها هواها ، فتسبح في بحر ظلماتها وتنسى قيمها وتتنكر لوجودها وإنسانيتها . فما أكثر النعم التي أنعم الله بها على خلقه ، وما أقل الشاكرين الحامدين لإنعام المنعم ، وصدق الله العظيم : (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)[1] .

فالله سبحانه خلق الموت والحياة ، وخلق الأكوان كلها وخلق كل شيء ، وزود الإنسان بقوى ومؤهلات تمكنه من أداء رسالته في الحياة ، كما أرسل سبحانه خيرة خلقه مبشرين ومنذرين ؛ الذين حملوا رسالات السماء إلى أقوامهم ، وبينوا لهم أوامر الله ونواهيه حسب شرع الله . ورغم دعوات الرسل والأنبياء والمصلحين في كل زمان ، والنذير والوعيد في كل عصر ، فقد ضل كثير من خلق الله ، ولم ينتفعوا بحواسهم وعقولهم ، بل تنكروا لنعم الله وقدرته وعظمته وحكمته البالغة ، ونسوا الله فأنساهم أنفسهم : (وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُواْ ٱلْأَلْبَابِ)[2] .

إن هذه الطوائف المنحرفة ، التي تنكبت السنن المعروفة والأعراف المألوفة ، وأنكرت المعاد والمآل ، والجنة والنار ، وأخيراً أنكرت وجحدت البعث ويوم الحساب .

---

(١) سورة سبإ : ١٣ .

(٢) سورة البقرة : ٢٦٩ .

إن هؤلاء الملاحدة شأنهم كسائر الكفرة في كل زمان ومكان ، ومثلهم كالشيوعية القائلة : لا إله ، والحياة مادة . (قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ)[1] .

لقد رد الله على هؤلاء الشواذ الذين أنكروا البعث ، وأن ادعاءهم باستبعاده لا معنى له ، وهو من قبيل التخرص ؛ لأنهم يجهلون عظمة الله وقدرته وعلمه ، وأنهم لا يبصرون ما في أنفسهم ؛ فهم أنفسهم أدل الدلائل وأقوى الحجج على نفي ما ينكرونه من البعث ، فالله أحياهم أولاً وأماتهم ثانياً ، ولا تزال القدرة صالحة لإحيائهم مرة ، وجمعهم مرة أخرى يوم القيامة ، فأي استبعاد في هذا ؟ ! .

ومن جهة أخرى يجيب علماءُ العقائد عن هذه الشبهة بأن للإنسان أجزاءً أصلية وأجزاءً عرضية ، والأجزاءُ الأصلية تبقى كما هي ، والعرضية هي التي تتحول[2] .

إن الإيمان بالله والامتثال لهدي نبيه هما رأس الأمر كله ، والإيمان بالله يمثل أكرم صلة بين الإنسان وخالقه ، والإيمان كذلك بأمور الغيب ؛ ومنها البعث والحساب وغيرها من الغيبيات التي تمثل صلب العقيدة . ومن جهة أخرى على الإنسان ألا ينساق وراء الهوى والضلال ، بل عليه أن يزن كل شيء بميزان الحق والصواب ، ولا ينخدع بتقاليد الآخرين وسرابهم ، وما بعد الهدى إلا الضلال . وصدق الله العظيم : (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمٰوَاتِ

(١) سورة المنافقون : ٤ .

(٢) انظر كتاب العقائد الإسلامية : ص ٢٧٢ . بتصرف .

وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[1] .

وعن جابر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَىٰ مَا مَاتَ عَلَيْهِ »[2] .

ومن المؤسف أن كثر في هذا العصر مروجو ضلالة إنكار البعث وإعادة الحياة للإنسان مرة ثانية ، مع أن الدلائل البينة والبراهين الواضحة التي تدحض هذا الهراء مركوزة في الأنفس والآفاق ، إلا أن عقول المنحرفين لم تعد تستوعب فكرة البعث وإعادة الحياة لهذه الأجسام التي أصبحت عظاماً نخرة ، وأن من العسير جمع تلك الرفات المتفرقة التي تحولت إلى تراب ، وأن هذا التراب سيتحول إلى حالات أخرى مختلفة .

وعلى هذه الوتيرة وبهذه المزاعم ، يذهب منكرو البعث ـ وغيره من الغيبيات ـ فينشرون ضلالهم وشبهاتهم الشيطانية قائلين : كيف يبعث الناس من قبورهم بعد تحلل أجسامهم وتفرق أجزائها وتحولها إلى تراب كغيرهم من الكائنات ؟ ! ! .

وقد عالج القرآن ذلك ، ورد على مزاعم هؤلاء بما يناسب زعمهم ، فقال للذين يستبعدون البعث ويستعظمون أمره :(وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ

(١) سورة الروم : ٢٧ .

(٢) رواه مسلم . والمعنى : أن من مات على خير بعث على حال سارة ، ومن مات على شر بعث على حال شقية .

وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ . أَوَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)[1] .

لقد عرف الناس منذ القديم ضلالة إنكار البعث ، وتلقفتها الأجيال جيلاً بعد جيل ، ورددتها ولا زالت تتكرر ، وقد تعرض لها الإسلام وعالجها القرآن فقال سبحانه : (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَآئِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)[2] .

والحكمة السامية من وراء البعث هي الجزاء والثواب ؛ فيرى الإنسان نتائج أعماله في الدنيا ؛ فيثاب المحسن ويعاقب المسيء . وهذه العقيدة أصل من أصول الصلاح والإصلاح في العالم ، فلو استقرت هذه العقيدة عند الناس جميعاً وآمنوا بها إيماناً صادقاً ، لاستقامت أمورهم وكثر فيها الخير والإحسان ، وَقَلَّ بينهم الشر والفساد ، ولكن البشر في كل عصر تغلب عليهم الحياة الدنيا وتخلبهم بزخارفها ومتاعها ، وكثير منهم يعتريهم الشك في البعث ودار الجزاء ، فلا يصدقون أنهم سيبعثون بعد الموت ويعرضون للحساب[3] ! فالشيطان

(١) سورة يس : ٧٨ – ٨١ .
(٢) سورة الجاثية : ٢٤ – ٢٦ .
(٣) راجع كتاب العقائد الإسلامية . وروح الدين الإسلامي : ص ١٢٠ .

وجنده يعملون باستمرار لإغواء البشر وتضليلهم ، وإغلاق كل السبل والمنافذ التي تحول دون رؤية الحق وولوج طريقه المستقيم ، والأمثلة كثيرة على إمكان البعث والحياة بعد الموت ، وسأكتفي بهذه الآيات الكريمات من قول الحق سبحانه :

(وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ . وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ . رِزْقاً لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ)[1] .

يقول ابن كثير رحمه الله : وهي الأرض التي كانت هامدة ، فلما نزل عليها الماءُ اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ؛ من أزاهير وغير ذلك مما يحار الطرف في حسنها ، وذلك بعدما كانت لا نبات بها فأصبحت تهتز خضراء ... فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك ، كذلك يحيي الله الموتى . وهذا المشاهد من عظيم قدرته بالحس أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث كقوله عز وجل : (لَخَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ)[2] . وقوله تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[3] .

---

(١) سورة ق : ٩ – ١١ .

(٢) سورة غافر : ٥٧ .

(٣) سورة الأحقاف : ٣٣ .

القضاء والقدر

القضاءُ : هو علم الله الأزلي بجميع الأشياء على ما ستكون عليه مستقبلاً .

والقـــدر : إيجاد تلك الأشياء بالفعل مطابقة لعلم الله الأزلي فيها .

وقد عكس بعضهم فجعل تعريف القضاء للقدر ، وتعريف القدر للقضاء ، والأمر محتمل[1] .

وقد وردت لفظة القدر في مواضع متعددة من القرآن الكريم . قال تعالى : (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ)[2] . أي بمقدار معين .

وقال سبحانه : (اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ)[3] .

والمعنى : أي أن لكل شيء من مخلوقات الله سبحانه سنناً ونواميس ومقادير منتظمة كسننه في حمل الإناث وعقمها ، وزيادة الذرية ونقصها والإنسان جزءٌ من الوجود وينطبق عليه النظام الذي اقتضته حكمة الله وتقديره . وجاء في القرآن عن الزمن قوله تعالى : (وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)[4] . وجاء في التصوير قوله تعالى : (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً)[5]

---

(١) انظر كبرى اليقينيات الكونية : ص ١٦٨ .

(٢) سورة المؤمنون : ١٨ .

(٣) سورة الرعد : ٨ .

(٤) سورة المزمل : ٢٠ .

(٥) سورة الفرقان : ٢

تبين لنا هذه الشواهد القرآنية أن عقيدة القدر في القرآن الكريم ، التي تعلم المؤمنين أن لهذا الكون نظاماً محكماً ، وسنناً مضطردة ارتبطت فيها الأسباب بالمسببات ، وأن ليس في خلق الله خلل ولا مصادفات ، ومن فائدة هذا الاعتقاد أن أهله يكونون أجدر الناس بالبحث في نظام الكائنات ، وتعرف سنن الله في المخلوقات ، وطلب الأشياء من أسبابها ، والجري إليها في سننها[1] . وقال الرسول ﷺ : « الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ » . رواه مسلم وغيره .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ غفر الله له ـ بعد كلام طويل : والقدر هو قدرة الله . كما قال الإمام أحمد : وهو المقدِّر لكل ما هو كائن . لكن حقيقة الأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، يعني من الأفعال ما ينفع صاحبه فيحصل له به نعيم ، ومنها ما يضر صاحبه فيحصل له به عذاب . فنحن لا ننكر اشتراك الجميع من جهة المشيئة والربوبية وابتداء الأمور ، لكن نثبت فرقاً آخر من جهة الحكمة والأوامر الإلٰهية ونهاية الأمور فإن العاقبة للتقوى لا لغير المتقين . وقد قال تعالى : (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ)[2] . وقال تعالى : (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ)[3] .

وإذا كان كذلك ، فحقيقة الفرق أن من الأمور ما هو نافع له

---

(١) روح الدين الإسلامي : ص ١٥١ ، ومجلة المنـــار لمحمد رشيد رضا .

(٢) سورة ص : ٢٨ . (٣) سورة القلم : ٣٥ .

فيحصل له به اللذة ، ومنها ما هو مضاد له ضار له يحصل له به الألم ، فرجع الفرق إلى الفرق بين اللذة والألم ، وأسباب هذا وهذا . وهذا الفرق المعلـوم بالحس والعقل والشرع ، مجمع عليه بين الأولين والآخرين ، بل معلوم عند البهائم ، بل هذا موجود في جميع المخلوقات . أ . هـ[1] .

سوء فهم القضاء والقدر

إن فهم معنى القضاء والقدر أمر لازم ، وهو معلوم من الدين بالضرورة فلا يجوز أن يهمله المسلم ، وقد فهمه المسلمون الأولون وطبقوه كما قرره الإسلام . وهو ركن أساسي من أركان الإيمان ، ومن العقائد الأساسية التي يتحصن بها المسلم ، ومن وظائف الإسلام الرئيسية التي يجب الالتزام بها من قبـل أبناء المسلمين ، والتسليم بمجرياتها وفق المقادير الربانية ، وعلى حسب مقتضى تعاليم الشارع الحكيم .

وقد اقترن بالتحريف ـ الذي أدخل على مفهوم التوكل على الله ـ سوء فهم لمعنى الرضا بالقضاء والقدر ، مما كان له الأثر البالغ في إفساد العقيدة وتشويه حقائق الإسلام ، لذا نجـد هؤلاء الذين فسدت معتقداتهم يجعلون النتائج السببية التي تأتيهم بأسباب منهم ؛ كالمصائب الإلٰهية التي يبتلي الله بها عباده ، فيسيئون فهم القضاء والقدر ؛ فيضعون الأمور في غير مواضعها ، ويسلكون في هذا مسلكاً شبيهاً بمسلك المنافقين ، الذين كانوا إذا أوذوا مع المسلمين في قتال ، جعلوا فتنة الناس كعذاب

(١) مجموعة الرسائل الكبرى : ص ١٠٣ . للإمام ابن تيمية رحمه الله رحمة واسعة .

الله ، وأخذوا يطرحون الشكوك في الإسلام ، ويعتبرون أن ما أصاب المسلمين من أذى ، هو شبيه بعذاب الله لهم . وفيهم يقول الله سبحانه وتعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَ لَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ . وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ)[1] .

وظاهر أن الاستكانة إلى العدو ، على معنى الرضا بقضاء الله وقدره ، استكانة نهى الإسلام عنها ، ولا يرضى بها ، ولا يجوز أن تكون وفي قدرة المسلمين أن يدافعوا ويكافحوا ويجاهدوا في سبيل الله ، وما يصاب المسلمون بالخذلان أو يتسلط أعداؤهم عليهم إلّا بذنوبهم ، وبتقصيرهم عن القيام بما أوجب الله عليهم من اتخاذ الأسباب ، لصد أعدائهم وإعلاء كلمة الله[2] .

كان المعوّقون والمخذّلون يذهبون إلى المرأة ، فيثيرون مخاوفها على رزقها ورزق عيالها إذا ذهب زوجها إلى الجهاد ، فتجيبهم في ثقة واطمئنان : زوجي عرفته أكّالاً ولم أعرفه رزاقاً . فإن ذهب الأكّال بقي الرزّاق[3] .

وذكر عن الشيخ عبد القادر الجيلاني[4] رحمه الله أنّه قال : إن كثيراً

(١) سورة العنكبوت : ١٠ ، ١١ .

(٢) أحنحة المكر الثلاثة : ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ . بتصرف .

(٣) الإيمـــان والحياة : ص ٢٥٨ . للقرضاوي .

(٤) هو الشيخ عبد القادر بن موسى الجيلاني ؛ العالم الزاهد الصالح ، المتوفى في بغداد سنة ٥٦١ هـ. تنسب إليه الطريقة القادرية ، وهو بريء من البدع والضلالات التي تنسب لهذه الطريقة .

من الرجال إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا إلَّا أنا ـ أي الشيخ عبد القادر ـ فإني انفتحت لي فيه روزنة[1] ، فنازعت أقدار الحقّ بالحقّ للحقّ ، والرجل من يكون منازعاً للقدر ، لا من يكون موافقاً للقـــدر[2] .

والذي ذكره الشيخ ـ رحمه الله ـ هو الذي أمر الله به ورسوله ، ولكن كثيراً من الرجال غلطوا فيه ؛ فإنهم قد يشهدون ما يقدّر على أحدهم من المعاصي والذنوب ، أو ما يقدّر على الناس من ذلك ـ بل من الكفر ـ ويشهدون أن هذا جار بمشيئة الله وقضائه وقدره ، داخل في حكم ربوبيته ومقتضى مشيئته ، فيظنون الاستسلام بذلك وموافقته والرضا به ونحو ذلك ، ديناً وطريقاً وعبادة ، فيضاهئون المشركين الذين قالوا : (لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ)[3] . وقالوا : (لَوْ شَاءَ الرَّحْمٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ)[4] .

---

(١) الروزنة : الكوة ؛ وهي خرق في الحائط كالنافذة ، ومازال اللفظ مستعملاً في العراق ومعروفاً في فلسطين .

(٢) راجع رسالة العبودية : ص ٥٤ .

(٣) سورة الأنعام : ١٤٨ .

(٤) سورة الزخرف : ٢٠ .

الانسان مخير في أعماله

الباطنية والمبتدعة مولعون دائماً بتأويل الوقائع وقلب الحقائق مما يخرجها عن مقصدها وغاياتها ، وليس ذلك من مزايا دعاة الحق ، وإنما ذلك انحراف عن الجادة وبعد عن مرامي الحق والصواب .

كثيراً ما يتردد على ألسنة المبتدعة ـ وبعض المتصوفة الجهال ـ كلمات يفهم منها ما يخالف روح الإسلام وأحكامه السامية ، كما تتناقض وقواعد المنطق السليم وبدهيات العلم .

ومن هذه الأقوال السقيمة أن الإنسان لا يملك في الحقيقة شيئاً ، وأنه ليس إلا ريشة في الهواء ، وأنه مسيّر لا مخيّر ، بل مسيَّر في كافة شؤونه وأعماله ؛ ليس له من حول ولا قوة ، وأن هذا الذي نراه من ظواهر الناس وأحوالهم ، ليس كل ذلك إلا ظلالاً لقضاء الله فيهم[1] .

وإذا ما اعترض عليهم المعترض أو عقب عليهم معقب تجدهم يسارعون بذكر قول الله سبحانه : (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ)[2] : كشاهد وحجة على صدق دعواهم .

وبدءَ ذي بدءٍ أقول : هذه الآية خصوصية للرسول ﷺ وليست عامة . قال الإمام ابن كثير رحمه الله : قال تعالى في شأن القبضة من التراب التي حصب بها وجوه الكافرين يوم بدر حين خرج من العريش ، ـ بعد دعائه وتضرعه واستكانته ـ فرماهم بها وقال : « شَاهَتِ الْوُجُوهُ » .

(١) كبرى اليقينيات الكونية : ص ١٧٦ . (٢) سورة الأنفال : ١٧ .

ثم أمر أصحابه أن يصدقوا الحملة إثرها ففعلوا ، فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين ، فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله . ولهذا قال تعالى : (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ) . أي هو الذي بلغ ذلك إليهم وكبتهم بها لا أنت[1] .

وقال السدي : قال رسول الله ﷺ لعلي يوم بدر : « اعْطِنِي حَصْبَاءَ مِنَ الْأَرْضِ » . فناوله حصباء عليها تراب ، فرمى بها في وجوه القوم ، فلم يبق مشرك إلا دخل في عينيه من ذلك التراب شيءٌ ثم ردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم وأنزل الله : (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ)[2] .

وأما دعوى بعض ضعاف العقول ، الذين أسرهم الوهم ، من الطوائف المبتدعة والمتصوفة ، الزاعمين بأنهم مسيرون ؛ لا حول لهم ولا قوة ، فهم بهذا الكلام يفترون على الله وعلى الحقيقة وعلى الناس . ولا شك أنهم بهذا التخرص الواهي واهمون ومتأولون منحرفون ، يريدون لأنفسهم الخروج على الشرع الحنيف وهذا تعطيل للحياة وإفساد للعقول التي منحها الله لعباده ؛ ليتفكروا في صنع الله ويهتدوا بهديه ، ويأتمروا بأمره ؛ ليعمروا الأرض ويصلحوا شؤون الحياة لينالوا سعادة الدارين .

(يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ)[3] .

(١) تفسير ابن كثير : جـ ٢ ، ص ٢٩٥ . (٢) تفسير ابن كثير : جـ ٢ .

(٣) سورة الانشقاق : ٦ . والمعنى : أي ملاق عملك المذكور من خير أو شر يوم القيامة . بتصرف عن تفسير الجلالين : ص ٥٠٦ .

ولنتدبر قول الحق سبحانه : (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)[1] .

وفي هذه الآية الكريمة إشارة واضحة لمعرفة أعمال الإنسان ومدى طاعته لله .

يقول الشيخ سيد سابق ـ أطال الله بقاءه[2] : وقد اختلفت الأنظار وتضاربت الأفكار تضارباً كادت تضيع معه معالم الحق ؛ فمن قائل : إن الإنسان مسيّر[3] غير مخيّر ، ومجبر على ممارسة نشاطه الاختياري ، وإنه كالريشة في مهب الريح تتقاذفها ذات اليمين وذات الشمال .

ومن قائل : بأن الإنسان مخيّر[4] غير مسيّر ، وأنه يمارس أعماله الاختيارية بمحض إرادته ومشيئته .

ومن قائل : بأن الإنسان ليس له من أعماله إلا الكسب ، أي أن الله يخلق الشيء عند مباشرته ، أي أن الله يخلق الشبع عند الأكل ، ويخلق المعرفة عند الدراسة ... وهكذا ، وليس للعبد إلا الكسب[5] ، وبه يصح التكليف والثواب والعقاب والمدح والذم .

ثم يستطرد الأستاذ سيد سابق قائلاً : قرر الإسلام أن الإنسان خلق مزوداً بقوى وملكات واستعدادات ، وهذه القوى يمكن أن توجه إلى

---

(١) سورة الملك : ٢ .
(٢) العقائد الإسلامية .
(٣) هذا مذهب الجبرية .
(٤) هذا مذهب المعتزلة .
(٥) رأي الأشاعرة .

الخير ، كما يمكن أن توجه إلى الشر ، فهي ليست خيراً محضاً ولا شراً محضاً ، وإن كانت إرادة الخير في بعض الناس أقوى ، وإرادة الشر في بعضهم الآخر أقوى ، وبينهما تفاوت لا يعلمه إلا الله . وفي الحديث : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الْفِطْرَةِ »[1] . ويؤيد هذا قول الله سبحانه : (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)[2] .

أي أن الله خلق النفس مسواة ومعتدلة ، قابلة للتقوى والفجور ، ومستعدة للخير والشر . والله سبحانه وتعالى زود الإنسان بالعقل الذي يميز به بين الحق والباطل في العقائد ، وبين الخير والشر في الأفعال ، وبين الصدق والكذب في الأقوال ، وأعطاه القدرة التي يستطيع بها أن يحق الحق ويبطل الباطل ، وأن يأتي الخير ويدع الشر ، وأن يقول الصدق ويجانب الكذب ، ورسم له منهج الحق والخير والصدق بما أنزل من كتب وبما أرسل من رسل .

ومادام العقل المميز موجوداً ، والقدرة على الفعل صالحة ، والمنهج المرسوم واضحاً ، فقد ثبت للإنسان حرية الإرادة واختيار الفعل[3] .

وعلى الإنسان أن يوجه قواه إلى ما يختاره لنفسه من حق أو باطل ، ومن خير أو شر ، ومن صدق أو كذب . وفي القرآن الكريم يقول الله سبحانه : (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)[4] . أي

(١) فقرة من حديث شريف . متفق عليه .

(٢) سورة الشمس : ٧ ، ٨ .

(٣) العقائد الإسلامية : ص ٩٠ وما بعدها .

(٤) سورة الإنسان : ٣ .

هديناه وأرشدناه إلى طريق الحق والباطل والخير والشر والصدق والكذب؛ فهو إما أن يسلك السبيل الأهدى ويكون شاكراً ، أو الطريق المعوج فيكون كفوراً .

ولنتأمل هذه الآية الكريمة : (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)[1] . يتبين من هذه الآية الكريمة أن العمل الصالح والعمل السيء قد أُسندا إلى الإنسان ، ولو لم يكن الإنسان حراً ما أُسند إليه الفعل .

وفي موضع آخر من القرآن الكريم يقول الله سبحانه : (وَمَآ أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَنْ كَثِيرٍ)[2] . أي أن الشرور التي تعرض للإنسان إنما هي أثر من آثار عمله ونتاج اختياره وتصرفه .

ونخلص من هذا إلى أنه لو لم يكن الإنسان مختاراً لما كان ثمة فرق بين المحسن والمسيء ، إذ أن كليهما مجبر على ما يفعله ، ولبطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إذ لا فائدة لهما حيث إن الإنسان مسلوب الإرادة ، ولما كان ثمة معنى لتكليف الله للعباد ، لأن تكليفه إياهم مع سلب اختيارهم هو منتهى الظلم ، الذي يتنزه الله عنه . ويكون الأمر كما قال الشاعر :

ألقـــاه في اليم مكتوفاً وقال له إيـــاك إيـــاك أن تبتل بالمـــاء

إذ لو كان الإنسان مسيراً لضاعت فائدة القوانين ، ولبطل الجزاء

(١) سورة فصلت : ٤٦ . (٢) سورة الشورى : ٣٠ .

من الثواب والعقاب. ، ولأصبحت الحياة بهيمية معطلة وفسد الحرث والنسل[1] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : وأما قول القائل : ما لنا في جميع أفعالنا قدرة . فقد كذب ؛ فإن الله تعالى فرق بين المستطيع القادر وغير المستطيع وقال : (فَاتَّقُواْ اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ)[2] . وقال تعالى : (اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً)[3] . والله قد أثبت للعبد مشيئةً وفعلاً كما قال تعالى : (لِمَنْ شَآءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ.وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)[4] . وقال تعالى : (جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[5] . لكن الله سبحانه خالقه وخالق كل ما فيه من قدرة ومشيئة وعمل ، فإنه لا رب غيره ولا إله سواه ، وهو خالق كل شيء وربه ومليكه[6] . أ . هـ .

إن الذين يحاولون أن يثبتوا أن الإنسان مقهور مجبور لا إرادة له ولا اختيار إنما يريدون أن يسقطوا عن أنفسهم التكليف ، وأن يطلقوا لشهواتهم العنان دون تقييد ولا مبالاة ، متعللين بالمقادير ومعتذرين بالمعاذير .

والمسلم الحق لا يجادل بالباطل ، بل يتخذ لنفسه سبيلاً إلى ربه ويحاسبها على عمله وكسبه ، ولا يخدع نفسه بالأكاذيب ، فإن

(١) راجع العقائد الإسلامية : ص ١٠٣ ، ١٠٤ .
(٢) سورة التغابن : ١٦ . (٣) سورة الروم : ٥٤ .
(٤) سورة التكوير : ٢٨ ، ٢٩ . (٥) سورة الواقعة : ٢٤ .
(٦) انظر مجموعة الرسائل الكبرى : ص ٩٣ ، ٩٤ .

الحقيقة لا تخفى : (بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ.وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ)[1] .

يقول العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي رحمه الله : إن العبد إذا صلى وصام وفعل الخير أو عمل شيئاً من المعاصي ، كان هو الفاعل لذلك العمل الصالح وذلك العمل السيء . وفعله المذكور بلا ريب قد وقع باختياره ، وهو يحس ضرورة أنه غير مجبور على الفعل أو الترك ، وأنه لو شاء لم يفعل ، وكان هذا هو الواقع ، فهو الذي نص الله عليه في كتابه ونص عليه رسوله ، حيث أضاف الأعمال - صالحها وسيئها - إلى العباد ، وأخبر أنهم الفاعلون لها ، وأنهم ممدوحون عليها إن كانت صالحة ، ومثابون وملومون عليها إن كانت سيئة ومعاقبون عليها .

فقد تبين واتضح بلا ريب أنها واقعة منهم باختيارهم وأنهم إذا شاؤوا فعلوا ، وإذا شاؤوا تركوا ، وأن هذا الأمر ثابت عقلاً وحساً وشرعاً ومشاهدة .. الخ[2] .

---

(١) سورة القيامة : ١٤ ، ١٥ .

(٢) انظر شرح العقيدة الواسطية تأليف الدكتور محمد خليل هراس : ص ١٤٩ - ١٥٠ .

دفع فرية مروية عن شيخ الاسلام ابن تيمية

تعرض علماءُ الإسلام قديماً وحديثاً لمطاعن كثيرة وشبهات عديدة على أيدي أعدائهم ؛ وذلك للانتقاص من هذا الدين الحنيف وتقويض دعائمه ، وسأتعرض في هذه العجالة لدفع فرية ألصقها بعض الرواة والمؤرخين بعالم زمانه وفارس ميدانه شيخ الإسلام أحمد عبد الحليم بن تيمية المولود سنة ٦٦١ هـ . بحران ـ سـوريـة .

هو أحد الأئمة الأعلام الذين شاء الله أن يجدد بهم الإسلام ، وأن يعز بهم دينه وشريعته ، وأن يحفظ به وبأمثاله أمة العرب والإسلام .

إن الأمة الإسلامية تفخر بابن تيمية ؛ المؤمن المجاهد الصادق القوي المدافع عن الدين والوطن ، الذي لم يكن على ما عليه الجمهور من علماء الإسلام هذه الأيام من تخاذل وتكاسل ، بل كان مؤمناً حقاً بالله عاملاً بشريعته ، معتزاً بحوله وقوته ، عالماً بأن الجهاد في سبيل الله والوطن من أعظم وأفضل القربات إلى الله تعالى .

لقد اشترك في صد هجوم التتار على بلاد الشام ؛ حيث كان يتقدم الصفوف مجاهداً حتى تم فتح الله ونصره ، بهزيمة الطغاة المغول وصدهم عن دمشق الفيحاء ، معقل الإسلام وعرين المسلمين . وقصارى القول : إن الله أحيا به الشام بل والإسلام ، بعد أن كاد ينثلم بتثبت أولي الأمر ؛ لما أقبل حزب التتار والبغي في خيلائهم فظنت بالله الظنون ، وزلزل المؤمنون واشرأب النفاق ، وأبدى صفحته . أ.هـ. كما يقول الحافظ

الذهبي في ترجمته له في معجم شيوخه[1] .

وقد كتب عنه معاصروه الثقات ، ومنهم ابن الوردي في تاريخه ، والحافظ الذهبي في كتبه العديدة ، وابن رجب وابن الآلوسي وغيرهم ؛ حيث أثنوا عليه ثناءً جميلاً . وقال الذهبي في عد مصنفاته المجودة : وما أبعد أن تصانيفه إلى الآن تبلغ خمسمائة مجلدة[2] .

ولا نريد الإطالة فحسبنا ما ذكرناه عن مؤرخي عصره ، ومن أراد التفصيل فليرجع لتلك المراجع المذكورة ففيها الخبر اليقين . ولما كان مرادنا دفع تلك الفرية التي درج كثير من المؤرخين والعلماء على ترديدها ، وإلصاقها بشيخ الإسلام الإمام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية رحمه الله ـ زوراً وبهتاناً ـ حيث يعوزها الدليل ولا يوجد لها ما يسعفها من حجة أو برهان .

لذلك فإني أقدم للقراء ما أورده الشيخ الجليل محمد بهجت البيطار رحمه الله في كتابه القيم : حياة شيخ الإسلام ابن تيمية . وهذه بعض الفقرات كما جاء في الكتاب ص ٣٦ :

ـ اتهم شيخ الإسلام بتشبيه الله تعالى بخلقه أو التجسيم ، على كثرة ردوده على المشبهة والمجسمة ، كما كان يرد على القدرية والجهمية والمعتزلة ، وغيرهم من المؤولة والمعطلة[3] ، وهؤلاء يزيدون على ما

(١) طبقات ابن رجب : ج ٢ . ص . ٣٩ ؛ نقلاً عن : حياة ابن تيمية ـ محمد يوسف موسى .
(٢) ابن تيمية د . محمد يوسف موسى . ص ٧٦ . سلسلة أعلام العرب .
(٣) للمزيد من المعرفة في هذه المسألة ، أحيل القارىء إلى كتاب : شرح حديث النزول ، للشيخ الإمام ابن تيمية ، وفيه العلاج لكل واهم معلول .

وصف الله تعالى به نفسه في مثل قوله : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)[1] . فقد أثبت في هذه الآية لنفسه ذاتاً وصفات ؛ منها التنزيه عن المماثلة ، وهو سبحانه كما وصف نفسه بقوله : (رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ)[2] ... وكل شيء محتاج إليه ، وهو مستغن عما عداه ، وهو مالك العرش ومدبره ، فهو مسؤول عن عالم الأجسام وأعظمها العرش ، كما هو مسؤول على عالم الروحانيات وهي مسخرة له .

- لقد صدق كثير من العلماء والأُدباء في مختلف العصور هذه الفريـــة الواردة في رحلة ابن بطوطة الشهير وجعلوها قضية مسلمة ، يروونها ويتوارثونها إلى عصرنا هذا ، حتى إن دائرة المعارف الإسلامية[3] التي تنقل الآن إلى العربية في مصر . وقد ترجمت لابن تيمية ترجمة بقلم الأُستاذ محمد بن شنب ص ١٠٩ - ١١٦ - ج ١ فيها أغلاط كثيرة ، ونقلت عبارة ابن بطوطة هذه عن إمام الشام ، وشيخ الإسلام ابن تيمية: وكنت إذ ذاك بدمشق ، فحضرته يوم الجمعة وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويذكرهم ، فكان من جملة كلامه أن قال : إن الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولي هذا - ونزل درجة من درج المنبر .

فرأيت أن أنشر كلمة في هذا الموضوع تكون الحد الفاصل بين الحق والباطل .

---

(١) سورة الشـــورى : ١١ .

(٢) سورة غـــافر : ١٥ .

(٣) لقد أشرف على تأليفها جمهور من أقطاب المستشرقين ، ومن الذين طعنوا في الإسلام وحضارته وشوهوا معالمه . فليحذر المسلمون حبائل هؤلاء المندسين وأشباههم .

– إن ابن بطوطة رحمه الله لم يسمع من ابن تيمية ، ولم يجتمع به إذ كان وصوله إلى دمشق يوم الخميس التاسع عشر من شهر رمضان المبارك عام ستة وعشرين وسبعمائة هجرية ، وكان سجن شيخ الإسلام في قلعة دمشق أوائل شهر شعبان من ذلك العام ، ولبث فيه إلى أن توفاه الله تعالى ، ليلة الإثنين لعشرين من ذي القعدة عام ثمانية وعشرين وسبعمائة هجرية ، فكيف رآه ابن بطوطة يعظ على منبر الجامع ، وسمعه يقول : ينزل ... ؟؟ ! ! . الخ[1] .

– لم يكن ابن تيمية يعظ الناس على المنبر كما زعم ابن بطوطة جـ ١ ، ص ٥٧ : **فحضرته يوم الجمعة وهو يعظ على منبر الجامع ... بل لم يكن يخطب أو يعظ على منبر الجمعة كما يوهم قوله : ونزل درجة من درج المنبر . وإنما كان يجلس على كرسي يعظ الناس ، ويكون المجلس غاصاً بأهله .**

(١) إن رحلة ابن بطوطه مملوءة بالروايات والحكايات الغريبة ، ومنها ما لا يصح عقلاً ولا نقلاً ، وهو يلقي ما ينقله على عواهنه ولا يتعقبه بشيء ، فمن ذلك قوله – جـ ١ : ص ٥٤ – : وفي وسط المسجد – أي الأموي بدمشق – قبر زكريا عليه السلام . والمعروف أنه قبر يحيى عليه السلام . وقوله أيضاً : وقرأت في فضائل دمشق عن سفيان الثوري أن الصلاة في مسجد دمشق بثلاثين ألف صلاة . وهذا لا يقال من قبل الرأي . وسفيان رحمه الله أجلُّ من أن يفضله على مسجد رسول الله ﷺ وعلى المسجد الأقصى ثالث الحرمين الشريفين ، وهما لم يبلغ الثواب فيهما هذه الدرجة ، كما هو معلوم للمحدثين وغيرهم . . ومن نقوله التي أقرها ولم ينكرها – جـ ١ . ص ١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٣٦ – : النذور للقبور المعظمة ، والوقوف على أبواب الملوك ، ومن ذلك النذر لأبي إسحاق ، إذا هاجت الرياح في البحار ، واشتدت الأخطار وهو ما لم يبلغه أهل الجاهلية الذين قال الله تعالى فيهم : (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) .

قال الحافظ الذهبي : وقد اشتهر أمره وبَعُد صيته في العالم ، وأخذ في تفسير الكتاب العزيز أيام الجمع على كرسي من حفظه ، فكان يورد المجلس ولا يتلعثم ، وكان يورد الدرس ، بتؤدة وصوت جهوري فصيح. وقال : وفسر كتاب الله تعالى في عدة سنين من صدره أيام الجمع . كما قال علم الدين البرزالي في معجم شيوخه : وكان يجلس في صبيحة كل جمعة يفسر القرآن الكريم ، فأنتفع بمجلسه وبركة دعائه وطهارة أنفاسه وصدق نيته وصفاء باطنه وظاهره وموافقة قوله لعمله . وإنما كان يخطب الناس على منبر الجامع الأُموي في عهد دخول الرحالة ابن بطوطة دمشق قاضي القضاة جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني ، وقد كان خطيب المسجد وإمام الشافعية فيه ، وكان سكناه بدار الخطابة[1].

ويستأنف الشيخ العلامة بهجت البيطار قائلاً : ومما تقدم يعلم أن ابن تيمية هو جالس على كرسي في الجامع الأُموي ، لا واقف على منبر فينزل درجة عنه . وقد أشار إلى ذلك الحافظ المؤرخ ابن عبد الهادي بقوله : ثم إن الشيخ جالس يوم الجمعة ـ أي بدمشق ـ على عادته . وقال وهو يصف حاله وأعماله بمصر ، ويتكلم في الجوامع على المنابر من بعد صلاة الجمعة إلى العصر . فهو لم يقل على منابر الجمعة ولا على منابر الخطابة ، والظاهر أن المراد بالمنبر كل ما ارتفع عن الأرض ، كما يفهم من مفهومه اللغوي ، فهو يعم هذه الكراسي التي يجلس عليها المدرسون في المساجد الكبرى بمصر والشام والعراق ، ليسمعوا منها

(١) ج ١ . ص ٥٦ ـ رحلة ابن بطوطة .

الجماهير . فكيف غفل ابن بطوطة عن ذلك ؟ ! .

على أن ابن بطوطة لم يكتب رحلته بقلمه ، وإنما أملاها على ابن جُزَيْ الكلبي ، وقال هذا في المقدمة : ونقلت معاني كلام الشيخ أبي عبد الله بألفاظ موفية للمقاصد التي قصدها ، موضحة للمعاني التي اعتمدها . فيجوز أن يكون ذلك من تحريف النساخ ، أو وسوسة بعض الخصوم . والله تعالى أعلم[1] .

شبهة انتشار الإسلام بالسيف

ما أكثر الهدّامين وما أقلّ المصلحين المنصفين في هذا العصر ، الذي انتكست فيه الإنسانية وابتعدت فيه عن قيمها ، ومعالم فطرتها التي فطر الله الناس عليها .

إن سهام الباطل لازالت مصوّبة تجاه الإسلام من قبل أعدائه اللئام ، الذين لا نستطيع أن نقف لهم على حصر أو تعداد ، أولئك الخبثاء الذين استخدموا كافة السبل والوسائل للنيل من دين الإسلام وحضارته ، والحطّ من قدره وسمعته . إن دعاة الباطل الذين يتجنون على الإسلام كثيرون ـ قديماً وحديثاً ـ ومن بينهم المستشرقون وتلاميذهم ؛ من أبواق الضلال وأصحاب النوايا الفاسدة والأهداف اللئيمة ، الذين يزعمون

(٢) يقول في آخرها : انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ أبي عبد الله محمد بن بطوطة ، وهذا دليل واضح على أن الرحلة لم تصلنا بألفاظ مؤلفها ، بتصرف عن حياة شيخ الإسلام ابن تيمية وكتاب شرح حديث النزول .

فيما يكتبون ـ زوراً وبهتاناً ـ بأن الإسلام قد انتشر بالسيف . إنهم بهذه المزاعم يحاولون إلباس دعواهم ثياب صدق وحيدة ، حين يربطون بين الفتوحات الإسلامية وبين نشر الإسلام ، فمن هؤلاء من يركب المركب الوعر ؛ فيخلط ويشوّه بدعوى خاطئة واستنتاج ظالم ، ويغالط نفسه ويظلم الإسلام وأهله بتجنيّاته وتخرّصاته التي ينسبها إليهم وهم منها براءٌ .

فأُسلوب الدعوة إلى الإسلام بعيد كلّ البعد عن الدمار ، بريء كل البراءة من شهر السيف وامتشاق الحسام ، وإنما السبيل إلى ذلك مسطور في حنايا الكتاب العزيز في أكثر من آية من آيات الله ؛ فسبيل نشر الدعوة ينحصر في أن قوة الدعوة نفسها أمضى وأقوى من قوة السيف .. والله تعالى يقول : (لَآ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)[1] . (ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)[2] . ويقول سبحانه : (وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)[3] .

هذا هو دستور الدعوة الإسلامية ؛ سبيل كلّه سلام وحرية اختيار ، لا إجبار ولا إكراه ، ولذلك فمن الحقائق التاريخية المسلم بها أن النصارىٰ من العرب ظلوا متمتعين بكامل حقوقهم ، وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يفرّق بين تغلب النصرانية وبين المسلمين[4] .

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٦ .
(٢) سورة النحل : ١٢٥ .
(٣) سورة آل عمران : ٢٠ .
(٤) راجع كتاب إسلام بلا مذاهب : ص ١٢٧ .

ومعروف أيضاً أن النصارىٰ في الشام طلبوا نجدة الجيوش الإسلامية لكي تخلصهم من ظلم الروم ولكي تنشر العدل بينهم ؛ فقد كانت رسالة السماء تفرض إشاعة العدالة بين الناس أياً كان دينهم ، وإذا كان الإسلام قد فرض الجزية عليهم ، فلم يكن معنى ذلك عقاباً لهم ، وإنما كان ثمناً لحمايتهم ، وفي نفس الوقت سمح لهم بإقامة شعائرهم الدينية ، والتمتع بكامل حقوقهم على وجه من العدل والإنصاف . وكان الحال كذلك أيضاً بالنسبة للقبط في مصر ، وقد لاقوا من الاضطهاد قبل الفتح الإسلامي ما جعلهم ينتظرون وصول العرب الفاتحين بفارغ الصبر[1] .

يقول السير توماس آرنولد في وصف حالهم : كان بعضهم يعذب ثم يلقى بهم في اليمّ ، وتبع كثير منهم بطْريقهم إلى المنفى لينجوا من مضطهديهم ، وأخفى عدد كبير منهم عقائدهم الحقيقة وتظاهروا بقبول قرارات مجمع خلقدونية ، وقد جلب الفتح الإسلامي إلى هؤلاء القبط حياة تقوم على الحرية الدينية التي لم ينعموا بها قبل ذلك بقرن من الزمان .

وقد تركهم عمرو بن العاص أحراراً على أن يدفعوا الجزية ، وكفل لهم الحرية في إقامة شعائرهم ، وخلّصهم بذلك من هذا التدخل المستمر الذي كانوا يئنّون من عبئه الثقيل في ظل الحكم الروماني ، ولم يضع عمرو يده على شيء من ممتلكات الكنائس ، ولم يرتكب عملاً من أعمال

(١) راجع المصدر السابق .

السلب والنهب ، ويظهر أن حالة القبط في الأيام الأُولى من حكم العرب كانت معتدلة ، وليس هناك شاهد من الشواهد يدلّ على ارتدادهم عن دينهم القديم ، ودخولهم في الإسلام على نطاق واسع كان راجعاً إلى اضطهاد أو ضغط يقوم على عدم التسامح من جانب حكامهم غير المسلمين[1] .

وهكذا وجد القبط في ظلّ الإسلام الحرية الكاملة ، بعد أن قتل الامبراطور جستنيان من قبط الاسكندرية الأرثوذكس وحدهم مائتي ألف مواطن[2] .

وما يقال عن دخول نصارىٰ مصر إلى الإسلام ـ دون ضغط أو إكراه ـ يقال عن غيرهم من سكان البلاد التي فتحها المسلمون ، وها هي رسالة كتبها البطريق النسطوري ـ يشوع ياف الثالث ـ وبعث بها إلى المطران سمعان رئيس أساقفة فارس ، يقول فيها ـ بعد أن صوّر حزنه بتحول كثير من النصارىٰ الفرس إلى الإسلام : وإن العرب الذين منحهم الله سلطان الدنيا ، يشاهدون ما أنتم عليه وهم بينكم كما تعلمون حقّ العلم ، ومع ذلك فهم لا يحاربون العقيدة النصرانية ، بل على العكس يعطفون على ديننا ويكرمون قسسنا وقديسي الرب ، ويجودون بالفضل على الكنائس والأديار ، فلماذا إذن هجر شعبك من أهل مرو عقيدتهم من أجل هؤلاء العرب ؟ . ولماذا حدث ذلك أيضاً ؟ . في وقت لم يرغمهم

(١) راجع كتاب الدعوة إلى الإسلام ص : ١٢٣ ، ١٢٤ . للسير توماس آرنولد .
(٢) انظر كتاب إسلام بلا مذاهب : ص ١٢٨ .

فيه العرب ـ كما يصرّح أهل مرو أنفسهم ـ على ترك دينهم ، بل هم تعهدوا لهم أن يبقوا عليه آمناً مصوناً إذا هم اقتصروا على أداء جزء من تجارتهم إليهم[1] .

على أن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، بل إن صلاح الدين الأيوبي رحمه الله ـ الذي خاض الحروب الصليبية ـ لم يأخذ رعاياه من النصارى بجريرة القادمين الباغين من أوروبا ، وإنما عاملهم برفق أكثر ؛ وأسبغ عليهم تسامحه ، وخفف عنهم الضرائب وأزال بعضها ، ووضعهم في الوظائف العامة كوزراء وكتاب وصيارفة .

وظلّ حالهم كذلك من السعادة والرعاية والاستمتاع بحرياتهم كاملة في عهد خلفاء صلاح الدين[2] .

لم يدخل أحد في الإسلام إذن خوفاً من السيف ـ كما يزعم دعاة الباطل والضلال[3] ـ وإنما العقيدة نفسها كانت كالنور الوهّاج يجذب

(١) انظر توماس آرنولد : ص ١٠١ ، ١٠٢ نقلاً عن كتاب إسلام بلا مذاهب ص : ١٢٩ .

(٢) راجع إسلام بلا مذاهب ص : ١٢٩ .

(٣) ومما يذكر أن القوة هي آخر ما لجأ إليه الإسلام مع أعدائه ، ولم يلجأ إليها في سبيل نشره بين الناس ، وإنما لدفع أذى هؤلاء الأعداء ، ولحماية أتباعه من أن يُفْتنوا بالقوة عن دينهم ، إذا ما تعرض الحكام لاضطهادهم وفتنتهم ، وذلك ليتمتع المسلمون بالحرية الدينية التي أقرها الإسلام ؛ حقاً من حقوق الإنسان ، من قبل أن يقرّه فلاسفة العصر الحديث بأربعة عشر قرناً . قال تعالى : (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) . وقال تعالى : (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) .

وبالمقابل نسأل كافة الشيوعيين في العالم : أين الحرية عندكم ؟؟ . ونسأل أمريكا ـ رأس الكفر الغربي : أين الحرية عندك ؟ ، وأين حقوق الزنوج فيها ؟ ! ولمَ تؤيدين وتولّين الجبابرة والمستبدين والطغاة حكاماً على الشعوب ؟ ! .

إليه الأنظار ، فدخلت أفواج الناس إلى الإسلام عن رضى وارتياح وإيمان

فحوادث إجبار غير المسلمين على اعتناق الإسلام قليلة نادرة ، وإن وجدت فهي فردية غالباً ، ولعلّها في الديانات الاخرى أكثر منها في الإسلام .

فشارلمان ملك فرنسا كان يفرض التعميدات **النصرانية** بحد السيف ! ! . وكان أولاف ـ ملك النرويج يذبح من يرفض الدخول في الدين **النصراني** من سكان فيكن ـ **جنوبي** النرويج ـ أو يقطع أيديهم وأرجلهم . كما وجدت جماعة متعصبة لنشر **النصرانية** بالقوة أسموا أنفسهم إخوان السيف[1] .

فالذين ذهبوا إلى أن الإسلام قد انتشر بالسيف قوم مخطئون كل الخطأ ؛ لأن الدين الذي يعتمد على السيف لكي ينتشر دين ضعيف وليس الإسلام كذلك .

وليس أدل على ذلك من أن المهاجمين لديار الإسلام ، المنتصرين على المسلمين ؛ أمثال السلاجقة الوثنيين الذين فتحوا كثيراً من ديار الإسلام ، وكذلك المغول التتار المتوحشين الوثنيين الغالبين الذين خرّبوا ديار الإسلام ، وقتلوا خليفة المسلمين في بغداد ... هؤلاء جميعاً ما لبث الدين الإسلامي ـ بقوته وسلامته وسماحته ـ أن استهواهم ، فاعتنقوه وصاروا سلاطين مسلمين .

نقول : من يصدّق أن هؤلاء المتوحشين الوثنيين يدخلون الإسلام

(١) راجع إسلام بلا مذاهب : ص ١٣٠ .

طائعين ، وهم الكافرون الكاسحون المنتصرون ؟ ! . لعلّ هذه الأمثلة التاريخية التي تؤيدها الوثائق ، والتي جعلت الغالبين يدخلون إلى الإسلام عن رضى كامل ، لأكبر دليل على أن الإسلام لم ينتشر بالسيف، وإنما انتشر بقوة العقيدة وكمالها ، وتشبع النفوس بها واقتناع أولي الألباب بأنها الحقّ من ربّ العالمين .

وكذلك فقد انتشر الإسلام في الأندلس بغير ضجة ولا سيف ، وإنما بالسماحة والرفق والاقتناع ، وعلى العكس من هذا فقد خرج الإسلام من الأندلس يسبح في بحار دافقة من دماء أبنائه ، بسيوف متعصبة ظالمة ، وكتب التاريخ أكبر شاهد وخير دليل لما نقول[1] .

وقد اعتنق الأفريقيون الإسلام أيضاً عن طريق الدعاة والتجار ، ولقد لقي الدعاة المسلمون لدى الزنوج كثيراً من الإدراك والتقبل ، حين كانوا يحدثونهم عن الحقائق المتعلقة بالله والإنسان . هذا فضلاً عن أن الدين الإسلامي دين الفطرة والبساطة ، ولذلك كان الأفريقيون يقبلون على اعتناقه باعتباره لا يفرّق بين الأبيض والأسود ـ عكس ما عليه حال زنوج أمريكا الآن المدّعية بحماية حقوق الإنسان ـ ولكن الإرساليات الأوروبية لم تنجح في شد زنوج أفريقيا إلى رباط النصرانية؛ لأن الزنجي الأفريقي الأسود المتنصّر كان يحس في قرارة نفسه أن أبناء دينه من الأوروبيين ينتمون إلى جنس ولون وحضارة لا ينتمي هو إليها ، وكان يحس بذلك الفرق الذي يؤرق نفسه ويؤلم إنسانيته .

(١) أفردت بحثاً خاصاً عن سقوط الأندلس ، فليراجعه من شاء في هذا الكتاب .

أما عن خرافة انتشار الإسلام بالسيف ، وعدّ الغزوات وإحصاء السرايا ، فيهدم هذا الزعم وجود الإسلام في روسيا والصين واليابان والحبشة ، وجنوبي أفريقيا وأمريكا وانجلترا . وما ذكر الخصوم إطلاقاً أن المسلمين اتجهوا كجماعات إلى هذه البلاد غزاة أو فاتحين . وإلا تُرى أي قوة تلك التي غزت العالم من شماليه إلى جنوبيه ومن شرقيه إلى غربيه ؟ . وما قول الخصوم فيمن اعتنقوا الإسلام أمس ؟ ! . واليوم ؟ ! من مختلف القارات وبعيد الأمصار .

لا أظن أن هناك من يقول : إن ذلك تم بالسيف والضغط أو الإرهاب .

ولماذا لم نسمع عن مسلم كفر أو خرج من إسلامه ؟ ! . رغم تعدد وسائل الترغيب وسبل الترهيب[1] .

أقول : لا تثريب عليكم يا من تشيعون الفتن وتروِّجون الكذب ، فقد كانت سرعة انتشار الإسلام معجزة العصور ، وقد كان الانتشار سريعاً لسبب بسيط ؛ هو السماحة والعقيدة والتبشير التي يتميز بها الإسلام ، ويتحلى بها دعاته وأبناؤه ، ولنا في إسلام أندونيسيا جنوباً ، والفلبين وفنلندا ولتوانيا في أقصى الشمال أكبر شاهد على ذلك . والإسلام كذلك هو محرر العبيد وليس داعية عبودية أو استرقاق بين أبيض وأسود والكلّ عنده سواءٌ .

---

(١) انظر أسئلة حرجة : ص ٥٦ بتصرف .

أقلام غربية منصفة

يقول المستشرق بيكر : إن العرب لم يفرضوا دينهم على أهالي البلاد المفتوحة ، بل فرضوا سيطرتهم السياسية لا غير ، فسيطرة العرب السياسية هي التي انتشرت بقوة السلاح ، أما الديانة الإسلامية فقد وجدت سبيلها إلى قلوب عدد كبير من أهالي البلاد المفتوحة ، بدليل ما أجمعت عليه الوثائق من تسامح العرب المطلق مع النصرانية واليهود على السواء ، وهو تسامح لم يخطر على بال إنسان ، ولم يحظ به النصارىٰ واليهود في ظل حكامهم السابقين[1] .

ويقول بيكر المستشرق السابق : إن أوروبا في العصور الوسطى نظرت إلى انتشار الإسلام من وجهة النظر الكنسية الدينية ، وكأن الكنيسة قد أفزعها وآلمها ضياع البلاد في الشام ومصر وأعالي العراق ، وكانت ترتبط بأُصول النصرانية ، فراحت تفسر انتشار الإسلام في هذه البلاد بأنه لم يتم إلا بحد السيف[2] .

يقول السير . و. آرنولد : وبقاءُ اليهود والنصارىٰ في العالم الإسلامي على دينهم حتى اللحظة هذه برهان قاطع لا يقبل الجدل ولا المماحكة ، يثبت أن الإسلام لم يُكره غيره على اعتناقه بقوة السيف[3] .

---

(١) موسوعة كبردج لتاريخ العصور الوسطى : مجلد ٢ . ص ٣٣٠ . عن كتاب محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن .

(٢) راجع كتاب محمد في التوراة والإنجيل والقرآن .

(٣) الدعوة للإسلام . وشبهات حول الإسلام لمحمد قطب .

ويقول السير .و. آرنولد أيضاً : ويمكننا أن نحكم من الصلات الودية التي قامت بين النصارىٰ والمسلمين العرب ، بأن القوة لم تكن عاملاً حاسماً في تحويل الناس إلى الإسلام ؛ فمحمد نفسه قد عقد حلفاً مع بعض القبائل النصرانية ، وأخذ على عاتقه حمايتهم ، ومنحهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية ، كما أتاح لرجال الكنيسة أن ينعموا بحقوقهم ونفوذهم[1] .

هذه شهادة بعض العلماء الغربيين حول انتشار الإسلام ، وهي تبين الإنصاف والتسامح الإسلامي الفريد .

شبهة حول الاحتجاج بالسنة

لأعداء الإسلام شبهات كثيرة ، يوردونها للطعن فيه وتشويه حقائقه وإفساد أركانه . وسأتناول فيما يلي شبهة واحدة من شبهاتهم ، وهي تدور حول الاحتجاج بالسنة ، لنعرف مقدار قوتها في حلقة البحث والمناقشة .

والشبهة هي : يقولون إن الرسول ﷺ نهى عن كتابة السنة ؛ فقد ورد عنه ﷺ أنه قال : « لَا تَكْتُبُوا عَنِّي . وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ وَحَدِّثُوا عَنِّي وَلَا حَرَجَ . وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » .

(١) انظر روح الدين الإسلامي : ص ٢٧٩ . والدعوة إلى الإسلام : ص ٤٨ .

وكذلك يقولون : قد ورد من طريق أبي مليكة مرسلاً ، أن أبا بكر رضي الله عنه جمع الناس بعد وفاة الرسول ﷺ وقال : إنكم تحدثون عن رسول الله ﷺ أحاديث تختلفون فيها ، والناس بعدَكم أشد اختلافاً ، فلا تحدثوا عن رسول الله ﷺ شيئاً ، فمن سألكم فقولوا : بيننا وبينكم كتاب الله ؛ فاستحلوا حلاله وحرموا حرامه .

وإذا كان الرسول ﷺ قد نهى عن تدوين السنة ، وإذا كان أبو بكر منع الناس أن يحدثوا عن رسول الله ﷺ فإن مدلول هذا عدم الاحتجاج بالسنة ، والاكتفاء بما في القرآن الكريم .

ردنا على هذه الشبهة

أولاً : في الحديث الأول نقطتان :

أ) أمر الرسول ﷺ بالتحديث عنه دون حرج .

ب) نهيه ﷺ عن تدوين السنة ومحو ما دوّن منها .

ومفهوم هذا أن النبي ﷺ أمر بحفظ السنة بطريق واحدة ؛ وهو طريق الحفظ والتحديث والرواية عنه دون طريق الكتابة والتقييد في القرطاس . أما بالنسبة لحفظ القرآن الكريم ، فقد أمر عليه السلام أن يحفظ بالطريقتين معاً :

١ - طريق التدوين والتقييد والكتابة .

٢ - طريق الحفظ والرواية والتلاوة .

وعليه فلا سند للمشتبهين في عدم الاحتجاج بالسنة من الحديث الأول ، فإن عدم تدوين السنة لا ينافي حرص الرسول ﷺ عليها ، وعنايته بالحفاظ عليها ، غاية ما في الأمر أن حفظ الآثار العليا كالقرآن له طريقان وله درجتان . الطريقان هما التدوين والكتابة ، والتحديث والرواية . وله درجتان هما :

- درجة أولى عليا يحققها الحفظ بالطريقتين السابقتين معاً - التدوين والكتابة ، والتحديث والرواية - وذلك خاص بالقرآن الكريم[1] .
- ودرجة ثانية عليا يحققها طريق واحد فقط - تمييزاً للقيم وإبرازاً للذوات - وهو طريق الرواية والتحديث ، وهو خاص بالسنة الإسلامية . وهذا ما قصد إليه الرسول ﷺ من حفظ السنة .

وعلة ذلك الصنيع هو حرص النبي ﷺ أن تبقى ذاتية القرآن بعيدة عن إيهام اختلاط الأحاديث بالآيات ، إذاً اتحدت درجة السنة مع القرآن في طريقي الحفاظ تدويناً وتحديثاً . يدل على هذا الصحابي الجليل أبو هريرة فيقول : إن رسول الله ﷺ رآهم يكتبون الأحاديث فقال : « مَا هٰذَا الَّذِي تَكْتُبُونَ ؟ . » . قلنا : أحاديث سمعناها منك . فقال :

(١) انظر السنة الإسلامية بين إثبات الفاهمين ورفض الجاهلين : ص ٣٥ ، ٣٦ . للدكتور رؤوف شلبي .

« أَكِتَاباً غَيْرَ كِتَابِ اللهِ تُرِيدُونَهُ ؟ !. مَا أَضَلَّ الْأُمَمَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِلَّا مَا كَتَبُوا مِنَ الْكُتُبِ مَعَ كِتَابِ اللهِ » . فقال أبو هريرة رضي الله عنه : فقلت : أتحدث عنك يا رسول الله ؟ . قال : « نَعَمْ . حَدِّثُوا عَنِّي وَلَا حَرَجَ ؛ فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » .

كما روي عن ابن مسعود قال : « جَرِّدُوا الْقُرْآنَ وَلَا تَكْتُبُوا فِيهِ شَيْئًا إِلَّا كَلَامَ اللهِ »[1] . وفي الحديث وضوح لعلة نهي الرسول ﷺ عن تدوين السنة رسمياً بأمر النبوة والدولة ، وهي نفس العلة التي جعلت عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ وهو أمير دولة الإسلام ـ يستخير الله شهراً في تدوين السنة ، ثم يصبح وقد عزم الله له ، ولكن الرجل ـ مع ما يعرف عنه من قوة العزم ووضوح الذكاء ، ومعرفته وسائل الدعوة وصيانتها ـ يتراجع ويقول : إني كنت أردت أن أكتب السنة ، وإني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً ، فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله . وإني والله لا أشوب كتاب الله بشيء[2] .

ثانياً :

على أن عدم الأمر بكتابة السنة لا ينفي حجيتها ؛ كمصدر أساسي للتشريع الإسلامي ، إذ مصدريتها غير متعلقة بالكتابة والتدوين ، بل متعلقة ـ على زعمكم أنتم ـ على الحفظ والعناية ، وهو قدر يكفيه الإذن بالتحديث والرواية والحفظ في الصدور ، وقد أمر النبي ﷺ بذلك دون حرج . لكن بقي عليكم أن تتفهموا مسألة :

(١) المصدر السابق : ص ٣٧ .
(٢) المصدر السابق .

١ - طـريق الحفـظ .

٢ - درجـة الحفظ .

٣ - غـاية الرسول ﷺ من إيثار القرآن بالطريقتين والسنة بطريق واحـدة[١] .

ثالثاً :

وأما الحديث الذي يرويه أبو مليكة ، فإنه يفيد حرص أبي بكر على سلامة متن الحديث من بعض الراوين - من غير دقة أو فهم - لاسيما وقد دخل في دين الله من القوم ما لا دراية لهم بالذوق العربي في الأُسلوب .

وهذا لا يصطدم مع كون السنة مصدراً أساسياً للتشريع ، لاسيما إذا لاحظنا أن أبا بكر نفسه أنفذ للجدة نصيبها من الميراث مستنداً إلى السنة ، فعمل أبي بكر بالسنة يوضح مقصده من حديث أبي مليكة ؛ وهو الحرص على سلامة الحديث ، وهو أمر لا يتنافى مع موضوع حجية السنة ومصدريتها للتشريع .

رابعاً :

على أن الاستدلال بهذين الحديثين ، مقابل أحاديث تفيد الأمر بكتابة السنة :

١ - فقد ثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة ؛ أن خزاعة قتلوا رجلاً من بني ليث عام الفتح ، بقتيل منهم كانوا قد قتلوه ،

(١) انظر السنة الإسلامية : ص ٣٨ .

فلما علم النبي ﷺ ركب راحلته وخطب الناس فقال : « إِنَّ اللهَ حَبَسَ عَنْ مَكَّةَ الْقَتْلَ أَوِ الْفِيْلَ وَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ. وَإِنَّهَا لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي . وَلَنْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ بَعْدِي . أَلَا وَإِنَّهَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، وَإِنَّهَا سَاعَتِي هٰذِهِ حَرَامٌ ؛ لَا يُخْتَلَى شَوْكُهَا وَلَا يُعْضَدُ شَجَرُهَا وَلَا تُلْتَقَطُ سَاقِطَتُهَا إِلَّا لِمُنْشِدٍ ، فَمَنْ قُتِلَ لَهُ قَتِيلٌ فَهُوَ بِخَيْرِ النَّظِيرَيْنِ : إِمَّا أَنْ يَقْتُلَ وَإِمَّا أَنْ يُقَادَ أَهْلَ الْقَتِيلِ » . فجاء رجل من أهل اليمن فقال : اكتب لي هذا يا رسول الله . فقال : « اكْتُبُوا لِأَبِي شَاهٍ » .

٢ ـ ويؤثر عن النبي ﷺ أنه قال : « قَيِّدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابَةِ » . ويعلق الخطيب البغدادي على هذا فيقول : وفي وصف الرسول ﷺ الكتاب بأنه قيد للعلم ، دليل على إباحة رسمه في الكتب لمن خشي على نفسه دخول الوهم في حفظه وحصول العجز عن إتقانه وضبطه . أ . هـ

٣ ـ ويروي أبو هريرة رضي الله عنه ـ وهو يقارن بينه وبين عبد الله بن عمرو في العلم والحديث فيقول : ما كان أحد أعلم بحديث رسول الله ﷺ مني إلا عبد الله بن عمرو ؛ فقد كان يكتب ولا أكتب[1] .

٤ ـ وقد اعترض بعض الصحابة على تدوين عبد الله بن عمرو للسنة فقالوا له : إنك تكتب عن رسول الله ﷺ كل ما يقول ، ورسول الله ﷺ قد يغضب فيقول ما لا يتخذ شرعاً عاماً . فرجع عبد الله بن

(٢) المصدر السابق .

عمرو إلى رسول الله ﷺ فقال له : « أُكْتُبْ عَنِّي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا خَرَجَ مِنْ فَمِي إِلَّا حَقٌّ » .

يوضح لنا هذا العرض أن السنة الإسلامية مصدر أساسي للتشريع الإسلامي ، وأن هذه المصدرية لا يقدح فيها :

١ – عدم النص صراحة على حفظها مع القرآن ، فيما فهمه المشتبهون في قول الله تعالى : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)[١] .

٢ – وأن الرسول ﷺ نهى عن تدوينها ، فإن ذلك لا علاقة له بالمصدرية والحجية في التشريع ، بعد الأمر بالتحديث عنه .

٣ – وأن هناك أحاديث ناهية عن تدوين السنة ، إلا أنها مقابلة بأحاديث أخرى آمرة بتدوينها ، ومقابلة كذلك بعمل الصحابة بها بالإجماع[٢] .

نخلص من هذا إلى القول بأن الفقه العام لتدوين السنة وعدمه ؛ هو عناية الأمة والدولة بالقرآن الكريم عناية فائقة ذاتية ، لا يشترك معه فيها شيءٌ آخر ؛ إبرازاً لعظمته وإظهاراً لكرامته وقدره ؛ وهو حفاظ عليه بالتدوين والحفظ .

أما السنة الشريفة ومنزلتها الثانية بعد القرآن ، فيكفي الحفاظ عليها بالرواية فقط ، حتى لا تشترك مع القرآن في الدرجتين والأسلوبين؛

(١) سورة الحجر : ٩ .

(٢) بتصرف عن السنة الإسلامية : ص ٤٠ وما بعدها .

ولكي تتميز ذاتيتها عن القرآن هي الأُخرى ، وكل هذا بعيد في دلالته ومفهومه وآثاره عن نفي حجية السنة ، أو إبعادها عن كونها مصدراً أساسياً للتشريع الإسلامي ، وإلا فقد كانت هناك كتابات فردية للسنة لكن ليس باسم الدولة ، فإن هدف الدولة الإسلامية في عصر النبوة هو الحفاظ على ذاتية القرآن ، والحفاظ على ذاتية السنة ، واتخذت لذلك السبل حسب مقتضيات العصر والظروف .

أقول : فليس لمعاند جاحد ـ بعد هذا الحشد من النصوص المستفيضة ـ إلا أن يثوب إلى روضة السنة المباركة ، يشفي منها غلة الحاجة ، ويروي فيها شرايين الحياة ، وسوف لا تضل أمة نهلت من رياض رسولها الذي لا ينطق عن الهوى . ولقد صدق عليه الصلاة والسلام ، وهو يرشد الأُمة إلى ذلك فيقول : « تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي أَبَداً ؛ كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي »[1] .

فريضة صراع العلم والدين ودحضها

درج على ألسنة الناس في عصر النهضة بأَن العلم والدين في صراع دائب ولا يمكن التوفيق بينهما . وللأسف لا زالت تتكرر هذه الخرافة حتى هذه الأيام .

إن هذا الزعم مغالطة وافتراءٌ ، وقد استحوذ على أفئدة وعقول

(٢) رواه مالك في الموطأ بألفاظ مختلفة .

الكثيرين ممن يتسمون بالعلمانيين والعقلانيين ، كما أن هذا الزعم المشوه الذي روج له أولئك الموتورون والحانقون ، الذين ليس لديهم من المؤهلات العلمية سوى قراءة بعض العناوين وفهارس الكتب ؛ من أمثال أصحاب التخصصات العلمية كالطب والهندسة والزراعة مثلاً ، هؤلاء الذين لا تتجاوز معرفتهم بالعلوم الدينية المرحلة الثانوية – على أحسن تقدير – إن هؤلاء لا رصيد لديهم من العلم والمعرفة الدينية ، لأنهم قضوا معظم حياتهم التعليمية في دراسة ما لا يمت إلى التعليم والثقافة الإسلامية بصلة ، ومع حاجتهم وعوزهم الماس إلى إشباع أنفسهم من المعارف الإسلامية ، إلا أنهم – وللأسف الشديد – قد تربعوا على مقاعد النقد وإصدار الأحكام ، حيث يهرفون بما لا يعرفون ، ويقولون على الله ما لا يعلمون ، وبهذا ضاعت الحقيقة ، واتسعت الهوة واختلط الحابل بالنابل ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

لقد كان هؤلاء وأمثالهم – من الذين ابتليت بهم أمة الإسلام – من جملة الحراب المشرعة على هذا الدين ، الذي فيه الدعوة الحثيثة على التدبر والإمعان ، والنظر في الكون والأخذ بما فيه خير البشرية ، ورفع المستوى الإنساني إلى المستوى اللائق ، وفي كافة الاتجاهات .

إن الحديث عن الصراع بين العلم والكنيسة – الدين – يجب تحديد معانيه وألفاظه ، إنه صراع بين العلم والكنيسة ، وبين رجال الكنيسة والعلماء ، ولا نقول بين الدين والعلم ، أو بين رجال الدين والعلماء ، وهذا الفصل لا يعرفه الإسلام وتنفر منه طبيعته .

فبالنسبة للإسلام يعتبر كل مسلم رجلاً لدينه ، وكل مسلمة امرأة لدينها ، ولا رهبانية في الإسلام . أجل ، لقد كان الصراع محتدماً بين الكنيسة والعلماء في العصور المتوسطة في أوروبة ، وهزم رجال الكنيسة ، ثم انسحب هذ التعبير ليجد له موضعاً عند المسلمين ، وفي الحقيقة لا مجال له ، بل الواقع ينفيه ، وما هو إلا وهم في عقول دعـاته .

ولكن ذلك لا يعني بحال هذا الذي نسمع من هراء الأدعياء حول الخصومة بين العلم والدين ، وذلك يعتبر خطراً كبيراً وضلالاً بعيداً ؛ إذ أن في الكتاب الكريم من الإشارات الإلٰهية والأوامر الربانية ما يحث المؤمن على الكشف ، ويثير فيه روح الإبداع والبحث الدائب الذي لا ينقطع إلا برحلة الخلود ، التي يبدؤها الإنسان بأول منطلق له نحو الآخرة عند عتبة القبر .

ويكفي أن يرد في القرآن الكريم دعوة إلى العلم وحث على طلبه ، وإثارة لعقل الإنسان أن يغوص في أعماق البحار ، وأن ينطلق في أجواء الفضاء ، وأن يرود طبقات الأرض ، وأن يحلل مجاهيل النفس الإنسانية في أبعادها المترامية المتشعبة .

يقول تعالى : (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ، أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ)[1] .

(١) سورة فصلت : ٥٣ ، ٥٤ .

ألا يعني هذا ببساطة ووضوح - لا يحتاج الإنسان معه إلى الخوض في تفاسير أو شروح - أن الله جل وعلا ينبه الإنسان إلى مظاهر إعجازه ، ودلائل إبداع صنعه ؛ في آفاق الفضاء ، ودوران الفلك ، وانتظام الأجرام ، وحركات النجوم ، كما يثير فيه خاصية التفكير بعمق في ذاته ؛ جسداً دقيق الصنع عجيب التكوين ، ونفساً متعددة النزعات والأحاسيس والمشاعر ؟ ! .

إن الإسلام لم يتبنَّ حشداً من النظريات ، وطائفة من القوانين العلمية بحيث يصر عليها ويحارب مخالفها ، بل ضم طائفة كبيرة من الأحاديث التي تحث على التدبر والتعقل والتفكر ، وتشير إلى الأفئدة والعقول والألباب ، التي ينفذ الإنسان عبرها إلى أسرار الكون ومجاهيل الحياة ، ومن هنا كان التلازم الكبير الذي لا ينفصم ، والعلاقة الوثقى التي لا تنفك عراها بين العلم والإيمان والمختبر والمحراب في ظلال القرآن وأفياء الإسلام ... دين العلم والعمل والحياة[1] .

إن محاولة البعض - من نصارى الغرب - أن يوفقوا بين النصرانية والعلم ، محاولة تحمل النصرانية فوق ما جاءت من أجله ، وتجعل المنهزمين في حال من النشوة يحسبونها ظفراً ، حين يسخرون من عجز بعض رجال الدين عن التوفيق بين العلم والإيمان في صورة جادة معقولة.

إن الزعم بأن الدين بدأ يترنح تحت ضربات العلمانية ، وأن الإسلام بدأ يفر أمام زحف جيش المختبر والفكر المتحرر ، زعم مردود

(١) راجع انتصار العلمانية .

وفرضية باطلة ، حتى ولو قصدوا بالفكر المتحرر ما يقدمه المختبر من وسائل التعذيب وأساليب الإرهاب لأصحاب العقيدة والإيمان ، وعنوا بالزحف العلمي الأسلحة الميكروبية والغازات السامة الفتاكة ، وأجهزة التدمير وفناء البشرية ! ! .

كتب [ويرنوفوف براون] أبو القنبلة الذرية يقول : يتصور بعض الناس أحياناً أن التقدم العلمي ينقض الكثير من الأفكار الدينية ، ويهدم معظم المعتقدات الروحية ، أما أنا فأعتقد أن العلم ينطوي على مفاجآت غير سارة لهؤلاء المشككين . مثال ذلك : إن العلم يؤكد لنا أن لا شيء في الطبيعة – مهما ضؤل شأنه ؛ كالجزيئات الصغيرة للمادة – لا يمكن أن يختفي دون أن يخلف وراءه أثراً ما ، فإذا كان الخالق قد طبق هذا المبدأ الأساسي على أصغر وأضأل العناصر في خلقه ، فكم يبدو منطقياً القول إنه يطبق هذا أيضاً على النفس البشرية التي هي أنبل ما خلق ؟ ! . وإني لأومن – وكل ما علمتني المعرفة وما تزال تعلمني يؤكد إيماني هذا ويرسخه – بخلود الروح بعد الموت ، فلا شيء في هذا العالم يختفي دون أن يترك أثراً [1] .

إن الزعم بهزيمة الدين يقوم على منطق مغلوط من فهم طبيعة الإسلام ، الذي يؤكد دعاته ويعلنون أن الإسلام يعني نظاماً منبثقاً من عقيدة ، لا عقيدة محصورة في الرؤوس ، أو طقوساً مؤداة في الهياكل . ومن هنا فلا تناقض بين العلم التجريبي – الذي تجني البشرية كثيراً من

(١) راجع مجلة طبيبك : العدد ١٧٣ سنة ١٣٩٠ . هـ . وانتصار العلمانية .

فوائده – وبين الدين الذي تغرق البشرية في تيه وقلق وحيرة كلما نـأَت عنه وتخلصت منه .

إن من أبشع صور الظلم أن ينبري فريق من الأَدعياء ، يهاجمون تراث الإسلام العلمي والفكري ، وهم أعمق ما يكونون جهلاً به وتجنياً عليه . والغريب في الأَمر أن ينبري فريق من هؤلاء المنهزمين – من ذوي الاختصاصات العلمية المختلطة – فيتنكروا للتراث الفكري الإسلامي والثقافة الإسلامية السوية ، دون أن يكون لهم عليها أدنى اطلاع ، وأن ينبري رجال الثقافة والفكر المستورد – من هؤلاء الأَدعياء – فيتنكروا للتراث العلمي التجريبي الإسلامي ، دون أن يكون لهم به أدنى إلمـام .

إن الأَطباء والمهندسين والصيادلة ، ودارسي الأَدب والفلسفة والاقتصاد ممن لم يطلعوا على الفكر الإسلامي ، لا يجوز لهم بحال أن يصدروا أحكاماً عشوائية على الشريعة الإسلامية ، وأن يدلوا بآراءٍ فجة طالما لا تخرج ثقافات هؤلاء عن حدود الاختصاص الذي انصرفوا إليه وعاشوا له .

بالإضافة إلى ذلك ، فقد ذاعت بين الأَوروبيين – في القرن الماضي – فكرة خاطئة مؤداها أن الإسلام كان حرباً على حرية الفكر ، وأنه كبت جميع الحركات العلمية ، وحارب العلم والفلسفة . وكان العالم الفرنسي [أرنست رينان] أبرز دعـاة هذه الفكرة ، بما أعلنه في كتابه – الإسلام والعلم – والحقيقة العلمية تدحض هذه الآراء ؛ ويظهر ذلك في

تعاليم القرآن ، وعلى ضوء شهادة التاريخ ، ليتبين بطلان هذه التهمة الخاطئة التي فيها عداءٌ للحق وافتئات على التاريخ .

الصراع بين العلم والدين في أوروبة

والحق أن الذين حاربوا العلم ، هم بعض القائمين على الأديان الأُخرى ، فقد أجمع المؤرخون على أن العلماء الكونيين لقوا من رجال الدين في أُوروبة ـ طول عهد القرون الوسطى ـ ما يلقاه الخصوم من الخصوم ؛ فقد أُسست محاكم خاصة لمحاكمة رجال العلم والفكر على ما يرتكبونه ، مما يعده رجال الدين مخالفاً لآراء الكنيسة ؛ وكان إذا ثبت على أحدهم شيءٌ من ذلك استتيب ، وأُخذت عليه المواثيق بأن لا يعود إليه ، فإن عاد قبضوا عليه وألقوه حياً في النار ، أو رموا به من عال إلى مكان سحيق ، فأُهلك على هذه الصورة في مدى القرون الوسطى كثير من العلماء ، من ذوي المكانة العالية ومن العباقرة المجددين[1] .

ولنعطي القارىء مثلاً مما كان يهاجم به الدين في ضلال حرية الفكر ، ننقل ما جاء في دائرة معارف ـ لاروس ـ القرن التاسع عشر تحت كلمة دين في كلامه عن رجال الدين : إن قلنا : إن الذوق الإنساني يقتضي اعتقاد الأشياء التي يمكن تعقلها يقولون : لا . لا . ثم يحاولون إذلال

(١) روح الدين الإسلامي : ص ٢٥٩ .

هذا العقل الإنساني ، الذي يدعي لنفسه حق التمييز بين الخير والشر ، وبين العدل والظلم ، حتى إذا تم تعمية عين العقل ، وتغشية باصرة البصيرة ، إلى حد أن تعتبر المعجزات أموراً عادية ، وأن تتوهم الأبيض أسود ، وأن تعد الرذيلة فضيلة ، يعود الدين فيهيب بالناس إلى الطاعة ؛ فإن سألتهم : نطيع من ؟ . أنطيع عقولنا ، . أم واجباتنا الطبيعية ؟ . أم إحساساتنا القلبية ؟ . أم نطيع القوانين المفيدة للإنسانية ، والتي تنتج من تلك الأصول المتقدمة نفسها ؟ . أجابوك : لا ، ولكن أطع وأنت أعمى[1] .

العلم في الإسلام

مما لا شك فيه أن نشر العلم من أعظم شُعب الإيمان ؛ فبالعلم يرتفع الجهل ، ويقل الفساد ، وتتقدم البلاد عمراناً واقتصاداً وصناعة ، ويسود الأمن والاطمئنان .

هكذا حض الإسلام على العلم ودعا إليه ، وأمر أتباعه بالتحصن به والتماسه . وفي هذا يقول معلم البشرية وأستاذها الرسول الأعظم محمد ﷺ : « مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْماً سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقاً إِلَىٰ الْجَنَّـةِ »[2] .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) رواه مسلم . انظر مختصر منهاج القاصدين : ص ٦ .

إن مطلب العلم فريضة شرعية ، وغاية دينية لسعادة الإنسان في الدنيا ونيل النعيم في الآخرة ؛ فهو النعمة الكبرى لمن أخذ به وعمل وتدبر . إذ بواسطته يستطيع العاقل النجاة والفوز واتقاء الشر ، وبذلك يأمن لنفسه عاقبة الأمور .

وكذلك نجد القرآن الكريم يصرح بأن العلماء لهم درجات عند ربهم وميزات يخصهم بها : (يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)[1] .

ومن ناحية أخرى نرى القرآن يسجل على الذين لا يعلمون حكماً لا يرضاه ذو إدراك لنفسه : (كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)[2] . كما أنه تعالى يقول رادعاً المستبدين : (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)[3] . وذلك حتى يخففوا من كبريائهم ، ويعدوا أنفسهم لتلقي نقد الناقدين .. ألخ .

ويطالب القرآن المسلمين بأن يطلبوا العلم ليهديهم إلى القول الفصل في ما يرغبون معرفته من حقائق علوية وكونية : (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً)[4].

ولم يكتف الإسلام بهذا في الدعوة إلى العلم ، بل قرر أصولاً تمنع الجمود العقلي ، وتحمي من التحجر الفكري والتقليد الأعمى ، كما أحاط العقل بحوافظ تحميه من شر الجمود والرجعية .

---

(١) سورة المجادلة : ١١ .
(٢) سورة الروم : ٥٩ .
(٣) سورة يوسف : ٧٦ .
(٤) سورة طـه : ١١٤ .

ولا يجوز الإيمان بشيء إلا ببرهان ؛ فإذا سئل المؤمنون عن معتقداتهم يوم القيامة لم يتلعثموا في الجواب ، كما هو شأن المقلدين الذين لا ينظرون فيما يلقى إليهم نظر نقد وتمحيص ، والذين سيحاسبهم الله على ذلك : (وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)[1] .

والعلم يمنع التقليد الأعمى ؛ حيث يتفق تماماً مع القرآن ، الذي شدد النكير على أناس كانوا يتمسكون بالرأي لا لأنهم عقلاء ، ولكن لأن آباءهم فعلوه . قال تعالى : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَآءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ)[2] .

والقرآن ينفر الشعوب من تقليد القادة والرؤساء الروحانيين وغيرهم؛ فيصرح بأن القادة ومن اقتدى بهم يتساوون في العذاب في الآخرة إذا كانوا على باطل : (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ)[3] .

ومؤدى الآية الكريمة : أن المتبوعين في الحياة الدنيا يتبرؤون من تابعيهم يوم القيامة وتنقطع العلاقات بينهم[4] .

---

(١) المؤمنون : ١١٧ .

(٢) سورة المائدة : ١٠٤ .

(٣) البقرة : ١٦٦ .

(٤) انظر روح الدين الإسلامي : ص ٢٦١ وما بعدها .

ولكي تتضح الصورة جلية ، فإنني أُحلِّي هذا البحث برأي ابن خلدون في علم التاريخ ، جانباً يبين فيه للْمُصرِّين على إقامة خصومة بين العلم والدين ، المروجين للخلاف بين المعرفة والإيمان ، وكيف أن علماء المسلمين كانوا يعتبرون الاشتغال في القضايا والمسائل والأبحاث العلمية قربة إلى الله تعالى تنيلهم رضاه ، لأنهم كانوا يربطون – بوعي – علمهم وبحثهم بتقواهم ، وإبداعهم بتوفية من الله دون سواه .

يقول ابن خلدون في مقدمته : ونحن ألهمنا الله ذلك إلهاماً ... فإن كنت قد استوفيت مسائله ، وميزت عن سائر الصنائع أنظاره وأنحاءه فتوفيق من الله وهداية ، وإن فاتني شيءٌ في إحصائه واشتبهت بغيره ، فللناظر المحقق إصلاحه ، ولي الفضل لأنني نهجت له السبيل وأوضَحت له الطريق . والله يهدي بنوره من يشاءُ[1] .

ألا يكفي هذا لدحض دعوى الأدعياءِ وفرية الدخلاءِ ؟ ! . فمن هذا يتضح لنا كيف يحيا المؤمنون في رحاب الإيمان وميادين البحث ، التي لا يصل إليها كل الهاربين من ذاتهم وتراثهم وتقاليدهم وأمجادهم المشرفة في سجل الخالدين .

ومما يجدر ذكره ويجب ألا يغيب عن البال ، أن ليس في الإسلام رجـال أكليروس كما في النصرانية ؛ يضعون من الآراءِ والنظريات ما لا سبيل إلى مناقشته والخوض فيه ؛ حيث يعلنون لأتباعهم – دون حوار – لا حكم ولا سياسة ولا علم ولا عقل مع الدين . وحكمتهم

(٤) مقـدمة ابن خـلدون .

المأثورة تقول : اغلق مصباح عقلك وَفكِّرْ وأنت أعمى . وإنما في الإسلام رجال علم وفقهاءُ دين ؛ آراؤهم الخاصة عرضة للخطأ والصواب ، قابلة للمناقشة والحوار ، حتى يصل المسلمون إلى الحق الذي ينشدون ، والعلم الذي يبتغون . والحكمة هي ضالة المؤمن أنَّى وجدها الْتقطها[1] .

لقد قام العلم في أفياء الإسلام ، في أجواء من الود والأُلفة والانسجام التام ، الذي ما عرفت البشرية مثلها على اختلاف عصورها وتباين أنظمة الحكم فيها . وما الذي يزعمون من خصومة بين العلم والدين سوى فكر مستورد ، ورأي دخيل لم نعرفه إلا في العصر الحديث .

أي دين كدين الإسلام ؛ ينزل أول ما ينزل بالعلم والمعرفة : (إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ)[2] . (يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)[3] ، (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)[4] .

إن الدين – حين يفهم على حقيقته – داعية للعلم ، ونظام للحكمة ، وصانع للحضارة .

---

(١) راجع روح الدين الإسلامي . وثمة أبحاث هامة في هذا السفر النافع . جزى الله مؤلفه عن الإسلام خيراً .

(٢) سورة العلق : ١ ، ٢ .

(٣) سورة المجادلة : ١١ .

(٤) سورة الزمـــر : ٩ .

تعطيل الجهاد المقدس

منذ بزوغ فجر الإسلام وانتشار نوره عبر المعمورة ، والأعداءُ يكيدون له ولمنتسبيه ليلاً ونهاراً سراً وعلانية ، وقد تمثلت تلك الحملات الخبيثة بلفيف من طواغيت الكفر والإلحاد والنفاق ، الذين بذلوا وما يزالون يبذلون ـ جهوداً حثيثة ومكائد خبيثة ، ليصدوا الناس عن سبيل الله حسداً من عند أنفسهم ، وتنكراً للحق والخير والمثل السامية ، التي حملها هذا الدين وتحلى بها أهله ودعاته .

لقد كان في مقدمة هؤلاء الأعداء مجرمو التحريف والتشويه في كتاب الله وقتلة أنبيائه ، اليهود الأشرار أعوان الشيطان ، إخوة الخنازير والقردة ، فهم أشد أعداء الله على الإسلام والمسلمين خداعاً ومكراً وحرباً . وقد وصفهم الله سبحانه ، العليم بسوء طوياتهم وما جبلت عليه نفوسهم بقوله : (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ)[1] . ولليهود مع الإسلام وأهله حلقات متصلة ، ومواقف مليئة بالمؤامرات والدسائس عبر العصور المتعاقبة .

فقد تقوَّلوا بالكذب وأرجفوا بألسنتهم ونصروا أعداء الإسلام على كل صعيد ، علاوة على نقضهم للعهود والمواثيق التي تدل على خستهم وحقارتهم ، كما أن أعمالهم الوحشية في فلسطين ـ أرض المقدسات ـ وحرق المسجد الأقصى ـ أولى القبلتين ، وثالث الحرمين الشريفين ـ

(١) سورة المائدة : ٨٢ .

والتنكيل بالأهالي المدنيين وتشريدهم وتعذيبهم ، لأكبر دليل على لؤمهم وغدرهم وفسادهم ووحشيتهم .

وقد ساهم مع اليهودية في إبعاد المسلمين عن دينهم وتشويهه وإفساده ؛ جند الصليبية الحاقدة ، التي ما فتئت تدبر المؤامرات وتشن الحملات الكثيفة صوب معاقل الإسلام ؛ بالغزو المسلح تارة وبالاستعمار والانتداب أحياناً ، وبجحافل الاستشراق والتنصير وأدواتهم من الأقلام المدسوسة تارة أخرى ، حيث استعملت كافة الوسائل لإخراج المسلمين من دينهم وإفساد معتقداتهم[1] .

وقد استطاعوا تحقيق الكثير من برامجهم ومخططاتهم الشريرة ، ومنها ما يتعلق بمفهوم التوكل على الله والقضاء والقدر وتعطيل الجهاد المقدس وفيما يلي بسط موجز لفضل الجهاد والرباط في سبيل الله ، ويلي ذلك بعض الفرق والنحل التي ساهمت في تعطيل الجهاد وأفرغته من مضمونه .

---

(٢) يتردد كثيراً – في الإذاعات ووسائل الإعلام وعلى الألسنة – ألفاظ خاطئة ومخالفة للصواب ، مثل قولهم : النصر لنا – الله معنا – النصر للعرب والإسلام – النصر للشعوب . . ، وما أشبه ذلك من ألفاظ خاطئة ، فالنصر ليس مضموناً للعرب ولا لغيرهم من سائر الملل ، وإنما النصر معلق بأسبابه التي أوضحها الله في كتابه العزيز ، وعلى لسان رسوله الكريم ﷺ مثل الشعار القرآني الذي أرشد الله عباده ليقولوه : (اللهُ مَعَ الْمُتَّقِينَ) . (اللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) . . . وما شابه . ومن أسبابه تقوى الله ، والإيمان به ، والصبر والإخلاص لله ، والاستعانة به مع العناية بالأسباب الحسية وإعداد العدة . . . إلخ . لذا ينبغي التنبيه لهـذا الأمر العظيم ، والحذر من الألفاظ التقليدية المخالفة للشرع المطهر .

وقال أيضاً : « يَغْفِرُ اللهُ لِلشَّهِيدِ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا الدَّيْنَ » . رواه مسلم .

والآيات الكريمة والأحاديث الشريفة في فضل الجهاد ، والدعوة إليه والترغيب فيه كثيرة جداً ، وما سلف ذكره يكفي ويشفي ، ويحفز الهمم ويحرك النفوس إلى المنازل الرفيعة والفوائد الجليلة والعواقب الحميدة .

بعض معطلي الجهاد

حاول أعداءُ الإسلام التشكيك في الدين وأحكامة وحضارته منذ فجره الأول ، وكان على رأسهم اليهودية والباطنية والزنادقة والصليبية الحاقدة ، والاستعمار وأدواته ومنها بعض فرق الصوفية والقاديانية والبهائية ، التي سأتعرض لمواقفها فيما يلي بإيجاز :

أولاً : الصوفية :

ومن أعمال الصوفية المنحرفة ـ لصرف أنظار الناس عن الجهاد ومحاربة الأعداء ـ ما جاء في تفسير بعض آيات الجهاد ؛ ومن ذلك : ما روي عن داود بن صالح أنه قال : قال لي أبو سلمة بن عبد الرحمن : يا ابن أخي ، هل تدري في أي شيءٍ نزلت هذه الآية : (اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا) ؟ ! . قلت : لا . قال : يا ابن أخي ، في زمن رسول الله ﷺ لم يكن غزو يربط فيه الخيل ، ولكنه انتظار الصلاة بعد الصلاة.

فالرباط لجهاد النفس ، والمقيم في الرباط مرابط مجاهد نفسه[1] .

وقال بعض المتصوفة في قوله تعالى : (وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ) : هو مجاهدة النفس والهوى ، وذلك هو الجهاد . وهو الجهاد الأكبر . على ما روي في الخبر أن رسول الله ﷺ قال ـ حين رجع من بعض غزواته: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر[2] . وفي هذا كذب وافتراء على رسول الله ﷺ الذي جاء بشريعة الجهاد .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : وأما الحديث الذي يرويه بعضهم ؛ أنه قال في غزوة تبوك : رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . فلا أصل له ، ولم يروه أحد من أهل المعرفة بأقوال النبي ﷺ وأفعاله . وجهاد أعداء الله من الكفرة والمشركين من أعظم الأعمال ، بل هو من أفضل ما تطوع به الإنسان .

ثانيا : البهائية

ومن المعلوم أن فرقة البهائية من صنائع الاستعمار ودسائس الصليبية الحاقدة والصهيونية الماكرة ، وجدت من أجل الكيد للإسلام وتشويهه وتخريبه وإفساده وتعطيل مسيرته ، وهي نحلة خارجة عن الإسلام وكافرة بتعاليمه .

---

(١) راجع عوارف المعارف على هامش الإحياء : ج ٢ . ص ٥٥ .

(٢) المرجع السابق : ص ٥٦ . قال الحافظ ابن حجر عن حديث : « رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الأَكْبَرِ » . هو مشهور على الألسنة ، وهو من كلام إبراهيم بن عبلة . وقال العراقي : بسند ضعيف عن جابر . راجع كتابنا مصرع الشرك والخرافة : ص ٤٦٤ .

ومن الغايات المحدثة ـ التي أحلوها محل الغاية الإسلامية ـ عبارات الوطنية والقومية والعروبة ، وعبارات البسالة والشجاعة والحمية ، وما أشبه ذلك من غايات جاهلية ضعيفة الأثر[1] ، لا تستطيع أن تقف على أقدامها أمام غايات ثابتة مركزة ذات قوة محركة فعالة .

أقول : أما آن للمسلمين أن يعودوا لتاريخهم المجيد فيتدبروه ؟ ! . إن في التاريخ لعبرة ، فهل إلى رجعة من سبيل ؟ . نعود فيها إلى غاياتنا الإسلامية ، وعلى نهج سلفنا الصالح ؛ الذين حملوا راية الجهاد في سبيل الله ، وحرروا البشرية من ظلمة الجهل والعبودية .

اللهم وفِّق ولاة المسلمين لطريق الصواب ، وألق في قلوبهم إدراك دسائس الغرب والصهاينة وعملائهم ، فلم يبق لنا ملجأٌ إلا قدرتك ، وأنت المغيث ، فانصرنا على الأعداء فإنهم لا يعجزونك . سبحانك إنك أنت العزيز الحكيم . وصدق الله العظيم : (وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ)[2] .

---

(١) راجع كتاب أجنحة المكر الثلاثة .

(٢) سورة التـــوبة : ١٠٥ .

فتنة الاختلاط

أنعم الله على المسلمين بنعم وفيرة وفضائل كثيرة ، جديرة بالعناية والاهتمام والتطبيق والالتزام ، لأن الله تبارك وتعالى يحب من عبده الشكر على النعمة والمحافظة عليها . وبالشكر تدوم النعم .

ومما لا شك فيه أن الأخلاق الإسلامية من الفضائل التي يعتز بها المسلم ، الذي ارتضى لنفسه العبودية لله والالتزام بشرعه الحنيف ، وقد اهتم الإسلام بالجانب الأخلاقي ، وأولاه اهتماماً كبيراً ؛ فقد مدح الله سبحانه رسوله الكريم ، وأثنى عليه بما هو أهل له فقال سبحانه : (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ)[1] تلك الصفات الحميدة والسجايا النبيلة والشمائل الفريدة ، التي كانت من أهم صفات رسولنا الأعظم ﷺ .

وقد اتصف سلفنا الصالح بمكارم الأخلاق والفضيلة ، ودعوا الناس للتمسك بها والتحلي بقيمها المثلى ، حتى أصبحت من أهم الصفات التي امتازوا بها عن سائر الأمم .

إن أحداث التاريخ الإنساني ، والتجارب المختلفة التي مرت بها الإنسانية ، تدل على ملازمة ارتقاء القوى المعنوية للشعوب في سلم الأخلاق الفاضلة والسلوك الاجتماعي السوي ، وأن انهيار القوى المعنوية لتلك الأمم والشعوب ملازم لانهيار أخلاقها وفساد سلوكها .

---

(١) سورة القلم : ٤ .

يُعْرَفْنَ فَـلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً)[1] . .

٢ - لا يجيز الإسلام أن تبدي المرأة من زينتها ، ولا من سائر جسمها إلا وجهها وكفيها من غير زينة ولا بهرجة ؛ فلا يجوز كشف الشعر والصدر والنحر والساعدين ، مثلما تفعله كثيرات من نسائنا وبناتنا المتأثرات بالحضارة الغربية . قال تعالى : (وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ)[2]

٣ - لا يجيز الإسلام أن تخلو المرأة برجل أجنبي عنها ، ولو كانت محتشمة في لباسها ومظهرها . وفي ذلك جاء الحديث الشريف : « مَا خَلَا رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ الشَّيْطَانُ ثَالِثَهُمَا »[3] . وقال ﷺ : « لَا يَخْلُوَنَّ أَحَدُكُمْ بِامْرَأَةٍ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ » . متفق عليه .

٤ - لا يجيز الإسلام أن تختلط المرأة بالرجال ، في الحفلات العامة والمنتديات ولو كانت محتشمة ، وإنما الذي يجيزه الإسلام أن تجتمع المرأة مع الرجال في ثلاثة مواطن .

أ) مواطن العبـادة : فيجوز أن تحضر صلاة الجمعة وصلاة الجماعة ، على أن يكون مكانها منفصلاً عن الرجال .

ب) في أماكن العلم : فيجوز أن تحضر المرأة مجالس العلم مع

(١) سورة الأحزاب : ٥٩ .

ونلاحظ في هذه الآية الكريمة بأنه ينبغي على المسلمات إطالة ثيابهن ، وإدناءُ بعض أطرافها من بعضها الآخر ، حتى تستر الصدور والظهور وسائر الجسم ، لصونهن من الأذى والضرر .

(٢) سورة النـور : ٣١ .

(٣) رواه أحمد .

الرجال ، على أن تكون منفصلة عنهم أيضاً ، وأن تكون مرتدية اللباس الشرعي ، الذي لا يبدي غير وجهها وكفيها .

جـ) في ميدان الجهاد حين يعلن النفير العام : فتخرج للجهاد مع الرجال ؛ على أن تكون منفصلة عنهم ، لها مكانها الخاص وتجمعاتها الخاصة .

وفلسفة الإسلام في هذه الأحكام متمشية مع فلسفته الخاصة بالمرأة ؛ فهو يرى أن إكرامها يكون بالاعتراف بحقوقها التي تقتضيها أهليتها ، وبإبعادها عن مواطن الشبهات ومزالق الشهوات ، حتى تكون سمعتها العطرة – كفتاة – يتزاحم الشباب على الاقتران بها ، وكزوجة يتحدث الناس عن إخلاصها لزوجها واستقامتها ، وكأُم تعرف كيف تغرس في في نفوس أبنائها وبناتها معاني الشرف والفضيلة ، والكرامة والرجولة الكاملة والأُنوثة الفاضلة[1] .

هذه بعض الحقائق الشرعية والقواعد الدينية ، التي يجب أن تراعى في المجتمع الإسلامي ، وما يجب أن تكون عليه العلاقة بين الرجل والمرأة ، من حيث الاختلاط أو الاجتماع العام .

أما عن موقف الغربيين من الاختلاط ، فإنا نجد عقلاءهم قد أحسوا بالضياع والمصير السيء الذي آل إليه مجتمعهم ؛ حيث انتهى إلى ما انتهى إليه مصير الرومان ، نتيجة الإفراط في تبرج المرأة واختلاطها ،

(١) المرأة بين الفقه والقانون : ص ١٨٥ ، ١٨٦ .

المرأة المسلمة التي تشكل نصف المجتمع ، وبهذا تكثر فينا المرأة المتعلمة مربية الأجيال ، وأمل غدنا المنشود الذي سنباهي به الأمم[1] .

أما إذا نظرنا إلى نتائج التعليم المختلط في معاهد العلم ، فإننا سنترحم على العهود السابقة التي لم يكن للمرأة فيها نصيب يذكر في مجال التعليم ، حيث كانت المرأة متسلحة بأعظم الأسلحة ، ومتحصنة بحصون الأخلاق والفضائل .

لقد كان الاختلاط بين الجنسين على مقاعد الدراسة ، من الأسباب الرئيسية التي هدمت حصناً عظيماً من حصون الآداب الإسلامية ، في المجتمعات التي أخذت بتطبيق التعليم المختلط في بلادها .

ولا ننكر أخطار هذه المكيدة الاستعمارية الخبيثة التي غزت ديارنا ، ووقع كثير من أبنائنا في أسرها ، فحملوا رسالتها وعملوا على تطبيقها ، ونشروا مزاعمها وضلالها في مجتمعاتنا .

وقد رافق هذا الغزو العملي غزو فكري ، يزين الاختلاط ويحسنه ويصطنع له المبررات الخادعة ، ضمن أطر علم النفس وعلم الاجتماع ، وعلم التربية والتربية الجنسية ، وأكد الميل إليه الدافع الغريزي بين

(١) ولعل من المفيد أن أذكر بأن الفتاة تحتاج في حياتها العملية – بعد تخرجها – إلى ما لا يحتاج إليه الفتى ؛ فهي مهيأة بفطرتها وطبيعتها لتكون أماً وزوجة ، ومن ثم فمن الواجب أن تدرس بعض الدروس المستقبلية ، ومن المفيد أيضاً أن تطعم مناهج الدراسة للبنات بقسط أكبر من أصول التربية المنزلية ، وأن تتوسع مجالات الفنون النسوية ، وحبذا لو أضيفت إليها بعض الحصص بدلاً من الموسيقى والرياضة التي لا تفيدها مستقبلاً .

الجنسين ، لاسيما في فترة المراهقة التي تتفتح فيها الغريزة الطائشة الرعناءُ ، مع البعد عن دراسة العلوم الإسلامية ، وضعف الوازع الديني في القلوب .

ومع اختلاط الجنسين في معاهد العلم فشت مفاسد كثيرة ، في الأَخلاق والآداب وكثير من أَنواع السلوك ، وتطلعت الأَجيال الحديثة إلى تقليد الحياة الأَوربية بمجونها ، بعد أَن انغمست في حمأَة البيئات الجديدة ، التي تسهل طريق الرذيلة ، وتهون أَمر ممارسة اللذة المحرمة ، ولا تعتبر العفة من فضائل الأَخلاق ، كما لا تعتبر صيانة الأُسرة القائمة على الطهارة من الأُمور ذات القيمة في المجتمعات الإنسانية[1] .

مفاسد التعليم المختلط كما يصورها الغربيون

لقد ابتلي الغربيون وسائر الدول الشرقية بفتنة الاختلاط ، وهم أَحق بدفع الثمن لتفريطهم وتهاونهم وانجرافهم وراء شهواتهم ، فقد عانى هؤلاء أَشد الويلات ، وتجرعوا كؤوساً سامة نتيجة وقوعهم في حمأَة الفسق والانحلال ، الذي كان سببه المباشر الاختلاط التعليمي والاستسلام للرغبات والشهوات .

ولما كان الغربيون قد عانوا من ويلات الاختلاط ، فإني سأَنقل عدداً من النقول والآراء حول الاختلاط لأُثبتها هنا للعظة والاعتبار :

(١) راجع أجنحة المكر الثلاثة : ص ٣٥٦ ، ٣٥٧ .

أصدرت إدارة إحدى المدارس في بروبلن بنيويورك بلاغاً عممته على جميع المدرسات والطالبات ، حذرتهن فيه من الذهاب إلى دورات المياه لقضاء الحاجة منفردات ، وذلك بعد أن تعددت حوادث الاعتداء عليهن من قبل الطلاب الذكور في المدرسة .

وقد عدد صاحب كتاب ـ مليون منحرف ـ عدداً من حالات ، حملت فيها بعض المراهقات سفاحاً ، وفي حالات أخرى فقدت فيها بعضهن حياتهن أثناء عملية الإجهاض ، فقامت صيحات تنادي بفصل الذكور عن الإناث .

فأما خرافة التهذيب والتصرف النظيف باللقاء والحديث ، فليسألوا عنها نسبة الحبالى من تلميذات المدارس الثانوية الأمريكية ـ صاحبة الحضارة والحقارة والقذارة ـ وقد بلغت في إحدى المدارس ٤٨ في المائة[1].

ويكتب القاضي ـ لندسي ـ فيقول : ٤٩٥ بنتاً في السن الباكرة ، من بنات المعاهد الثانوية ، اعترفن لي بأنهن كن جربن العلاقة الجنسية مع الصبيان ، إلا أنه لم تحمل منهن إلا خمس وعشرون ، أما الباقيات فسلم بعضهن من الحمل بمحض الاتفاق .

ولكن كانت لأكثرهن خبرة كافية بتدابير منع الحمل ، وهذه الخبرة قد عمت فيهن إلى حد لا يكاد الناس يصيبون في تقديره .

وكتب عميد مدرسة من المدارس ذات مرة إلى أربعين أسرة ، يفضي

(١) بتصرف عن رسالة الاختلاط : ص ٣٣ للدكتور محمد محمد حسين ورفيقه .

إليها بأن صبيانها وجدوا على حال مروعة من الدناءة الخلقية ، فلم يعد يمكنه الآن إبقاؤهم في المدرسة[1] .

ويقول المصنِّف الأمريكي الشهير ـ هاندرشن فان لون ـ حول الدراسة في جامعات أمريكا : وهذا الأدب الذي كثر رواجه في الجامعات الأمريكية هو أبشع مجموعة للخنا والفحش والدناءة ، لم يعرض قط مثلها على العامة قبل هذا بكل هذه الحرية . ثم إن المعلومات التي تحصل من دراسة هذا الأدب يتناولها الشباب والشابات فيما بينهم بالبحث والنقاش بما شئت من الحرية والجرأة ، ثم يعالجونها بالعمل والتجربة ، فيخرج الفتية والفتيات إلى حفلات البهجة والأُنس ؛ حيث يسترسلون في شرب الخمر والتدخين ، ويمتعون أنفسهم بالرقص والغناء[2] .

تقول إحدى المربيات الغربيات في تقرير لها : إنني أجد حرجاً شديداً في توضيح الكثير من الأمور لطلاب وطالبات في صفوف مختلطة ، فكثيراً ما الجأُ إلى الفصل بينهما ، حتى يتسنى لي التخلص من الإشكال[3] .

ويذكر الأُستاذ الكبير محمد قطب في كتابه القيم أنه أجرى إحصاءً في إحدى المدن هناك ـ بأمريكا ـ فظهر أن ٣٨ بالمائة من فتيات المدارس الثانوية حبالى ، وتقل النسبة بين طالبات الجامعة ؛ لأنهن أكثر تجربة وأخبر باستخدام موانع الحمل[4] .

(١) من كتاب الرجولة والزواج : ص ٨٢ . عن الحجاب ص ١١٣ .
(٢) كيف استطيع أن أتزوج : ص ١٧٣ عن الحجاب ص ١٠٤ .
(٣) رسالة في الاختلاط : ص ٣٢ . للدكتور محمد محمد حسين . والدكتور مصطفى السباعي .
(٤) انظر شبهات حول الإسلام : ص ١٦٦ .

وجاء في رسالة الاختلاط : إن في أوروبا وأمريكا مدارس وكليات لا تؤمن بالاختلاط ولا ترضى به ، وإن هناك عائلات ترفض إرسال أبنائها أو بناتها إلى مدارس مختلطة .

وكذلك فإن طالبتين تقدمتا إلى كلية الزراعة بجامعة تكساس فرفضتهما الجامعة ، فأقامتا قضية على إدارة الجامعة ، فكسبتاها ، إلا أن مجلس الولاية استأنف الحكم ، وقضت محكمة النقض العليا بتأييد مجلس الجامعة ، وجاء في حيثيات الحكم : إن في ذلك حفاظاً على تقاليد الجامعة[1] .

وبعـد : فهذه نتائج التعليم المختلط التي جنى ثمارها أصحاب دعوات الاختلاط وتحرير المرأة ، وهي نماذج كاشفة تصلح للعظة والاعتبار ، وما يتذكر إلا أولو الألباب . ولو رحت يا أخي أحدثك عما قيل في مفاسد الاختلاط ، لضاق الوقت ولما اتسع الورق ، ولكن حسبنا ما نقلنا . وفيه ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

(١) رسالة الاختلاط . للدكتور محمد محمد حسين ورفيقه . وهكذا يظهر أن بعض جامعات أمريكا وأوروبا لا تعمل بالتعليم المختلط في مؤسساتها ، كما أن الأهالي لا يرسلون أبناءهم أو بناتهم للجامعات أو المدارس المختلطة ، وفي هذا عبرة كبرى لأبناء الشرق المسلم .

مكيدة تحديد النسل

لم يترك أعداءُ الإسلام باب سوءٍ إلا وقد فتحوه ليلجه أبناءُ الإسلام . وقد أفلحوا في كثير من دسائسهم هذه ، وكما هو معلوم فقد اتخذ أعداءُ هذه الأُمة أسلحة عديدة لمحاربة أتباعها ؛ فمرة يستخدمون الجيوش والغزو المسلح ، وتارة الغزو الفكري وأدواته المختلفة ، وتارة يفتعلون الأكاذيب ويشوهون الحقائق . وينشرون الفساد والضلال والإباحية .

ولا عجب فقد استخدم دعاة الباطل أخس الوسائل وأخبثها في حروبهم - المتعددة الجوانب - لتخريب الإسلام وتضليل أبنائه . وقد تبنى الغزاة نظريات اقتصادية ثم قذفوها في وجوه المسلمين ، فتعلق بها المقلدون للغرب ، ودعاة الأخذ بما لدى الغربيين من حضارة ونظريات جديدة ، وروجوا لها بين صفوف الأُمة بأساليب خادعة وبمحاولات ماكرة ، لإيقاف نشاط تكاثر المسلمين عن طريق التناسل . وقد سموا هذه الضلالة الجديدة تحديد النسل .

وقد حاول الغربيون - أصحاب النظريات الاقتصادية ، ومبتكرو ضلالة تحديد النسل - أن يوهموا أبناء الشرق - المسلمين خاصة - بصدق دعواهم وحسن نواياهم ، فضربوا الأمثلة وقدموا الحجج والنظريات المختلفة لتأييد دعواهم ، ومع ذلك فلم تثبت لمعارضتها لطبائع الأشياء ، وبالتالي فهي تصطدم مع تعاليم الإسلام وعقائد المسلمين.

* ونقصد بتحديد النسل هنا : الإيقاف عن الإنجاب ألبتة . ويكون هذا بمنع الحمل . وهذا بخلاف تنظيم النسل الذي يعني الحمل والإنجاب على فترات منتظمة ، وفق حالات معينة .

وقد تسابقت أجهزة الدوائر المعادية للإسلام بدفع عملائها ، لنشر هذه الفكرة الخبيثة في معاقل المسلمين وتشجيعهم على الأخذ بها ، بتدبير محكم وخطط بالغة الكيد . وفي المقابل نجد بعض الدول المعادية ـ التي تطالب المسلمين بتحديد نسلهم ـ نجدها تلجأُ إلى تشجيع الاستزادة من النسل بين أبنائها ، ليكثروا ضمن سلسلة هندسية مضطردة . ولا يخفى على ذوي البصائر ما في هذه الدعوات من كيد ظاهر للأُمة الإسلامية ، وتعطيل لمسيرتها الرائدة بين الشعوب .

وقد ظهرت دعوة تحديد النسل ـ كما يقول الباحثون ـ في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، ويربطون ميلادها على يد القسيس والعالم الاقتصادي البريطاني [مالتوس] وقد نشر مقالاً عنوانه : تزايد السكان وتأثيره في تقدم المجتمع في المستقبل[1] في عام ١٧٩٨ م ، أوضح فيه أن وسائل الإنتاج وأسباب الرزق في الأرض محدودة ، غير أنه لا يوجد حد يقف عنده تزايد السكان وتضخم النسل ، فإذا ترك الأمر بدون تنسيق ، فإن المفروض أن يأتي يوم تضيق الأرض فيه بسكانها ، وتقل فيه وسائل العيش عن تلبية حاجاتهم . . . وقد اقترح أن يكون نمو عدد السكان متلائماً مع نمو وسائل الإنتاج . ومن جهة أُخرى فقد اقترح أن لا يتزوج الشباب إلا بعد تقدم سنهم ، وأن يعمل الزوجان قصارى جهدهم بالإقلال من الإنجاب[2] .

(١) كان هذا المقال من إحدى العوامل التي دفعت بداروين ـ صاحب نظرية التطور الفاسدة ـ إلى طرح نظريته في التطور وأصل الأنواع ، التي تدل على سقوط أفكاره وتهافتها ، وسذاجة أقواله وضلال أتباعه . انظر مقدمة كتابه : أصل الأنواع .

(٢) بتصرف عن كتاب تحديد النسل : ص ٣٨ ، ٣٩ .

أما نحن المسلمين فــلا نرى الأَخذ بفكرة تحديد النسل على المستوى العــام . مهما كانت المبررات لذلك من وجهة نظر الماديــة الاقتصادية ، وذلك لعدة أَسباب أَهمها[1] :

١ ـ أن الأَخذ بهذه الفكرة يضر بمصلحة الطاقة البشرية التي نملكها ـ ويجب أَن نملكها بتكاثر مستمر ـ في مقابل الأَعداد البشرية التي تقذف بها الأُمم الأُخرى . وأن الحد من تكاثر الطاقة البشرية بالسلالات الإسلامية ليؤثر على كيان حجم المسلمين في العالم بالنسبة إلى غيرهم من الأُمم[2] .

٢ ـ أن رقعة الأَرض التي يملكها المسلمون ، ومحتوياتها الدفينة ، وطاقاتها المتنوعة ، قابلة للتفجر والاستثمار ، تنادي بالمزيد من الطاقات البشرية لاستثمارها وحمايتها والانتفاع بخيراتها ، وإلا كانت مطمع الطامعين الكثيرين من أُمم وشعوب العالم المتكاثرة .

٣ ـ أن المسلم حين ينجب ويرعى من ينجبه بالتربية الإسلامية ، يشعر بأَنه يمد جيش المسلمين بجندي من جنود الله ، وأنه بذلك يقوم بأَحد واجبات الجهاد في سبيل الله ، لأَن إمداد جيش الجهاد بالمال أَو بالرجال أَو بالعتاد ، كل ذلك من الجهاد .

---

(١) بتصرف عن كتاب أجنحة المكر الثلاثة ص : ٢٦٠ ، ٢٦٢ .

(٢) إن تحديد النسل خرافة وبدعة ضالة ، غزت ديارنا المليئة بالخيرات والموارد التي يسطو عليها الأعداءُ من كل حدب وصوب ومذهب ، وهذه البدعة خرافة استعمارية ، لأن الرازق هو الله المتكفل بمخلوقاته ، وهل قلة الأولاد مع كثرة الدخل تضمن السعادة ؟ ! . أفلا يمكن أن تكون بحبوحة العيش ـ المزعومة ـ مدعاة للفساد والرذيلة ؟ . وليعلم أن خرافة تحديد النسل وتطويره في الأنابيب ، دعوة مفكر صهيوني يهودي ماكر يريد للمسلمين شراً وفساداً .

ولذلك فقد حث الرسول ﷺ على الزواج من المرأة الودود الولود ؛ ليكاثر الأُمم بالسلالات الإسلامية . فعن معقل بن يسار قال : قال رسول الله ﷺ : « تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الْأُمَمَ »[1] . نخلص من هذا كله إلى أن حمل أُمة الإسلام ، أو تشجيعها على تطبيق فكرة تحديد النسل ، جريمة بحق هذه الأُمة ، لا يقوم بها إلا جاهل بالحقيقة ، غافل عن النتائج ، أو ساقط في شبكة مكيدة من المكائد الكبرى ، التي تدبر ضد المسلمين ؛ للحد من تزايد طاقاتهم البشرية . وكم سمعنا من عقد المؤتمرات العالمية لحمل الشعوب أو تشجيعها على تحديد النسل ، ومن الخير لنا أن لا نشترك فيها .

٤ – علاوة على ما سبق فإن للمسلمين مذهبهم الخاص في مفاهيم الحياة ، كما أن لهم عقيدتهم الخاصة في قضايا الرزق وقانون التوازن على سطح هذا الكوكب[2] .

الرزق وتقدير الأقوات

من المعلوم أن الله تكفل برزق الإنسان ، وضمن له استمرارية العيش مادام حياً على وجه الأرض ، حتى إن أصغر المخلوقات قد ضمن لها خالقها رزقها وفق أجلها المقدر لها . ولنستمع لهذه الآيات الكريمة التي تدعم وتؤيد هذه الأقوال :

قال تعالى : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا

(١) رواه أبو داود والنسائي .

(٢) بتصرف عن كتاب أجنحة المكر الثلاثة : ص ٢٦٠ – ٢٦٢ .

وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)[1] . ويقول سبحانه : (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ . فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ)[2] .

ففي هذه النصوص تقرير لحقيقة من حقائق التكوين ، المتممة لظروف هـذه الحياة وشروطها ضمن مقادير آجالها ، وضمن حـدود الغاية منها[3] ؛ وهي ابتلاءُ الإنسان في هذه الحياة الدنيا ، وهذا الابتلاءُ معلن في قوله سبحانه وتعالى : (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُـلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَـلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)[4] .

وقد نهى الله تبارك وتعالى الأَولياءَ المنفقين عن قتل الأَولاد من إملاق ، وأَعلن عن تكفله برزقهم ورزق أَولادهم مرتين ؛ ففي المرة الأُولى أَعلن الله تكفله برزقهم ، وعطف عليه تكفله برزق أَولادهم ؛ فقال تعالى : (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ)[5] .

ومعنى ذلك : لا تقتلوا أَولادكم لتتخلصوا من النفقة عليهم ، بسبب ما أَنتم فيه من واقع فقر ، فالله كفيل - إذا توكلتم عليه ، وقمتم بما يجب عليكم من كسب - أَن يرزقكم ويرزقهم عن طريقكم .

وفي المرة الثانية أَعلن الله تكفله برزق الأَولاد ، وعطف عليه تكفله برزق أَوليائهم المنفقين عليهم ؛ فقال تعالى : (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ

(١) سورة هـود : ٦ .
(٢) سورة الذاريات : ٢٢ ، ٢٣ .
(٣) أجنحة المكر الثلاثة : ص . ٢٦٢ ، ٢٦٣ .
(٤) سورة الملك : ١ ، ٢ .
(٥) سورة الأنعام : ١٥١ .

خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيراً)[1] .

أي لا تقتلوهم لتتخلصوا من النفقة عليهم ، خشية أن تصابوا في المستقبل بالفقر بسبب النفقة عليهم ، فالله كفيل بأن يرزقهم ويرزقكم إذا نفدت النفقة التي في أيديكم ، وقد يكون رزقكم بسببهم ، أو عن طريقهم إذا كبروا .

ولما كان الباعث هنا خشية حدوث الفقر ، كان الإعلان مشتملاً على تقديم رزق الأولاد على رزق أوليائهم ، الذين ينفقون عليهم ، لأن الأمر هنا يتعلق بالحذر من المستقبل المجهول ، وفيه شك بالله ووعده ومقادير رزقه ، وفيه تخلٍّ عن واجب التوكل عليه تبارك وتعالى ، بخلاف الحالة الأولى فإن واقع الفقر وما فيه من آلام يحدث اضطراباً في النفس والفكر ، قد يغشى على ثوابت الإيمان وركائزه وتصوراته ، فيجعل صاحبه يتصرف تصرف غير المؤمنين ، لذلك كان بحاجة إلى ما يزيل الغشاوة عن نفسه وفكره ، فيبين له حقيقة من حقائق الإيمان وهي : أن الله يرزقه ويرزق أولاده ، فلا داعي للتخلص من واجب النفقة عليهم ، ومن واجب السعي لاكتسابها كما أمر الله سبحانه ، فالقضية واجب اجتماعي مضمون النتائج بكفالة الخالق الرازق[2] .

لقد جعل الله حياة الحيوان منوطة بقوته ، وجعل الأرض مستودعاً لأقوات الأحياء ، المقضي لهم بأن يحيوا فيها إلى أن تقوم الساعة ،

(١) سورة الاسراء : ٣١ .

(٢) نفس المصدر السابق : ص . ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

وذلك ضمن حدود الآجال المقدرة لها في قضاء الله وقدره ، وما على الناس إلا أن يهتدوا إلى مفاتيح أبواب هذه المستودعات ؛ لتتدفق عليهم خيرات الأرض ؛ ما في برها وأعماقها وجبالها وبحارها من أقوات .

إذن فقضية الأقوات مقدرة بقضاء الله ، حسب حاجة الأحياء المقضي لهم أن يحيوا على هذه الأرض ، وبمقدار أعمالهم المقدرة لهم ، وهي - في عقيدة المسلمين - قضية مضمونة بتقدير الخالق الرازق المغيث ، وما على الحي إلا أن يسعى لاكتساب قوته وقوت من هو مكلف بالنفقة عليه ، وما على البشر إلا أن يستعملوا عقولهم لاستخراج أقواتهم من دفائن الأرض وخزائنها ، وهذه الحقيقة معلنة في قوله تعالى :

(قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَاوَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ)[1] .

فهذا النص القرآني يبين بياناً واضحاً أن الله قد بارك في الأرض ، وقدر فيها أقوات أحيائها تقديراً سواءً للسائلين ؛ أي تقديراً مستوياً بإحكام تام ، وهذا التقدير المستوي لأجل السائلين ، وهم طالبو أقواتهم من خزائنها ، ولا يطلب القوت إلا حي تتوقف حياته عليه .

وباختصار ، فلا مبرر للمسلمين للخوف من تكاثرهم[2] ، واللجوء إلى تحديد النسل من أجل قضية القوت ، فالله على كل شيءٍ مقيت ،

(١) سورة فصلت : ٩ ، ١٠ .

(٢) انظر أجنحة المكر الثلاثة ، ففيه نفع وبيان لكثير من الحقائق الهامة . جزى الله مؤلفه عنا خيراً .

وهذا ما علم من عقائد المسلمين ؛ بأن الله هو المهيمن والمدبر والمقيت لمن وهبهم الحياة ، وهم بحاجة إلى القوت لاستمرار الحياة . وصدق الله العظيم : (وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً)[1] .

نقد نظرية مالتوس

ومن وجهة النظر الأوروبية ، فقد تعرضت نظرية مالتوس ودعاتها إلى نقد لاذع من قبل علماء الغرب والشرق ، علاوة على مخالفتها لقوانين الفطرة وتعاليم الإسلام ، وفي هذا يقول الأستاذ ـ فيدروف ـ أمين الأكاديمية السوفياتية للعلوم ، بصدد نقده لنظرية مالتوس : وإذا كانت موارد الطبيعة محدودة حقاً ، وكانت حاجات الإنسان غير محدودة ، فما وجه الاعتراض إذاً على تلك النظرية ؟ ! .

وجه الاعتراض عندنا أن موضوع الاهتمام ينبغي أن يركز على حاجات المجتمع الإنساني الأساسية ، وعلى وسائل سدها لا على الأمور الطبيعية لذاتها ؛ كالفحم والزيت والحديد وغيرها ، وكذلك ينبغي أن لا نغفل عن حيلة الإنسان وعن سعة تدبيره[2] .

ويقول العالم الديموغرافي الفرنسي ـ ألفريد سوفي : إن الاكتظاظ الذي تبدو سماته في بعض البلدان ، مرده إلى قلة استغلال الموارد

(١) سورة النساء : ٨٥ .

(٢) من مقال نشرته مجلة ـ ساتردي ريفيو ـ وانظر كتاب المجتمع العربي ومقاييس السكان ص ١٤٨ للدكتور عبد الكريم اليافي . وكتاب تحديد النسل : ص ٤١ .

الطبيعية ، وضعف اختصاص العمال ، والاعتماد على الزراعة ؛ فالاكتظاظ في نهاية التحليل ظاهرة من ظواهر التأخر ، يزول عند أخذ المجتمع بأسباب التقدم .

ثم يذكر في ختام كلامه مثلاً الصين الشعبية ؛ إذ كانت تعتبر من أكثر البلدان اكتظاظاً بالسكان ، وقد أصبحت أخيراً محتاجة إلى الأيدي العاملة نظراً لتقدمها السريع[1] .

وإليك ما يقوله - المستر هربرت مارسين - وزير داخلية بريطانيا في عام ١٩٤٣ م : إن بريطانيا إذا كانت تحب المحافظة على مستواها في الوقت الحاضر ، والتقدم في سبيل الرقي والازدهار في المستقبل ، فمن اللازم أن يتزايد فيها أفراد كل أسرة بنسبة ٢٥ بالمائة على الأقل[2] .

ويفضح - آرثر كورماك - مقاصد الأوروبيين في إلحاحهم على المسلمين بضرورة تحديد النسل ، فيقول بكل صراحة : إن أهل الشرق سوف لا يلبثون إلا قليلاً ، حتى يطلعوا على حقيقة هذا الدجل ، ثم لا يغتفرونه لأهل الغرب ؛ لأنه استعمار من نوع جديد ، يهدف إلى دفع الأمم غير المتقدمة - ولاسيما السوداء - إلى مزيد من الذل والخسف ، حتى تتمكن الأمم البيضاءُ من الاحتفاظ بسيادتها[3] .

---

(١) المجتمع العربي ومقاييس السكان عن تحديد النسل : ص ٤١ ، ٤٢ .

(٢) راجع كتاب تحديد النسل : ص ٤٢ .

(٣) راجع استعراض علمي لحركة تحديد النسل : ص ١٧٤ . عن تحديد النسل : ص . ٥٣، ٥٤ .

مسوغات لتنظيم النسل

اهتم الإسلام ببقاء النوع الإنساني واستمراره اهتماماً كبيراً ، كما حبب في كثرة التناسل وبارك المواليد ، وأثنى على المرأة الولود الودود . ومن جهة ثانية فقد رخص الإسلام في تنظيم النسل ، إذا دعت لذلك ضرورة معقولة .

وفي عهد النبوة عرفت وسيلة منع النسل وتقليله ، وكانت تتم بواسطة العزل،وهو قذف النطفة خارج الرحم عند الإحساس بنزولها[1] . وقد كان الصحابة الأبرار يفعلون ذلك ، والوحي ينزل على رسول الله ﷺ كما ورد في الصحيحين عن جابر : كنا نعزل على عهد رسول الله ﷺ والقرآن ينزل . وفي صحيح مسلم قال : كنا نعزل على عهد رسول الله ﷺ فلم ينهنا .

وفيما يلي أهم مسوغات تنظيم النسل :

١ ـ الخشية على حياة الأم أو صحتها من الحمل أو الوضع ؛ إذا عرف بتجربة أو إخبار طبيب ثقة . قال تعالى : : (وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَىٰ التَّهْلُكَةِ)[2] . وقال : (وَلَا تَقْتُلُواْ أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً)[3] .

(١) راجع الحلال والحرام : ص ١٩١ .
(٢) سورة البقرة : ١٩٥ .
(٣) سورة النساء : ٢٩ .

٢ ـ الخشية في وقوع حرج دنيوي . قد يفضي به إلى حرج في دينه فيقبل الحرام . ويرتكب المحظور من أجل الأولاد . قال تعالى : (يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ)[١] . وقال : (مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ)[٢] .

٣ ـ الخشية على الأولاد أن تسوء صحتهم أو تضطرب تربيتهم . وفي صحيح مسلم عن أسامة بن زيد أنَّ رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إني أعزل عن امرأتي . فقال له رسول الله ﷺ : « لِمَ تَفْعَلُ ذٰلِكَ ؟ » . فقال الرجل : أشفق على ولدها أو قال : على أولادها . فقال رسول الله ﷺ : « لَوْ كَانَ ضَارًّا لَضَرَّ فَارِسَ وَالرُّومَ »[٣] .

٤ ـ ومن الضرورات المعتبرة شرعاً الخوف على الرضيع من حمل جديد ووليد جديد . وقد سمى الرسول ﷺ **الوطء ـ في حالة الرضاع ـ** وطء الغيلة أو الغيل ، لما يترتب عليه من حمل يفسد اللبن ويضعف الولد ، وإنما سماه غيلاً أو غيلة لأنه جناية خفية على الرضيع ، فأشبه القتل سراً[٤] .

٥ ـ وقرر الإمام أحمد وغيره أن **تنظيم النسل يباح إذا أذنت** به الزوجة ؛ لأن لها حقاً في الولد وحقاً في الاستمتاع . وروي عن عمر أنه نهى

(١) سورة البقرة : ١٨٥ .

(٢) سورة المائدة : ٦ .

(٣) أخرجه مسلم . راجع الحلال والحرام : ص ١٩٣ . وكتاب تحديد النسل .

(٤) الحلال والحرام : ص ١٩٢ ، ١٩٣ بتصرف .

عن العزل إلا بإذن الزوجة . وهي لفتة بارعة من لفتات الإسلام إلى حق المرأة ، في عصر لم يكن يعترف لها بحقوق[1] .

وقد استحدث في عصرنا من الوسائل التي تمنع الحمل ، ما يحقق المصلحة التي هدف إليها الرسول ﷺ وهي حماية الرضيع من الضرر مع تجنب المفسدة الأُخرى ؛ وهي الامتناع عن النساء مدة الرضاع ، وما في ذلك من مشقة[2] .

لا رخصة في استعمال وسائل لاستئصال النسل

اتفق جماهير العلماء على أنه لا يجوز استعمال شيء من الوسائل ، التي من شأنها القضاء على النسل قضاءً مبرماً ، سواءٌ في ذلك الرجل أو المرأة وسواءٌ ذلك كان باتفاق منهما أو بدونه ، وسواءٌ كان الدافع دينياً أو غيره[3] ؛ وذلك كأن يستعمل الرجل علاجاً من شأنه استئصال الشهوة أو الطاقة على الجماع ، وكإجراء عملية لرحم المرأة يفقدها صلاحية الحمل والإنجاب .

ودليل حرمة ذلك أنه يدخل تحت ما يعد تغييراً لجانب ذاتي في خلق الله عز وجل ، وليس للإنسان أن يستقل بشيء من هذا التغيير .

(١) المصدر السابق : ص ١٩٤ .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) راجع الأنوار للأردبيلي : جـ ٢ – ص ٤١ . ومغني المحتاج : جـ ٣ – ص ١٢٦ . والاقناع على شرح أبي شجاع : جـ ٤ – ص ٤٠ . تحديد النسل : ص ٣٣ .

ليس للإنسان أن يعمد إلى أي جزءٍ في هيئته التركيبية ـ عندما تكون سوية ـ أو إلى أي مظهر من خصائصه الفطرية فينسخه أو يغيره ، فإن ذلك يعد من أسوأ مظاهر التمرد على عبوديته للفاطر الحكيم جل جلاله .

يقول الله عز وجل مبيناً ما أخذه إبليس ـ لعنه الله ـ على نفسه من بذل كل جهد لإغواء الصفوة ـ التي اختارها الله من مخلوقاته ـ وهي الإنسان : (وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ ٱلْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ ٱللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِينًا)[1] .

وتغيير خلق الله هو ما قد علمت من تبديل شيءٍ من أجزائه الذاتية ، أو القضاء على شيءٍ من جبلته وفطرته الأصيلة .

من أجل ذلك نهى رسول الله ﷺ **عن تنميص**[2] الوجه وتزجيج الحاجبين وتفليج الأسنان والوشم ؛ **إذ كل ذلك داخل في مسمى** التغيير الذاتي ، بخلاف ما يدخل في معنى التهذيب والرعاية ؛ كحلق الشعر والعناية به ، وقص الأظافر وتكحيل العين ونحو ذلك .

وقد علمت أن تحديد النسل من أوضح **أمثلة التغيير الذاتي لخلق الله** ، وقد حذر البيان الإلٰهي منه كما رأيت .

---

(١) سورة النساء : ١١٨ ، ١١٩ .

(٢) جاء في القاموس المحيط : النمص : نتف الشعر . النامصة : الناتفة أو العاملة على النتف . المتنمصة : وهي المزينة به . ولعنت النامصة ، وهي مزينة النساء .

وقد علمت أيضاً أن جواز تحديد النسل يتعارض مع الحكمة التي شرع الله الزواج من أجلها[1] .

إن بث فكرة تحديد النسل ـ وتشجيعها بين صفوف المسلمين ـ عمل هدام ومعول تخريب من معاول الأعداءِ ، يراد بها إيقاف التكاثر السكاني وإضعافه ، وهذا عمل عدائي يحتوي على مكيدة مدبرة ضد الحجم الثقيل للمسلمين بين الأُمم .

ويعجبني ما قاله حكيم الشرق الشاعر محمد إقبال : وكل ما هو واقع اليوم ـ أو على وشك الوقوع في الغد القريب في بلادنا ـ إن هو إلا أثر من آثار دعاية أوروبا . هناك سيل عرم من الكتب والوسائل الأُخرى ، قد انجرف في بلادنا لدعوة الناس إلى اتباع خطة منع الحمل ، وتشويقهم إلى قبول حركتها ، على حين أن أهل الغرب ـ في بلادهم أنفسهم ـ يتابعون الجهود الفنية لرفع المواليد وزيادة عدد السكان[2] .

---

(١) تحديد النسل : ص ٣٣ ، ٣٤ .

(٢) وهكذا فدعوة تحديد النسل تسهم بلا شك في إنجاح أخطر المكائد الاستعمارية ، التي تستهدف صد وانحسار المد البشري للعالمين العربي والإسلامي وتخلفهما ، مما يساعد على إضعافهما واستمرار استعبادهما . انظر مقال استعراض علمي لحركة تحديد النسل : ص ٥٢ . للدكتور البوطي .

الباب الثاني

الفصل الثاني

معـــارف ونقـــدها

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

تمهيد :

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شعيرة عظيمة من شعائر الإسلام ، وهي القطب الأعظم في الدين ، قام به الأنبياءُ والمرسلون وانتصبوا لأدائه ، وفق أمر الله سبحانه ، ثم جاء المصلحون من بعدهم فامتثلوا لهذه الفريضة الجليلة ؛ خشية انتشار الفساد وفشو الضلال والانحراف .

إن لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أهمية بالغة في ازدهار حياة الأمة وعلو شأنها ورفعتها ، كما أن لها شأناً عظيماً في بناءِ الإيمان ونصرة دين الله ، الذي ما جاءَ إلا لخير الناس في دنياهم ومعادهم .

لقد امتثل السلف الصالح لهذه الفريضة ، وأدوا حقها امتثالاً لأمر الله الذي أمر أتباع دينه بالتزامها ؛ لأثرها البالغ في الحفاظ على شريعة الإسلام من هجوم أصحاب الآراءِ المنحرفة ، والبدعيين ودعاة السوءِ والمنكر .

ولا ريب فإن قيام الأمةِ بإصلاح مجتمعها ينجيها وينجي المجتمع من الهلاك الجماعي ، والشر الذي يصيب المجتمع . ومن سنة الله سبحانه أن المجتمع الذي تشيع فيه المنكرات وتنتهك فيه الحرمات ، ويسكت أبناؤه عن الإنكار ، فإن الله تعالى يعمهم بمحن غلاظ موجعة ، ومصائب

مفجعة تعم الجميع ، وهذه سنة مخيفة وقانون رهيب يدفع كل فرد ـ وخاصة أصحاب العلوم والنفوذ والرياسة ـ إلى المسارعة والمبادرة الفورية لإزالة المنكر ودرء المفاسد دفعاً للعقاب ـ عن أنفسهم وعن مجتمعهم ـ والله تعالى يقول : (وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)[1] .

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية : يحذر الله تعالى عباده المؤمنين فتنة ـ أي اختباراً ومحنة ـ يعم بها المسيء وغيره ، لا يخص بها أهل المعاصي ولا من باشر الذنب بل يعمها[2] .

وفي الحديث الشريف : « إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ وَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَىٰ يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ » .

فهذا يدل على أن وقوع الفساد في المجتمع ، والسكوت عليه وعدم تغييره ، سبب للعقاب الجماعي . وقد ـ [illegible]لام على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في نصوص كثيرة من [illegible] القرآنية والأحاديث النبوية ، نقتصر هنا على بعضها ؛ ومنها قوله تعالى : (وَلْتَكُنْ مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[3] .

قال ابن تيمية رحمه الله : إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

(١) سورة الأنفال : [illegible]٢٥ [illegible]

(٢) انظر تفسير ابن كثير : ج ٢ . سورة الأنفال .

(٣) سورة آل عمران : ١٠٤ .

لا يجب على كل أحد بعينه ، بل هو على الكفاية ؛ مستدلاً بهذه الآية الكريمة[1] . وقد جعل الله سبحانه وتعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الحقائق الثابتة في الإسلام ، والأدلة الواضحة على التحقق به فقال : (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ)[2] .

قال الغزالي : وهذا يدل على فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ إذ بين أنهم كانوا به خير أمة أخرجت للناس[3] .

وروى الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) . قال : خير الناس للناس ؛ تأتون بهم والسلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام .

وفيما قاله أبو هريرة رضي الله عنه ما يدل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ بمعناهما الشامل ـ يدخل فيهما الجهاد في سبيل الله ، والعمل على تبليغ رسالة الإسلام بشتى الوسائل الممكنة .

وقال تعالى : (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)[4] . وقد قابل الله سبحانه وتعالى ما وصف به المؤمنين في هذه الآية ، بما وصف به المنافقين في قوله تعالى :

---

(١) مسألة الحسبة : ص ٥٣ .

(٢) سورة آل عمران : ١١٠ .

(٣) إحياء علوم الدين : جـ ٣ ـ ص ٢٧٠ .

(٤) سورة التوبة : ٧١ .

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ)[1] .

وبهذه المقابلة بيَّن الله عز وجل أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أخص خصائص الإيمان ، وأن التعاون المطلوب بين المؤمنين إنما يتمثل أبلغ ما يتمثل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقد نص الله سبحانه وتعالى على أن فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من خصائص رسالة التوحيد ـ رسالة خاتم الأنبياء ـ والتي هي من أهم أهدافها البارزة ، وأنها علامة مميزة لها تستوجب اليقين بأنها من عند الله . قال تعالى : (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ)[2] .

وتأكيداً لأهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان الأمر الإلهي للرسول عليه الصلاة والسلام ـ فضلا عن غيره ـ في قوله تعالى : (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)[3] . وقد أرشد الرسول ﷺ في عدة أحاديث إلى عموم هذا الأمر والنهي وشموله لكل مسلم فقال : « مَنْ رَأَىٰ مِنْكُمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِفَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ »[4] .

---

(١) سورة التوبة : ٦٧ .

(٢) سورة الأعراف : ١٥٧ .

(٣) سورة الأعراف : ١٩٩ .

(٤) رواه أحمد ومسلم وغيرهما .

وجعل عليه الصلاة والسلام من واجب المسلمين الجالسين على الطريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فعن أبي سعيد الخدري ، عن رسول الله ﷺ قال : « إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ بِالطُّرُقَاتِ » . فقالوا : يا رسول الله ، ما لنا بد من مجالسنا ؛ نتحدث فيها . فقال رسول الله ﷺ : « فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ » قالوا : وما حق الطريق يا رسول الله ؟ . قال : « غَضُّ الْبَصَرِ وَكَفُّ الْأَذَىٰ وَرَدُّ السَّلَامِ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ »[1] .

وجعل الرسول ﷺ الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر من خير الناس فقال : « خَيْرُ النَّاسِ أَقْرَؤُهُمْ وَأَتْقَاهُمْ وَآمَرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَوْصَلُهُمْ لِلرَّحِمِ »[2] .

كما جعل عليه الصلاة والسلام : « مِنْ أَفْضَلِ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ »[3] . وجعل الأمر والنهي من الأمور المميزة للمسلم ، والذي بدونها يكاد ينسلخ من الإسلام ويخرج من عداد المسلمين ، فقال : « لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُوَقِّرِ الْكَبِيرَ وَيَرْحَمِ الصَّغِيرَ وَيَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ »[4] .

---

(١) رواه أحمد والشيخان وغيرهم .

(٢) رواه أحمد والطبراني بنحوه . ورجاله ثقات ، وفي بعضهم كلام لا يضر ؛ كما في مجمع الزوائد .

(٣) رواه أبو داود والنسائي والترمذي وقال : حسن غريب .

(٤) رواه أحمد والترمذي .

أما عن الأحاديث النبوية التي تصور لنا وسائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومراتبه وطرقه فنذكر منها ما يلي :

١ - قوله ﷺ : « مَنْ رَأَىٰ مِنْكُمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ . . . » الحديث . قال القاضي عياض : هذا الحديث أصل في صفة التغيير ، فحق المغيِّر أن يغيره بكل وجه أمكن زواله به ، قولاً كان أو فعلاً ؛ فيكسر آلات الباطل ، ويريق المسكر بنفسه ، أو يأمر من يفعله ، وينزع المغصوب ويردها إلى أصحابها بنفسه ، أو بأمره إذا أمكنه ، فإن غلب على ظنه أن تغييره بيده يسبب منكراً أشد منه - من قتله أو قتل غيره - كف يده واقتصر على القول باللسان والوعظ والتخويف ، فإن خاف أن يسبب قوله مثل ذلك ، غيّر بقلبه وكان في سعة[1] .

وهل تتقيد كل مرتبة من مراتب الإنكار بطائفة معينة من طوائف المسلمين ؟ .

قال القرطبي : قال العلماءُ : الأمر بالمعروف باليد على الأُمراء ، وباللسان على العلماء ، وبالقلب على الضعفاء . يعني عوام الناس[2] .

ويؤكد الإمام النووي رحمه الله عدم التقيد في مثل ذلك حينما يقول : ولا يختص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأصحاب الولايات ، بل ذلك جائز لآحاد المسلمين .

---

(١) انظر شرح مسلم : جـ ٢ . ص ٢٥ .

(٢) تفسير القرطبي : جـ ٤ . ص ٤٧ .

قال إمام الحرمين : والدليل عليه إجماع المسلمين ، فإن غير الولاة - في الصدر الأول والعصر الذي يليه - كانوا يأمرون الولاة بالمعروف وينهونهم عن المنكر ، مع تقرير المسلمين إياهم وترك توبيخهم على التشاغل بالأمر والنهي من غير ولاية[1] .

٢ - وعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِه وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِه ، ثُمَّ إِنَّهُ تَخَلَّفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ ، يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِه فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِه فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِه فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَيْسَ وَرَاءَ ذٰلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ »[2] .

وقال ابن تيمية : مراده ﷺ وليس وراء ذٰلِكَ شَيْءٌ من الإيمان ؛ لم يبق بعد هذا الإنكار ما يدخل في الإيمان حتى يفعله المؤمن ، بل الإنكار بالقلب آخر حدود الإيمان . وليس مراده أن من لم ينكر لم يكن معه حبة خردل ، ولهذا قال : « لَيْسَ وَرَاءَ ذٰلِكَ »[3] .

٣ - عن عبد الله بن عمرو قال : رأى رسول الله ﷺ عليَّ ثوبين معصفرين فقال : « أَأُمُّكَ أَمَرَتْكَ بِهٰذَا ؟ . » . قلت : أغسلهما . قال : « بَلِ احْرِقْهُمَا »[4]

(١) شرح مسلم : ج ٢ - ص ٢٣ . والبدعة - تحديدها وموقف الإسلام منها : ص ٥١١ وما بعدها .
(٢) انظر شرح مسلم : ج ٢ - ص ٢٧ .
(٣) انظر المنح المرعية : ج ١ - ص ١٨١ . والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للخلال .
(٤) انظر شرح مسلم : ج ٤ - ص ٥٥ . قال النووي عن الأمر بإحراقهما : قيل : هو عقوبة وتغليظ ؛ لزجره وزجر غيره عن مثل هذا الفعل .

٤ – وكان غضب رسول الله ﷺ شديداً حينما حاول بعض كبار قريش التحايل في رفع الحد عن سارقة ، واستشفعوا بأُسامة بن زيد إلى رسول الله ﷺ وقام خطيباً فقال : « أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ . وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا » . ثم أمر بتلك المرأة فقطعت يدها[1] .

وبعد استعراض هذه الأدلة الشرعية يتبين لنا أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن القيام به يسلم الحياة من الانتكاس والفساد .

وهكذا فالأمر والنهي واجب ديني لا يجوز إهماله أو التغافل عنه لما يترتب عليه من نتائج ؛ إذ بإغفاله ترتكب المنكرات ، وتعم الفواحش مما يفسد الحرث والنسل ويعطل مسيرة الحياة .

وقد ثبت بالتجربة والمشاهدة أن المرض إذا أُهمل ولم يعالج استشرى في الجسم ، وعسر علاجه بعد تمكنه من الجسم واستفحال خطره ، وكذلك شأن المنكر إذا ترك فلم يغير ، فإنه لا يلبث أن يألفه الناس ويفعله الكبير والصغير ، وعندئذ يصبح من غير السهل إزالته أو تغييره ، ويومها يستوجب فاعلوه العقاب الذي لا يمكن أن يتخلف بحال ، إذ أنه جار على سنن الله سبحانه التي لا تتبدل ولا تتغير : (فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً)[2] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

(٢) سورة فاطر : ٤٣ .

ومما يجدر ذكره أن المسلمين كانوا قادة الشعوب والأُمم ، ولهم الهيمنة على معظم أرجاء المعمورة حينما كانت فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قائمة ، وعندما تعطلت ضعفت شوكة المسلمين ، ودب فيهم الخور والانحلال والتفكك ، وأصبحوا أذلة ضعفاء لا حساب لهم في ميزان السياسة الدولية ، كما هو شأننا في هذه الأيام ـ في نهاية القرن العشرين ـ الذي يعيش فيه المسلمون أقسى أنواع الشدة والضيم ؛ حيث يطارَد المسلم في كل مكان ، بعد أن استُحلَّت المحارم ، واحتلت فلسطين وانتهكت المقدسات ، وحرق المسجد الأقصى المبارك على أيدي أعداء الله الصهاينة ـ قراصنة الشعوب ـ بمساعدة الصليبية الحاقدة وعلى رأسها بريطانيا ـ التي هي سبب كل علة في شرقنا الإسلامي ـ وهذا هو المصير الذي ينتظر كل من يتخلف عن أوامر الله ويهجر شرعه المبين .

ومما تعلمناه من الحياة اليومية المشهودة أن المنزل إذا أُهمل ولم ينظف ، ولم تبعد منه النفايات والأوساخ فترة من الزمان ، يصبح غير صالح للسكن ؛ إذ تتعفن ريحه ، ويتسمم هواؤه ، وتنتشر فيه الجراثيم والأوبئة لطول ما تراكمت فيه الأوساخ ، وكثرة ما تجمعت فيه القاذورات .

وكذلك الجماعة المؤمنة إذا أُهمل فيهم المنكر فلم يغير ، والمعروف فلم يؤمر به ، لا يلبثون أن يصبحوا خبثاء الأرواح شريري النفوس ، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً ، ويومئذ يصبحون غير صالحين لحياة ؛ فيهلكهم الله بما شاء من أسباب ووسائط ، تصديقاً لقوله تعالى : (شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ)[1] . و (وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)[2] .

(١) سورة غـافر : ٣ .
(٢) سورة آل عمران : ٤ .

إن النفس البشرية تعتاد القبيح فيحسن عندها ، وتألف الشر فيصبح طبيعة لها ، وهذا هو شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ فإن المعروف إذا ترك ولم يؤمر به ساعة ، لا يلبث الناس أن يعتادوا تركه ويصبح عندهم من المنكر ، وكذلك المنكر إذا لم يبادر إلى تغييره وإزالته ، لم يمض يسير من الزمن حتى يكثر وينتشر ، ثم يعتاد ويؤلف ، ثم يصبح في نظر مرتكبيه غير منكر ، بل يرونه هو المعروف بعينه ، وهذا هو انطماس البصيرة والمسخ الفكري - والعياذ بالله تعالى - من أجل هذا أمر الله ورسوله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأوجباه فريضة من فرائض المسلمين ، إبقاءً لهم على طهرهم وصلاحهم ، ومحافظة لهم على شرف مكانتهم كقادة للأمم ورواد للخير ، وهداة بين شعوب الأرض[1] .

ومما يجدر ذكره أن من آداب الداعي إلى الله أن يكون ورعاً تقياً ، لا يأتي الذي ينهى عنه ، ولا يترك الذي يأمر به . وأن يكون حسن الخلق ؛ حليماً ليناً جامعاً لمكارم الأخلاق ، متصفاً بسائر الصفات الفاضلة حتى يكون قدوة للآخرين ، وقد بين القرآن منزلة الدعاة الذين يخالفون ما يدعون إليه فقال سبحانه : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ)[2] .

وقال أيضاً : (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)[3] .

(١) منهاج المسلم : ص ٦٨ وما بعدها . لأبي بكر الجزائري .
(٢) سورة الصف : ٢ .
(٣) سورة البقرة : ٤٤ .

وقوله عز وجل : (وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)[1] .

إن إحياء جماعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ديار الإسلام أصبح لازماً لا مفر منه ، ولابد من العمل به ، وإحياء هذه الفريضة العظيمة ، إذ لا جرم في الوجود يعدل جرم حجب نور الحق عن أن ينبسط على أمة الإسلام بأسرها ، فعند ذلك يتسنى للدعاة إلى الله أن ينشروا الإسلام خارج بلادهم ، ويصل نوره لسائر المعمورة ؛ فيعم العدل والسلام وتهنأ البشرية في ظلاله الوارفة .

التوكل على الله

من المعروف أن التوكل على الله من الوظائف الرئيسية التي يلتزم بها المسلم ويعتنقها ، وهي عقيدة راسخة تمد الإنسان بطاقات فعالة ، وتكسبه قوة ونشاطاً لمواصلة رحلة الحياة على سطح هذا الكوكب على الوجه المطلوب ، وفق سنَن الفطرة وضمن قواعد الشرع الحكيم .

وهكذا نجد التوكل بمفهومه الصحيح[2] ، قوة محركة وزاداً روحياً يتغلب به المؤمن على كل المتاعب ومنازع الشر والمثبطات ؛ كالخوف

(١) سورة لقمـــان : ١٧ .

(٢) ويجب التفريق بين التوكل والتواكل ؛ فالتواكل معناه عدم الأخذ بالأسباب ، والتمني على الله بأن يخرق له العوائد ، ولكن التوكل هو على العكس ، فمعناه أن يرتب الإنسان ويأخذ بالأسباب ثم يدع النتائج لله سبحانه . وصدق الرسول القائل : « اعْقِلْ وَتَوَكَّلْ » .

والقلق والحيرة ، كما أنه يمد الإنسان المؤمن بالأمل والبسمة المشرقة أمام أحلك الساعات التي تمر به ، ويهبه سكينة النفس وطمأنينتها التي حرم منها غالبية سكان المعمورة ، الذين لم يتفيؤوا ظلال الإسلام ، ولم يعرفوا للإيمان حلاوة ولا طعماً .

إن في الإسلام عاملاً نفسانياً للقضاء على الخوف ، وهو ما أمر به من التوكل على الله وتفويض الأمر إليه وعبادته . قال سبحانه وتعالى : (وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)[1] .

والتوكل أثر من آثار الإيمان ، فالذي يؤمن بأن الله بيده تصاريف الحياة ، وبيده النفع والضر ، يترك الأمر إليه ويرضى بمشيئته ؛ فلا يفزعه المستقبل وما يخبئه له من مفاجآت ، ويستعيض عن الخوف بسكينة واطمئنان إلى عدل الله ورحمته ، ولهذا يقرر الإسلام بأن الإيمان يجب أن يصاحبه التوكل : (وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُواْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)[2] . (اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)[3] . والإسلام يحمل البشرى للمتوكلين ، ويعدهم الفضل من الله ونيل بركاته .

انظر إلى هذه الآية الكريمة التي تمسح ما في نفوس المؤمنين من الخوف ، وتمدهم بقوة روحية يستطيعون بها التغلب على خوفهم وقلقهم[4] :

(١) سورة هود : ١٢٣ .
(٢) سورة المائدة : ٢٣ .
(٣) سورة التغابن : ١٣ .
(٣) راجع روح الدين الإسلامي : ص ١٩١ .

(فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)[1] .

وورد في القرآن أيضاً آية أخرى تحمل الوعد الصادق بالمعونة والتأييد من الله : (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)[2] .
أي كافيه مما أهمه وما أجزعه .

ومن المعلوم أن أعداء الله استغلوا كافة الوسائل لتضليل المسلمين وإفساد معتقداتهم ، ليسهل عليهم استعبادهم واتخاذهم أدوات مسخرة لخدمة مصالحهم ، وقد كانت فكرة تحريف مضمون التوكل على الله واحدة من وسائلهم الخبيثة ، التي عثروا عليها واستغلوها أشنع استغلال ؛ حيث بثوا أفكارهم المسمومة ، واستغلوا المنصِّرين والمستشرقين وكافة الأقلام المأجورة للنهوض بهذه المهمة ، حتى كان لهم ما أرادوا ؛ فقد تلاعبوا بمضمون التوكل على الله ، حتى أضحى سلاحاً خطراً في أيديهم ؛ بعد أن كان سلاحاً موجهاً إلى صدورهم .

وعملية التحريف هذه مسألة لا تحتاج إلى كثير عناء ، بل الأمر لا يتعدى التعميم في المضمون ، يتجاوز حدود مواقع التوكل المطلوب في الإسلام . وهكذا وبكل بساطة دخل التحريف على مفاهيم بعض المسلمين ، وأصبح وظيفة من وظائف الطاقات المادية والقدرات الجسدية

---

(١) سورة الشورى : ٣٦ .
(٢) سورة الطلاق : ٣ .

والأعمال التخطيطية والتنفيذية ، واستطاعت هذه الفئة استغلال هذا التحريف والتشويه لتثبيط المسلمين عن إعداد ما يجب عليهم إعداده من قوى مادية ، وصرفهم عن اتخاذ الأسباب الواجبة ، وعن مباشرة كل عمل من شأنه أن يحقق النتائج وفق سنن الله في كونه .

وتخدِّر التصورات الفاسدة لمعنى التوكل طاقات العمل والسعي والتفكير فيهم ، وتجعلهم يعيشون في أحلام تحقيق غاياتهم بمعجزات خارقة خارجة عن سنن الحياة المستمرة .

ولا شك أن هذا المفهوم الفاسد لمعنى التوكل على الله ، يعطل حركة السعي الواجب لاتخاذ كل الوسائل المادية والمعنوية المستطاعة ، التي من شأنها أن تظفر الساعي بالنتيجة المطلوبة وفق سنن الله في كونه . وكانت مكيدة العدو في استخدام هذا التحريف الفاسد مكيدة خطيرة جداً ، أخطر من مكيدة الأفيون الذي نشره المستعمرون في الصين ، وقد تضمنت هذه المكيدة سلاحاً ماضياً لصالح العدو[1] .

إن الإسلام ـ والحمد لله ـ دين يدعو إلى الأخذ بالأسباب ، والعمل والجهاد والاستعداد وعلى كافة المستويات ، ولم يكن يوماً داعياً إلى التواكل والارتماء في أحضان الانعزال والانطواء والتطفل ، ورحم الله الصديق أبا بكر رضي الله عنه ، الذي خرج صبيحة يوم توليه الخلافة ليكسب قوته بعمل يده في سوق المدينة المنورة ، ولما طلب إليه ترك ذلك ليتفرغ لشؤون الخلافة قال : فمن أين أطعم عيالي ؟ .

(٤) راجع أجنحة المكر الثلاثة : ص ٢٠٥ .

وهذا رد كاف على دعاة التواكل . ألم يضرب الخليفة عمر الفاروق بدرته من كان متفرغاً للعبادة في المسجد ؟ . وقال له أيضاً : إن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة .

وترك التكسب ليس من التوكل في شيء ، إنما هو من فعل البطالين الذين آثروا الراحة وتعللوا بالتوكل . قال عمر رضي الله عنه : المتوكل الذي يلقي حبه في الأرض ويتوكل على الله[1] . ولنتأمل هذا الحديث الشريف : « نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ »[2] .

وإن نظرة قليلة فيما مضى من تاريخ المسلمين – يوم كانوا متوكلين على الله تعالى – تلجم هؤلاء المتقولين على الإسلام ، وتلزمهم الحجة بأن ما طرأ على المسلمين – فيما بعد – لم يصبهم إلا بعد أن تركوا التوكل على الله ، فلم يعملوا بما أرشدهم إليه من وجوب الأخذ بالأسباب العادية ، فإنه سبحانه وتعالى خلق تلك الأسباب والمسببات ، وخلق ما بينهما من لحمة السببية ، فالتماس تلك الأسباب لا ينافي التوكل في شيء ، بل إنه التوكل نفسه . وتفسير أولئك الناس للتوكل بالتفويض المطلق والتقاعد عن الكسب والتحصيل – بما أفضى بهم إلى الاضمحلال – إنما منشؤه الجهل بلغة القرآن الكريم .

ويرشدنا الرسول – وهو سيد المتوكلين[3] – سواء بسيرته وأعماله ،

(١) انظر مختصر منهاج القاصدين : ص ٣٥٠ .
(٢) رواه الإمام أحمد .
(٣) الإسلام دين الفطرة والحرية : ص ٦١ ، ٦٢ عن الإسلام في قفص الاتهام : ص ٢٧٢ .

أم بالقرآن الكريم ، إلى أن لكل شيء سبباً ، لا يمكن الحصول عليه إلا باتخاذ ذلك السبب ، أما سمعنا قوله تعالى : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ)[1] . وقوله تعالى : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ)[2] .

ونحو : (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ)[3] إلى غير ذلك من الآيات البينات . والإسلام براءٌ من الاتكالية والتواكلية التي جردت المسلمين من كل معاني القوة الصالحة للحياة . فهذا القرآن الكريم يبين أن العزم أولاً ثم التوكل ثانياً : (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللهِ)[4] .

فالعزم والتصميم والإرادة هي العدة العملية ، ومن بعدها التوكل ؛ الذي هو عمل من أعمال القلب ، ولعلنا نذكر أن النبي ﷺ لم يدع إلى القعود عن العمل اتكالاً على الله ، بل طلب من الناس أن يعملوا أي عمل ، ولا يقعدوا مع الفقر والحرمان ، فهو القائل : « لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَحْتَطِبَ حُزْمَةً مِنَ الْحَطَبِ فَيَبِيعَهَا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطُوهُ أَوْ مَنَعُوهُ »[5] .

وما أكثر الشواهد على نبذ التواكل والقعود عن العمل واليأس والكسل . وقد قال المثل : لولا الأمل بطل العمل . فسبحان الله عما يصفون[6] .

---

(١) سورة النساء : ٧١ .
(٢) سورة الأنفال : ٦٠ .
(٣) سورة الشورى : ٣٠ .
(٤) سورة آل عمران : ١٥٩ .
(٥) متفق عليه .
(٦) الإسلام في قفص الاتهام : ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

التوسل والوسيلة في ميزان الشريعة

التوسل لغة : من وسل يسل ، من باب وعد ، أي رغب وتقرب . ومنه اشتقاق الوسيلة ؛ وهي ما يتقرب به إلى الشيء . والجمع : الوسائل . وتوسل إلى الله بوسيلة : تقرب إليه بعمل .

وقد ورد تفسير الوسيلة بالقربة عن كثير من علماء السلف في قوله تعالى : (يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ)[1] . حيث قيل : هي القربة .

وعن قتادة : تقربوا إليه بطاعته[2] .

وروى الحاكم بسنده عن حذيفة أنه سمع قارئاً يقرأ هذه الآية فقال : القربة . ثم قال : لقد علم المحفوظون من أصحاب محمد ﷺ أن ابن أم عبد من أقربهم إلى الله وسيلة[3] .

وعلى هذا يتفق المعنى اللغوي مع المعنى الشرعي لها . وقد ورد في الحديث الذي رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ : اللَّهُمَّ رَبَّ هٰذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلَاةِ الْقَائِمَةِ آتِ مُحَمَّداً الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ وَابْعَثْهُ مَقَاماً مَحْمُوداً الَّذِي وَعَدْتَهُ . حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[4] .

---

(١) سورة المائدة : ٣٥ .

(٢) انظر التوسل والوسيلة : ص ١٤ ، ٤٨ ، وتفسير الطبري : جـ ١٠ . ص ٢٩٠ .

(٣) المستدرك : جـ ٢ . ص ٣١٢ . قال الذهبي : على شرطهما .

(٤) رواه البخاري : جـ ١ . ص ١٠٥ . وأبو داود بنحوه : ج ١ . ص ٨٨ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : إن الوسيلة هي القربة[1] .

جاء في لسان العرب : الوسيلة ؛ القربة . ووسل فلان إلى الله وسيلة : إذا عمل عملاً تقرب به إليه . وتوسل إليه وسيلة إذا تقرب إليه بعمل .

والتوسل شرعاً : هو التقرب إلى الله تعالى بطاعته وعبادته واتباع أنبيائه ورسله ، وبكل عمل يحبه الله ويرضاه[2] .

وقال سبحانه وتعالى : (قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً . أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً)[3] .

يتضح مما تقدم أن التوسل ـ لغة وشرعاً ـ لا يخرج عن معنى التقرب ؛ أو ما يؤول إليه من القربى إلى الله تعالى بما يرضاه من الأعمال الصالحة[4] .

---

(١) التوسل والوسيلة . والتوصل إلى حقيقة التوسل : ص ١٢ .

(٢) التوصل إلى حقيقة التوسل : ص ١٢ .

(٣) سورة الإسراء : ٥٦ ، ٥٧ .

(٤) انظر التوصل إلى حقيقة التوسل : ص ١٢ . والقاعدة الجليلة لابن تيمية ، ففيه مزيد بسط وتفصيل .

أقسام التوسل

ينقسم التوسل إلى قسمين :

١ - توسل شرعي . **٢ - توسل بدعي .**

١ - ١ التوسل الشرعي

تعريفه : : هو كل توسل ورد في كتاب الله ، وحث عليه سبحانه ، وأمرنا به الرسول ﷺ وفعله أصحابه من بعده .

أقسامه : ينقسم التوسل الشرعي إلى ثلاثة أقسام :

١ - توسل العبد إلى الله تعالى بذاته العلية ، وبأسمائه الحسنى ، وبصفاته العظمى .

٢ - توسل العبد إلى الله سبحانه بأعماله الصالحة .

٣ - توسل العبد إلى الله تعالى بدعاء أخيه المؤمن له .

ونشرع في تبيان حقيقة التوسل الشرعي فنقول وبالله التوفيق .

الأصل في دعاء الله تعالى قوله : (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ)[1] .

وقوله تعالى : (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)[2] .

---

(١) سورة البقرة : ١٨٦ .

(٢) سورة غـــافر : ٦٠ .

فتوسل العبد إلى الله تعالى بذاته العلية ، وبأسمائه الحسنى وبصفاته العظمى ، دل عليه القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة .

أما النصوص القرآنية فهي :

أولاً ـ قال تعالى : (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا)[1] .

فهذه الآية القرآنية واضحة أشد الوضوح ، ومصرحة أشد التصريح بأن دعاء الله تعالى يكون باسم من أسمائه الحسنى مثل : يا عظيم ، يا قوي ، يا كريم .

قال أبو يوسف عن أبي حنيفة : لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به . وقال رحمه الله : وكذا لا يصلي أحد على أحد إلا على النبي ﷺ . وكره قوله : بحق رسلك وأنبيائك وأوليائك . أو : بحق البيت . لأنه لا حق للخلق على الخالق سبحانه[2] . أي أنه لا وساطة بين الله وعباده ، وإن كان الوسيط رسولاً أو ولياً أو نبياً .

ثانياً ـ قوله تعالى : (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ) .

قال الآلوسي : (فَإِنِّي قَرِيبٌ) أي فقل لهم ذلك ؛ بأن تخبر عن القرب بأي طريق كان ، ولابد من التقدير ، إذ بدونه لا يترتب على الشرط ولم يصرح بالمقدر ، كما في أمثاله للإشارة إلى أنه تعالى تكفل جوابهم ، ولم يكلهم إلى رسوله ﷺ تنبيهاً على كمال لطفه ، والقرب حقيقة في القرب المكاني المنزه عنه تعالى[3] .

---

(١) سورة الأعراف : ١٨٠ .
(٢) التوصل إلى حقيقة التوسل للرفاعي .
(٣) روح المعاني : جـ ٢ . ص ٦٣ .

وفي هذه الآية نكتة بلاغية معجزة ؛ فإن الله تعالى يقول في كل آية فيها مساءلة للنبي : قُلْ . أَوْ : فَقُلْ إلَّا في هذه الآية فقد قال الحق عز وجل : (وَإِذَا سَأَلَكَ ... فَإِنِّي) ولم يقل : قُلْ . أَوْ : فَقُلْ . كعادة القرآن في مثل هذا المقام ؛ لأن هذا دليل على قرب المدعو سبحانه ، وسرعة الإجابة ، وتأكيد على أنه لا وساطة بين الحق وخلقه ؛ فقد منع الله الوساطة بينه وبين خلقه حتى في الجواب .

وأما التوسل إلى الله تعالى بصفة من صفاته ، فذلك مأخوذ من كثير من الآيات القرآنية ، وهذه واحدة منها :

يقول الله تعالى على لسان نبيه ابراهيم عليه السلام : (رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَلَا يَخْفَىٰ عَلَى اللهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ)[1] .

وجه الدلالة في هذه الآية أن أبا الأنبياء إبراهيم ، يدعو الله تعالى ويتوسل بعلم الله ، الذي أحاط بكل ما في السر والجهر من حركات مخلوقاته ، في الأرض وفي السماء ، كما يتوسل إلى الله بصفات وهبه وحمده وسمعه ، لأن الله سميع الدعاء ، وهذا هو منهج المسلم الحقيقي حين يتوجه إلى خالقه بالدعاء ، فيدعوه باسم من أسمائه ، أو بصفة من صفاته ، دون اللجوء إلى وساطة أحد .

(١) سورة إبراهيم : ٣٨ ، ٣٩ .

وأما السنة فقد ورد فيها ما يؤكد على أن التوسل إلى الله يكون بذاته العلية ، أو باسمه الأعظم أو بصفاته الحسنى :

ففي الحديث الذي رواه عبد الله بن بريدة عن أبيه أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول :

اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . فقال : « لَقَدْ سَأَلْتَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ »[1] .

فهذا الحديث نصٌّ صريح بأن دعاء الله وسؤاله يكون بذاته العلية الواحدة وباسمه الأعظم ، كما يشير لذلك قول النبي ﷺ : « لَقَدْ سَأَلْتَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ » . فلا وساطة إذن بين العبد وربه . ويؤيد هذا ما ورد في الحديث « ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ » .

فلم يقل الرسول ﷺ : ادعوا الأنبياء حتى يطلبوا من الله لكم ! ! أو توسلوا بالأنبياء والصالحين ! ![2] .

وأما سؤال الله تعالى بصفة من صفاته ، فهذا نأخذه من الحديث الذي أخرجه أحمد والترمذي عن عمران بن حصين . أنه مر على قاصّ يقرأ ، ثم يسأل فاسترجع ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنَ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَلْيَسْأَلِ اللهَ بِهِ فَإِنَّهُ سَيَجِيءُ أَقْوَامٌ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ يَسْأَلُونَ بِهِ النَّاسَ » .

---

(١) رواه أبو داود والترمذي .

(٢) تطهير الجنان والأركان : ص ٣٦ . للشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي .

القرآن الكريم كلام الله ، وكلام الله صفة من صفاته ، فسؤال الله بقرآنه هو سؤال الله تعالى بكلامه نفسه ، أي سؤال الله بصفة من صفاته .

وأما توسل المؤمن إلى الله تعالى بأعماله الصالحة فذلك كثير في القرآن ؛ فمن ذلك مثلاً قوله تعالى : (رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ)[1] .

فهؤلاء جماعة المؤمنين ، يتوجهون إلى ربهم متوسلين إياه أن يغفر لهم ذنوبهم ويتجاوز عن سيئاتهم ، وأن يحشرهم في زمرة الأبرار ؛ بسبب إيمانهم برسوله محمدﷺ وتطبيقهم إياه واتباعه في دعوته . فقد جعلوا إيمانهم بالله ورسوله وسيلة يتوسلون بها إلى الله ؛ كي يغفر لهم ويرفع منزلتهم ، وحسبك بالإيمان أنه أهم الأعمال الصالحة عندهم .

ومن الأدلة الدالة على أن التوسل يكون بالأعمال الصالحة ، ما جاء في الحديث عن الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة ، فتوسل أحدهم ببر والديه ، والثاني توسل بعفته من الزنا ، والثالث بتنميته أجر الأجير بعد أن ذهب وترك أجرته ، ثم رجع بعد مدة طويلة وطلب أجرته فردها عليه ، فإذا هي مال كثير[2] .

فهؤلاء الثلاثة الذين أغلقت الصخرة باب الغار ـ الذي هم فيه ـ

---

(٤) سورة آل عمران : ١٩٣ .

(١) تطهير الجنان والأركان . للشيخ أحمد بن حجر آل بو طامي : ص ٤٢ .

لم يجدوا ما يتوسلون به إلى الله ، إلا ما قدموا من أعمال صالحة . وهذا يعني أن التوسل إلى الله يكون بالأعمال الصالحة .

وأما توسل العبد إلى الله تعالى بدعاء أخيه المؤمن له ، فقد دلت النصوص الشرعية عليه ، وهذا واضح في قوله تعالى : (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً)[1] .

يرشد تعالى العصاة والمذنبين - إذا وقع منهم الخطأ والعصيان - أن أن يأتوا إلى الرسول ﷺ فيستغفروا الله عنده ، ويسألوه أن يستغفر لهم ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم ورحمهم[2] . وهذا معناه أن استغفارهم ربهم ، ثم استغفار الرسول لهم ، يكونان سبباً في توبته تعالى عليهم ورحمته[3] . وهذا دليل على أن توسل العبد إلى الله تعالى بدعاء أخيه المؤمن له جائز ومشروع .

٢- التوسل البدعي

والقسم الثاني من أنواع التوسل هو التوسل البدعي :

والتوسل البدعي هو : كل دعاء إلى الله لا يتوسل فيه صاحبه بذات الله ، أو باسم من أسمائه ، أو بصفة من صفاته .

(١) سورة النساء : ٦٤ .

(٢) تفسير ابن كثير : جـ ١ . ص ٥١٩ .

(٣) التوصل إلى حقيقة التوسل : ص ١٣٥ . للشيخ محمد نسيب الرفاعي . وفقه الله ونفع به المسلمين .

وهذا النوع من التوسل غير المشروع واضح في كلام المتأخرين ؛ من النداءات والاستغاثات والتوسلات بالمشايخ والأولياء والضرائح مثل قولهم : اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك . وهذا الدعاءُ واضح البطلان ؛ إذ لا حق لأحد على الله تعالى ، حتى يتوسل به عند الله . ومثال ذلك أيضاً ما يخاطب به الأموات من كلمات كفرية مثل قولهم : على الله وعليك . ويهتفون بأسمائهم عند الشدائد ونحوها ، وكل قوم لهم رجل ينادونه ؛ فأهل العراق والهند يدعون عبد القادر الجيلاني ، وأهل التهائم لهم في كل بلد ميت ، يهتفون باسمه ويقولون : يا زيلعي ، يا ابن العجيل .

وأهل مكة وأهل الطائف : يا ابن العباس ، وأهل مصر : يا رفاعي يا بدوي ، والسادة البكرية ، وأهل الجيال : يا أبا طير ، وأهل اليمن : يا ابن علوان[1] .

وفي كل قرية أموات يهتفون بهم وينادونهم ، ويرجونهم بجلب الخير ودفع الضر ، وهو بعينه فعل المشركين في الأصنام[2] .

قال الرواس يستغيث بالرفاعي : كم له من مدد يحيي الرمم ! ! .

لو ندبناه على ميت عفا ! ! قام بالسر كظبي ربرب ! ![3]

(١) ونظير هذا ما يفعله أهل الأردن وفلسطين ، إذ يهتفون بأشياخهم وبالأولياء والأنبياء كقولهم : يا سيدي الخضر . ويا سعد الدين . ويا خليل الله . وما شابه ذلك .

(٢) الجامع الفريد : ص ٥٠٢ .

(٣) انظر التصوف بين الحق والخلق : ص ١٣٥ وما بعدها – حواشي .

ومن غرائب التوســل :

يا سيدي يا صفي الدين يا سندي يا عمدتي ، بل ويا ذخري ومفتخري
أنت الملاذ لمــا أخشى ضرورتــه وأنت لي ملجأٌ من حادث الدهر[1] .

ولعل بهذه الأمثلة والنماذج المستفيضة التي أوردناها من الكتاب والسنة ، ما يضيءُ السبيل ويوضح المنهج الذي يجب أن يلتزمه طالب الحــق ، الذي ارتضى لنفسه أن يكون عبداً لله .

وحسبنا في ما ذكرنا لمن وفق لفهمه كفاية . والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

الولي الورع في ميزان الشرع

قال ابن حجر : المراد بولي الله ؛ العالم بالله تعالى ، المواظب على طاعته ، المخلص في عبادته[2] .

وهذا التفسير للولي هو المناسب لمعنى الولي المضاف إلى الله سبحانه ، ويدل على ذلك قول الله تعالى : (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)[3] .

---

(١) انظر معارج الألباب : ص ١٧٢ ، ١٧٣ . للعلامة حسين بن مهدي النعمي رحمه الله توفي ١١٨٧ هـ . هذه بعض توسلات القبوريين الذين صَرفوا حق الله لغيره . هذه محادة لله سبحانه . فماذا أبقى هؤلاء المتوسلون – المشركون – لخالقهم من الأمر ؟ ! . ألا قاتل الله هؤلاء الذين يصرفون حق الله لغيره من المخلوقات ، فيقعون في الشرك الأكبر الذي بعث الله سبحانه وتعالى رسله وأنبياءه لتطهير الأرض من أدران الشرك ورواسب الوثنية .

(٢) فتح الباري : جـ ١٣ – ص ٢٩٣ . (٣) سورة يونس : ٦٢ .

فأولياءُ الله هم خلَّص عباده ، القائمون بطاعاته ، المخلصون له .

ومعنى الولاية لغة : اسم من الوَلْي ، والوَلْي هو القرب والدنو[1] .

والولاية مصدر . وولي الله : من والاه بالموافقة له في محبوباته ومرضياته ، وتقرب إليه بما أمر به من طاعاته[2] .

والولي : من الوَلاية - بفتح الواو - التي هي ضد العداوة ، وقيل بالفتح : النصرة وبالكسر الإمارة .

قال الزجّاج : وجاز الكسر ؛ لأن في تولي بعض القوم بعضاً جنساً من الصناعة والعمل ، وكل ما كان كذلك مكسور مثل : الخياطة ونحوها . فالمؤمنون أولياءُ الله ، والله تعالى وليهم[3] . قال الله تعالى : (اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَىٰ الظُّلُمَاتِ)[4] .

أفضل الأولياء

ورداً على تخرصات أدعياء الباطل - من الصوفية والمبتدعة - فإني أقدم لمحة وجيزة عن صفات أفضل الأولياء ، كما ورد ذلك في الكتاب والسنة .

---

(١) القاموس المحيط : جـ ٤ - ص ٤٠٤ .
(٢) مجموعة الرسائل .
(٣) شرح الطحاوية : ص ٤٠٣ .
(٤) سورة البقرة : ٢٥٧ .

إن أفضل الأولياء عند الله هم الأنبياءُ ، وأفضل الأنبياءِ هم المرسلون ، وأفضل الرسل هم أولو العزم ؛ نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأتم التسليم .

أما أفضل أولي العزم من رسل الله فهو نبينا محمدﷺ الذي أنزل عليه : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ)[1] .

فجعل الله سبحانه صدق محبته متوقف على اتباع رسوله خاتم الأنبياء ؛ وجعل اتباعه سبب حصول المحبة من الله سبحانه .

وقد ادعت اليهود والنصارى أنهم أبناءُ الله وأحباؤه وأولياؤه . قال تعالى : (قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)[2] . بل ادعوا أنه لا يدخل الجنة إلا من كان منهم[3] . (وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ،بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)[4] . وقال سبحانه (وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً)[5] . وقوله : (يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا)[6] . وفي الحديث : « إِنَّ آلَ أَبِي فُلَانٍ لَيْسُوا لِي

(١) سورة آل عمران : ٣١ .
(٢) سورة المائدة : ١٨ .
(٣) الفرقان : ص ٢٧ لابن تيمية .
(٤) سورة البقرة : ١١١ ، ١١٢ .
(٥) سورة النساء : ١١٩ .
(٦) سورة مريم : ٤٥ .

بِأَوْلِيَاءَ ، إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ »[1] . وهو كقول الله : (وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ)[2] .

وأولياءُ الله تعالى على نوعين : مقربون ، وأصحاب يمين .

وقد ذكر النبي ﷺ عمَل القسمين في حديث الأولياء فقال : « يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ : مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيّاً فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا »[3] .

وأما السابقون المقربون فتقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض ، ففعلوا الواجبات والمستحبات ، وتركوا المحرمات والمكروهات ، فلما تقربوا إليه بجميع ما يقدرون عليه من محبوباته أحبهم الرب حباً تاماً ، كما قال تعالى : « وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ »[4] .

فهؤلاء المقربون صارت المباحات في حقهم طاعات ، يتقربون بها إلى الله عز وجل ؛ فكانت أعمالهم كلها عبادات لله ، فشربوا صرفاً كما عملوا له صرفاً . والمقتصدون كان في أعمالهم ما فعلوه لنفوسهم ؛ فلا يعاقبون

---

(١) رواه الشيخان وغيرهما .

(٢) سورة التحريم : ٤ . وصالح المؤمنين : هو من كان صالحاً من المؤمنين ؛ وهم المتقون أولياء الله . ومنهم الخلفاء الراشدون ، وكل من بايع الرسول بيعة الرضوان تحت الشجرة .

(٣) رواه البخاري في صحيحه وليس فيه لفظ المبارزة وإنما هو من رواية الطبراني .

(٤) حديث قدسي رواه البخاري .

عليه ولا يثابون عليه ، فلم يشربوا صرفاً ، بل مزج لهم من شراب المقربين بحسب ما مزجوه في الدنيا ...[1] .

فأولياءُ الله هم الذين عرفوا دين الله ، فتولوه بالنصر والتأييد فبلغوه للناس بأمانة وحق ـ كما أمر الله سبحانه ـ فلم يكتموا من أمره شيئاً ـ نفاقاً أو مجاراة أو خوفاً من لومة لائم ـ مهما أصابهم في سبيل ذلك من إساءة وأذى ، باعتقادهم أن ما يصيبهم في سبيل الله هو في الحقيقة اختبار لهم وتمحيص لإيمانهم . وهم الذين كفروا بدين الشيوخ وما عليه أكثر الناس ، ولم يربطوا عقائدهم بما عليه الأهل والعشيرة ؛ من البدع والعادات الموروثة والخرافات المنكرة ؛ من تقليد وجهل .

وأولياءُ الله هم الذين أحبوا الله فأفردوه بالعبادة الخالصة وأحسنوا التوكل عليه واتخذوه ولياً لهم ونصيراً ، كما يقول الحق سبحانه : (ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ)[2] .

والمؤمنون هم الذين يتخذون بعضهم أولياء بعض ، وولايتهم لبعض هي أن يناصر بعضهم بعضاً في سبيل إحياء دين الله ، وإظهار الحق وإعلاء كلمته ، والدفاع عن عقيدة التوحيد ومحاربة الشرك ، ومقاومة البدع والضلالات المنتشرة في الناس باسم الدين ، وهؤلاء أيضاً يعاونون بعضهم في ما يعود بالنفع العام ، والخير في أمور الدنيا ، وأن يكون حبهم لله وحده .

هذه هي ولاية المؤمن كما يحبها الله (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ

(١) انظر كتاب الفرقان : ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) سورة البقرة : ٢٥٧ .

وَٱلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ)[1] .
وقوله تعالى : (وَٱلْمُومِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ)[2] .

ميزان الولاية

وللولاية ميزان عادل ، إذ هي من الألفاظ الشرعية ، فمحلها ما وضعها الشرع فيه . وما وصل إليه شعورنا فهو غايتنا لا ما وراءه .

فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه من حديث أبي بكرة مرفوعاً : « مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَادِحاً أَخَاهُ لَا مَحَالَةَ فَلْيَقُلْ : أَحْسَبُ فُلَاناً . وَاللهُ حَسِيبُهُ . وَلَا أُزَكِّي عَلَىٰ اللهِ أَحَداً . أَحْسَبُهُ كَذَا وَكَذَا ، إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذٰلِكَ مِنْهُ » . أ . هـ . فتأمله .

فهذا كلام من لابد من النظر في كلامه ، والمسير بسيرته ، ولا ينفعك من دونه ولي ولا واق .

وقد رد الرسول العظيم على من يزكون غيرهم بغير علم ، منكراً عليهم ذلك حين قال : « وَاللهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللهِ ، لَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي غَداً » . رواه البخاري . وهذه لفتة نبوية ، وحكمة لا يجوز إهمالها ، لذلك لا يجوز القول بغير علم ، بل يترك ذلك لأمر الله .

وأخرج الإمام أبو عيسى الترمذي في جامعه ، من حديث أنس بن

(١) سورة المائدة : ٥٥ .
(٢) سورة التوبة : ٧١ . انظر مصرع الشرك والخرافة ص . ٥٣٤ ـ ٥٣٦ .

مالك رضي الله عنه قال : توفي رجل فقال رجل آخر - ورسول الله ﷺ يسمع : أبشر بالجنة . فقال رسول الله ﷺ : « أَوَ لَا تَدْرِي؟ ! . فَلَعَلَّهُ تَكَلَّمَ فِيمَا لَا يُعْنِيهِ أَوْ بَخِلَ بِمَا لَا يَنْقُصُهُ »[1] .

ومما يحسن ذكره في هذا المقام ما ذكره الشيخ أبو محمد بن عبد السلام المصري في قواعد الأحكام ولفظه : وقد تكون الكرامات سبباً في الافتتان ، وأن يظن بصاحبها أنه من أولياء الرحمن ؛ ولذلك تخرق العادات لمن لا دين له ؛ كالدجال وكثير من الرهبان ، وكذلك تخرق العادات للفجار والفساق . أ . هـ[2] .

وقال فيه أيضاً ما لفظه : والشرع ميزان ؛ فمن رجح عن ميزان الشرع فأُولئك أهل الخسران ، فإذا رأيت إنساناً يطير في الهواء ، أو يمشي على الماء ، أو يخبر عن المغيبات ، ثم يخالف الشرع بارتكاب المحرمات - بغير سبب شرعي محلل - وترك الواجبات - بغير سبب شرعي مجوِّز - فاعلم أنه شيطان نصب نفسه فتنة للجهلة ، وليس ذلك ببعيد من الأسباب التي نصبها الله للضلال . فإن الدجال يحيي ويميت ؛ فتنة لأهل الضلال . ولذلك يأتي الخربة فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل . وكذلك يظهر للناس أن معه جنة وناراً ، وناره جنة وجنته نار . وكذلك من يأكل الحيات ويدخل النيران فإنه مرتكب للحرام بأكل الحيات ، وفاتن للناس بدخول النيران ليقتدوا به في ضلالته ، ويتابعوه على جهالته . أ . هـ . بلفظه[3] .

---

(١) قال المنذري : رجاله ثقات . الترغيب والترهيب .

(٢) معارج الألباب : ص ١٤٤ ، ١٤٥ .

(٣) المصدر السابق نفسه .

وإنما ذكرته لتعرف أن ما يعتقده الجهلاءُ من ولاية من ظهر منه شيءٌ من هذا القبيل – وليس من الواردين لمعين الشرع – فهو من جملة جزافهم وتخريفهم ؛ لقيام الأدلة ووضوح شموسها والأهلة مما ذكرنا ، ولا عبرة بمجرد ظهور خارق ، وبروز ما يسميه – من لا علم عنده – كرامة توجب الحكم بالولاية لمن قامت به ، وكذا استجابة دعوة أو دعوات .

واعلم يا أخي – يرحمك الله – أن المعيار الذي تعرف به صحة ولاية الولي ، هو أن يكون ملتزماً بكتاب الله سبحانه وبسنة رسوله ، مؤثراً لهما على كل شيء ، مقدماً لهما في إصداره وإيراده وفي كل شؤونه ، فإذا زاغ عنهما زاغت عنه الولاية :(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً)[1] .

فإذا عرفت أنه لابد للولي من أن يكون مقتدياً في أقواله وأفعاله بالكتاب والسنة ، وأن ذلك هو المعيار الذي يعرف به الحق من الباطل ، لذا وجب رد كل ما يخالف هذا المعيار وعدم الالتزام به . كما لا يجوز لأحد أن يعتقد في ذلك الولي بولايته ، فإن أمثال هذه الأمور تكون من أفعال الشياطين ، كما نشاهده في الذين لهم تابع من الجن ؛ فإنه قد يظهر على يده ما يظن أنه كرامة ، وهو في الحقيقة مخاريق شيطانية .

---

(١) سورة النساء : ٦٥ .

أَولياءُ الشيطان

بين الله سبحانه في كتابه وسنة رسوله أن له أولياء من الناس ، كما أن للشيطان أولياء . وقد فرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان المردة ، الذين لم يقبلوا لأنفسهم أن يكونوا عبيداً لله ، بل تجدهم قد تمردوا على أمره سبحانه وتعالى ، فحادّوا الله ورسوله وكانوا قوماً بوراً .

وقد مر معنا أن أولياء الله هم الأتقياءُ الذين ينقادون لأمره ، ويتبعون تعاليم شرعه . قال تعالى : (اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَىٰ الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)[1] .

وفي حق أولياء الشيطان نقرأ قوله تعالى : (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَىٰ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَىٰ الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ)[2] . وقوله : (وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً)[3] . (إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ)[4] .

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٧ .
(٢) سورة النحل : ٩٨ – ١٠٠ .
(٣) سورة النساء : ١١٩ .
(٤) سورة الأعراف : ٣٠ .

بعض علامات أولياءِ الشيطان

ومن علامات أولياء الشيطان التي يجب أن يعرفها المسلم ، لئلا يشتبه عليه الأمر ، وتلتبس عليه الحقيقة ، فهذه بعضها كما بينها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : فإذا كان الشخص مباشراً للنجاسات والخبائث التي يحبها الشيطان ، أو يأوي إلى الحمامات والحشوش ، التي تحضرها الشياطين ، أو يأكل الحيات والعقارب والزنابير وآذان الكلاب التي هي خبائث وفواسق ، أو يشرب البول ونحوه من النجاسات التي يحبها الشيطان ، أو يدعو غير الله ؛ فيستغيث بالمخلوقات ويتوجه إليها ، أو يسجد إلى ناحية شيخه ، ولا يخلص الدين لرب العالمين ، أو يلابس الكلاب أو النيران،أو يأوي إلى المزابل والمواضع النجسة ، أو يأوي إلى المقابر ـ ولا سيما مقابر الكفار من اليهود والنصارى أو المشركين ـ أو يكره سماع القرآن وينفر عنه ، ويقدم عليه سماع الأغاني والأشعار ، ويؤثر سماع مزامير الشيطان على سماع كلام الرحمن ، فهذه علامات أولياء الشيطان لا علامات أولياء الرحمن .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن ، فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله ، وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله ورسوله .

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه : لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله عز وجل . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : الذكر ينبت الإيمان

في القلب كما ينبت الماءُ البقل ، والغناءُ ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماءُ البقل[1] .

ومن الجدير بالذكر أن ولي الله هو من أدى فرائضه والتزم بآداب دينه ، وعلى هذا فمن أظهر الولاية وهو لا يؤدي الفرائض ولا يجتنب المحارم ، بل قد يأتي بما يناقض ذلك ، لم يكن لأحد أن يقول : هذا ولي لله . فإن هذا إن لم يكن مجنوناً ، بل كان متولياً من غير جنون ، أو كان يغيب عقله بالجنون تارة ويفيق أخرى ، وهو لا يقوم بالفرائض ؛ بل يعتقد أنه لا يجب عليه اتباع الرسول ﷺ فهو كافر . وإن كان مجنوناً باطناً وظاهراً فقد ارتفع عنه القلم . فهذا وإن لم يكن معاقباً عقوبة الكافرين ، فليس هو مستحقاً لما يستحقه أهل الإيمان والتقوى من كرامة الله عز وجل ، فلا يجوز على التقديرين أن يعتقد فيه أحد أنه ولي الله ، ولكن إن كان له حالة في إفاقته ؛ كان فيها مؤمناً بالله متقياً ، كان له من ولاية الله بحسب ذلك ، وإن كان له حال في إفاقته فيه كفر أو نفاق ، أو كان كافراً أو منافقاً ثم طرأ عليه الجنون ، فهذا فيه من الكفر والنفاق ما يعاقب عليه ، وجنونه لا يحبط عنه ما يحصل منه حال إفاقته من كفر أو نفاق . أ . هـ[2] .

ويكشف لنا الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله ، جوانب هامة من حياة أولياء الخيال الدجاجلة ، فيقول تحت عنوان : أولياءُ الخيال وأولياءُ الطاغوت والشيطان :

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان : ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٢) انظر كتاب الفرقان : ص ٤٠ ، ٤١ .

فأولياءُ الله ـ الذين يشهد لهم كتابه بالولاية له ـ هم المؤمنون الصالحون المتقون ، ولكن اشتهر بين المسلمين ـ بعد عهد السلف ـ ما يدل على أن الأولياء عالم خيالي غير معقول ، لهم من الخصائص في عالم الغيب والتصرف في أنبياء الله المرسلين ، بل فوق كل ما وصف به جميع الوثنيين آلهتهم وأربابهم التي اتخذوها من دون الله .

وينقلون مثل هذه الدعاوى عن بعض من اشتهروا بالولاية ، ممن لهم ذكر في التاريخ ومن لا ذكر لهم إلا في كتب الأولياء[1] ، الذين فُتِنَ المسلمون والمسلمات بهم ؛ ممن يسمون بالمتصوفة وأهل الطريقة ، ينقلون عنهم ما يؤيدون به مزاعمهم الخرافية الشركية .

ولئن أنكر عليهم منكر ليقولن : هذا ضال مضل ، منكر للكرامات ، مخالف للقرآن . وقرؤوا عليه : (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)[2] .

هذه الولاية الخيالية المبتدعة من محدثات الصوفية ، ألبسوها ثوب الشريعة ، وجعلوا للشريعة مقابلاً سموه الحقيقة[3] . أ . هـ .

---

(١) مثل الأقطاب الأربعة المتداركة . أو مثل الدسوقي ، الرفاعي ، البدوي ، الشعراني .

(٢) سورة يونس : ٦٢ .

(٣) بتصرف عن تفسير المنار للشيخ رشيد رضا رحمه الله .
فالصوفية مولعة دائماً بقلب الحقائق وتشويهها ؛ فتراهم يأخذون بمقولات الباطنية الخبيثة التي تهدف لهدم الدين . ومن هذه الضلالات علم الحقيقة الذي يعتقدون به ويضعونه في منزلة أعلى من الشريعة ، كما يقولون بعلم الباطن ، وهكذا يلتقون مع الباطنية الهدامة لإفساد الدين وتقويض دعائمه .

وحول خصائص الولاية وخاتم الأولياء فإني أضع بين يدي القارىء الكريم ما ذكره ابن عربي الذي يقول[1] : واعلم أن الولاية هي الفلك المحيط العام ولهذا لم تنقطع . وأما النبوة والتشريع والرسالة فمنقطعة . والرسول من حيث هو وليٌّ أتم من حيث هو نبي ورسول ، فمرجع الرسول والنبي إلى الولاية والعلم .

ثم يقول عن الحقيقة : ما يراه أحد من الأولياء إلا من مشكاة الولي الخاتم ، حتى إن الرسل لا يرونه ـ متى رأوه ـ إلا من مشكاة النبوة . ثم يقول عن الخاتم : وخاتم الأولياء الولي الوارث ، الآخذ عن الأصل ، المشاهد للمراتب[2] .

ولعله من الواضح أن فكرة خاتم الأولياء هذه فكرة باطنية ، قصد بها الموازاة بين الشرع الظاهر والشرع الباطن ، وليست من الإسلام في شيء. هذا ما يرويه ابن عربي من أن الله قد أكرم محمداً ﷺ فجعل من أمته رسلاً بعده ـ يقصد بهم الأولياء ـ وأن خاتم الأولياءهذا ليس في هؤلاء الرسل من هو أرقى منه ، وهو إن لم يكن علوياً في النسب فهو علوي في المشهد والولاية ، ومقامه فوق مقام الصديق لأنه أخذ نوره من مشكاة النبوة بالوراثة الروحية ، وهي أكبر من مشكاة الصديقية[3] .

---

(١) فصوص الحكم : ص ١٣٤ ، نقلاً عن مصرع التصوف : ص ١٧٣ للبقاعي .

(٢) لقد ألف الحكيم الترمذي كتاباً سماه ختم الولاية زعم فيه أن خاتم الأولياء يكون في خاتم الزمان ، وأنه أفضل ممن تقدمه من الأولياء ومن الشيخين ، وهذا منكر .

(٣) عنقاء مغرب : ص ١٨ ، ١٩ . نقلاً عن ولاية الله والطريق إليها .

وفكرة خاتم الأولياء فكرة باطلة لم يرد بها شرع ولا يوافق عليها عقل ، وهي من اختراع الحكيم الترمذي ، ثم صار يقول بها ويدعيها لنفسه كل من تسول له نفسه الطعن على الأنبياء ، أو إبطال الشريعة الإسلامية ، من أتباع الباطنية الغنوصية .

ومن المعلوم أن العصمة ليست إلا من حق الأنبياء ، وأما ما يزعم به الشيعة والصوفية والرافضة وأمثالهم ؛ من أن العصمة حق للأولياء ، فهذا قول باطل ومردود ومخالف للكتاب والسنة .

يقول الشوكاني : وعصمة علي وحجية قوله ذهب إلى القول بهما جماعة من أهل البيت ، وذهب جماعة منهم ـ وسائر المسلمين أجمعين ـ إلى أن المعصوم إنما هو رسول الله ﷺ على الخصوص ، والحجة إنما هي ما جاء عن الله وعنه[1] .

(١) انظر كتاب الفرقان : ص ٨٤ ، ٨٥ . وعقود الزبرجد للشوكاني ، عن كتاب ولاية الله : ص : ١٩٧ .

العلم اللدني

إن الشرع الإسلامي الحنيف لم يضف شيئاً اسمه العلم اللدني إلى أولياءِ الله سبحانه وتعالى ، إلا أننا مع الأسف نجد من يقول بمثل هذه المزاعم ، ويتمسك بها وكأنها وحي من عند الله ، مع أنها تخالف ميزان شرعه الحكيم .

لقد أضاف الشيعة والصوفية وأشباههم ـ من المدرسة الباطنية ـ صفة العلم اللدني إلى مفهوم الولاية ؛ وهو العلم الذي أخذه علي ابن أبي طالب عن الرسول ﷺ ـ كما يزعمون ـ ثم ورَّثه لهم الإمام علي كرم الله وجهه . كما أنهم يرجعون هذا أيضاً إلى فكرة الوصاية التي قالوا بها ، وإلى المؤاخاة التي عقدها الرسول ﷺ بينه وبين علي رضي الله عنه ، وإلى الحديث الذي وضعوه وهو : أنا مدينة العلم وعلي بابها ، فمن أراد العلم فليأْت الباب[1] .

وبهذا فقد نسب إليه المتصوفة علم الباطن ، وخصوه بأنه تلقى أسرار التأْويل عن النبي ﷺ . فجلّ المتصوفة في البلاد الإسلامية يكادون يجمعون على أنهم يقتبسون طريقتهم من الإمام علي كرم الله وجهه ، بل يصرحون أنهم أخذوا عنه الحكمة ـ كما يقول ابن أبي الحديد ـ ولهذا نجد المباحث الدقيقة في التوحيد والعدل مبثوثة عنه في فرش

(١) راجع الصلة بين التشيع والتصوف : ج ٢ ص ٢٢ . وقد أورد الإمام الشوكاني هذا الحديث في الموضوعات من كتابه الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة : ص ٣٤٨ .

كلامه وخطبه ، ولا نجد في كلام أحد من الصحابة والتابعين كلمة واحدة من ذلك . وإذن فليس بعجيب أن نجد بعض العناصر الشيعية في التصوف[1] .... وفي هذا ما يلقي ضوءًا على ذلك التزاوج الذي نراه بين التشيع والتصوف ، والذي يتمثل في تصوير أولياء الصوفية بصورة ولي الله علي بن أبي طالب ، وإسناد ما يقال في أئمة الشيعة إلى أولياء الصوفية[2] . ومن ذلك وصف التستري المتوفى سنة ٢٨٣ هـ. للأولياء بأنهم : لا يزالون ينقلون من حال إلى حال ، ومن علم إلى علم ؛ فهم أبداً في المزيد من العلم فيما بينهم وبين ربهم[3] . أ. هـ. وصفة العلم اللدني هذه ، واختصاص علي رضي الله عنه بالتأويل هو والأئمة من بعده[4] كما اختص محمد ﷺ بالتنزيل - حسبما يدَّعون - جعلتهم يسندون إلى الأئمة والأولياء صفة العصمة ، وربما جعلتهم يزيدون فيها على الرسول ﷺ .

ويحتجون لذلك بأن الرسول ﷺ معه الوحي ينبِّهه فلا يقع في خطأٍ ، أما الإمام فليس معه الوحي ، فهو معرَّض للخطأ في إيصال العلم اللدني أو التأويل الباطني إذا لم يكن معصوماً[5] .

---

(١) انظر ولاية الله والطريق إليها : ص ٧٢ .

(٢) دراسات في الفلسفة الإسلامية : ص ١٢٨ ، ١٢٩ . وولاية الله والطريق إليها .

(٣) الصلة بين التصوف والتشيع . وتفسير ابن كثير : جـ ١ - ص ٤٦ .

(٤) الصلة بين التصوف والتشيع جـ ١ ص . ٧٦ ، ١٢٤ وغيرها .

(٥) منهاج السنة لابن تيمية : ص ٢٢٦ . والصلة بين التصوف والتشيع : جـ ١ ص ١٤٦ .

وقد بدأت هذه الفكرة من هشام بن الحكم[1] ـ أحد تلاميذ الإمام جعفر الصادق ـ وأنصاره ـ بعد وفاة الصادق ـ ولزمت التشيع ولم تنفصل عنه بل تأكدت ، وتبجح بإعلانها معتنقوها بعد ذلك ، ولا تزال موجودة إلى اليوم .

وهكذا فالعلم اللدني هو من اختراع الطرائق المعوجة ، وأتباع المدارس الباطنية التي تتستَّر بهذه المزاعم والتأويلات ، لتجعل لها مكانة ومنزلة رفيعة في نفوس الناس ، ولتحظى بالتقديس والإكبار من الأتباع السذج وأشباههم ، وهذا من تلبيس إبليس لم يأذن به الله سبحانه . لذا كان حرياً بأتباع الإسلام وكل غيور عليه الحذر من أمثال هؤلاء الدجاجلة ، الذين يتقنعون بالأقنعة الخبيثة ، ويموهون على بسطاء المسلمين بالسوء والضلال . هؤلاء القوم الذين عزفوا عن كلام الله خالقهم ، وعن سنة رسول الله ﷺ الذي أرسله تعالى مرشداً وهادياً ، فهو الملهم والمؤيد بوحي الله عز وجل . وقد تمسكوا بكلام زعموا أنه حق مؤيد من قبل الله جاء به الصادق محمد رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى ، وجملة مزاعمهم هذه أقوال وأحاديث مفتراة ، ومنسوبة إلى الرسول ﷺ زوراً وبهتاناً ، لم يروها أحد من العلماء المعتبرين ، ولا يوجد منها شيءٌ صحيح في كتب الحديث المعتبرة . فلا حول ولا قوة إلا بالله .

---

(١) وهشام هذا ، أحد الشيعة المتكلمين توفي سنة ١٩٩ هـ .

تشويه التاريخ

تعرضت أُمتنا الإسلامية لحروب كثيرة ، كما وجهت إليها طعنات مميتة ـ وفي حقب متتالية ـ على أيدي أعدائها المتربصين بها ـ سراً وعلانية ـ وقد كانت محاربة القيم وطمس معالم التاريخ واحدة منها .

لقد كان هدف قادة هذه الحروب القضاء على الإسلام ؛ بوضع مخطط الدس والتشويه على تاريخه وحضـارته المجيدة الزاهرة

إن أساليب الحرب التي واجهها التاريخ الإسلامي من أعدائه ، ليست وليدة هذا القرن ، بل هي مبكرة منذ وجد الإسلام وتاريخه ، وهم لم يحاولوا فقط التلفيق عليه أو الدس فيه أو رميه بالسهام ، بل حاولوا أيضاً توجيه بعض أحداثه وإثارة الخلاف بين المسلمين ، وفي العصر الحـاضر بالذات .

وفي الوقت نفسه الذي كانوا يعملون فيه على التهوين من شأن التاريخ الإسلامي ـ كبديل لذلك ـ حاولوا ـ وهم دائبون ـ أن يعملوا على تعظيم غيره من التواريخ ؛ ما كان منها سابقاً للإسلام ، أو تواريخ الأُمم الأُخرى التي تلت ظهوره . ومن هنا جاء الاهتمام بتاريخ الأُمم الغالبة الأُوروبية ؛ فدرس لنا بتفصيل كثير يفوق أحياناً التفصيل الذي يتعلق بتاريخنا الإسلامي ، بل وعلى حسابه ، حتى غدا كثير منا يعرف عن تاريخهم ورجالهم ونهضاتهم أكثر مما يعرف عن تاريخنا الإسلامي .

وتدريس تاريخ الغرب والاهتمام به ، كان الهدف منه النظر إليه نظرة الاقتداء أو الإجلال والتقدير ، الأمر الذي ربما يخلو منه ما ندرس من تاريخنـــا .

ومن هنا كان إعجابنا بغيرنا ، من دول الشرق والغرب كبيراً . وهؤلاء الذين وجهوا السهام إلى تاريخنا وتراثنا ، تؤخذ أقوالهم أحياناً من غير مناقشة ، مقابل جهلنا بتاريخنا واعتدادنا بتاريخهم ، فكان ما لديهم هو المثل الأعلى لنا ؛ أحلوا مثلهم في نفوسنا ، وبذلوا الجهود المختلفة للحد من تعلقنا بتراثنا . وكان كل همهم أن نتحلل من اتجاهنا ، ونقطع العلاقة بيننا وبين تاريخنا ، واتبعوا لذلك كل الوسائل متعاونة ، حتى التنصير والتطبيب والتعليم[1] .

إن أعداء الإسلام يقصدون هدم الإسلام ، فسلكوا لذلك كل الوسائل مهما كانت مجافية لروح العلم وقواعد الخلق . والعلمية عندهم هنا ما يخدم الغرض .

وحين يأتي الأمر إلى الإسلام ـ أو يكون موضوع البحث ـ فالأسلوب العلمي ـ حين ذاك ـ هو الطعن . وهكذا فقد أصيب الإسلام بنكبات مؤثرة ألحقت به الأذى ، وأوجبت له علينا خدمة كبيرة .

وأعداؤنا في هذا الموقع ، منهم محليون ومنهم خارجيون ؛ فالمحليون هم من المحسوبين على أمتنا وتاريخنا ، وأما الخارجيون فهم المستشرقون

(١) التبشير والاستعمار : ص ٣٥ ، ٥٩ ، ٦٣ .

ومن كان على شاكلتهم . وكان الهدف هو القضاءُ على الإسلام ؛ بانتزاعه أو زعزعته ، نتيجة الأحقاد الدفينة والأطماع ، وذلك بوسائل متنوعة صوبت نحو حصون أُمة الإسلام ، لزرع إسفين التدمير والتخريب ؛ للقضاء على العقيدة والتاريخ والحضارة . ومما لا شك فيه أن هذه الحركات والتيارات المناوئة كانت مختلفة ومتباينة خلال التاريخ الطويل ، وإن هذه المحاولات قديمة قدم التاريخ . وما نشاهده في هذا العصر هو امتداد له ، وحلقة في هذا الصراع بين الحق والباطل ، وإن اختلفت السبل والوسائل .

والله تعالى يقول : ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[1].

أما الاستشراق الماكر فهو وليد التنصير ، وإن تلبس هيئة البحث والعلم ، كما تلبس التنصير هيئة الرحمة وتظاهر بالعطف على الناس ، وادعى الإنقاذ ونشر المعرفة ، وكذلك ـ لهذا السبب ـ تراهم سيطروا ـ في كثير من بلداننا الإسلامية ـ العربية منها وغير العربية ـ على التعليم .

فكان رجالهم ـ أيام الاحتلال ـ يشرفون عليه ويخططون له ، وبعد انتهاء الاحتلال السياسي كان وكلاؤهم الأُمناءُ من أهل البلاد يؤدون تلك المهمة خير أداء ، وهم من ورائهم يوجهونهم ويخططون لهم . لذلك فهم في بعض البلدان يفرضون رجالاً معينين في مناصب معينة ، كان من أهمها التعليم والإعلام .

ومن هنا ضعفت هذه الأُمة وقلت معرفتها بتعاليم دينها وتاريخها ،

(١) سورة الأنبياء : ١٨ .

ووضعت الثقة والتعظيم في أولئك الغالبين الذين تفوقوا في القوة والإنتاج المـادي .

ومن هنا قد نرى أن أي اتجاه ـ مهما كان مخلاً ـ أو أية فلسفة ـ فكرة أو تهمة ـ مهما حملت من الخشونة ، قد تجد لها في جسم هذه الأُمة وفي عقلها مكاناً أي مكان . بعد أن ضعفت مقاومتها ، وقلت أو كادت تزول مناعتها ، التي كان إيمانها بدينها وتاريخها مصدراً لها . ونراهم أيضاً قد زاد اهتمامهم بكل شيء إلَّا الإسلام وتاريخه ، بل ربما يكون الاهتمام بحربه وتشويهه . وكذلك كان لإثارتهم النعرات القديمة والقوميات الضيقة أثره البالغ لدى كثير من الدول الإسلامية ؛ حيث برزت الدعوات الهدامة ؛ كالقومية أو الوطنية أو الكسروية أو الفرعونية والفينيقية وغيرها ، كما أنشؤوا الدراسات والمعاهد والمتاحف التي تهتم بمثل هذه الأُمور .

لقد تعرض تاريخ الإسلام لمطاعن مختلفة ، منها ما كان على أيدي أعـداء تقـليديين ، كالمستشرقين وغيرهم من رجال الغرب ، ومنها ما كان على أيدي أعداء محليين ؛ متسترين بالانتماء للعروبة وغيرها ، ومن بين هؤلاء الدكتور فيليب حتي ـ وهو مستشار غير رسمي لوزارة الخارجية الأمريكية في شؤون الشرق الأوسط ، وإن تظاهر بالدفاع عن القضايا العربية في أمريكا ـ إلا أنه على ما يتضح يعتبر الإسلام رجعية ويحاول الانتقاص منه . ومن جهة أخرى فقد دس وشوَّه كثيراً ، بل

وطعن في تاريخ الإسلام والعرب وحط من منزلتهم ، كما يظهر ذلك جلياً في كتبه التي وضعها ، وفي مؤلفاته التاريخية[1] .

والحقيقة أن كثيراً من المستشرقين ينظرون إلى الإسلام بمثل هذه النظرة ، وبعضهم أيضاً يعتبرونه العقيدة الوحيدة التي تخيفهم وتواجههم كسد منيع أمام ما يريدون . وهم في كل جهودهم يحاولون تفتيته أو تمييعه . ويعبر عن هذا المعنى المستشرق الفرنسي ماسنيون في أكثر من موقف يروى عنه .

ولقد كان يعمل مع الجيش الفرنسي في لبنان ، في المكتب الثاني ـ المخابرات ـ برتبة نقيب . ومن مآثره ما يروى أنه هو الذي أشرف على الاستفتاء في لبنان ـ بعد الحرب العالمية الأُولى ، أيام الاحتلال الفرنسي ـ فزور هذا الاستفتاء ؛ حيث كان يوزع الليرات الذهبية لشراء التأْييد لما يريد . وما علمنا أنه تغير بل إن مواقفه من الإسلام والمسلمين لتنم عن الحقد والكراهية ، فكيف يمكن أن يوثق بمثل هذا الرجل وفي كتاباته ، أو يوضع هو وأمثاله في عداد الثقات أصحاب التصانيف العلمية ؟ . أم هو التقليد غير المميز والتسليم للغالب ؟ ! ![2] .

إن أسلافنا الصالحين ، الذين دونوا تراثنا التاريخي وغيره ، مهما ذكر عنهم من مآخذ ـ قد تكون غير أساسية أصلاً ـ فهم عامة أصحاب الدقة والأُسلوب الموضوعي والأَمانة العلمية . وإن ذلك كان جزءًا من

(٢) الاستشراق والمستشرقون ، ما لهم وما عليهم : ص ٥٣ . لمصطفى السباعي .
(٣) نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي : ص ٥٢ .

عقيدتهم ، التي أحبوها وعاشوا لها وفي ضوئها . وعلى الأقل فهم أعطونا عموماً جميع المواد الخام الموثوق بها ، إلى جانب الروايات الأُخرى الضعيفة – ربما مجرد روايتها ولعل ضعفها كان معروفاً – . وبالإمكان تصفية ما تعكر بها . وليس مطلباً كبيراً أن تبقى علينا تصفية هذه الروايات ، ثم بناءُ الشيء الكامل الذي ننشده في وضع التصانيف بالطريقة العصرية والأُسلوب الحديث الذي نريد . لقد بذل هذا السلف الصالح غاية الجهد ؛ في جمع التراث والمحافظة عليه وتنقيته ، ورد كافة المحاولات التي بذلت في التشويه وطمس معالم الحقيقة بطغيان الباطل عليها [1] .

والواقع أن القصص في هذا المجال كثيرة ، وكلها تشير وتدل على مقدار التدقيق عند علماء الإسلام في الرواية ، والمشقة والتشديد إلى أبعد الحدود في تحري الصواب ، والبحث عن الحقيقة ، وسد كافة النوافذ مهما صغرت ، والتي يمكن أن يخالطها شيءٌ من الخطل أو الباطل .

إن الحرب التي تشن ضد التاريخ الإسلامي لم تتوقف حتى هذه اللحظة ، وإن كانت قد خفت أو ظهرت بأثواب جديدة عصرية متطورة ؛ حتى أطلقت على الإسلام تعابير ووصفته بأوصاف ليست له ، ومن ناحية أُخرى فقد شوه تاريخنا من جراء الدس والافتراء ، الذي تعرض له على أيدي المؤرخين ، الذين غيروا الحقيقة وافتروا على الله وعلى رسوله وكتابه .

(١) انظر مقـــدمة ابن خـــلدون .

وكما هو معروف إذا درس التاريخ بشكل أصيل واقعي علمي ، متحر للصواب وللمعاني التي وراء هذا التاريخ ، يكون عاملاً في بعث إسلامي يسعى لإقامة وجوده ، حاملاً راية الخير ومشعل النور ، الذي ينير درب السالكين ، وذلك ما يخافه الأعداء وترتعد منه الفرائص .

إن أبناء أمة الإسلام لتجهل الكثير من سيرة أسلافها وقادتها الأمجاد؛ لأن الأعداء المدسوسين قد سلطوا على تاريخ هذه الأمة أضواء معتمة ، وتجنّوا على الحقيقة ، وشوهوا سمعة الأبطال. وجعلوا منهم نماذج للانحراف والخيانة .

ومن القادة الذين لم ينصفهم التاريخ المعاصر إلا نادراً ، وتعرض تاريخهم الحافل بالكرامة والإباء والسؤدد ، إلى مطاعن وافتراءات واهية ، لا يسعفها دليل أو حجة ، الخليفة المجاهد الذي سأضعه بين يدي القارىء مثالاً حياً لأعلام أمتنا الخالدين ، وهو عظيم من عظمائها الذين يجب ألا يهملهم التاريخ الخالد . وهذا الأنموذج لهؤلاء العظماء هو السلطان عبد الحميد[1] رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه .

(١) أفردت ترجمة خاصة لحياة السلطان عبد الحميد في كتابي أعلام الإسلام ، الذي أرجو أن يرى النور قريباً . والله المستعان . إنه نعم المولى ونعم النصير .

السلطان عبد الحميد

المفترى عليه

تسلم السلطان عبد الحميد الحكم سنة ١٨٧٦ م . بعد عزل خليفتين هما عبد العزيز ، ومراد الخامس على يد مدحت باشا ـ اليهودي الماسوني ـ الذي عمل على تنصيب الخليفة عبد الحميد بدلاً من أخيه مراد الخامس.

وعندما تسلم السلطان عبد الحميد الحكم وجد أن مدحت باشا ورفاقه ـ من يهود الدونمة ـ قد دبروا خضوع الخلافة والدولة العثمانية إلى حكومات أوروبة بحجة الإصلاح وحماية الرعايا من غير المسلمين .

ولما كان السلطان عبد الحميد حراً أبياً ، فقد امتنع عن مجاراة مدحت في استخذائه للغرب ، المستعمر الطامع في الدولة الإسلامية العظيمة .

ولم يطق السلطان أن يرى مدحت يمهد بدسائسه لإنجاح ثمانية وأربعين نائباً نصرانياً ، من مجموع ١١٧ نائباً هم أعضاء مجلس المبعوثان ـ البرلمان ـ كما لم يطمئن لتصرفات مدحت المشبوهة ؛ من حيث تآمره واشتراكه بخلع الخلفاء وعزل الحكام ، وفكر بإيقافه عند حده .

وأن دعوى الحرية التي يدعو لها خداع وتضليل ، ومطالبته الحقيقية للحرية ، إنما يعني لنفسه ولبني قومه من يهود وعبيدهم من النصارى ، ويمنعها عن الآخرين .

وفي تاريخ تركيا الطويل لم يرو عن شخص ضحى باستقلال تركيا ، ونادى بوصاية وانتداب استعماري على شعب تركيا سوى مدحت باشا ؛

الذي سمته صحافة الغرب اليهودية بأبي الحرية . وشخص يهودي آخر جاء بعده هو صاحب جريدة وطن[1] ؛ تلك الجريدة التي كانت تنطق باسم الاستعمار والجالية اليهودية في تركيا . ومن أجل هذا فقد عزل السلطان مدحت باشا ونفاه إلى أوروبة ، وأخيراً قدمه للمحاكمة على جريمة قتل السلطان عبد العزيز وصدر الحكم بإعدامه ، إلا أن السلطان خففه واكتفى بنفيه إلى الطائف فمات هناك .

وبعد زوال نفوذ مدحت باشا استمرت اليهودية في بث سمومها ومؤامراتها على السلطان ، الذي كان حجر في حلوقهم ، كما ضغطت عليه الصهيونية العالمية برئاسة ثيودور هرتزل ؛ الذي زاره وعرض عليه فكرة الهجرة لفلسطين ، واستيطان اليهود فيها ، وحاول إغراءه بالمال الكثير فرفض السلطان ذلك .

وقد رد السلطان عبد ا د على هرتزل ـ عند مقابلته وتوسله لهجرة اليهود لفلسطين ـ وم قاله : إن أرض وطننا لا تباع بالدراهم . إن بلادنا التي حصلنا على كل شبر منها ببذل دماء أجدادنا لا يمكن أن نفرط بشبر منها ، دون أن نبذل أكثر مما بذلنا من دماء في سبيلها[2]

وحينما أدرك اليهود ثبات السلطان في وجه أطماعهم ، دبروا المؤامرات وحاكوا الدسائس عليـه ، بواسطة جمعياتهم السرية وغيرها ؛ لهدم خلافة الإسلام والتخلص من الخليفة . وزيادة في إيضاح الدور

(١) الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام : ص ٨٠ .
(٢) المصدر السابق : ص ٨٤ .

الماسوني اليهودي ، في القضاء على السلطان المجاهد عبد الحميد ، أذكر ما كتبه السيد محمد رشيد رضا في مجلة المنار ـ العدد الأول من سنة ١٣٢٩ هـ. عن كتاب الأفعى اليهودية : ص ٨٦ : كان السلطان عبد الحميد عدواً للجمعية الماسونية ؛ لاعتقاده أنها جمعية سرية تسعى لإزالة السلطة الدينية من حكومات الأرض ، وهو يفتخر بالخلافة الإسلامية ويحرص عليها .

وقد تنفس الزمان بعد الانقلاب الذي كان لهم فيه أصابع معروفة ، فأسسوا شرقاً عثمانياً أستاذه الأعظم طلعت بك ناظر الداخلية ، وأركانه زعماءُ جمعية الاتحاد والترقي ، وأنصارها من اليهود وغيرهم . ولأجل هذا نرى طلعت بك لا يبالي بسخط الأمة ولا برضاها ، في إدارته التي استغاثت منها المملكة بألسنة ولاياتها كلها ، إلا ولاية سلانيك وكذا أدرنة ؛ وسلانيك الآن مركز السلطة الحقيقية .

وأشد ما يحزن المرء أن يرى عدداً كبيراً من كتاب العرب والمسلمين ، يجاري الدعاية اليهودية الماسونية التي شوهت تاريخ السلطان عبد الحميد . وكم من الكتب نشرت مؤيدة أكاذيب اليهود ؛ التي صورت السلطان المظلوم والمفترى عليه ، سكيراً ظالماً فاجراً متوحشاً[1] .

كل هذا من أجل أن تغطى حقيقة تاريخية ناصعة ؛ هي أن انتصار الماسونية والصهيونية في اغتصاب ديارنا المقدسة في فلسطين ، لم يتم إلا بعد زوال حكم السلطان عبد الحميد الثاني .

(١) سلامة موسى ، كتاب الثورات : ص ٩٢ ـ ٩٧ . مقتبساً عن الأفعى اليهودية : ص ٨٨ ـ ٨٩ .

وهذه الحقيقة ليست من عند العرب المسلمين ، وإنما وزدت على لسان نبي الصهيونية هرتسل ، في تقريره الذي رفعه إلى لجنة الأعمال الصهيونية في أكتوبر سنة ١٩٠٢ م . على أثر زيارته للسلطان . فقد قال هرتزل في تقريره : أقرر - على ضوء حديثي مع السلطان - أنه لا يمكن الاستفادة من تركيا ، إلا إذا تغيرت حالتها السياسية ؛ بدخولها في حرب أو وقوعها في مشاكل دولية . وأعتقد أنه لابد من كسب عطف الحكومة الانجليزية على المسألة الصهيونية .

وبعد عزل السلطان عبد الحميد نشطت الصهيونية على يد الماسون ويهود الدونمه وجمعية الاتحاد والترقي وغيرها سنة ١٩٠٨ م . وكانت تضم هذه التكتلات عناصر مختلفة من شتى الألوان ؛ فمنهم دعاة الإلحاد والإرهاب والإجرام ؛ من يهود يونان وبعض الشخصيات العسكرية ؛ أمثال مصطفى كمال وجمال باشا وجاويد وغيرهم من المتآمرين .

كما نجحت الدعاية الصهيونية الماسونية الصليبية في إلصاق الرذائل والنقائص - زوراً وبهتاناً - تمشياً مع مخططها الرهيب ، للنيل من أعدائها بكل ما أوتيت من قوة ، حيث ألصقت بعدوها اللدود ؛ المحامي والمجاهد عن حياض الدين والوطن تهماً باطلة واهية ، وكان ضحيتها السلطان عبد الحميد ، المفترى عليه من قبل أعداء الله وقتلة الأنبياء كل هذا لأنه كان عقبة كأداء ، وصخرة صلبة تحطمت عليها أطماعهم .

ومهما قيل عن مساوىء السلطان عبد الحميد وعهده الميمون ، فإنه يكفيه فخراً أن القوى التي تآمرت على إسقاطه كانت معادية للعرب والإسلام .

ويكفيه فخراً أنه صان الامبراطورية الإسلامية مدة حكمه المجيد وعهده الخالد . وإن عملية التمزيق لم تبدأ إلا بعد أن سيطر اليهود والماسون على الآستانة ـ مارس ١٩٠٩ م .

مقترحات

إن عمل المؤرخ المسلم كبير ومهم ، لأسباب كثيرة تضاف إلى ما سبق ذكره . إن الظروف السابقة نفسها حالت دون فهم أشياءٍ كثيرة ، عليه أن يدرسها بدقة ، مما قد لا تتوفر أحياناً لقلة الإمكانات ، وانشغال الأفراد والأساتذة المتخصصين بتهيئة معاشهم وضمان مورد لهم ، ولعل الهيئات أو المؤسسات أو الدول الإسلامية تضع مشروعاً ، ليكون إطاراً لمضمون المخطط الشامل للدراسات التاريخية ، وتكوين لجان متخصصة لدراسة هذا المشروع ؛ من حيث الكتابة والتأليف ، ويكون متفقاً مع أسس التاريخ الإسلامي العلمية ، على اعتبار أن تاريخ الإسلام مرتبط بالعقيدة من حيث الدافع والقاعدة ، ومن حيث المحرك والصبغة الدائمة ، مع بيان أثر العقيدة في العمل ونتائجها ، التزاماً بها أو انحرافاً عنها .

وعلى أن هذا التاريخ كائن حي متصل بالحياة ، ولا يزال مستمراً

رغم ما أصابه . وهذا يقتضينا أن تكون كتابة التاريخ الإسلامي مستمرة وشاملة لجميع بقاع المسلمين حتى هذه الساعة .

كما يجب نفي كل الافتراءات والتلفيقات ، التي أُقحمت على هذا التاريخ ، والتفسير الخاطىء الذي قامت عليه هذه الأباطيل ، كما علينا أن ندرك أهمية تاريخنا في حياتنا ، ونحن مرتبطون به وهو جزءٌ من حياة أُمة الإسلام ، وندرسه ونُدرِّسهُ أيضاً على أساس العبرة والاقتداء والإفادة الشاملة .

لذا فإنه يصبح عرض التاريخ الإسلامي بصورة صحيحة ، ضرورة لا مفر منها ، ليس فقط لأهميتها ، ولكن أيضاً لانطباقها والواقع التاريخي . ولكن هذا العرض لا يمكن أن يتهيأ إلا إذا كان من منطلق إسلامي ، وبقلم من يقف في المركز الإسلامي ، يطل على الحياة الإسلامية ويعيش الباحث بكل كيانه في جو الإسلام[1] .

إن كل أُمة تحترم نفسها وعقيدتها ولها شخصيتها ، لا تهمل تاريخها ولا ترضى أي نوع من التعليم أو الأفكار ، أو الموجهين يسيؤون ويشوهون هذا التاريخ ، ويثيرون الشبهات الباطلة التي لا سند لها من الواقع ، بل هي قلب للواقع والحقيقة ، وليس وراءها إلا العداءُ والكراهية . ولكي تكون كل أمورنا ومقاييسنا على أساس إسلامي ، فالأمر يقتضي ألا يدرس التاريخ الإسلامي وحده ، من وجهة النظر الإسلامية المنصفة فحسب ، ولكن يجب أن تكـون دراستنا كذلك لكافة مراحـل تاريخ

(١) الحضارة الإسلامية في الأندلس : ص ٩٧ . وكتاب نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي .

الأمم الأُخرى؛ التي سبقت الإسلام ، والتي لحقته . كما يجب دراسة مادة السيرة النبوية وفقهها ، وتعريف أبناء الأُمة ـ وفي أثناء دراستها التعليمية الدنيا ، وغيرها من مراحل التعليم ـ لتاريخ المسلمين ، عوضاً عن التوسع في تاريخ الأُمم الأُخرى ، كما يجب أن تختار المقررات والكتب الأساسية ؛ وتنفذ وتكتب المناهج في التاريخ الإسلامي بواسطة من فهموا خصائص الإسلام ومقوماته ، وألموا بحقيقة تاريخه ؛ أمناء على أسلوب عرضه وبيان وجهه المشرق .

وحين تدريسنا لأبطال هذه الأُمة ـ رجالاً ونساءً ـ لابد أن يكون ذلك شاملاً كل الميادين الإنسانية ، في الفكر والسياسة ـ سلماً وحرباً ـ والاجتماع والتعليم والتربية وأنظمة الحياة ، وإسهام المسلمين في كافة الاتجاهات ، ودورهم الرائد في بناء الحياة الفضلى ، وتعمير الأرض بالخير ، ونشر معالم الحق والعدل ، ورفع راية الحرية والمساواة .

ومن المفيد جداً حين التعرض للحملات الظالمة ، والتشكيك بحضارة الإسلام وقيمها ، الإلمام بالحركات الهدامة ـ داخلية وخارجية ـ السياسية والفكرية ؛ أفراداً وجماعات ، في التاريخ الإسلامي ، في الماضي والحاضر .

فبكتابة التاريخ الإسلامي ، وتدريسه في جوه الطبيعي ، نسهم في إنشاء الجيل المؤمن بإسلامه ، والمعتز بعقيدته وتاريخه ، وبالتالي نجده حثيث السير ليعيد ذلك الدور الفريد ، الذي كان للإسلام في هذه الأرض ، كما يمكّن للدعوة الإسلامية فيها ، وينيرها ويعمرها بالعدل

والخير ، كما عمرها سلفنا الصالح رضوان الله عليهم[1] ؛ الذين كانوا الهداة والمرشدين ، والقادة الفاتحين ، وصناع التاريخ المجيد .

وهكذا فقد حملت أمة الإسلام أمانة التاريخ وأدت دورها العملاق على هدي منقذ البشرية ، وحامل لواء التوحيد ، القائد والمعلم رسول الله محمد ﷺ الذي تلقى الرسالة عن الله تعالى ، وأداها كاملة لذلك السلف الذي ورث رسالة الإسلام ، والذي ينتظر من الخلف أن يؤدي واجبه نحوها ؛ فهماً ودراسة وحماية .

إن القلم أمانة وعن الأمانات ستسألون : (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ)[2] .

---

(١) بهذه المناسبة نذكر أن التاريخ الهجري هو ذكرى هجرة الرسول ﷺ وكان بها علو كعب الإسلام وظهوره . ومن المؤسف أن المسلمين – في هذه الأيام – قد انصرفوا عن التاريخ الهجري وتقييد الحوادث به ، واستعاضوا عنه التاريخ الأفرنجي ، مع أن الواجب عليهم هو التمسك بالتاريخ الهجري للحفاظ على شخصيتهم المستقلة . ونذكر هنا لهم قول سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه : الهجرة فرقت بين الحق والباطل فأرخوا بها .

(٢) سورة الشعراء : ٢٢٧ .

تاريخ مخترع وأحداث لم تقع

إن أكثر ما يعتمد عليه مشوهو حقائق التاريخ – من معلومات مخترعة – في تراجم كثير من الحكام والأُمراء والسلاطين ، أو العهود ، أقاويل مختلقة كاذبة دسها عن عمد وقصد أناس من أعداء الإسلام وتاريخه ، تحقيقاً لهدف يتبنونه ، سخَّروا فيه أنفسهم لدراسة التاريخ الإسلامي وكتابته ، طبقاً للخطة التي رسموها ، وفق إطار منهجي مدروس .

وعند دراسة حقيقة تاريخية أو ترجمة لشخصية إسلامية ؛ كخليفة أو زعيم بارز ، فإنه لا يليق بنا معشر أصحاب لغة الضاد أن نعرض عن تاريخ الطبري ، وابن خلدون ، وابن كثير ، وابن الأثير ، والذهبي وغيرهم ، لأمانتهم وصدق ما نقلوه من أحداث ، ولأنهم اعتمدوا منهجاً سليماً طبقاً لمنهج الرواية والسند ، وكما قيل : فأهل مكة أدرى بشعابها .

هذا هو طريق العدل والإنصاف ، الذي يجب أن يلتزمه قراءُ تاريخنا الإسلامي ، من أبناءِ أُمة العرب والإسلام .

ومما يؤسف له أن معظم قرائنا هذه الأيام لا يلتفتون إلى تواريخنا الموثوقة ، بل نراهم حريصون على مطالعة كتب تاريخية مشوهة ، نسجتها رؤوس خبيثة من أعداء أُمتنا . ومهما بحثت لها عن جذور أو شواهد في المصادر العربية الأصيلة فلن تعثر على شيءٍ .

اقرأ أخبار الفتح الإسلامي ، أو الحروب الصليبية مثلاً في كتب

التاريخ العربية الموثوقة ، ثم عد فاقرأ هذه الأخبار كما صاغها وكتبها المستشرقون[1] والأوروبيون وتلاميذهم ، لترى التناقض المذهل والافتراء العجيب .

واقرأ ترجمة هارون الرشيد في الكتب التاريخية الأصيلة ، كابن الأثير وابن كثير والطبري وابن خلدون ، تجد نفسك أمام عابد متنسك ، آلى على نفسه أن يهب حياته كلها للجهاد في سبيل الله ، وإقامة دين الله في الأرض ، في ظلال شرع الإسلام الحنيف ، وفي سيرته – رحمه الله – تجد أنه كان يغزو عاماً ويحج عاماً ؛ يصلي في اليوم والليلة مائة ركعة ، ما لم يعتلّ بعلة أو يكن مشغولاً بغزو ، لا يقطع بأمر في مسألة إلا بعد أن يلقى بها العلماء ، ويطمئن إلى حكم الله فيها ، وتجده مع كل هذا غير معصوم ، قد يجتهد فيخطئ ، ويغضب فيأثم ، ويعصي ثم يتوب .

ثم اقرأ ترجمة هذا الخليفة المجاهد المؤمن في كتب هؤلاء الموظفين – من المستشرقين وغيرهم – في تشويه تاريخ الإسلام وطعنه ؛ عند قراءتك لترجمة الرشيد تجده رجلاً آخر ؛ لا يستفيق من المجون واللهو ، يعيش بين دنان من الخمر ، يظل متقلباً في حياة من الترف والنعيم ...

لن تجد شيئاً من هذا كله في أي مصدر من المصادر التاريخية العربية الأصيلة ، وإنما تجد عكس ذلك تماماً .

ونحن نتساءل ، هل نصدق ما يرويه لنا كتّاب لم يكن لهم وجود

(١) من هؤلاء المستشرقين الخبثاء غولد زيهر وفيليب حتي – العربي الأصل – وفون كريمر .

أو معاصرة أو قرب عهد بمن عاصر الخليفة هارون الرشيد كالمستشرقين ؟. أم نصدق من عاش عهد الرشيد أو قريب عهد منه ، وقد توفرت فيه صفات المؤرخ الموثوق البعيد عن كل شبهة - كالطبري مثلاً - ؟ . لا أعتقد أن عاقلاً أو منصفاً يقبل الاستماع لشهادة من لم يكن موجوداً أثناء وقوع الحادثة ، ويقدمه على من شهد الحادثة ، ومجرياتها ، مع توفر الأمانة لديه .

وهذا موقفنا من أعداء الإسلام الجدد - رجال الاستشراق وأعوانهم - الذين كانت بلادهم إبان عهد الرشيد تعيش الظلمة والجهل ، وقد بلغت عاصمة الرشيد قمة التمدن والحضارة والعلم آنذاك ، وهو العصر الذهبي لدولة الإسلام ، كما كان أبناء أوروبا يفدون إلى معاهد العلم في الديار الإسلامية .

إن المنصفين من الأوروبيين وغيرهم يعترفون بهذه الحقائق ، وما تحويه بطون تواريخهم لشاهد صدق لما نقول ، ومع هذا فقد يكون الأوروبيون معذورين في تصويرهم لحياة هارون الرشيد بهذه الصورة - القاتمة المشوهة - فهم ليسوا إلا أحفاداً لأولئك الرومان ، الذين جند الرشيد حياته كلها في سبيل سحق كيدهم ، وإخضاعهم لحكم الدولة الإسلامية ، وهم ليسوا إلا أحفاد مليكهم نقفور الذي أراد أن يتمرد على نفوذ الدولة الإسلامية وحكمها - في عهده - وأرسل إلى الرشيد يهدده ويتوعده ، فكتب إليه الرشيد :

من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم ، قرأت

كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما ترى لا ما تسمع . ثم انطلق إليه في جيش جرار على طريق مفروشة بالثلوج ، مملوءة بالصقيع والأعاصير ، حتى أناخ بباب هرقلة ، ففتح وغنم وقاتل حتى خضع له نقفور وطلب منه الموادعة على خراج يؤديه كل عام .

فلما رجع الرشيد ووصل إلى مقره نقض نقفور العهد ، وخان الميثاق يائساً من رجعة الرشيد إليه ؛ إذ كان البرد شديداً والثلوج تهمي على طول الطريق ، ووصل الخبر إلى الجند فكتموه عن الرشيد إشفاقاً عليه وعلى أنفسهم ، ولكنه ما لبث أن علم الخبر بعد ذلك فقال :

أوقد فعل نقفور ذلك ؟ ! . وكر راجعاً ـ في أشدِّ محنة وأعظم كلفة ـ ثم لم يبرح يغزو ويقاتل حتى بلغ ما أراد[1] .

وبعـــد : فهذا يا أخي ـ مثل واحد ضربته لك عن أحد رجال الإسلام وعظمائهم ، الذي تعرضت سيرته العطرة وحياته الحافلة بالمجد والعزة إلى الطعن والدس الرخيص الذي لا يصدر إلا عن الحاقدين كأحفاد نقفور الذي قام بتأديبه هذا المجاهد ـ الخليفة الرشيد ـ الزاهد .

أهذا هو الترف والتنعم اللذان يعرفهما تاريخنا الإسلامي ـ الحافل بمآثر العظماء ـ كما في سيرة بطل الإسلام الرشيد ؟ ! . ولكن الحقيقة مرة ، فقد قلب أحفاد ـ كلب الروم ـ نقفور الحقيقة ، وشوهوا التاريخ ، وأفسدوا القيم ، وما بعد الحق إلا الضلال .

(١) من أراد البسط والتفصيل فليرجع إلى البداية والنهاية ، والكامل في التاريخ ، ومختصر تاريخ العرب .

لقد شوه المستشرقون وجنودهم صحائف التاريخ الإسلامي وحضارته الزاهرة ، فهم ينفثون حقدهم وسمومهم على الإسلام وعظمائه .

وبهذا الصّنيع الفاسد أصبح أبناءُ الإسلام يجهلون تاريخ عظمائهم - كالرشيد العادل - نتيجة تشويهات ومطاعن أعداءِ هذه الأُمة ، التي أهدت للبشرية رسالة الإسلام ، التي تكفلت لمن يعيش في كنفها سعادة الدنيا ونعيم الآخرة : (فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ)[1] .

الخليفة هارون الرشيد
(المجاهد العَابد)

أخلاقه وحكمه - ١٧٠ - ١٩٣ هـ

كان هارون الرشيد - رحمه الله - في الحق من أعظم حكام العالم ، ويعتبر عهده من ألمع عهود الحكم الإسلامي في التاريخ . وكذلك كان محافظاً على تكاليف الشرع ؛ تقياً ورعاً ومحسناً كريماً ، وقلَّ من يضاهيه في متانة الخلق وحدة الذكاء ، وكذلك كان جندياً بالفطرة والممارسة ، وكثيراً ما قاد المعارك بنفسه ، وقضى على الفتن في كافة أنحاءِ البلاد ، ونَعِمَ التجار وطلاب العلم والحجاج - في عهده الزاهر - بنعمة الطمأنينة والأمن .

(١) سورة الرعد : ١٧ .

وكذلك اهتم بالكليات والمدارس والمستشفيات ، والطرق والجسور والقنوات والمساجد التي شيدها في جميع أنحاء البـــلاد[1] .

وكذلك أيضاً قاد بنفسه قوافل الحجاج إلى الأماكن المقدسة تسع مرات . وكان بلاطه ألمع بلاط في ذلك العصر ، فإليه كان العلماءُ والحكماءُ يفدون من جميع أنحاء العالم ، فيوليهم جميعهم عطفه وتشجيعه ، وكذلك شمل بتشجيعه وعطفه كافة فروع العلم والمعرفة[2] .

وعندما شعر باقتراب منيته ، دعا كل من في معسكره من أفراد أسرته – بني هاشم – وخاطبهم بقوله : إن كل مخلوق ميت ، وكل جديد بالٍ . وقد نزل بي ما ترون ، وأنا أُوصيكم بثلاث : الحفظ لأماناتكم ، والنصيحة لأئمتكم ، واجتماع كلمتكم . وانظروا محمداً وعبد الله – ولديه الأمين والمأمون – فمن بغى منهما على صاحبه فردوه عن بغيه ، وقبحوا له بغيه ونكثه[3] .

(١) أفردت بحثاً موسعاً عن سيرته العطرة – الخليفة الرشيد – في كتابي أعلام الإسلام الذي أرجو الله أن يعينني على إتمامه ؛ لأتمكن من نشره في أقرب فرصة بعون الله .

(٢) لقد لاقى الرشيد وجه ربه مجاهداً خارج امبراطوريته ، على عكس حكام العرب والمسلمين في هذا العصر ، الذين عطلوا فريضة الجهاد حتى أصبحت ديارهم مرتعاً للأعداء ، وإن احتلال فلسطين وحرق المسجد الأقصى المبارك لخير شاهد على ما نقول .

(٣) مقدمة ابن خلدون ، ومختصر تاريخ العرب : ص ٢٢٩ وما بعدها .

هارون الرشيد يؤدب الروم

عقدت ملكة الروم – أوغستا إيريني – مع المسلمين عهداً يقضي بأن تدفع للمسلمين خراجاً معيناً ، مقابل عدم الاعتداء على حدود بلادها ، وقد احترم المسلمون هذا العهد وتمسكوا بشروطه . وفي عهد نقفور – نيكفورس – نقض العهد الذي عقدته أوغستا إيريني السابقة مع المسلمين .

ويذكر المؤرخون[1] أن نقفور أرسل رسالة بذيئة إلى الخليفة الرشيد يقول فيها : من نقفور ملك الروم ، إلى هارون الرشيد ملك العرب أما بعد : فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ ، وأقامت نفسها بمكان البيدق ، فحملت إليك من أموالها ما كُنْتَ حقيقاً بحمل أمثاله إليها ، ولكن ذلك ضعف النساء وحمقهن ، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قِبَلك من أموالها ، وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك ، وإلا فالسيف بيننا وبينك .

ويقول المؤرخ : إن الرشيد عندما قرأ هذا الكتاب غضب غضباً شديداً ، بحيث لم يجرؤ أحد على النظر إليه ، أو التفوه بكلمة في حضرته ، كما تفرق جلساؤه ، وترك وزراؤه المجلس صامتين .

ثم كتب الخليفة على ظهر الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم . من هارون الرشيد أمير المؤمنين ، إلى نقفور كلب الروم . قد قرأت كتابك . والجواب ما تراه لا ما تسمعه .

(١) المصدر السابق نفسه .

وقد بر الخليفة بوعده ، وسار في اليوم نفسه على رأس جيشه ، لم يتلكأ في الطريق إلى أن وصل إلى هرقلة – إحدى قلاع الدولة البيزنطية – حيث التقى ذلك الروماني المغرور بالخليفة ، ولقي على يديه هزيمة شنعاء منكرة[1] .

وقد ذكر الإمام السيوطي في تاريخه بأن هذه المعركة كانت نصراً مبيناً للمسلمين . وبعد هزيمة نقفور توسل في طلب الصلح ، وتعهد بدفع غرامة أكثر من السابق يؤديها كل سنة ، فقبل الخليفة توسله ، وعاد إلى مقرّه[2] .

ولم يكد الرشيد يصل إلى مقره حتى نقض نقفور عهده ، ظناً منه أن الخليفة يستحيل عليه النزول إلى الميدان مرة أخرى ، في ذلك الفصل القاسي . ولكن رجاءه خاب ؛ ذلك أنه ما أن علم الرشيد بنقضه العهد حتى عاد أدراجه ، ولشد ما كانت دهشة نقفور من تلك المفاجأة ، ومن مخاطرة أمير المؤمنين في ذلك الشتاء القارس ، وتمكنه من عبور جبال طوروس المكسوة بالثلوج ، وفي الحال أُسقط في يده وفر من المعركة ، بعد أن أُصيب بثلاثة جروح تاركاً وراءه أربعين قتيلاً في الميدان[3] .

وعاد نقفور إلى طلب الصلح ، فلبى الخليفة طلبه ، ولكنه اتخذ قبل عودته جميع الاحتياطات للحيلولة دون نقض المعاهدة من جديد .

---

(١) انظر ابن خلدون وكتاب مختصر تاريخ العرب : ص ٢٣٠ .

(٢) راجع مختصر تاريخ العرب : ص ٢٢٧.

(٣) انظر غيبون ومختصر تاريخ العرب . وابن الأثير .

وكان نقفور ما يكاد يسمع باشتباك هارون الرشيد في معارك أخرى ، حتى ينقض عهده ، فلا يلبث أن يمنى بالهزيمة والفشل[1] .

وبعـد ؛ فهذا غيض من فيض من أخبار الخليفة المجاهد ، والعابد الزاهد الرشيد ، الذي قضى معظم أيام حكمه الميمون في نشر الإسلام وتأديب طواغيت الكفر والملاحدة ، الذين قد تحدثهم أنفسهم بالتطاول على أرض الإسلام ومعاقله ، على عكس أمراء وحكام هذا العصر ، الذين أصبح جلهم تابعاً لإحدى القوتين – شرقية أو غربية – وليس لهم كلمة تسمع ، ولا وزن في ميزان السياسة الدولية . لذا يحق لنـا أن نفاخر بالرشيد المجاهد القائد ، الذي لم ينم على ضيم ، ألا فلنتذكر الأجداد أصحاب الكرامة والعزة ، الذين سادوا العالم لامتثالهم لأمر الله ، وتطبيق شريعة الإسلام . أما ما يتبجح به الدساسون ، ويروج له أقزام هذا العصر من كتاب مرتزقة ، حول عملاق عصره وفريد زمانه العابد المجاهد هارون الرشيد ؛ من أنه كان يعيش حياة الترف والبذخ ، هدفه الوحيد تلبية رغائبه وشهواته ، والانغماس في المجون ، بمرافقة أصحاب اللهو كأبي نواس وغيره ... هذه الترهات لا تعدو أن تكون قصصاً مخترعة ، وأخباراً ملفقة ، دسها أعداءُ هذه الأُمة الذين يتاجرون بالضلال والفساد ، ولا تستند إلى دليل أو حجة أو برهان . إن تاريخ الرشيد هو بحق من أبرز ما حوته بطون التاريخ ؛ إذ كان من ألمع شخصيات العالم ، وأكثرها زهداً وورعاً وعدلاً . وحبذا لو عاد المغرضون

(١) انظر سيد أمير علي . والمسعودي . وابن الأثير . وموير .

والمشوهون إلى التاريخ الموثوق ،عندها يتخلصون من عقدهم وأحقادهم الدفينة .

ورثة الأنبياء

بين الله تعالى منازل السعداء لأوليائه ، العاملين بأمره والملتزمين بشرعه ، كما بين سبحانه منازل الأشقياء التعساء ، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ، وباؤوا بالخيبة وسوء عقبى الدار .

يقول ابن القيم : ورثة الرسل وخلفاؤهم في أممهم ، هم القائمون بما بعثوا به ؛ علماً وعملاً ودعوة للخلق إلى الله على طريقهم ومنهاجهم ، وهذا أفضل مراتب الخلق ـ بعد الرسالة والنبوة ـ وهي مرتبة الصديقية ؛ ولهذا قرنهم الله في كتابه [illegible] فقال : (وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَآءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلٰئِكَ رَفِيقاً)[1] . فجعل درجة الصديقية معطوفة على درجة النبوة ، وهؤلاء هم الربانيون ، وهم الراسخون في العلم ، وهم الوسائط بين الرسول وأمته ؛ فهم خلفاؤه وأولياؤه ، وحزبه وخاصته وحملة دينه ، وهم المضمون لهم أنهم لا يزالون على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم ، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك . قال تعالى : (وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُوْلٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ)[2] .

(١) سورة النساء : ٦٩ .

(٢) سورة الحديد : ١٩ .

إلى أن يقول : والمقصود أن درجة الصديقية والربانية ، ووراثة النبوة وخلافة الرسالة هي أفضل درجات الأُمة ، ولو لم يكن من فضلها وشرفها إلا أن كل من علَّم بتعليمهم وإرشادهم ، أو علَّم غيره شيئاً من ذلك ، كان له مثل أجرهم ، مادام ذلك جارياً في الأُمة على آباد الدهور . وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال لعلي بن أبي طالب : « وَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ »[1] .

وصح عنه ﷺ أنه قال : « مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ »[2] . وصح عنه ﷺ أيضاً أنه قال : « إِذَا مَاتَ الْعَبْدُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ : صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ » . وفي السنن عنه ﷺ أنه قال : « إِنَّ الْعَالِمَ يَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّىٰ النَّمْلَةُ فِي جُحْرِهَا » . وصح عنه ﷺ أنه قال : « مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ »[3] . وعنه ﷺ أنه قال : « إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَىٰ مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ » . وعنه ﷺ أنه قال : « إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً وَلَا دِرْهَماً وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ عَظِيمٍ وَافِرٍ »[4] .

---

(١) رواه أبو داود عن سهل بن سعد الساعدي. والنعم : بفتح النون والعين المهملة ؛ الإبل . وخص حمرها لأنها كرامها .

(٢) هو قطعة من حديث طويل . رواه مسلم والنسائي وابن ماجه والترمذي باختصار .

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد ، ومسلم في صحيحه .

(٤) راجع طريق الهجرتين : ص ٤٥٨ ، ٤٥٩ .

العلماء يحاكمون الحكام

إن الله سبحانه وتعالى قد أعد للحاكم العادل منزلة رفيعة ، ومكانة عالية يحظى بها ، وينعم بالسعادة في ظلها ، لأنه أقام حكم الله الذي أوكله إياه . : (وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)[1] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « مَنِ اسْتَرْعَاهُ اللهُ رَعِيَّةً ثُمَّ لَمْ يُحِطْهَا بِالنَّصِيحَةِ إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ »[2] . كما جاء في الحديث الصحيح : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ ؛ إِمَامٌ عَادِلٌ . . . »[3] .

أقول : إن شعلة الإيمان لا زالت تضيء قلوب العلماء في عصور عديدة ، وهم لازالوا يدركون مهمتهم في الحياة ، وإن كان بعض الحكام يومئذ قد أصابهم بعض التنكب عن جادة الحق ؛ فتضيق صدورهم لمحاسبة العلماء لهم ، ولكن بأي شيء كانوا يقابلون تلك المحاسبة ؟ . هذا ما يختلف فيه الحكام ، ويتفاوتون فيه تبعاً لتفاوت إيمانهم بالإسلام .

فلنقرأ هذا عن شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى ، بموقفه الرائع من محاسبة غازان التتري ؛ وهو رابع ملك مسلم من التتار .

---

(١) سورة الحج : ٥٤ .

(٢) رواه البخاري .

(٣) متفق عليه .

وردت الأنباءُ في أواخر سنة ٦٩٨ هـ. بزحف غازان التتري وجيشه من إيران نحو حلب ، وفي وادي سلمية يوم ٢٧ ربيع الأول سنة ٦٩٩ هـ. التقى غازان بجمع الناصر بن قلاوون ، وبعد معركة حامية الوطيس هزم جمع الناصر ، وولى الجند وأمراؤهم الأدبار ، ونزح أعيان دمشق إلى مصر يتبعون سير الناصر ، حتى خلت دمشق من حاكم أو أمير أو أعيان البلاد ، ولكن شيخ الإسلام بقي صامداً مع عامة الناس ، فاجتمع شيخ الإسلام مع من بقي من أعيان البلاد ، واتفق معهم على تولي الأمور ، وأن يذهب هو على رأس وفد من الشام لمقابلة غازان -مقابلته في بلدة النبك - .

وقد دارت بينهما مناقشة عنيفة ، بل محاسبة شيخ الإسلام لغازان على تصرفه هذا ونكثه للعهد ، وكلمه كلاماً قوياً شديداً أشار إليه ابن كثير في تاريخه[1] ، وفصله كما سمعه من الشيخ الصالح أبي عبد الله محمد بن عمر البالسي ، الذي كان من أعضاء وفد المقابلة .

قال البالسي : إن الشيخ ابن تيمية قال لغازان - وترجمانه يترجم كلام الشيخ : أنت تزعم أنك مسلم ، ومعك قاض وإمام وشيخ ومؤذنون - على ما بلغنا - فغزوتنا وبلغت بلادنا على ماذا ؟ ! . وأبوك وجدك كانا كافرين ، وما غزوا بلاد الإسلام بعد أن عاهدونا ، وأنت عاهدت فغدرت ، وقلت فما وفيت . وجرت لابن تيمية مع غازان أمور قام بها ابن تيمية كلها لله ، وقال الحق ولم يخش إلا الله عز وجل .

(١) البداية والنهاية : ج ١٤ - ص ٨ ، ٧ .

ثم قرب غازان إلى الوفد طعاماً ، فأكلوا إلا ابن تيمية ، فقيل له : ألا تأكل ؟ . فقال : كيف آكل من طعامكم ، وكله مما نهبتم من أغنام الناس ، وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس ؟ . وغازان مصغ لما يقول ، شاخص إليه لا يعرض عنه .

وإن غازان ـ من شدة ما أوقع في قلبه من الهيبة والمحبة ـ سأل : من هذا الشيخ ؟ . إني لم أر مثله ! . ولا أثبت قلباً منه ! . ولا أوقع من حديثه في قلبي ، ولا رأيتي أعظم انقياداً لأحد منه . فأخبر بحاله وما هو عليه من العلم والعمل ، ثم طلب منه غازان الدعاء ، فقام الشيخ يدعو فقال :

اللهم إن كان عبدك هذا ، إنما يقاتل لتكون كلمتك العليا ، وليكون الدين كله لك ، فانصره وأيده ، وملكه البلاد والعباد . وإن كان قد قام رياءً وسمعة وطلباً للدنيا ، ولتكون كلمته هي العليا وليذل الإسلام وأهله ، فاخذله وزلزله ودمره واقطع دابره . وغازان يؤمّن على دعائه ويرفع يديه .

قال البالسي : فجعلنا نجمع ثيابنا خوفاً من أن تتلوث بدم ابن تيمية إذا أمر بقتله ، فلما خرجنا من عنده قال قاضي القضاة ـ نجم الدين وغيره : كدت أن تهلكنا وتهلك نفسك . والله لا نصحبك من هنا . فقال : إني والله لا أصحبكم .

قال البالسي : فانطلقوا عصبة وتأخر هو في خاصة نفسه ، ومعه

جماعة من أصحابه ، فتسامعت به الخواتين والأُمراءُ أصحاب غازان ، فأتوه يتبركون بدعائه وهو سائر إلى دمشق . والله ما وصل إلى دمشق إلا في نحو ثلاثمائة فارس في ركابه ، وكنت أنا من جملة من كان معه ، وأما أُولئك الذين أبوا أن يصحبوه ، فخرج عليهم جماعة من التتار ، فشلحوهم : أي سلبوهم وما معهم . أ.هـ[1] .

هذه هي صورة من مواقف محاسبة العلماء للحكام ، وذاك هو حكم الإسلام في وجوب محاسبة الحكام ، وفي عقاب الله تعالى لمن لم يقم به ، أو لم يفسح المجال له . وقد تمسك المسلمون بذلك ـ حكاماً ومحكومين ـ وقاموا به خير قيام .

لقد جاء المستعمر الكافر ، بحكام من أبناء المسلمين باسم المسلمين ـ بعد أن قضى على دولة الإسلام ، وأزال نظام الخلافة عن الوجود ـ جاء بهؤلاء الحكام لا ليحكموا بالإسلام ، ولكن ليحكموا بغيره[2] .

وإذا طالب المسلمون بإسلامهم ، وحاسب العلماءُ حكامهم تجهمت

(١) مختصر منهاج السنة للذهبي : ص ٣٣٢ . عن الإسلام بين العلماء والحكام .

(٢) من المؤسف والمحزن حقاً ، أن تتعرض دولة إسلامية أفريقية ـ اوغندة ـ سنة ١٩٧٩ م لغزو استعماري صليبي حاقد ، فيكتسح البلاد ويدنس الأعراض ويهدم المساجد ، ويقتل المسلمين ويمثل فيهم ، مع أن حاكم هذه الدولة ـ عيدي أمين ـ كان مؤيداً ومناصراً لقضايا العرب والإسلام ؛ فقد قطع علاقاته مع الصهاينة مغتصبي فلسطين ، كما طرد الأجانب الغربيين من بلاده ، ومع كل هذا فقد كانت مواقف حكام المواكب والمهرجانات سلبية ؛ حيث لم يحركوا ساكناً ، وكأن الأمر لا يهم المسلمين ، وهذا دليل واضح على سوء حال الصنائع والدمى التي ربطت مصيرها بأعداء الأمة ، وارتمت في أحضان الاستعمار الخبيث. فلا حول ولا قوة إلا بالله .

الوجوه ، وتقطبت العيون ، وضاقت الصدور ، وغضبت النفوس ، لم كل ذلك يا قوم ؟ !. والإسلام دين الله الذي ارتضاه للناس ؛ عبادة وأخلاقاً ودولة وحكماً وتشريعاً ، وأنظمة لسائر شؤون الحياة ، والحكام قد تولوا أمر المسلمين ، والمسلمون أهل البلاد ؟ !. وقد قال تعالى : (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)[1] .

أثر استعباد الملوك والرؤساء للأمم والشعوب وإفسادهم للدنيا والدين

يقول الإمام محمد عبده[2] : غمرت مشيئة الرؤساء إرادة من دونهم ، فصار هؤلاء كأشباح يديرها اللاعب من وراء حجاب ، ويظنها الناظر إليها من ذوي الألباب ، فتفقد بذلك الاستقلال الشخصي . وظن أفراد الرعايا أنهم لم يخلقوا إلّا لخدمة ساداتهم وتوفير لذّاتهم ؛ كما هو الشأن في العجماوات من البهائم مع من يقتنيها .

ضلّت السادات في عقائدها وأهوائها ، وغلبتها على الحق والعدل شهواتها ، ولكن بقي لها من قوة الفكر أردأ بقاياها ، فلم يفارقها الحذر من أن بصيص النور الإلٰهي ، الذي يخالط الفطر الإنسانية ، قد يفتق الغلف التي أحاطت بالقلوب ، ويمزق الحجب التي أسدلت على العقول ؛ فتهدي العامة إلى السبيل ، ويثور الجم الغفير على العدد القليل . ولذلك لم يغفل الملوك والرؤساء أن ينشئوا سحباً من الأوهام ،

---

(١) سورة المائدة : ٤٤ .

(٢) انظر رسالة التوحيد .

ويهيئوا كسفاً من الأباطيل والخرافات[1] ، ليقذفوا في عقول العامة ، فيغلظ الحجاب ، ويعظم الرين : (كَـلاَّ بَـلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ)[2] ويختنق بذلك نور الفطرة ، ويتم لهم ما يريدون من المغلوبين لهم .

مسلمون يحجون إلى معابد النصرانية :

الناس بلا علماء هم جهال ؛ تتخطفهم شياطين الإنس والجان من كل حدب وصوب ، تعصف بهم المنكرات ، وتعمهم الضلالات من جميع الجوانب والجهات .

لقد كثرت بين طلاب الحكم والملك الفتن والمصادمات إبان العصور المتعاقبة ، وكان النصر حليف الجهال ، الذين تولوا الأمر والنهي ، وفتكوا بما بقي من أثر للعلم والمعرفة ، فساد الانحراف وانتشر الضلال وساد الظلم والظلام ، وعمت الجهالة والفوضى العقلية بين المسلمين ، تحت حماية الجهلة من حكامهم وساستهم ، الذين لم يكن لهم من همّ سوى مناصبهم الكرتونية ، التي بنوها على ظهر هذا الشعب الذي رزئ بهم .

لقد اعتز هؤلاء الساسة والحكام بكراسيهم ، وأهملوا المهمة التي

---

(١) استوطن أحد الأمراء الفسقة دمشق في القرن الماضي وكان ذا سلطان ومال ، ومن مؤيدي مذهب الاتحاد والحلول الكفري ، الذي تصدى لكشف زيفه وضلاله الإمام ابن تيمية بالحجج الدالة القاطعة ، وقد عرف هذا الأمير بعداوته لدعوة السلف الصالح ، علاوة على محاربته لله ولرسوله ﷺ ، قد استخدم كافة الوسائل الشيطانية لجمع كتب الإمام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وحرقها ، وبهذا الفعل الشنيع حرم البشرية من هذه الكنوز النادرة .

(٢) سورة المطففين : ١٤ .

ائتمنوا عليها ، فتبعهم معظم شعبهم الجاهل ، الذي لم يعرف سوى تقديم الولاء لحاكمه وسيده .

إن المهمة التي خلق الإنسان من أجلها أصبحت مجهولة لدى هؤلاء – من حكام ومحكومين – كل هذا يعم ويطم بلاؤه تلك المجتمعات التي احتكمت لشرع الطاغوت ، واستبدلته بقانون السماء . ولعمر الله ، فإن آفة الحياة الجهل المركب ، الذي يعيشه أمثال هؤلاء ؛ لغياب سلطان العلم ، والجهل بدستور الإسلام والدين الحنيف .

إن مسلمي اليوم – وخاصة من يعيش منهم في أفريقيا – لا يعرفون من أحكام الإسلام إلا القليل ، وقد يجهلون أركان الإسلام ! ! . وليس أدل على ذلك إلا تجاهل حكام المسلمين لمهماتهم ، وأهمها التعليم بأحكام الشريعة ، ونشر العلوم بين صفوف الأمة ، والدليل على ذلك أيضاً حال مسلمي جمهورية مالي ، التي يشكل مجموع مسلميها ٩٠ بالمائه من مجموع السكان .

ولوضوح الرؤية وجلاء الموقف ، عما تعانيه شعوب أفريقيا من جهالة وتأخر – وخاصة المسلمين منهم – فإني أضع بين يدي القارىء الفقرات التالية ، التي تكشف بجلاء عن جهل مسلمي دولة مالي لعقيدتهم وأحكامها .

جاء في مجلة صوت الأرض المقدسة تحت عنوان : الكاثوليك والمسلمون في مالي يحجون معاً إلى مزار العذراء ! ! . ثم تقول[1] : لقد

(١) مجلة صوت الأرض المقدسة صادرة عن المكتب الكاثوليكي الأردني .

قام ما يقارب الخمسة آلاف حاج من كاثوليك ومسلمين في مالي ، بالحج الخامس الذي قادهم من باماكو إلى كيا ؛ حيث تجثم عذراءُ سوداءُ نحتت في القرن الماضي ، وترأس هذا الحج سيادة رئيس الأساقفة مارياتي – القاصد الرسولي في أفريقية الغربية – فأعرب – في العظة التي ألقاها أثناء القداس الحبري – عن فرحته لمساهمته في الصلاة إلى العذراء ، ولمشاطرته آمال الشعب المالي : وأنتم أيها النصارىٰ الماليون ، تتّحدون بحضوركم في تقديم الإكرام إلى العذراء ، وأنتم أيها المؤمنون ، الذين انضممتم إلى هذه الصلاة دون أن تكونوا نصارىٰ ، تعبرون عن إيمانكم ببتولية مريم وأُمومتها ، وقد تكون مريم رابطة اتحاد بين النصارىٰ والمسلمين . أ . هـ .

هذا ما يحصل في دول أفريقيا الإسلامية ، حيث ينشط التبشير والتنصير لتفريغ تلك البقاع من رسالة التوحيد ، وإخماد جذوة الإيمان التي تعطر تلك الربوع . أما دور حكام المسلمين فهو إهمال فريضة نشر الإسلام أمام الغزو التنصيري .

جاء في الحديث الصحيح أن الرسول ﷺ قال : « إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ ، وَيَثْبُتَ الْجَهْلُ،وَيُشْرَبَ الْخَمْرُ ، وَيَظْهَرَ الزِّنَا ، وَتَكْثُرَ النِّسَاءُ ، وَيَقِلَّ الرِّجَالُ حَتَّى يَكُونَ لِخَمْسِينَ امْرَأَةً الْقَيِّمُ الْوَاحِدُ »(١) إن أكبر نذير مبين لفناء العالم ، هذه الخمسة التي ذكرها رسولنا

(٢) رواه البخاري .

وسيد الخلق محمدﷺ فعلى قادة الأُمم الانتباه لها ، والإكثار من العلم الشرعي الصادر عن الحكيم القائل :

(رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ واصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا)[1] .

قال الحسن البصري : أخذ الله على الحكام أن لا يتبعوا الهوى ، ولا يخشوا الناس ، ولا يشتروا بآياته ثمناً قليلاً ، ثم قرأ : (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ)[2] .

ولو أيقن هؤلاء الحكام بيوم الحساب لآمنوا في الدنيا ، وحكموا بين الناس بالحق المنزل من عند الله سبحانه . إن الحاكم ـ وكل مسؤول ـ إذا ما علم أن الحكم تكليف لا تشريف ، وأنه أمانة يجب صيانتها ، إذا علم هذا وتحقق في دنيا الواقع ، فلا شك أن المنهاج والمنطلق يكونان تحت رعاية الإسلام ؛ حيث يعم الرخاءُ وتسود الطمأنينة ، في ظل العقيدة وكنف الإسلام وحكمه الحنيف .

أما ما تعانيه أُمتنا هذه الأيام ؛ من وطأة الجور ، واستبداد حكامها الذين يذبون عن الفكر الأجنبي ، المتمثل في القوانين الوضعية ، وكيل الطعن المتوالي على الفقه الإسلامي ورجاله ودعاة العودة إليه ، فهو نتيجة عدم تمسكهما بشريعة الله وأحكام كتابه ، بينما يقف أنصار الشريعة

(١) سورة مريم : ٦٥ .
(٢) سورة ص : ٢٦ .

وعلماؤها موقف المشدوه ضعيف السلاح ؛ لأنه لا سلطة لهم ولا حول ولا قوة ؛ يواجهون هذا الزحف الاستعماري المتستر باسم قادة المسلمين المستغربين ، الذين وصلوا للحكم باسم شعوبهم المسلمة ، ونضالها في سبيل الحرية الوهمية .

إنا نذكر الحكام الحريصين على الإمارة – وقد ضيعوا الأمانة مقابل احتفاظهم بالكرسي والصولجان – نذكرهم بقول رسول الإسلام محمد ﷺ « إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَى الْإِمَارَةِ وَسَتَكُونُ نَدَامَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَنِعْمَ الْمُرْضِعَةُ وَبِئْسَتِ الْفَاطِمَةُ »[1] .

واذكروا قول الرسول الكريم ﷺ لأبي ذرٍّ الغفاري لما سأله أن يستعمله :

« يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا ، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا »[2] .

سوف تُسألون عن الإسلام ، الذي أصبح غريباً في بلادكم ؛ شرائعه معطلة . وستسألون عن المسلمين الذين ضيعتم وفرقتم وحدتهم إرضاءً للشيطان . (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ)[3] .

---

(١) رواه أحمد والبخاري والنسائي . نيل الأوطار : جـ ٨ – ص ٢٨٩ . واللفظ للبخاري .
(٢) رواه أحمد ومسلم . نيل الأوطار : جـ ٨ – ص ٢٩٧ .
(٣) سورة الشعراء : ٢٢٧ .

ديوان محاكم التفتيش

تمهيد :

يجهل الكثير من أبناء المسلمين ديوان محاكم التفتيش الذي أنشأه بعض أتباع النصرانية خلال القرون الوسطى ـ عصر الانحطاط ـ في أوروبا .

ومن المعلوم أن المسلمين قد لحق بهم كثير من الاضطهاد على يد وحوش محاكم التفتيش ، الذين تستروا بالدين وتقنعوا بالنصرانية ، تمويهاً للناس وتغطية لجرائمهم البربرية ، التي اقترفوها بحق الإنسانية ، التي لم يشهد لها التاريخ مثيلاً .

ونظراً لما يكتنف ديوان التفتيش من سرية وغموض ـ لا يعرفها إلا القليل ـ فقد رأيت من المفيد أن أُقدم إلى القارئ لمحة موجزة عن نشأة هذا الديوان وأعماله الإجرامية ، ليطلع عليها القارئ الكريم ، ويلم بعض الإلمام بأخبار تلك الفواجع المؤلمة ، والمجازر الوحشية التي تمت على يد رجال المحاكم التفتيشية[1]، وعلى يد رجال الديوان الجهنمي المقدس ، الذي باركه أتباع النصرانية الذين يزعمون ـ زوراً وبهتاناً ـ بأنهم من أتباع السيد المسيح ـ عليه السلام ـ رسول المحبة والسلام ،

(١) أول ما ظهر ديوان محاكم التفتيش في فرنسا ، ثم شمل معظم أوروبا ، وانتقل بعدها إلى الفردوس الإسلامي المفقود ـ الأندلس ـ ويهمنا معرفة ما لحق بمسلمي الأندلس من اضطهاد وتقتيل على أيدي طغمة محاكم التفتيش المجرمة ، التي تسترت بالدين بعد أن باركها الحكام والساسة الطغاة .

وحامل لواء العدل والفضيلة ، الذي يتبرأ من أمثال هؤلاء الأشقياء الضاليين .

ولو أنك - يا أخي القارئ - قلَّبت صفحات التاريخ فلعلك لست بواقع على صحف أسود من صحف ديوان التفتيش . ولست تعثر بمن هو أشد قسوة وأغلظ قلباً ، وأبعد عن الرحمة والإنسانية من رجال هذا الديوان . ولن تجد من هم أقرب إلى الوحشية والبربرية ، وارتكاب الموبقات والمعاصي من تلك العصابات الآثمة الخاطئة ، وتأْتي من المنكرات البشعة ما يذيب القلوب الرحيمة ويفتت الأكباد ، تلك الجماعات الإجرامية التي استترت خلف اسم الدين لترتكب أبشع الفظائع ؛ من قتل وتعذيب وهتك أعراض ، وجمع للسحت من الأموال ، واغتصابها بكل طريقة يعرفها المتلصصة من الناس ، وبطرق تفننوا هم في تنفيذها؛ حتى بزوا بها كبار اللصوص ورؤساء عصابات السفاكين والقتلة المجرمين ، وكانوا هم المبرزين في كل ما يحمر له وجه الإنسانية خجلاً من ارتكاب كل ألوان البغي والفسوق والإثم والعدوان . تلك الجرائم التي لا يقرها عليهم من كان له ذرة من العقل ، أو كان على شيء ولو يسير من الإنسانية الحساسة .

لقد كانت تلك العصابات - التي دعت نفسها برجال التفتيش - أدنى من البهائم العُجْم فهماً لشيء يعرف الإنسانية والشفقة ، وكانت تلك العصابات تبيح لأفرادها التفنن في أعمال القسوة ، وابتزاز الأموال والاستيلاء عليها ، والفتك بالأعراض بدرجة لا تبارى ، فاقت فيها أكبر

عصابات القتلة المجرمين ، منذ عرف التاريخ الإجرام حتى اليوم .

وهكذا فقد ادعت هذه العصابة أنها من أتباع المسيحية السمحة ، التي حمل لواءها السيد المسيح عليه السلام ، وذلك قبل أن تمتد إليها أيدي التشويه والتحريف والتزوير . ونحن لا نعتقد أن ديناً سماوياً يرضى بشيء مما أتوه . وانتسبوا أيضاً لدين عيسى بن مريم عليه السلام ، وحاشا أن يكون السيد المسيح قد أوصى بتلك الفظائع والجرائم ؛ فإنما كان يدعو للمحبة والسلام والأمن والأمان .

ويكفي أن تعلم ـ يا أخي ـ أن تلك العصابات قد ظهرت أثناء العصور المظلمة ، التي عرفت بعصور التعصب الديني المذموم ، تلك القرون المظلمة التي حدثت فيها الحروب الصليبية الممقوتة ؛ إذ كانت تساق فيها الجيوش والجماعات المتحمسة لدين القساوسة والرهبان ـ الذين جعلوا أنفسهم للناس أرباباً من دون الله ـ لغزو البلاد الإسلامية ، ولاستخلاص بعض أجزائها ـ مثل فلسطين الأرض المقدسة ، مهبط رسالات السماء ـ من يد أصحابها المسلمين ، بحجتهم الواهية الملفقة ؛ وهي اضطهاد زوار القبر المقدس والأماكن المقدسة ، وبدعوى صد النصارى عن زيارتها والتبرك بها[1] .

قامت تلك الحروب الصليبية في القرون الوسطى واستمرت زمناً طويلاً ، وهي تتشكل حسب الظروف والمناسبات ، بل حسب أهواء رجال الكنيسة ومآربهم الشيطانية ، وتتسمى بأسماء عدة ، حتى إن

(١) انظر كتاب محاكم التفتيش : ص ٧٠ وما بعدها بتصرف .

بلاد فلسطين ـ القدس ـ لما سقطت في يد الإنجليز ـ أثناء الحرب العالمية الأُولى ـ صرح القوم بأنها نهاية الظفر وخاتمة الحروب الصليبية .

ومعنى هذا أن الحرب الأخيرة التي دارت رحاها في الشرق إنما كانت حرباً صليبية ، كالتي دعا إليها بطرس الناسك الراهب أثناء القرون الوسطى .

كيف نشأت عصابة التفتيش

ذكر المؤرخون بدء أعمال تلك العصابات ، التي أخذت على عاتقها أن ترد عن النصرانية أخطار الإلحاد والكفر والزندقة ، وأن تصد عن النصارى مصائب خافوا أن تحيق بهم ، فقالوا : إنه قد قامت في مدينة [ألبي] ـ إحدى مدن فرنسا الجنوبية ـ جمعية سرية للعمل ـ في نظر رجال الكنيسة ـ على هدم الدين وبث الإلحاد في عقول الناس ، ونسبت تلك الجمعية إلى المدينة التي ظهرت فيها ، فسمي أعضاؤها بالألبيين . ولقد كان الحافز لهذه الجمعية على القيام بعملها ، ما كان قد غلب من سلطان القساوسة ، واستخدامهم هذا السلطان الروحي في إفساد المجتمع وقتل روح النشاط فيه . ولما رأى أحبار الكنيسة ما قد حدث رُئِيَ أنه من الحزم أن تنشأ قوة منظمة لمقاومة الإلحاد والزندقة ، وعهد البابا إلى الآباء الدومنيكيين بتلك المهمة ، لمطاردة الكفرة والزنادقة ـ في نظرهم ـ وأن يعملوا على عقابهم ، مستمدين العون من ذوي النفوذ المدنيين

ومن العظماء في ذلك العصر . وقد أُنشئت تلك المحاكم في فرنسا وإيطاليا وألمـانيا ومملكة أراغون وبـلاد البرتغال[1] .

آلات التعذيب بمحاكم التفتيش

أقدم فيما يلي فكرة موجزة عن وسائل التنكيل والتعذيب ، التي كان يستخدمها رجال محاكم التفتيش في تعذيب الناس ، والتي قد لا يصدقها أبناءُ القرن العشرين ، إلا إذا تيسر لهم الاطلاع على مخازي الصهيونية الحديثة ، ومخازيها الإجرامية في فلسطين ، التي فاقت جرائم النازية والفاشية . أما كيف كان يتم تعذيب المسلمين وغيرهم من المضطهدين ، والتنكيل بهم من قبل عصابات محاكم التفتيش ؛ فقد كانت تجري تلك الفظائع في قاعات مظلمة رطبة جدرانها سوداءُ ، وقد ثبتت فيها مسامير ناتئة قد صدئت ، يغلق عليها بباب من الحديد السميك ، وفي أرضها سلاسل ضخمة مشدودة إلى حلقات في الأرض – وكانت تلك السلاسل لربط المذنبين حين تعذيبهم – وإلى جانب ذلك توجد مجالد من الجلد المعقود على رصاص ، ودواليب وسحابات ذات مسامير صدئة حادة لتمزيق الأجساد ، وعضاضات حديدية لعض اللحم ، ثم أكاليل حديدية ذات مسامير حادة ناتئة من الداخل ، تطوق بها

(١) المصدر السابق : ص ٧٣ وما بعدها .
إن كتاب محاكم التفتيش كتاب فريد ؛ يكشف عن جرائم النصرانية ضد المسلمين ، يستحسن مطالعته .

جبهة المعذَّب ، ثم يأْخذ المعذِّب بتضييقها شيئاً فشيئاً ، بواسطة مفتاح يدور بلولب ، حتى تغرز المسامير في الرأس . ثم هناك كلاليب ذات رؤوس حادة لسحب أثداء النساء من الصدور ، وآلات لسل اللسان من أصله ، وأخرى لتكسير الأسنان ، وأحذية حديدية تحمى لدرجة الاحمرار يلبسونها لمن ساء حظه ، ووقع في يد أولئك الوحوش ، ثم يأْخذ الموكل بالتعذيب في تضييقها شيئاً فشيئاً ، وسفافيد معلقة في السقف لكي تشنق المعذب نصف شنق ؛ فلا هو حي فيرجى ولا هو بالميت فيوارى ، ثم سلاسل ضخمة وأثقال حديدية معلقة أيضاً في نواحي مختلفة ـ في السقف ـ ليربط فيها السجين وبينها ، فتتجاذبه وتمزق أعضاءه تمزيقاً في جهات عديدة . وتابوت هو عبارة عن خزانة حديدية ، يقف فيها المعذب ، وفي بابها ست من الحراب القصيرة المثبتة ، فإذا ما أُغلق ذلك الباب بقوة ، دخلت حربتان في عيني المعذَّب ، فتنفذان من مؤخرة الجمجمة ، وتدخل حربة في قلبه وأخرى في معدته وأخريان في بطنه . ثم كانت توجد آلات كثيرة لطي الإنسان وكسر عظام ظهره ، ثم أخرى لإنزال نقط الماء البارد على رأسه ـ بعد حلق شعره ـ نقطة نقطة حتى يجن المسكين بعد ساعات أو زمن قليل[1] .

ومن أنواع التعذيب أيضاً ما كان يتم بواسطة تمزيق الأعضاء ؛ حيث يعلق الرجل أو المرأة في السقف ، وتربط كل يد وكل رجل إلى حبال مثبتة في بكر في الزوايا الأربع للغرفة ، وتوضع أثقال في أطراف تلك

(١) انظر كتاب محاكم التفتيش : ص ٨٣ ، ٨٤ . للدكتور علي مظهر .

الحبال ، كل ثقل منها مائة كيلو جرام ، فتجذب تلك الأثقال أطرافه ، ويبقى المسكين كأنما هو نائم وهو معلق في الفضاء ، وتتمزق أطرافه على هذه الكيفية إن لم يعترف لهم بكل شيء ، وهم يسألونه أثناء إجراء العملية ، وكلما أصر على السكوت وعدم الإجابة زادوا في وضع أثقال جديدة ، ويبقى كذلك حتى يموت[1] .

أمثلة لضحايا محاكم التفتيش

اعلم يا أخي - يرحمك الله - بأن الحديث عن أعمال رجال التفتيش - الذين لحقهم العار والشنار ، ولفظتهم الأرض ، وسخط عليهم القدر - يطول لما ارتكبوا من سوء وظلم وجرائم بحق الإنسانية . هذه الفظائع والفواحش التي اقترفوها لا يمكن للمرء أن يقف على تفاصيلها إلا إذا ألمَّ بأطراف الموضوع ، ووقف على تفاصيلها . وهذا يتطلب جهداً كبيراً ، وحسبنا بعض الأمثلة :

١ - قبض على شيخ متنصر وهو في سن السبعين - سنة ١٥٦٠ م - ٩٦٧هـ لأنه كان يطالع كتباً عربية في التوحيد الإسلامي ، ولم ينكر الرجل التهمة ولكنه عارض باعتباره كافراً ، ولم يفد كلامه وتبريره لأعماله ، وحكم على الرجل بحرقه ، وزج به في السجن حتى يوم التنفيذ . ولما كان الشيخ مريضاً فإنه توفي في السجن .

(١) انظر محاكم التفتيش : ص ٩٦

فرئي أولاً حرق تمثال يرمز له ! !. ولكنهم عادوا وقضوا بإخراج جثته من القبر ، وإحراقها علناً في حفلة الحرق ، وأن يلحق كفره وإثمه ذكراه ، فتبقى ملوثة وتلحق أُسرته ؛ فلا يباح لأحد أبنائه أن يتقلد منصباً أو عملاً لا يرضى عنه رجال التفتيش ، ثم صودرت أموال الشيخ ! !. وهو الشيءُ المهم جداً عند رجال التفتيش وشياطين محكمة مرسيه بالأندلس[1] .

٢ - وحرقت متنصرة - سنة ١٥٧٥ م - لاتهامها بالكفر والإلحاد ، وقد أُجبرت على الاعتراف بذلك ، تحت تأثير التعذيب في سجن الديوان ، ثم عادت فأنكرت اعترافها ، ولم يفد كل ذلك أمام قسوة قلوب رجال الدين الوحوش[2] .

٣ - وعذب عالم بقطع يديه ورجليه وسل لسانه ؛ لأنه قال ذات مرة ، أمام نفر من معارفه وأصدقائه ، بأنه يستحيل عليه أن يصدق أن الله ذاته قد تجسد وصلب[3] . ألا قاتلهم الله على إفكهم وضلالهم وشركهم ، وتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً

٤ - وصدرت أحكام ببرشلونة ومجريط سنة ١٦٨٠ م - ١٠٩١ هـ - بحق مسلم من قادس كان اسمه مصطفى ، وأُجبر على أن يبدل اسمه باسم نصراني ، وأصبح يدعى [لازارو فرناندو] وقد انضم

(١) محاكم التفتيش : ص ١١٢ - ١١٣ .
(٢) المصدر السابق : ص ١١٤ .
(٣) انظر المصدر السابق : ص ١١٦ .

إلى قرصنة الجزائر ، ولم ينكر الرجل إسلامه بل أصر عليه ، فأُعدم حرقاً هو وجماعة أخرى اتهموا بتهم عديدة . ولم يغفل الديوان المقدس ـ صاحب الجرائم والفظائع ـ ولم يتوان لحظة عن أداء المهمة البربرية ، التي تطوع أفراده بالقيام بها ؛ فقد صدرت أحكام من محاكمه ببلد الوليد ، وطليطلة ومجريط ، وفي قرطاجنة حيث ضُبِطَ جماعة من المتنصرة ، يصلون سراً بمسجد هناك ـ سنة ١١٩٣ هـ ـ ١٧٧٩ م ـ ولا تسل عما لاقوه من جزاء وعقاب وحرق[1] .

واعلم يا أخي ـ رعاك الله ـ أن كل من تقدم للديوان ـ ديوان المخازي والجرائم ـ بالدس في حق غيره لإهلاكه وتعذيبه أمكنه ذلك .

ومن التهم الغريبة أن فلاناً أنشد أغانٍ عربية ، أو أنه يكثر من الاستحمام ـ كما هو عند المسلمين ـ أو لدفاعه ـ ولو بكلمة واحدة ـ عن محمد بن عبد الله ﷺ أو لتكفين ميت بأثواب جديدة ، أو الامتناع عن أكل لحم الخنزير وشرب النبيذ ، أو لإحراز كتب عربية ، أو لقيامه إلى الصلاة ، أو صومه،أو لوضوئه ، أو لوجود أوراق باللغة العربية أو قرآن عند المتهم ؛ فكان العقاب شديداً ؛ من إرهاب وحرق وجلد ومصادرة وتعذيب ، وتشهير بإركاب المتهم حماراً ـ وقد علق بظهره لوحة فيها اسمه وتهمته ـ ثم يطاف به في أرجاء المدينة .

---

(١) المصدر السابق : ص ٤٩ ـ ٥٠ .

وقد تفنن رجال الديوان في أحكامهم وفي تعذيبهم تفنناً عجيباً[1] .

أما عن عدد الضحايا ، التي ارتكبها ديوان محاكم التفتيش ، فهي أكثر من أن تحصر ، إذ قدر بعض المؤرخين أن عدد من عذب من المسلمين ـ بعد سقوط غرناطة ـ بثلاثة ملايين نسمة ؛ قتل من قتل وحرق من حرق ونجا بنفسه من نجا[2] . وخربت غرناطة والأندلس وأوحشت من أهلها ، حتى لم يبق للمسلمين من ملكهم الكثير إلا الذكرى المؤلمة ؛ وذلك لتفريطهم وإفراطهم .

ويقدر المؤرخ [فليورنتي] ـ وهو خبير بأعمال الديوان ـ عدد الضحايا حتى أوائل القرن التاسع عشر بما يأتي :

١ ـ ٣١٩١٢ ـ حرقاً .

٢ ـ ١٧٦٥٩ ـ أحرقت رموزهم أو تماثيلهم .

٣ ـ ٢٧١٤٥٠ ـ وقعت عليهم عقوبات متنوعة ولكنها شديدة .

وقدر عدد المنفيين ـ كما يقول المؤرخ الاسباني فليورنتي ـ بألف ألف نسمة ـ مليون ـ على أقل تقدير[3] .

ومن المعلوم أن الديوان استمر في جبروته وطغيانه وفجوره ، حتى احتل الفرنسيون اسبانيا ، وصدر أمر نابليون ـ سنة ١٨٠٨ م ـ ١٢٢٣ هـ ـ بإلغائه ، ولكنه عاد للحياة في عهد فرديناند السابع ـ ملك اسبانيا ـ

(١) محاكم التفتيش : ص ١١٤ .
(٢) المصدر السابق : ص ٤٤ .
(٣) المصدر السابق : ص ٤٨ .

الذي أحياه – سنة ١٨١٤ – ١٢٣٠ هـ – وظل في مظالمه حتى سنة ١٨٣٤ م ١٢٥١ هـ . لما وافق مجلس النواب الاسباني على إلغائه نهائياً في اسبانيا ، بعدما أتى من الجرائم والفظائع ما لم يعرف لها مثيل في التاريخ[1] .

ولا شك أن أمثال تلك الفظائع الوحشية ، والأعمال الإجرامية التي كان يأتيها الديوان ، وتلك الأحكام القاسية الجائرة ، التي كانت تقضي بها محاكم التفتيش ، وتنفذها في حق كل من يخالف أوامرها ، ويخرج على تعاليمها التعسفية ، التي لم يسلم منها الكثير من النصارى واليهود ، حيث ينصب التنكيل والاضطهاد على كل من يخالف ديوان التفتيش ، وإن لم يكن مسلماً .

هذه بعض الفظائع التي لم يسبق لها مثيل في تاريخ كبار المجرمين ، وطغمة الأشقياء الفاسدين .

وبعد : فهذه يا أخي القارئ صورة مصغرة لبعض فظائع وحوش ديوان التفتيش – وهي غيض من فيض – الذي كان يقوم باسم الدين النصراني ، الذي يبرأ منه المسيح بن مريم – عبد الله ورسوله عليه السلام – وهي صورة يرى فيها القارئ ما كانت عليه قلوب هؤلاء القساوسة والرهبان الأعلاج من القسوة والغلظة ، التي لا تمت إلى الإنسانية بصلة ، بل إن وحوش الغاب لتنفر منها وتأباها .

ولا يفوتنا أن نذكر في ختام كلامنا هذا ، أن المصائب التي حاقت

(١) نفس المصدر : ص ٥٢ وما بعدها .

بالمسلمين في تلك البلاد ، إنما كانت جزاء تفرقهم وانقسامهم شيعاً وطوائف متناحرة ، حتى فشلوا وذهبت ريحهم . (وَأَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)[1] .

هل الإنسان خليفة الله في الأرض؟

شاعت على ألسنة جمهرة كبيرة من أبناء المسلمين مقالة ؛ إن الإنسان خليفة الله في الأرض ، مع أن كثيراً من النصوص تنفي هذه المقالة ، لذا فإني أقدم عدداً من الدلائل والنصوص الثابتة الدالة على بطلان دعوى القائلين بهذه المقولة .

قال الإمام النووي : لا ينبغي أن يقال للقائم بأمر المسلمين خليفة الله؛ بل يقال : الخليفة . وخليفة رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين .

وقال النووي : روينا في شرح السنة للإمام أبي محمد البغوي عنه قال رحمه الله : لا بأس أن يسمى القائم بأمر المسلمين أمير المؤمنين . والخليفة ـ وإن كان مخالفاً لسيرة أئمة العدل ـ لقيامه بأمر المؤمنين . قال : ويسمى خليفة لأنه خلف الماضي قبله وقام مقامه .

وقال : ولا يسمى أحد خليفة الله تعالى ـ بعد آدم وداوُد عليهما الصلاة والسلام[2] .

(١) سورة الأنفال : ٤٦ .

(٢) الأذكار النووية : ص ٣١٠ .

قال الله تعالى : (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)[1] . وقال تعالى : (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ)[2] .

وعن ابن أبي مليكة أن رجلاً قال لأبي بكر الصديق رضي الله عنه : يا خليفة الله . فقال : أنا خليفة محمدﷺ ، وأنا راض بذلك . وقال رجل لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : يا خليفة الله . فقال : ويلك ، لقد تناولت تناولاً بعيداً ، إن أمي سمتني عمر . فلو دعوتني بهذا الاسم قبلت ، ثم كبرت فكنيت أبا حفص ، فلو دعوتني به قبلت ، ثم وليتموني أموركم فسميتموني أمير المؤمنين ، فلو دعوتني بذاك كفاك .

وذكر الإمام ـ أقضى القضاة ـ أبو الحسن الماوردي البصري الفقيه الشافعي في كتابه ـ الأحكام السلطانية ـ أن الإمام سمي خليفة لأنه خلف رسول اللهﷺ في أمته . قال : فيجوز أن يقال : الخليفة ـ على الإطلاق ـ ويجوز : خليفة رسول الله .

ثم قال : واختلفوا في جواز قولنا : خليفة الله . فجوزه بعضهم ؛ لقيامه بحقوقه في خلقه ، ولقوله تعالى : (هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ)[3] . وامتنع جمهور العلماء من ذلك ، ونسبوا قائله إلى الفجور[4] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : وقد ظن بعض القائلين الغالطين ـ كابن عربي ـ أن الخليفة هو الخليفة عن الله ـ مثل نائب الله ـ

---

(١) سورة البقرة : ٣٠ .
(٢) سورة ص : ٢٦ .
(٣) سورة فاطر : ٣٩ .
(٤) انظر الأذكار النووية : ص ٣١٠ .

والله تعالى لا يجوز أن يكون له خليفة ، ولهذا قالوا لأبي بكر : يا خليفة الله . فقال : لست بخليفة الله ، ولكني خليفة رسول الله ﷺ . حسبي ذلك[1]

بل هو سبحانه يكون خليفة لغيره ؛ قال النبي ﷺ : « اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهلِ اللَّهُمَّ اصْحَبْنَا فِي سَفَرِنَا وَاخْلُفْنَا فِي أَهْلِنَا » . رواه الترمذي وابن ماجه .

ولا يجوز أن يكون أحد خلفاً منه ـ أي من الله تعالى ـ ولا يقوم مقامه . إنه لا سَميَّ له ، ولا كفءَ له ، فمن جعل له خليفة فهو مشرك به[2] .

ومن أدلة من استشهدوا على خلافة الإنسان في الأرض ـ القائلين بأن الإنسان خليفة لله ـ قوله تعالى : (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)[3] .

وهذه الآية حجة عليهم لا لهم بدليلين :

أولاً : إن الله سبحانه عرض هذه الأمانة على السمٰوات والأرض والجبال ، فإذا كان الإنسان هو خليفة الله ، فكيف عرض سبحانه هذه الأمانة على غيره ؟ .

---

(١) رواه أحمد في المسند .

(٢) فتاوى ابن تيمية : جـ ٣ ـ ص ٤٦١ .

(٣) سورة الأحزاب : ٧٢ .

ثانياً : كيف يجعل الله الإنسان خليفة في الأرض ، ثم يقول عنه : (إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً) .

ومن الآيات التي استدل بها هؤلاء المجوّزون على هذه الخلافة قوله تعالى : (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ)[1] .

وليس في هذه الآية حجة لهم فيما ذهبوا إليه . والغريب أنهم فهموا من قوله تعالى : (وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي) أي من روح الله نفسه ؛ مما جعلهم يتأكدون من هذه الخلافة ، مع أن المقصود من روحه التي خلقها ، وإلا كان الإنسان جزءًا من الله ، وهو سبحانه (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ)[2] .(وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ)[3] .

وإذا كان لا يصح أن نقول : إن الإنسان خليفة الله . فكذلك لا يصح أن نقول : إنه أفضل المخلوقات ـ كما زعم هؤلاء القائلون بالخلافة ليدعموا حجتهم ـ ودليلنا على ذلك أن رسول الله ﷺ نفسه ـ وهو على سمو مكانته ـ لم يقل : إنني سيد المخلوقات . بل قال : « إِنَّنِي سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ » .

(١) سورة ص : ٧١ ـ ٧٧ .
(٢) سورة الإخلاص : ٤ .
(٣) سورة الزخرف : ١٥ .

إن هناك الملائكة السفرة الكرام البررة ، الذين يستنسخون من اللوح المحفوظ .

وليس لدينا نص صريح على أفضلية الإنسان عليهم ولا العكس[1] .

وليت هؤلاء المجوِّزين حاولوا فهم قوله تعالى : (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)[2] .

إن هؤلاء الملائكة لو فهموا أن آدم خليفة الله ، لما تجرؤوا ولا توهموا أن خليفة الله سيفسد في الأرض ويسفك الدماء ، إنما فهموا أن آدم وذريته من البشر ، سيخلفون من سبقهم من المخلوقات ، الذين أفسدوا في الأرض . ذكر ذلك ابن عباس والحسن رضي الله عنهما[3] .

ومن أعظم الأدلة على بطلان دعوى القائلين بأن الإنسان خليفة الله في الأرض قوله ﷺ في حديث له لأحد قواده : « وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ ، وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ ، فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ فَإِنَّكُمْ إِنْ تَخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تَخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ

(١) مجلة الوعي الإسلامي ١٣٨٦ هـ .

(٢) سورة البقرة : ٣٠ .

(٣) راجع تفسير الإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي البغدادي المتوفى سنة ٥٩٦ رحمه الله .

اللهِ فَلَا تُنْزِلْهُمْ وَلٰكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَىٰ حُكْمِكَ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللهِ أَمْ لَا »[1] .

ويقول المفسر الكبير ابن كثير ، في تفسير الآية التي اتخذها القائلون بخلافة الإنسان لله تعالى ـ التي هي من أعظم حججهم على إثبات دعواهم ـ قال رحمه الله في تفسيرها : (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) أي قوماً يخلف بعضهم بعضاً ، قرناً بعد قرن ، وجيلاً بعد جيل ، كما قال تعالى : (هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ) . (وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ) وقال : (وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ) . وقال : (وَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ)[2].

ويقول صاحب تفسير التحرير والتنوير : والمراد من الخليفة هنا إما المعنى المجازي ، وهو الذي يتولى عملاً يريده المستخلِفُ ؛ مثل الوكيل والوصي ؛ أي جاعل في الأرض مدبراً ؛ يعمل ما نريده في الأرض ، فهو استعارة أو مجاز مرسل وليس بحقيقة ، لأن الله تعالى لم يكن حالاً في الأرض ولا عاملاً فيها العمل الذي أودعه في الإنسان ؛ وهو السلطنة على موجودات الأرض ، ولأن الله تعالى لم يترك عملاً كان يعمله فوكله إلى الإنسان ، بل التدبير الأعظم لم يزل لله تعالى ، فالإنسان هو الموجود الوحيد الذي استطاع ـ بما أودع الله في خلقته ـ أن يتصرف في مخلوقات الأرض بوجوه عظيمة لا تنتهي ، خلاف غيره من الحيوان . وإما أن يراد

(١) رواه الإمام مسلم .

(٢) انظر تفسير ابن كثير : جـ ١ . سورة البقرة آية : ٣٠ وما بعدها .

من الخليفة معناه الحقيقي ، إذا صح أن الأرض كانت معمورة من قبل بطائفة من الجن[1] .

ثم يقول : فالخليفة آدم ، وخلافته قيامه بتنفيذ مراد الله تعالى من تعمير الأرض بالإلهام أو بالوحي ، وتلقين ذريته مراد الله تعالى من هذا العالم الأرضي ، ومما يشمله هذا التصرف ـ تصرف آدم ـ بسنِّ النظام بأهله وأهاليهم ، على حسب وفرة عددهم واتساع تصرفاتهم[2] .

ونقل الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ ما ملخصه ، عن زيد بن علي : وليس المراد هاهنا بالخليفة آدم عليه السلام فقط . وعزاه القرطبي إلى ابن عباس وابن مسعود وجميع أهل التأويل .

ومن العجيب أن هؤلاء الذين يروجون لفكرة خلافة الإنسان لله في الأرض ، لم يقتصروا على جعل أبي البشر آدم عليه السلام خليفة الله ـ كما يمكن أن يفهم بعضهم من ظاهر الآية الكريمة ـ بل نراهم قد تجاوزوا ذلك ؛ فذهبوا إلى القول بخلافة البشر كلهم ؛ المؤمن منهم والكافر ، والصالح والفاسق ، الخارج على شرع الله وأحكام دينهوالملتزم

وبناءً على ما تقدم فلا يجوز أن يكون أحد خلفاً لله تعالى أو يقوم مقامه ؛ لأنه سبحانه فردٌ صمدٌ لا سميّ له ولا كفء : (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ) . ومن قال بما يخالف هذه الآية الكريمة ، وجعل لله سبحانه خليفة ، فهو مشرك بالله شاء أو أبى .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير : جـ ١ ـ ص ٣٧٦ ، ٣٧٧ .

(٢) انظر المرجع السابق : ص ٣٧٧ وما بعدها . للشيخ محمد بن عاشور رحمه الله .

إن فكرة خلافة الإنسان لله في الأرض ، مأخوذة عن نظرية الحلول والاتحاد ، ونظرية القطب الغوث لغلاة الصوفية وأضرابهم من المدرسة الباطنية الخبيثة ؛ فقد قال ابن عربي : لا يكون من قطب الغوث بالزمان إلا واحد ؛ فمنهم من يكون ظاهر الحكم ويحوز الخلافة الظاهرة ، كما حاز الخلافة الباطنة من جهة المقام ؛ كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن عبد العزيز والمتوكل ، ومنهم من حاز الخلافة الباطنة خاصة ، ولا حكم له في الظاهر ؛ كأحمد بن هارون الرشيد ، والسبتي وأبي يزيد البسطامي ـ قاتلهم الله ـ وأكثر الأقطاب لا حكم لهم في الظاهر . أ . هـ[1] .

وأنكى من هذا وأشد ما ذكره أبو الحسن الشاذلي حين قال : للقطب خمس عشرة علامة ؛ عدد منها أن يمدّ بمدد العصمة ، والخلافة ـ وهو أن يكون خليفة الله في الأرض ـ والنيابة ؛ وهي أن يكون نائباً عن الحق في تصريف الأحكام[2] .

وهكذا يلتقي دعاة هذه المقولة ـ الإنسان خليفة الله في الأرض ـ بما يروج له أصحاب نظرية الاتحاد والحلول المشركون ، الذين يريدون أن يطلقوا خصائص الألوهية على المخلوقات ، وهذا هو الشرك الأعظم الذي يخلد أصحابه في النار . والله سبحانه : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) . (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ)[3] . تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

---

(١) الفتوحات المكية : ج ٢ . ص ٨ .

(٢) انظر التصوف بين الحق والخلق : ص ٨٩ وما بعدها .

(٣) سورة الإخلاص : ٤

العابد الجاهل

أكرم الله عباده المؤمنين بالإيمان ، ورفع منزلة العلماء العاملين بعلمهم النافع ، والداعين إلى الله على هدى وبصيرة . قال تعالى : (يَرْفَعِ اللهُ الَّذِين آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)[1] .

فللعلماء الصادقين في دعواهم درجات عالية ، ومنازل رفيعة عند الله سبحانه ، فهم الذين لم يبخلوا على أمتهم بعلمهم النافع ، وخاصة ما يتعلق بالعقيدة والتوحيد ؛ فقد نشروا هذا العلم ، وقاموا على بيانه وتطبيقه ، ونصحوا الأمة ، وبذلك قوضوا معالم الجهل ، ودكوا معاقل الضلال والإلحاد .

والإنسان – أي إنسان – لا يستطيع التثبت أو التبصر بأمر دينه إلا بالعلم والتفقه ، فمن حقق لنفسه نصيباً وافراً من العلم أمن عاقبة أمره ، وعبد ربه على هدى ونور ، طالما اتقى الله وكان وقافاً عند حدود شرعه المبين .

أما الجاهل الذي لم يتفقه في دينه ، فقد يعبد الله بإخلاص وصدق ، ولكنه قد يخرج على أمر الله دونما علم ؛ لأنه لا يستطيع أن يميز بين الحلال والحرام أو النور والظلام ، فيرتكب المعاصي والمنكرات ؛ لجهله بالعقيدة والعبادات وأضدادها من المحظورات ؛ كالبدعيات والشركيات .

وكذلك فعالم السوء المبتدع يضلل الناس ويخرجهم عن الطريق

(١) سورة المجادلة : ١١

السوي ، كما أن العابد الجاهل ـ الذي لا يدرك موازين العبادة ـ يخشى عليه من الانحراف والهلاك ؛ لأنه فاقد الإدراك بمعالم الطريق القويم فتزل قدمه ؛ كمن يلج البحر ويتوغل داخله وهو لا يجيد السباحة ، ولا يعرف كيف يقاوم وحوش البحر وأمواجه ، فقد يكون هلاكه أقرب إلى الظن من نجاته ، وذلك لعدم دربته وخبرته ، وجهله لعالم البحار ولوازمها .

وقد بين رسولنا ﷺ درجات العلماء العاملين في قوله : « فَضْلُ الْمُؤْمِنِ الْعَالِمِ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِ الْعَابِدِ سَبْعُونَ دَرَجَةً »[1] .

قال ابن القيم : وأما العابد الجاهل فآفته من إعراضه عن العلم وأحكامه ، وغلبة خياله وذوقه ووجده وما تهواه نفسه[2] . ولهذا قال سفيان بن عيينة وغيره : احذروا فتنة العالم الفاجر وفتنة العابد ؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون ، فهذا بجهله يصد عن العلم وموجبه ، وذاك ببغيه يدعو إلى الفجور[3] .

وقد ضرب الله سبحانه مثل النوع الآخر بقوله : (كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ ، فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ)[4] .

---

(١) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله . انظر مختصر شعب الإيمان ص ٣٨ للإمام البيهقي .
(٢) الفوائد : ص ١٣٧ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) سورة الحشر : ١٦ ، ١٧ .

وقصته معروفة ؛ فإنه بنى أساس أمره على عبادة الله بجهل ، فأوقعه الشيطان بجهله ، وكفره بجهله ؛ فهذا إمام كل عابد جاهل يكفر ولا يدري ، وذاك إمام كل عالم فاجر ؛ يختار الدنيا عن الآخرة . وقد جعل سبحانه رضا العبد بالدنيا ، وطمأنينته وغفلته عن معرفة آياته وتدبرها والعمل بها ، سبب شقائه وهلاكه ، ولا يجتمع هذان - أعني الرضا بالدنيا والغفلة عن آيات الرب - إلا في قلب من لا يؤمن بالميعاد ، ولا يرجو لقاء رب العباد ، وإلا فلو رسخ قدمه في الإيمان بالميعاد ، لما رضي الدنيا ولا اطمأن إليها ، ولا أعرض عن آيات الله .

وأنت إذا تأملت أحوال الناس ، وجدت هذا الضرب هو الغالب على الناس ، وهم عماد الدنيا . وأقل الناس عدداً من هو خلاف ذلك ؛ وهو من أشد الناس غربة بينهم ، لهم شأن وله شأن ، علمه غير علومهم وإرادته غير إراداتهم ، وطريقه غير طريقهم ؛ فهو في واد وهم في واد . قال تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)[1] .

ثم ذكر وصف ضد هؤلاء ومآلهم وعاقبتهم بقوله:(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ

(١) سورة يونس : ٧ ، ٨ .

فِي جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ)[1] . فهؤلاء إيمانهم بلقاء الله أورثهم عدم الرضا بالدنيا وعدم الطمأنينة إليها ، ودوام ذكر آياته ؛ فهذه مواريث الإيمان بالمعاد ، وتلك مواريث عدم الإيمان به والغفلة عنه[2] .

يقول ابن القيم : الجاهل يشكو الله إلى الناس ، وهذا غاية الجهل بالمشكو والمشكو إليه ، فإنه لو عرف ربه لما شكاه ، ولو عرف الناس لما شكا إليهم .

ورأى بعض السلف رجلاً يشكو إلى رجل فاقته وضرورته فقال : يا هذا ، والله ما زدت على أن شكوت من يرحمك إلى من لا يرحمك . وفي ذلك قيل :

وإذا شكوت إلى ابـــن آدم إنمـــا تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

والعارف إنما يشكو إلى الله وحده ، وأعرف العارفين من جعل شكواه إلى الله من نفسه لا من الناس ، فهو يشكو من موجبات تسليط الناس عليه ، فهو ناظر إلى قوله تعالى :

(وَمَآ أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ)[3] . (وَمَآ أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ)[4] . (أَوَلَمَّآ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)[5] .

(١) سورة يونس : ٩ .
(٢) الفـــوائد : ص ١٣٧ ، ١٣٨ .
(٣) سورة الشورى : ٣٠ .
(٤) سورة النساء : ٧٩ .
(٥) سورة آل عمران : ١٦٥ .

فالمراتب ثلاثة ؛ أخسها أن تشكو الله إلى خلقه ، وأعلاها أن تشكو نفسك إليه ، وأوسطها أن تشكو خلقه إليه[1] .

تحامل الغرب وتجنيه

لقد سدد أعداءُ الإسلام سهامهم المسمومة صوب الإسلام ودستوره الخالد ، ولا ريب أن الصراع بين الحق والباطل سيستمر مادام الليل والنهار ، وهذا بَيِّنٌ في تحامل الغرب وتجنيه على أُمَّة الإسلام .

من هذا المنطلق لا يسعني إلا أن آتي بوجهات نظر الغرب عن الإسلام وأهله ؛ وهما فئتان : فئة متحاملة على الإسلام ، وفئة تنصف الإسلام بتحريها التاريخ الصادق من غير تحيز .

الفئة الأولى : المتحاملة والمتجنية من الغربيين على الإسلام .

يقول [بيكر وبرنارد لويس] مستدلين بقوله تعالى :

(لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ)[2] .

---

(١) الفوائد ص : ١١٦ – ١١٧ .

(٢) سورة سبإ : ١٥ ، ١٦ .

يقولان : إن انهيار سد مأرب في القرن السادس ، وما أصاب البلاد من تقلب الأحوال الاقتصادية والاجتماعية دفعهم إلى الهجرة ، ولا فرق في ذلك بين الهجرات السابقة ، التي قام بها الآراميون والكنعانيون ، والهجرات اللاحقة التي قام بهـا العرب عقب ظهور الإسلام[1] . ويشاركهما في هذا الرأي [توماس آرنولد] ويشتد تحاملاً عن سابقيه فيقول : إن حركة التوسع العربي كانت هي هجرة جماعة نشيطة ، دفعها الجوع والحرمان إلى أن تهجر صحاريها المجدبة ، وتجتاح بلاداً أكثر خصباً كانت ملكاً لجيران أسعد منهم حظاً[2] .

ومن الواضح أن هذه الآراء تتضمن كثيراً من التضليل والبعد عن الحقيقة ، ومع هذا فلنستمع إلى الفئة الثانية ، من الغربيين الذين ينصفون الإسلام بتحريهم التاريخ الصادق من غير تحيز .

الفئة الثانية : غربيون يحققون التاريخ وينصفون الحق .

يقول صاحب كتاب محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن : ليس أدل على إنصاف المسلمين وبيان حقيقة الغرض ، من أقوال قادة الحرب المقهورين ؛ فهـذا هو الامبراطور هرقـل يسخط على الحاكم

(١) محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن بقلم إبراهيم خليل أحمد .

(٢) لم يصل الأمر بالمسلمين لتكون فتوحاتهم سببها الجوع والحرمان ، وهدفها اجتياح بلادغيرهم الخصبة ، لأنهم – المسلمين – كانوا أهل تجارة ويسار في رحلتي الشتاء والصيف . كما لم يكن هدف فتوحاتهم مادياً دنيوياً ، بقدر ما كان يعني نشر مبادىء الإسلام الحنيف ، ولعل في تخييرهم لأهل البلاد المفتوحة بين الإسلام أو الجزية أو القتال أصدق دليل على ما نقـول . . .

الروماني ، ويندد بانكساره أمام جيوش المسلمين ، فيقول الحاكم مدافعاً عن نفسه : إنهم أقل منا عدداً ، ولكن عربياً واحداً يعادل مائة من رجالنا ؛ ذلك أنهم لا يطمعون في شيء من لذات الدنيا ، ويكتفون بالقليل من الكساء والغذاء ، في الوقت الذي يرغبون فيه في الاستشهاد ؛ لأنه أفضل طريق يوصلهم إلى الجنة على حين نتعلق نحن بأهداب الحياة ، ونخشى الموت يا سيدي الامبراطور .

ويتحدث [بيرون][1] مؤكداً أن الحماسة الدينية وحدها هي التي أدت إلى نجاح العرب في حركتهم التوسعية فيقول : إن الفارق كبير بين الجرمان أو المغول ؛ الذين غادروا بلادهم ومعهم نساؤهم وأطفالهم وعبيدهم ومواشيهم ؛ بغية السلب والنهب والحصول على أرض جديدة تدر عليهم من خيراتها عيشاً رغداً ، والعرب الذين خرجوا في أوائل القرن السابع الميلادي ينادون بأن (لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ) دون أن يصطحبوا معهم سوى سيوفهم وخيولهم .

حقيقة إن الفتح الإسلامي أعقبه حركة أخرى للتهجير والاستيطان في الولايات العربية الجديدة التي تم فتحها ، ولكن هذه الحركة الأخيرة لم تبدأ إلا بعد أن انتهت الحركة الأولى بنحو قرنين من الزمان ، تغيرت فيه أوضاع المسلمين في البلاد المفتوحة ، وأصبحت جزءًا من المجتمع العربي الإسلامي . ومع هذا فإن [بيكر] يؤكد أن النظرة السالفة

(١) تاريخ أوروبا : بيرن – ٤٧ .

التي مازال بعض المثقفين - وغيرهم في أوروبا حتى اليوم - يعتقدون صحتها بعيدة عن الواقع لأن الوثائق المعاصرة كلها تثبت أن العرب لم يفرضوا دينهم على أهالي البلاد المفتوحة ، بل فرضوا سيطرتهم السياسية لا غير ، فسيطرة العرب السياسية هي التي انتشرت بقوة السلاح ، أما الديانة الإسلامية فقد وجدت سبيلها إلى قلوب عدد كبير من أهالي البلاد المفتوحة ، بدليل ما أجمعت عليه الوثائق من تسامح العرب المطلق من النصارىٰ واليهود على السواء ، وهو تسامح لم يخطر على بال إنسان ، ولم يحظ به النصارىٰ واليهود في ظل حكامهم السابقين[1] .

ولا شك أن روح التسامي والتسامح ، التي عرف بها العرب ، والتي لا يوجد لها نظير في الشرق أو الغرب في العصور الوسطى ، كان لها أكبر الأثر في تفهمهم للحضارات الأُخرى السابقة تفهماً صحيحاً واضحاً وفي تفهم الأوروبيين والأفريقيين لحضاراتهم تفهماً مفيداً . أ . هـ[2] .

وهكذا كانت مواقف بعض المنصفين الغربيين لتاريخ الإسلام وللحقيقة العلمية ، مما يثلج صدر هذه الأُمة ؛ ذات العقيدة الشريفة والهداية الربانية ، وصفعة قوية في وجوه المغرضين من أهل الباطل ودعاة الكذب والخداع والتدليس .

ذلك بأن العرب المسلمين لم يفرقوا في نشاطهم الحضاري بين

(١) موسوعة كمبردج لتاريخ العصور الوسطى : مجلد ٢ . ص ٣٣ . محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن .

(٢) المرجع السابق : ص ٩٢ ، ٩٣ .

المسلمين وغيرهم ، بل سمحوا للنصارى واليهود بالتتلمذ عليهم والاستفادة منهم ؛ فأقبل الأوروبيون في الأندلس وصقلية ، والآسيويون في الشام وغيرها ، على دراسة المعارف الإسلامية وترجمتها ، مما ساعد على نهضة أوروبا في العصور الوسطى ، وشواهد ذلك كثيرة اعترفت بها أوروبا وغيرها .

أريـد أن أذكر الغرب ـ لعلهم نسوا ـ بالحروب المذهبية الدامية ؛ منذ عهد لوثيروس إلى القرن الثامن عشر وألا يأخذوا على المسلمين في عهـد بني أمية حركة التذمر التي سادت أقباط مصر ، والتي لم يكن من ورائها أي لون من ألوان الاضطهاد الديني ، فهلا أخذ على الامبراطور [دوقلد يانوس] أنه أذل النصارىٰ ، وحاول إبادتهم ، حتى إن أقباط مصر ربطوا تقويمهم القبطي بهذا الاضطهاد الديني الذي حل بهم ؟ .

كما أذكِّر الغرب ودعاتهم ـ أصحاب الهوى والضغينة ـ بأن يذكروا دائماً ما حل بأقباط مصر ، من اضطهاد ديني سافر للعقيدة ، مما جعَلهم يؤدون شعائرهم الدينية تحت الأرض ، أو في أقبية بعيدين عن أنظار الرومان ! ! . هل ينسى الغرب هذا كله ، أم أن الحقيقة مرة عندهم ؟ ! . الواقع يا غـرب أن هذا التذمر ـ الذي وقع من أقباط مصر في عهد الدولة الأموية ـ لم يكن وليد اضطهاد ديني ، بل كانت ترجع أسبابه إلى ظروف اقتصادية بحتة ، اكتنفت الدولة الأموية في فترة من فترات توسعها السياسي والعمراني ، وأرادت أن تعتمد في نفقاتها على دخلها القومي ، مما استلزم فرض ضرائب على الولايات

الإسلامية التي كانت مصر واحدة منها ، ولم تفرض هذه الضرائب على أقباط مصر فحسب بل عليهم وعلى المسلمين أيضاً ، وهذه هي العدالة المطلقة في الواجبات التي تفرضها الدولة على المواطنين .

بل أكثر من هذا يا غرب ؛ لقد استطاعت الأُمة الإسلامية ـ بعد توسعها السياسي شرقاً وغرباً ـ أن تقصم ظهر الأباطرة والملوك ، وأن تغسل سبعمائة سنة عاشها الغرب في ظل الامبراطورية الرومانية الغربية ، والشرق في ظل الامبراطورية الفارسية ... استطاع الإسلام أن يغسل عقول سكان الأقاليم مما علق بها ؛ من عقائد فاسدة وتعاليم باطلة وتقاليد سقيمة ... استطاع الإسلام أن يضيء كضياء الشمس في وضح النهار ، وكفى هذه الشعوب أن تتمتع بالنور الرباني الذي يُشعّه عليها القرآن الكريم ، وسنة الرسول العظيم عليه السلام .

ويقول بيكر : إن أوروبة ـ في العصور الوسطى ـ نظرت إلى انتشار الإسلام من وجهة النظر الكنسية الدينية ، وكأن الكنيسة قد أفزعها وآلمها ضياع البلاد بالشام ومصر وأعالي العراق ، وكانت ترتبط بأُصول النصرانية ، فراحت تفسر انتشار الإسلام في هذه البلاد بأنه لم يتم إلا بحـد السيف .

إن هذا هو الزيف ومناقضة الواقع ، وهم بهذا الادعاء يموهون على خوف ينتابهم ، ورهبة تسري في أوصالهم عند سماعهم للإسلام

والعرب[1] ، وقد سجل التاريخ أنهم لم يكن لهم شأن حين احتضنهم العاهل الروماني – الامبراطور قسطنطين – بحمايته لهم وحماية عقيدتهم؛ وذلك باستصدار قانون بمرسوم – ميلانو سنة ٣١٤م – باعتبار أن النصرانية دين رسمي للدولة ، شأنها في ذلك شأن الوثنية[2] .

أما الإسلام فهو كالعملاق الذي ولد ولم يركن إلى حماية دولة من الدول ، بل استمد مجده من الله الملك القهار ، فهو كالعملاق الذي يحمي ولا يهدد ، يصون ولا يبدد ، وهو في كل هذا يحرص كل الحرص على العـــزة والكرامـــة .

نقول لدعاة الغرب – والمتحاملين منهم خاصة على هذا الدين – ونسألهم : أين كانوا ؟ . وعلى أي حال كانت عواصمهم ؛ إذا ما قورنت بحاضرة الرشيد دار السلام – بغداد العرب والمسلمين – وقرطبة الأندلس؛ في ذلك العهد من عهود الإسلام الزاهرة ؟ ! . وحسبنا قول الحق سبحانه : (فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ)[3] .

---

(١) ومثالاً على حقدهم الأسود ؛ عندما أعلن عن إقامة مركز إسلامي في روما – حاضرة الفاتيكان – فقد صعق الإيطاليون الصليبيون لهذا النبأ ، وملؤوا الجدران وأبواب المتاجر بالشعارات المعادية للإسلام ؛ منددين بإقامة أي مركز إسلامي هناك . وينسون أنهم ملؤوا بلاد المسلمين بالمنصِّرين المفسدين دون معارضة أحد . وفي نشر الإسلام بينهم خير عظيم لو كانوا يعقلون .

(٢) محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن : ص : ٩٤ وما بعدها .

(٣) سورة الرعد : ١٧ .

تكسب المرأة

اهتم الإسلام بأبنائه ، وحفظ لهم مقومات بقائهم واستمرار حياتهم ، وأولى الجانب الأخلاقي كثيراً من عنايته واهتمامه ؛ لما يترتب عليه من نتائج إيجابية ، لها الأثر البالغ في بناء الشخصية الإسلامية وحفظ كيانها ، وفق المنهاج الإلهي والسلوك السوي .

لقد أنعم الله سبحانه على أمة الإسلام بنعم كثيرة ومنن وفيرة ، حباها إياها دون سائر الأمم ، كما أولاها نعمة الدين ؛ التي هي بحق من أعظم النعم وأكبر المنن ، فهل نقابل نعمة المنعم الكريم بالجحود والتمرد على شرعه ودينه ؟ ! . أم أنَّ حق الشكر يوجب علينا الامتثال لأمره تعالى ، والتزام منهجه القويم ؟ ! .

ولما امتدت إلينا عدوى عادات الغرب الكافر في كل شيء ؛ قلدناه في عاداته وأباطيله وترهاته ، وتمشينا مع أهوائنا فيما ينافي تعاليم ديننا ، وقد بدأت مجتمعاتنا تفتح صدرها لكل وافد ، وبلا أدنى تفكير أو دراسة أو تدبر .

هكذا بدأت أوساطنا الاجتماعية منفتحة على كل جديد مستورد دخيل ؛ فقلدت الغرب ـ صاحب الرذيلة وموئل الجريمة ـ في قرننا العشرين ، فها هي المجتمعات المختلطة قد عمت دوائر الحكومة ومكاتب البوليس والشركات والمدارس والمعاهد وأماكن اللهو ؛ كالسينما والمقاهي والأندية والمحافل المختلفة .

بهذه البساطة قلد أبناءُ الشرق المسلم الغرب الملحد ، في مفاسده وضلاله ، وها نحن أولاء نرزح تحت وطأة مفاتنه ، ونجني ثمار شروره وآفاته المدمرة ، أما طريق الخلاص فهي واضحة جلية ، وتكمن في العـودة لتعاليم الإسلام ، والتفيؤ بظلاله الوارفة ، والتحصن في كنفه المكين .

إن نظرة خاطفة على ما جناه الاختلاط من المفاسد والمنكرات ، التي ملأت جوانب الحياة ، لتلك المجتمعات التي وقعت في هذا البلاء العظيم – اختياراً أو اضطراراً – تدل دلالة واضحة على سوء منقلبها وانحلال أخلاقها ، الذي مرده انفلات المرأة من بيتها ، وتفكك الأُسر والتمرد على الفطرة ، والانقياد للهوى والشيطان .

إن الدعوة السافرة – التي يطلقها المضللون – إلى نزول المرأة في المواقع والميادين التي تخص الرجال ، أمـر خطير ومعول هـدم في المجتمع الإسلامي ، ومن أعظم آثاره المروعة آفة الاختلاط ، الذي يعتبر بحق من أعظم وسائل انتشار الفاحشة ، التي تفتك بالمجتمع وتهدم قيمه وأخلاقه .

والكتاب والسنة دلاّ على تحريم الاختلاط ، وتحريم جميع الوسائل المؤدية إليه . قال سبحانه وتعالى : (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ)[1] . وقـال الله تعالى : (يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُـلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ الْمُؤْمِنِينَ يُـدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ

(١) سورة الأحزاب : ٣٣ .

يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً)[1] . وقال عز وجل : (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ)[2] .

يأمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام أن يبلغ المؤمنين والمؤمنات ، أن يلتزموا بغض النظر وحفظ الفرج من الزنا ، ثم أوضح سبحانه أن هذا الأمر أزكى لهم ، ومعلوم أن حفظ الفرج من الفاحشة إنما يكون باجتناب وسائلها ، ولا شك أن إطلاق البصر ، واختلاط النساء بالرجال والرجال بالنساء ، في ميادين العمل وغيرها ، من أعظم وسائل وقوع الفاحشة ، وهذان الأمران المطلوبان من المؤمن يستحيل تحققهما منه ، وهو يعمل مع المرأة الأجنبية ؛ كزميلة أو مشاركة في العمل له ، فاقتحامها هذا الميدان معه لا شك أنه من الأمور التي يستحيل معها غض البصر وإحصان الفرج ، والحصول على زكاة النفس وطهارتها[3] .

وسداً لذريعة الفساد ، وإغلاقاً لباب الإثم والمعصية ، وحسماً لأسباب الفتنة ، وحماية للجنسين من ألاعيب الشيطان وجنوده ، فقد زود الإسلام أتباعه بالمقومات الكفيلة بحصانتها وسموها ، فلنستمع لهذه النصوص ؛ فقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ مِنَ النِّسَاءِ » . وصح

---

(١) سورة الأحزاب : ٥٩ .

(٢) سورة النور : ٣٠ .

(٣) مجلة الجامعة الإسلامية سنة ١٣٩٨ هـ . من مقال للعلامة الشيخ عبد العزيز بن باز حفظه الله ونفع به الأمة .

عنه ﷺ أنه قال : « مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَىٰ الرِّجَالِ مِنَ النِّساءِ » . وما أحسن قول فاطمة الزهراء رضي الله عنها لما سئلت : ما خير للمرأة ؟ . فقالت : ألاّ ترى الرجال ولا يراها الرجال . فضمها رسول الله ﷺ إلى صدره وقال : « ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ »[1] .

وما أحرانا أن نتدبر هذه النصيحة النبوية : « لَأَنْ يُطْعَنَ فِي رَأْسِ أَحَدِكُمْ بِمِخْيَطٍ مِنْ حَدِيدٍ خَيْرٌ لَهُ أَنْ يَمَسَّ امْرَأَةً لَا تَحِلُّ لَهُ »[2] .

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : ألا تستحيون ؟ ! . ألا تغارون ؟ ؛ يترك أحدكم امرأته[3] تخرج بين الرجال ![4] .

أما وسائل عيش المرأة وتثقيفها ، فقد أولاها الإسلام رعايته وعنايته ؛ فالرجل يقوم بالنفقة على زوجته وتقديم كافة لوازمها ، ومن جهة أخرى يجب الإكثار للمرأة من دروس الدين ؛ من القرآن والسنة والتوحيد والفقه ، والاهتمام بالعقيدة لتطهير النفس من شوائب الجهل والخرافة ورواسب الشرك ؛ كالسحر والرقى الشركية والشعوذة ودعاء غير الله سبحانه .

---

(١) رواه الترمذي والدارقطني : راجع المرأة المسلمة : ص ١٣٦ . للأُستاذ وهبي سليمان .

(٢) المخيط : الإبرة أو المسلة ونحوهما . قال المنذري : رواه الطبراني والبيهقي . ورجال الطبراني ثقات . رجال الصحيح . انظر السلسلة الصحيحة للألباني .

(٣) يا لحقارة الرجال الذين يدفعون بنسائهم إلى بيوت الآخرين في سهرات عائلية مختلطة ، أو يفتحون بيوتهم لأصدقائهم في غيابهم ثم يعيبون الغيرة ! ! .

لا يأمنن على النساء أخٌ أخاً ... ما في الرجال على النساء أمين

(٤) انظر المرأة المسلمة : ص ١٣٦ للأُستاذ وهبي سليمان .

وكذلك يجب الاهتمام بالجانب الأخلاقي والتركيز على أهمية الفضائل ، ودور المرأة في تربية الأجيال ، ومعرفتها لواجبات الأسرة ، وقد صرح الإسلام للمرأة بالعمل ضمن حدود مملكتها ؛ إذ خلقها الله بطبيعة معينة تختلف عن طبيعة الرجل ، كما تختلف وظيفتها عن وظيفة الرجل ، وبأداء كل منهما دوره تنعم البشرية بالسعادة في الدنيا وبالنعيم في الآخرة .

أقول : ليطمئن دعاة الاختلاط فقد سمح الإسلام للمرأة بالعمل ، ولكن بحدود ضمن سياج الحصانة وبدون اختلاط ؛ فقد شاركت المرأة المسلمة في أعمال الحقل والمنزل والجهاد[1] ، ولكن في جو ملائكي طاهر من الطرفين ؛ حيث خرجت للتمريض وخدمة جند الله ، على الطريقة التي يرضاها الله سبحانه . وصدق الله العظيم : (وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)[2] .

ومما تقدم نستطيع القول : إن المرأة تستطيع أن تقوم بأعمال كثيرة إذا ما أُحسن لها الاختيار ، سيما إذا كان هذا العمل بعيداً عن مزاحمة الرجال ، ويليق بكيانها وفطرتها التي تختلف كثيراً عن فطرة الرجل وأهليته .

---

(١) أباح الإسلام للمرأة أن تعمل وفق طبيعتها ؛ فلها أن تقوم بالتعليم والتمريض أو الكتابة في المؤسسات النسائية ، بعيدة عن مزاحمة الرجال ، أما دعوى إدخالها كجندي يحمل السلاح ؛ كما هو حال الصهاينه وأشباههم ، فهذه وسيلة لإفساد الجند ، وهي وسيلة ترفيهية للجنود تتنافى وشرع الإسلام ، الذي يحرص على جلب المصالح ودرء المفاسد وإغلاق باب فتنتها وحسم بواعثها .

(٢) سورة الحج : ٥٤ .

لقد اهتم الإسلام بالمرأة وأولاها عنايته ؛ لأنها تمثل العمود الفقري للأسرة وأساس المجتمع ؛ فهي مطالبة بتربية النشء وتعهده وحفظه ، والعناية بالأبناء حتى يشتد عودهم ، ومسؤولة عن خدمة الأسرة ومساعدة زوجها في أعماله ، بعيدة عن مواطن الاختلاط .

وأمام المرأة أبواب العمل مفتوحة ؛ كالتعليم والتمريض والكتابة والشؤون الاجتماعية ، ضمن الإطار النسوي ووفق مواهبها وخصائصها التي خصها الله بها ، وقد علم بأنها تبدع وتنجح فيما اختصت به أكثر من الرجل .

والإسلام لم يكلف البنت والمرأة بالإنفاق على الأب أو الزوج أو الأم ، بل على هؤلاء تقع مسؤولية نفقة المرأة ؛ لتتفرغ للحياة الزوجية والأمومة ، والإشراف على شؤون الأسرة ؛ لتظل مصونة طاهرة ، لها سمعتها الكريمة النظيفة في المجتمع . قال تعالى : (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَىٰ النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ)[1] .

وقال رسول الله ﷺ : « دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ ، وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَىٰ مِسْكِينٍ ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَىٰ أَهْلِكَ ، أَعْظَمُهَا أَجْراً الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَىٰ أَهْلِكَ »[2] .

أما فلسفة الغربيين حول مستقبل البنت ، ومهمتها بعد البلوغ ، فهي تقوم على أساس إنفاقها على نفسها ، وادخار ما يزيد على مصاريفها

(١) سورة النساء : ٣٤ .

(٢) رواه مسلم . مختصر الترغيب والترهيب لابن حجر العسقلاني .

للحياة الزوجية المستقبلية ، وليس على أهلها وأقربائها الالتزام بالنفقة عليها ، كما عليها مساعدة زوجها في النفقة على بيتها وأبنائها .

أقوال أهل الخبرة في عمل المرأة

بناءً على تردي أحوال الأُسرة وتفككها ـ بعد نزول المرأة إلى ميدان العمل ـ فقد تذمر الغربيون ، وشكوا سوء مآلهم وانتكاسهم ـ لفساد أُسرهم وانحلال مجتمعهم ـ فصاحوا مرددين بقرب اضمحلال وانهيار حضارتهم نتيجة انحرافهم وسقوطهم .

ولتجلية هذه الصورة المظلمة ، والهوان الذي حل بدول الغرب المنحل ، وبنظيره معسكر الشرق الذي تردى أيضاً إلى الهاوية السحيقة ؛ نتيجة لفساد الأنظمة وتحطيم الروابط الأُسرية ، والفشل الذريع الذي جناه هؤلاء في حياتهم الكئيبة ، فإني أذكر شيئاً من أقوالهم وآراء عدد من المفكرين في ذلك .

١ ـ يقول العالم الشهير [اجوست كونت] مؤسس علم الاجتماع الحديث في كتابه[١] : لو نال النساءُ يوماً من الأيام هذه المساواة المادية ، التي يتطلبها لهن الذين يزعمون الدفاع عنهن بغير رضائهن[٢] ، فإن

(١) النظام السياسي .

(٢) ويجب التنبيه على أن الإسلام قد تكفل بالمرأة بنتاً وأماً ، وصانها وحفظ كرامتها . وفي نظام الإسلام الذي يفرغ المرأة لأداء أقدس رسالة اجتماعية ـ كأم وربة بيت ـ لأعظم رد على مزاعم دعاة تحرير المرأة ، وهي دعاوى ساقطة . ولقد سمعنا وشاهدنا ثمار دعوة تحرير =

ضمانتهن الاجتماعية تفسد على قدر ما تفسد حالتهن الأدبية ، لأنهن في تلك الحالة سيكنّ خاضعات ـ في أغلب الصنائع ـ لمزاحمة يومية قوية ، بحيث لا يمكنهن القيام بها . كما أنه في الوقت نفسه تتكدر المنابع الأصلية للمحبة المتبادلة[1] .

٢ ـ ولما كتبت [مدام هيركور] ـ الشهيرة بالمدافعة عن حقوق النساء ـ إلى أسرة الفيلسوف الاشتراكي المشهور [برودون] تسأله رأيه في مسألة النساء ، أجابها كما يقول في كتابه[2] : إن هذه الجهود المبذولة من النساء لا تدل إلا على علة أصابت جنسهن ، وهي تبرهن على عدم استعدادهن لتقدير قوة أنفسهن ، وسياسة أمورهن بذاتهن[3] .

وبعد أن برهن على ذلك بالأدلة العلمية قال : إن حالة المرأة في الهيئة

= المرأة ، والتي تعني أول ما تعني خروج المرأة على تقاليدها وفطرتها . . أما تحريرها ؛ فهو تحريرها من الأخلاق والفضائل التي هي رأس مالها ، ولا يوجد بديل لنظرة الإسلام ونظامه ، لأنه من تعليم خالق البشر العليم بأسرارهم ومطالبهم . وقد قال سبحانه : ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ .

(١) دائرة معارف وجدي : ٦٠٥ ، ٦٠٦ .

(٢) ابتكار نظام .

(٣) يا لهوان المرأة ـ طبعاً المرأة الغربية وبنت دعاة الاشتراكية المهزوزة ـ لقد تلاشت قيمها وانسلخت عن أنوثتها وذاتيتها ، حتى أصبحت مستعبدة للأهل والزوج والهوى ، أما في بلاد الغرب ـ صاحب دعوة تحرير المرأة وانطلاقها ـ حيث تتلاشى تبعيتها لأسرتها ؛ فينسبونها لأسرة زوجها ويقال : مدام فلان . ومما يؤسف له أن هذه العادة المبتدعة شاعت في بلادنا ، فتسمى المرأة باسم زوجها ـ كما هو واضح في جواز السفر والهويات الشخصية ـ كما أنه ليس لها حق التصرف في مالها إلا بإذن زوجها ، فهذا أيضاً جور وإهانة للمرأة الغربية ، ونسبتها إلى زوجها بدعة منكرة لا يجوز العمل بها ، فهل من مدكر ؟ ! .

الاجتماعية – إذا جرت على النسق الذي تريدينه كما هو حال الرجل – فيكون أمرها انتهى ؛ فإنها تصير مستعبدة مملوكة[1] .

٣ – ويقول الفيلسوف الاقتصادي [جول سيمون] في مجلة المجلات المجلد ١٧ : النساء قد صرن الآن نساجات وطباعات .. ألخ . وقد استخدمتهن الحكومة في معاملها ، وبهذا فقد اكتسبن بضعة دريهمات ، ولكنهن في مقابل ذلك قد قوضن دعائم أسرهن تقويضاً . نعم ، إن الرجل صار يستفيد من كسب امرأته ، ولكن بإزاء ذلك قل كسبه لمزاحمتها له في عمله . ثم قال : وهناك نساء يشتغلن بمسك الدفاتر ، وفي محلات التجارات ، ويستخدمن في الحكومة في وظيفة التعليم ، وبينهن عدد عديدات في التلغرافات والبوسطات – هكذا – والسكك الحديدية وبنك فرنسا ، والكريدي ليونيه ، ولكن هذه الوظائف قد سلختهن من أسرهن سلخاً[2] .

٤ – ويقول [اجوست كونت] في كتابه النظام السياسي : وفي حالة عدم وجود زوج ولا أقارب للمرأة يجب على الهيئة الاجتماعية أن تضمن حياة كل امرأة[3] ، إما في مقابل عدم استقلالها – الذي لا يمكنها أن تتجنبه – وإما على الخصوص بالنسبة إلى وظيفتها الأدبية الضرورية . وإليك في هذا الموضوع المعنى الحقيقي للرقي الإنساني : يجب أن تكون

(١) عن دائرة المعارف : جـ ٨ – ص ٦٠٥ ، ٦٠٦ .

(٢) راجع دائرة معارف فريد وجدي : ص ٦٠٦ .

(٣) ونحن المسلمين نفخر على العالم بالإسلام ، الذي كفل لكل من يستظل تحت سلطانه بكل مطالب الحياة ، حتى البهائم .

الحياة النسوية منزلية على قدر الإمكان ، ويجب تخليصها من كل عمل خارجي ليمكنها على ما يرام أن تحقق وظيفتها الحيوية[1] .

٥ – ويقول [جيوم فربرو] البحاثة الشهير في مجلة المجلات المجلد ١٨: يوجد في أوروبا كثير من النساء اللواتي يتعاطين أشغال الرجال ، ويلتجئن بذلك إلى ترك الزواج بالمرة ، وأولاء يصح تسميتهن بالجنس الثالث ؛ أي أنهن لسن برجال ولا نساء . ثم قال : وقد ابتدأ علماء العمران يشعرون بوخامة عاقبة هذا الأمر المنافي للسنن الطبيعية ، فإن هاته النسوة – بمزاحمتهن للرجال – صار بعضهن عالة على المجتمع ، لا يجدن ما يشتغلن به ، ولو تمادى الحال على هذا المنوال لنشأ منه خلل اجتماعي عظيم الشأن[2] .

وإنا لنذكر أن هتلر في أواخر أيامه قد بدأ بمنح الجوائز لكل امرأة تترك عملها خارج البيت وتعود إلى بيتها ، وكذلك فعل موسوليني يومئذ[3] .

ويكاد يجمع مفكرو الغرب على أنه ليس هنالك من سبب لضياع الأبناء ، وفسادهم وتفكك أسرهم ، إلا هجر المرأة بيتها لتعمل خارجه .

٦ – قال الفيلسوف [برتراند راسل] : إن الأسرة انحلت باستخدام المرأة في الأعمال العامة ، وأظهر الاختبار أن المرأة تتمرد على تقاليد

(١) دائرة المعارف لفريد وجدي : ج ١٤ – ص ٦١٢ .
(٢) راجع المصدر السابق : ج ٨ ص ٦١٦ .
(٣) المرأة بين الفقه والقانون : ص ١٧٩ .

الأخلاق المألوفة ، وتأبى أن تظل أمينة لرجل واحد إذا تحررت اقتصادياً[1] .

٧ – جرى عام ١٩٦٠م استفتاءٌ في المانيا – بين الرجال – عن المرأة المثالية ، فتبين من نتيجة الاستفتاء أن الرجل الألماني لا يؤيد فكرة اشتغال المرأة ، ولا يتحمس للزواج منها . والمرأة المثالية في رأيه ؛ هي سيدة البيت التي تهتم بشؤون أسرتها ، وتقوم بتربية أطفالها ، بدون أي مساعدة من أمها ؛ وهي التي تطهو جيداً ، وتوفر لزوجها الراحة الكاملة[2] .

٨ – في عام ١٩٦٠م تجمعت ٧٤ دولة في مؤتمر الجريمة في لندن ، فقرر أن من أهم عوامل ازدياد الجرائم بين الأحداث خروج المرأة من البيت ، والفراغ الذي تتركه لأبنائها الأحداث[3] .

٩ – نشرت الأهرام ما يلي : أستاذة جامعية في انجلترا ، وقفت هذا الأسبوع أمام مئات من طلبتها وطالباتها ، تلقي خطبة الوداع بمناسبة تقديم استقالتها من التدريس ، قالت الأستاذة : ها أنا قد بلغت الستين من عمري ، ووصلت فيها إلى أعلى المراكز ؛ نجحت وتقدمت في كل سنة من سنوات عمري ، وحققت عملاً كبيراً في المجتمع ، كل دقيقة في يومي كانت تأتي علي بالربح ، حصلت على شهرة كبيرة وعلى مال

(١) المصدر السابق .

(٢) انظر صوت الإسلام : عدد ٩٠ – سنة ١٣٧٩ هـ . والإسلام في قفص الاتهام : ص ٢١٩ .

(٣) صوت الإسلام : عدد ١٢٥ – سنة ١٩٦١ .

كثير ، أُتيحت لي الفرصة أن أزور العالم كله ، ولكن هل أنا سعيدة الآن بعد أن حققت كل هذه الانتصارات ؟ .

لقد نسيت ما هو أهم من ذلك كله ؛ نسيت أن أتزوج ، وأن أُنجب أطفالاً وأن أستقر ، إنني لم اتذكر ذلك إلا عندما جئت لأُقدم استقالتي ؛ شعرت في هذه اللحظة أنني لم أفعل شيئاً في حياتي ، وإن كل الجهد الذي بذلته طوال هذه السنوات قد ضاع هباءً ، فسوف أستقيل وسيمر عام أو اثنان على استقالتي ، وبعدها ينساني الجميع في غمرة انشغالهم بالحياة ؛ ولو كنت قد تزوجت وكونت أُسرة كبيرة ، لتركت أثراً كبيراً وأحسن في الحياة .

إنني أنصح كل طالبة تسمعني ، أن تضع هذه المهام أولاً في اعتبارها ؛ وبعدها تفكر في العمل والشهرة . أجل ، سوف تخسر المرأة ما لا يعوضه جاه ولا شهرة ولا مال ولا منصب ؛ إنها إذا لم تحافظ على هذا المطلب تخسر عشاً سعيداً هادئاً حالماً . فتجربة ستين عاماً أضعها أمام مسامع الجميع فلنتفكر ! ![1] .

١٠ ـ وقالت [آني رود] الإنجليزية : لأن تشتغل شاباتنا خوادم ـ أو كالخوادم ـ خير وأخف بلاءً من اشتغالهن في المعامل ؛ حيث تصبح البنت ملوثة بأدران تذهب برونق حياتها إلى الأبد . ألا ليت بلادنا كبلاد المسلمين ؛ فيها الحشمة والعفاف والطهارة . نعم ، إنه لعار على بلاد الإنكليز أن تجعل مثلاً للرذائل بمخالطة الرجال ، فما بالنا

(١) جريدة الأهرام : سنة ١٣٨٠ ـ ١٩٦١ .

لا نسعى وراء ما يجعل البنت تعمل بما يوافق فطرتها الطبيعية ؛ من القيام في البيت وترك الأعمال ـ أعمال الرجال ـ للرجال لسلامة شرفها[1] .

١١ ـ قال أنطون نيميلان ـ وهو روسي شيوعي: الحق أن جميع العمال قد بدت فيهم أعراض الفوضى الجنسية ؛ وهذه حالة خطرة تهدد النظام الاشتراكي بالدمار ، فيجب أن نحارب بكل ما أمكن من الطرق ، لأن المحاربة في هذه الجهات ذات مشاكل وصعوبات ، ولي أن أدلكم على آلاف من الأحداث يعلم منها أن الإباحية الجنسية قد سرت عدواها ، لا في الجهال والأغرار فحسب ، بل في الأفراد المثقفين من طبقة العمال أيضاً[2] .

١٢ ـ وللعلامة الكبير الأستاذ محمد فريد وجدي ـ صاحب دائرة المعارف ـ في هذا الموضوع كلام أوفى على الغاية ، من الخير أن نسجله في هذا المقـــام .

قال رحمه الله : أما مشاركتها ـ المرأة ـ للرجل في أعماله الخارجية ، فإن الفطرة المجردة ، والعلوم العصرية نفسها تنافيها ، وترى فيها خطراً عظيماً على المجتمع ؛ فأما الفطرة ، فإنها تأبى أن ترى المرأة ـ التي اختصها الخالق سبحانه بمهمة تكثير النوع الإنساني وتربيته ـ تتكلف فوق ما تعانيه من المشاق ، مشاطرة الرجال في أعمالهم المرهقة ، وأن تهجر دارها ساعات طويلة ، وأن تترك أولادها يهيمون على وجوههم في الشوارع والأزقة ، وهم في أشد الحاجة إلى حمايتها ورعايتها .

---

(١) مجلة المنـــار : مجلد ٤ ـ ص ٤٨٦ .

(٢) انظر كتاب الحجاب للمودودي : ص ٢٠٩ .

هذا أمر يأباه مجرد الفطرة ، لذلك ألهم الناس من أقدم عهودهم ، أن يضنوا بنسائهم عن الأعمال الخارجية ، وأن يقصروهن على الحياة الداخلية ، اللهم إلا همجاً متوحشين يعيشون بجوار الغابات الأفريقية والاسترالية ؛ فيجلس رجالهم لا يعملون شيئاً ويسرحون نساءهم ؛ ليجلبن لهم ما يتسنى لهن جلبه من جذور الأشجار وأوراقها ، وما يصطدنه من بعض الحيوانات الصغيرة ليقتاتوا بها ؛ كما تفعل الوحوش الضارية ، فهؤلاء لا يقام لهم وزن ، ولا يعبأ بهم في استدلال . وأما العلم ، فقد قال كلمته الأخيرة في هذا الموضوع ، ولا يزال أقطابه يرددونها [1] .

١٣ - جاء في إحدى المذكرات المقدمة لإصلاح التعليم الجامعي في مصر ما يلي :

الفتاة المصرية في مسيس الحاجة إلى تربية الروح ، وذلك عن طريق دراسة خاصة بها ؛ دراسة تتفق وكونها من أمهات المستقبل ، فليس كل المواد التي تدرس في كلية الآداب تتفق ومستقبل الفتاة .

إن الاختلاط - بصورته الحالية في جميع الكليات - يتنافى والشرع الإسلامي ، وإن الدراسة الخاصة بالفتاة لخير تحديد لمصيرها ، وخير معين على حياتها المقبلة [2] .

---

(١) انظر كتاب إسلامنا : ص ٢١٩ ، ٢٢٠ للأستاذ سيد سابق . حفظه الله ونفع به المسلمين .
(٢) يقظة الفكر العربي : ص ١٨٤ . للأستاذ أنور الجندي .

١٤ ـ يقول الأستاذ شفيق جبري في كتابه أرض السحر : إن المرأة في أميركا أخذت تخرج عن طبيعتها ، في مشاركتها للرجل في أعماله . إن هذه المشاركة لا تلبث أن تضعضع قواعد الحياة الاجتماعية ، فكيف تستطيع المرأة أن تعمل في النهار ، وأن تعنى بدارها وبأولادها في وقت واحد ؟ !(١) .

فالمرأة الأميركية قد اشتطت في هذا السبيل اشتطاطاً قد يؤدي في عاقبة الأمر إلى شيء من التنازع بينها وبين الرجل(٢) .

وقد علقت على ذلك السيدة سلمى الكزبري ـ من زعيمات الحركة النسائية في بلادنا ، وقد زارت أوروبا وأميركا أكثر من مرة ـ فقالت في جريدة الأيام ـ تاريخ ٣ أيلول سنة ١٩٦٢ م . قالت : يلاحظ أن النساء أصبحن يمارسن أعمال الرجال ، في مصانع السيارات وتنظيف الشوارع والطرقات ، فيتألم المشاهد لشقاء المرأة في صرف شبابها وعمرها في غير ما يتناسب مع الأنوثة والطبيعة والمزاج .

وقد أسعدني ما قاله الأستاذ جبري ؛ لأني عدت من رحلتي إلى الولايات المتحدة ، منذ خمسة أعوام وأنا أرثي لحال المرأة ، التي جرفها تيار المساواة

(١) ما أعدل الإسلام ، وما أعز أتباعه ؛ الجميع سعداء في ظلاله ؛ الأسرة أمينة على مستقبلها والمرأة مصونة في كنف زوجها وأبيها ، لها تصرف مشروط بعدم الإسراف في مال زوجها ، ولها على تصرفها أجر وثواب من عند الله . . . فهل في الدنيا شريعة تسمو بالمرأة في شخصيتها وملكيتها وميراثها كشريعة الاسلام ؟ . وهل تطلب المرأة المعاصرة لهذا التشريع بديلاً ؟ . اللهم لا . إلا إذا كانت من الذين طمس الله على قلوبهم فأعمى قلوبهم وأبصارهم .

(٢) المرأة بين الفقه والقانون : ص ١٨٣ .

الأعمى ، فأصبحت شقية في كفاحها المر لكسب العيش ، وفقدت حتى حريتها ؛ هذه الحرية المطلقة التي سعت طويلاً لنيلها ، إذ أمست أسيرة للآلة الدقيقة . لقـد أصبح التراجع أمراً صعباً . ومن المؤسف حقاً أن تفقد المرأة الغربية أعز وأسمى ما منحتها إياه الطبيعة[1] ، وأعني أنوثتها ، ومن ثم سعادتها ، لأن العمل المستمر المضني قد أفقدها الجنات الصغيرات ، التي هي الملجأ الطبيعي للمرأة والرجل على حد سواء ، والتي لا يمكن أن تتفتح براعمها ويفوح شذاها ، بغير المرأة الأم وربة البيت ، ففي الدور وبين أحضان الأسرة سعادة المجتمع والأفراد ، ومصدر الإلهام وينبوع الخير والإبداع[2] .

وما أحسب هذه الأمثلة من الأقوال والآراء بحاجة إلى تعليق عليها ، وإنني لأرجو أن تكون درساً وموعظة تنتفع بها الأجيال في حاضرها ومستقبلها . كما أرجو المولى سبحانه أن يلهم المسلمين الرشد والصواب ؛ وأن يجنبهم مزالق الفتنة العمياء ـ الكامنة في حضارة الغرب ومفاتنه ـ وأن يبصرهم بأمورهم قبل أن تفلت نهائياً من أيديهم ؛ فيقعوا فريسة الانحلال والتمزق والضياع .

إن الهوى الجانح ، والغرض المريض ، يعميان البصائر عن رؤية الحق ، ويصمّان الآذان عن سماعه ، وما غاية البحث إلا الوصول إلى الحقيقة الناصعة ، التي يجب أن تضاف إلى سجل الحقائق العلمية الخالدة .

---

(١) بل الذي منحها هو الله سبحانه وتعالى ، والطبيعة مخلوقة لا تمنح شيئاً لأحد ولا تمنعه عن أحد .

(٢) انظر المرأة بين الفقه والقانون : ص ١٨٣ .

أقول : ألا فليطمئن دعاة الإسلام وحملة راية التوحيد ، فالإسلام والحمد لله حصن منيع بذاته ، ومع ذلك فهو بحاجة إلى دعاة مخلصين ، مسلَّحين بالعقيدة النقية ، يضحون ويعملون فلا يبخلون ولا يكسلون ، ويرددون على الدوام كلمة الحق سبحانه :

(وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)[1] .

من ثمرات الانحطاط والاختلاط

لا شك أن الاختلاط آفة من الآفات ، ومصيبة من المصائب التي رزئت بها الإنسانية على مر العصور .

لقد استحث الاختلاط المطلق ـ بين الذكور والإناث ـ غريزة التبرج والعُري في النساء وازدواجهن بالرجال تلوثاً بالفواحش ، فالجاذبية الجنسية ـ التي أودعتها الفطرة في الرجل والمرأة ، ولها عليهما سلطان لا ينكر ـ تزداد قوة واشتداداً باختلاط الجنسين ، وتتخطى حدوده بكل سهولة ، وهذا ما وصلت إليه الحال في المدنية الغربية وكل من حذا حذوها .

فالصور العارية والأدب المكشوف ، والقصص الغرامية والمراقص والمسرحيات المشحونة بالعواطف والنزعات العارمة ، وسائر وسائل الفتنة

(١) سورة الحج : ٤٠ .

التي ملأت جوانب المجتمع ، هذه المغريات كفيلة بتحطيم كيان الأمة ، والتاريخ يشهد أنه ما سرت هذه الأوبئة والآفات في مفاصل أمة إلا أوردتها التلف والفنـــاء .

وكما هو معلوم أن من وقع بين ذراعي الغول فأنَّى له النجاة منه ومن غوائله وعواديه ؟ . والآن أريد أن أبين بشيء من التفصيل ثمـرات الاختلاط ونتائجه المدمرة ، التي هي بمثابة السرطان الخبيث والشلل الفتاك في جسم الأمة ، وهذه بعض الثمار أسوقها للعظة والاعتبار :

١ - يكتب القاضي - بن لندسي - الذي أتيح له الاطلاع الواسع على أخلاق النشء الأمريكي، لكونه رئيساً لمحكمة جنايات الصبيان - بدفور - يكتب في كتابه ؛ تمرد النشء الجديد ص ٣٢٢ : إن الصبية في أميركا قد أصبحوا يراهقون قبل الأوان ، ومن السن الباكرة جـداً يشتد فيهم الشعور الجنسي . وبحث هـذا القاضي عن أحوال - ٣١٢ - صبية على سبيل الأنموذج ، فعلم أن - ٢٥٥ - صبية منهن كن أدركن البلوغ فيما بين الحادية عشرة والثالثة عشرة من سني أعمارهن . ويوجد فيهن من أمارات الشهوة الجنسية والمطالب الجسدية مـالا يكون عادة إلا في بنات الثامنة عشرة فما فوقهن سناً[1] .

٢ - ويذكر الدكتور - اديث هوكر - في كتابه ؛ القوانين الجنسية أنه ليس من الغريب الشاذ - حتى في الطبقات المثقفة - أن بنات سبع أو ثماني سنين منهن يخادنَّ لداتهنَّ من الصبية ، وربما تلوثن معهم

(١) انظر كتاب الحجاب : ص ١٠٠ ، ١٠١ .

بالفاحشة . فيقول : بنت في السابعة من عمرها ، من بيت عريق في الشرف والمجد ، ارتكبت الفحشاء مع أخيها وعدد من أصدقائه . ونفر آخر من خمسة أولاد ، يشتمل على صبيتين وثلاثة صبيان ، متجاورين متقاربي البيوت ، وجدوا متعلقين بعضهم بالعلاقات الجنسية ، وقد حفزوا على ذلك غيرهم من الأولاد أيضاً ، وكان أكبر أولئك سناً ابن عشر سنين . وبنت أخرى في التاسعة – كانت في ظاهر الأمر تحت رقابة شديدة – وجدت سعيدة بكونها حبيبة عشاق ذوي عدد ! ![1] .

٣ – جاء في تقرير طبيب من مدينة – بالتي مور – أنه قد رفع إلى المحاكم في تلك المدينة أكثر من ألف مرافعة في مدة سنة واحدة ، كلها في ارتكاب الفاحشة مع صبايا دون الثانية عشرة من العمر[٢] . وهذا كله ثمرة للبيئة المهيجة التي تتهيأ فيها عوامل الإثارة والإذكاء للعواطف من كل جانب[٣] .

٤ – يقول كاتب أميركي : إن الأوضاع التي يعيش فيها معظم أناسنا في هذه الأيام ، تبعد عن الفطرة بعداً يجعل الفتية والفتيات يشعرون بدبيب الحب في نفوسهم من السن الخامسة عشرة – وساء مصيراً – لأن هذا الولوع بالأمور الجنسية الناشئ فيهم قبل الأوان ، قد يعود عليهم – بل هو دائماً يعود – بأسوأ ما يكون من النتائج ؛ وأهونها

(١) نفس المصدر : ص ١٠١ .
(٢) نفس المصدر : ص ١٠١ ، ١٠٢ .
(٣) ما أروع شرع الإسلام ، وما أسمى أحكامه ؛ فقد سد باب الذرائع وأقفله بإحكام ، وحسم دابر الفتنة ، وكفل لأتباعه العزة والكرامة ، وقد قال ﷺ : « مُرُوا أَوْلاَدَكُمْ بِالصَّلاَةِ لِسَبْعٍ ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا لِعَشْرٍ وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ » .

أَن البنات في سن الصبا يفرون مع أَخدانهن ، أَو يتزوجن في السن الباكرة ، وينتحرن إن هن لقين في غرامهن الخيبة والفشل[1] .

٥ ـ يقول الدكتور هوكر عن تمتع الجنس بالجنس ، نتيجة التهاب العواطف والإثارة في المؤسسات : إنه لا تزال تحدث في مثل هذه المدارس والكليات ، ودور التربية للممرضات والمدارس الدينية ، حوادث من تسافح الولدين مع الجنس الواحد فيما بينهما ، وقد تلاشى ـ أَو كاد ـ ميلهم الطبيعي إلى الجنس الآخر[2] .

٦ ـ وللمصلحين الأَخلاقيين في القطر الأَميركي مجلس يعرف باللجنة الأَربعة عشرية ؛ يُعْنىٰ بالفحص عن مكامن الفجور ، والتحقيق في حالة البلاد الخلقية ، واتخاذ التدابير العملية لإصلاح الأَخلاق على نطاق واسع ، وقد جاء في تقريرها : إن كل ما يوجد في البلاد الأَميركية من المراقص والنوادي الليلية ، ومحال الزينة وحجرات التدليك ومراكز تمويج الشعر ، قد أَصبح جلها مواطن للفجور ودوراً للبغاء ، بل هي أَقبح منها وأَشنع ؛ لما يرتكب فيها من الرذائل التي لا تصلح للذكر[3] .

٧ ـ كتب [بول بيورو] : من العادة الجارية في طبقة العاملين في فرنسا ، أَن المرأَة منهم تأْخذ من خدنها ميثاقاً ـ قبل أَن يعقد بينهما النكاح ـ أَن الرجل سيتخذ ولدها الذي ولدته قبل النكاح ولداً شرعياً له[4] .

---

(١) انظر كتاب الحجاب : ص ١٠٣ .
(٢) انظر كتاب الحجاب : ص ١٠٨ .
(٣) نفس المصدر : ص ٩٤ .
(٤) نفس المصدر : ص ٢٤ .

٨ – وكتب بيبل – زعيم الحزب الديمقراطي الألماني بلا تحرج : وهل الرجل والمرأة إلا نوع من الحيوان؟ !. وهل يكون بين أزواج الحيوانات شيءٌ من قبيل النكاح[١] بله النكاح الأبدي[٢] ؟ !.

وقد بلـغ الانحطاط الخلقي إلى الدرك الأسفل ؛ حيث إنه لم يعد الآن من الغريب الشاذ وجود العلاقات الجنسية بين الأقارب في النسب ؛ كالأب والبنت ، والأخ والأخت في بعض الأقاليم الفرنسية ، وفي النواحي المزدحمة من المدن[٣] .

٩ – أذاعت وكالة رويتر : ظَهرَ / ٢٥ / ألف طفل غير شرعي في ولاية لويزيانا الأمريكية ، فناشدت اللجنـة المشرفة على شؤونهم الشعب الأميركي مد يد المعونة لهؤلاء الأطفال ، حتى يجدوا الغذاء والكساء[٤] .

١٠ – رفع إلى محكمة لوران فتاتان قتلتا أولادهما ، ولكن أعفيتا

(١) نفس المصدر : ص ٨٠ .

(٢) هذه هي قيمة الحضارة الغربية القائمـة على ذبح الكرامة والخلق ، التي سقطت ولفظت آخر أنفاسها . وقد أفصح عن ذلك إحدى المحرضات الذين عرضوا في أوحال الجريمة حتى الأذقان ، فقال أحد زعماء الحزب الديمقراطي الألماني – وبلا تحفظ – بأنه لا يوجد بين الإنسان والحيوان أية فوارق في النكاح ومستلزماته ، فلا غرابة عند هؤلاء إذا ما عانق الرجل الفتاة في الشارع ، أو جامعها حسب هوايته على مشهد كما تفعل بعض البهائم – ولا أقول كل البهائم – لأن بعضها يحترز من هذه العملية التي يترفع القلم عن ذكرها ، ولا يأتيها إلا في خلوة ! . ويزول العجب إذا ما علم السبب ؛ حيث إن نظرية داروين – العجيبة الغريبة – تنص على أن الإنسان متطور ، وقد مر في عدة مراحل ؛ حيث كان حيواناً ، ثم تطور إلى قرد . . . أو العكس . . . الخ .

(٣) انظر كتاب الحجاب : ص ٨٠ .

(٤) راجع صوت الإسلام : عدد ١٠٤ والإسلام في قفص الاتهام : ص ٢٢٠ .

من العقوبة ؛ وكانت إحداهما قد أهلكت ولدها بالإغراق ، على حين كان أقاربها لا يزالون يربون لها ولداً سابقاً ، وكانوا مستعدين أن يربوا لها هذا الآخر ، ولكن الظالمة أبت إلا أن تقتل المسكين ، وارتأت المحكمة الفرنسية أن جرمها هين يغتفر .

وأما الأخرى فخنقت طفلها ، ولما رأت فيه بعض حشاشة نفس تضطرب رمت به عرض الحائط فشجت رأسه . وهذه أيضاً لم يرها القضاة الفرنسيون تستحق العقوبة والقصاص[1] .

وفي سنة ١٩١٨ م نفسها جيء إلى محكمة السين براقصة ، حاولت نزع لسان ولدها من حلقه ، ثم حطمت رأسه ، وأخيراً قطعت منه الوتين ، ولم تكن هذه المرأة أيضاً مجرمة عند القضاة أو المحامين ! ![2] .

فهل ترى من حيلة أو تدبير يخلص أمة من البوار ، تمعن إلى هذا

---

(١) ونحن بدورنا نرد على المتطاولين من المستشرقين – كبروكلمان – من الذين أطلقوا ألسنتهم وأقلامهم للنيل من الإسلام والمسلمين ، عن طريق المرأة المسلمة ؛ فإننا ندعوهم ليتجهوا أيضاً بعنايتهم إلى مشكلة المرأة الغربية الضائعة ، التي تمر بمأساة قاسية تهدد كيانها وكيان الأسرة الغربية عموماً ، وتهدد مستقبل الجيل الجديد .
نحن نذكرهم بأن الآلاف من المواليد في الغرب – الذين لا يعرفون لهم آباءً – مشكلتهم هذه هامة تحتاج إلى حل ، والمشردات من النسوة .
وقد ذكرت الإحصاءات الرسمية أنه من بين كل تسعة أطفال ولدوا في لندن خلال عام ١٩٦٠م واحد لم تتزوج أمه ، وأثبتت الإحصاءات أيضاً أن عدد المواليد في لندن بلغ ٥٧٣٦٨ طفلاً بالإجهاض ! ! . فأين حل المشكلة ؟ . أليس في الإسلام حلها ؟ . والمتفرنجة يعرفون أين الحل ، ولكن الحقيقة مرة . راجع الإسلام في قفص الاتهام : ص ٢١٨ .
(٢) راجع الحجاب : ص ٩٨ .

الحد الفاحش في عدائها لنسلها ، كما فعلت تلك النسوة الفاسقات ، اللواتي قمن بأعمال إجرامية لا يجرؤ عليها الحيوان الأعجم ؟ ! .

(أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)[1] .

١١ – يقول القاضي لندسي : إنه يسقط في أميركا مليون حمْل – على أقل تقدير – في كل سنة ، ويقتل آلاف من الأطفال من فور ولادتهم[2] .

أقول : هذه حصيلة الاختلاط وتحرير المرأة ومساواتها بالرجل – كما يقول الواهمون – وما ذكرناه لخير دليل على سقوط دعاة تلك الخرافات . وأميركا التي تتبجح بحماية الإنسان وحفظ حق العيش له ، هي أيضاً مع شقيقاتها الغربيات تعيش الظلمة والانتحار[3] . لا أريد أن أسهب في هذه التفاصيل المؤسفة المحزنة ، ولكن أرى مع ذلك

(١) سورة الأعراف : ١٧٩ .
(٢) انظر الحجاب : ص ١١٤ .
(٣) نحن لا نتجنى على حضارة الغرب ودعاتها – الساقطين – ولكننا نريد لهم أن يعودوا إلى رشدهم ولا يلمزوا غيرهم ، لذلك نريد أن نذكرهم بهذا المثال – وهو غيض من فيض – نذكرهم بالمذبحة الجماعية التي حصلت في قلب الولايات المتحدة الأمريكية ، وبالتحديد في ولاية غايانا ؛ حيث قام جماعة معبد الشعب بأكبر عملية انتحار عالمية ، ذهب ضحيتها حوالي ٨٠٠ شخص من الرجال والأطفال والنساء .
هذا ما حدث في مطلع عام ١٩٧٩ م وتناقلته وسائل الإعلام في حينه ، أما دوافع هذه العملية الانتحارية ؛ فهي خروج أولئك القوم على تعاليم السماء وانقيادهم لأمر الهوى والشيطان ، الذي عبدوه من دون الله ؛ حيث انساق هؤلاء وراء الشهوات والضلال ، وتعظيماً لشخصية زعيمهم الشهواني المجرم ، والشيطان الأثيم الذي جرهم إلى هذا المصير الأسود .
ونحن إذا أردنا تحليل ذلك فلا يعدو أن يكون دليلاً على المستوى الحضاري الهابط للحضارة الحديثة ، التي يعيش في مستنقعاتها أبناء الغرب ، صاحب دعوات الحرية والانعتاق من قوانين الأخلاق والسلوك الإنساني السوي .

ألا أختتم هذا الجانب ، بدون أن أُورد فيه مقتبسات من كتاب تاريخ الفحشاء ـ لجورج رائيلي اسكات ـ هـذا الانجليزي الذي يكتب وهو يشير إلى حالة بلاده الفاسدة فيقول بعد كلام طويل :

... وإن لحرية النساء أيضاً يداً لا تنكر في إيجاد هذه الأحوال . وقد بلغ من ضعف رعاية الآباء ورقابتهم لبناتهم[1] أنه قد تهيأ لهن من الحرية والانطلاق ، ما لم يكن ميسوراً حتى للآباء قبل ثلاثين أو أربعين عاماً . ثم يقول :

والسبب الخطير ـ الذي قد عمت لأجله الفوضى الجنسية في المجتمع ـ أن النساء لا يزلن يتهافتن على الأشغال التجارية ، ووظائف المكاتب والحرف المختلفة ؛ حيث تسنح لهن فرص الاختلاط بالرجال صباح مساء ، وقد حط ذلك من المستوى الخلقي في الرجال والنساء ، وقلل جداً من قوة المدافعة في النساء لاعتداءات الرجال على عفتهن ، ثم أطلق العلاقة الشهوانية بين الجنسين من القيود الخلقية .

فالآن أصبحت الفتيات لا يخطر ببالهن الزواج ، أو الحياة العفيفة الكريمة ، حتى صار اللهو والمجون ـ الذي كان يطلبه في الزمان الغابر أوغاد الناس ـ تطلبه كل فتاة اليوم .

وأمست البكارة والفتوة شيئاً من آثار الماضي ، يؤود حفظهما فتاة العصر الجديد ، فليست متعة الحياة عندها إلا من يعب لها كأس

(١) ويجب أن نؤكد أن الإسلام قد اعتنى بالأبناء ، منذ لحظة التفكير في إقامة الأُسرة ، وأحاط وجود الأبناء بهالة من الكرامة والعناية ، وألزم الآباء برعايتهم جسمانياً وروحانياً ووجدانياً .

اللذات في الشباب ، فهي تسعى وراء تلك اللذات ، وتبحث عنها في المراقص والأندية الليلية والفنادق والمقاهي ، وربما أمعنت في بحثها هذا إلى أن تصحب رجلاً أجنبياً إلى نزهة نازحة في السيارة ، وبذلك تلقي بنفسها راضية مختارة إلى بيئة وأوضاع تشعل النزعات الجنسية إشعالاً ، ثم هي لا تخاف النتائج الطبيعية لذلك ، بل ترضى بها وتستقبلها بطيبة نفس[1] .

١٢ ـ وقد جاء [أميل بوريسي] في تقريره بأمثلة متعددة من أحوال المسارح والملاهي ، دونت بعد جولات في مختلف الملاهي والملاعب ؛ فيقول عن واحدة منها ، وقد كناه بحرف الهجاء س قال :

وفي مسرح س ألحَّ النظارة على ممثلة ، فحملوها مرة بعد أخرى على إعادة عرض متماد في الفحش ، حتى صاحت بهم قائلة : قاتلكم الله يا فجار ! ! ألا ترون أن بجانبكم في هذه القاعة صغاراً ؟ ! . ثم انصرفت من المنصة بدون أن تستكمل دورها في ذلك الفصل من المسرحية ، فكان ذلك العرض بالغاً في الدناءة والفحش ، إذ لم تصبر على تكراره حتى تلك الماجنة المعتادة[2] .

١٣ ـ نشرت مجلة حضارة الإسلام الخبر التالي[3] : وافق مجلس الشيوخ الأمريكي ـ من مدة قصيرة ـ على مشروع قانون يسمح للمحاكم

(١) راجع كتاب الحجاب : ص ١١٦ ، ١١٧ للمودودي رحمه الله .

(٢) انظر كتاب الحجاب : ص ٨٧ .

(٣) المجلد الثاني : ص ٤٨٩ .

بمعاقبة الأمهات غير المتزوجات ، اللواتي ينجبن طفلين أو أكثر ، بالسجن من سنة إلى سنتين[1] .

١٤ ـ نشرت مجلة حضارة الإسلام في عددها الرابع ، المجلد الثالث : ص ٤٤٣ ما يلي : في بعض الحفلات الخيرية[2] ـ في بلاد الغرب ـ تنظم مزايدات على قُبَل الكواكب المعروفات ، وقد دفع أحد الأثرياء في انجلترا ـ خلال الحرب العالمية الأُولى ـ في حفل جرى ١٢ر٠٠٠ جنيه مقابل تقبيل إحدى الممثلات المعروفات حينذاك . ودفع آخر منذ بضعة أشهر ١٥٠٠٠ جنيه في مناسبة مشابهة . وقد أوصى ثري في مانشستر بـ ٢٥ر٠٠٠ جنيه لفتاة ، تقديراً لقبلة منحته إياها أثناء

(١) أقول : مسكينة بنت حواء الغربية ؛ أخرجوها من بيتها ، ودفعوها لتعمل في المصانع والمحلات المختلطة ، فلما أنتجت هذه الفلسفة نتيجتها الطبيعية ، قاموا يعاقبونها بالسجن سنوات عديدة ، وهم أعلم الناس بأسباب هذه الجريمة البشعة ، أما المرأة المسلمة ، التي حفظ لها الإسلام كيانها وقيمتها ، فهي والحمد لله مصونة مكرمة ، لها حقوقها الأبوية والزوجية ، وقد صانها الإسلام ورفع من قدرها ، فلتهنأ بسعادة الدنيا ونعيم الآخـــرة .

(٢) ما شاء الله ، الغربيون لا يزالون بخير ! ! حيث تنتشر أعمال البر والإحسان في جنبات المجتمع هنا وهناك ، ومع ذلك فالعمل الخيري عندهم يختلف عما ألفه أبناء الشرق المسلم ؛ حيث تختلف صوره وأنماطه وتتنوع ؛ فصور الخير والإحسان عندهم تقوم على تنظيم حفلات الدعارة والقذارة للترفيه ، تحت شعار أعمال الخير والبر ، وعندما يفتح باب الاكتتاب تنظم المزايدات والمسابقات العلنية لتقبيل الكواكب الفاتنة والممثلات اللامعة ، ويرصد ريع هذه الحفلات الشيطانية الساقطة للإنفاق على مصالح الخير .

أقول : إنها المأساة المروعة ، والهبوط إلى درك الرذيلة ؛ إذ هكذا سقطت إنسانية الغربيين ، وانسلخوا عن فطرتهم ، فهل يقـــام الخـير في مستنقع الرذيلة ؟ ! . وأنى لهم ذلك . وفاقد الشيء لا يعطيه ؟ ! .

إحدى حفلات عيد الميلاد[1] . أي ميلاد السيد المسيح ؛ نبي الطهر والعفة والحياء .

١٥ ـ ونشرت مجلة حضارة الإسلام في عددها الثالث ـ المجلد الثالث : ص ٣٣١ ما يلي :

اكتشف المحقق الذي يدرس قضية انتحار ـ مارلين مونرو ـ أشهر ممثلة عالمية ـ رسالة محفوظة في صندوق الأمانات ـ في مانهاتن بانك ـ في نيويورك ، ألقت هذه الرسالة بعض الأضواء على انتحار مونرو ؛ إذ وجد على غلافها كلمة تطلب عدم فتح هذه الرسالة قبل وفاتها .

فتح المحقق الرسالة فوجدها مكتوبة بخط مونرو بالذات ، وهي موجهة إلى فتاة تطلب نصيحة مونرو عن الطريق إلى التمثيل .

قالت مارلين في رسالتها إلى الفتاة ، وإلى كل من ترغب بالعمل في السينما :

احذري المجد . احذري كل من يخدعك بالأضواء . إنني أتعس امرأة

(١) هكذا ينتشر الفجور والفسق البواح من أقوام يدعون ـ زوراً وبهتاناً ـ أنهم من أتباع نبي الله ورسوله المسيح ابن مريم البتول ، هذه السلالة الطاهرة المطهرة التي جبلت على العفة والحياء ، ومع ذلك فقد ادعى أناس أنهم من أتباعها ، ولو كان عندهم ذرة من إيمان أو مسكة من عقل لما نزلوا لهذا المستوى الهابط ، فهم لا شك قوم لا خلاق لهم ، فما أقل حياءهم ، وما أكثر ضلالهم ، ويا ليتهم حفظوا ماء وجوههم وترفعوا عن دناءاتهم في مثل تلك المناسبة العظيمة .

على هذه الأَرض[1] ، لم أَستطع أَن أَكون أُماً . إني امرأَة أُفضل البيت والحياة العائلية الشريفة على كل شيء . إن سعادة المرأَة الحقيقية في الحياة العائلية الشريفة الطاهرة ، بل إن هذه الحياة العائلية لهي رمز سعادة المرأَة ، بل الإنسانية . وتقول في النهاية : لقد ظلمني كل الناس . وإن العمل في السينما يجعل من المرأَة سلعة رخيصة تافهة ، مهما نالت من المجد والشهرة الزائفة ، إني أَنصح الفتيات بعدم العمل في السينما وفي التمثيل ، إن نهايتهن إذا كن غافلات كنهايتي[2] .

وبعد : فهذه أَيُّها القارئ بعض الثمار التي أَنضجتها تربة الغرب وحضارته العفنة ، وهي كما ترى ناتجة عن أَوضاع شاذة وأَنظمة فاسدة وضعها البشر ؛ كدعوة الاختلاط وتحرير المرأَة وما شابه ذلك ، وهي تمرد على سنن الحياة .

وليعلم أَن ثمار الاختلاط – التي جناها الغربيون ومن سلك سبيلهم – ما هي إلا نتائج انحطاط المجتمع وعدم كبح جماح شهواته ، أَما آداب

(١) رحم الله أَيام زمان ؛ عندما كانت المرأَة فيها إنسانة لها قيمتها وكرامتها ، بعيدة عن سفاسف الحضارة الزائفة وقشورها ، كما هو حال امرأة هذا العصر المضطرب ؛ فقد عمت المفاسد وانتشر المجون ودواعيه ؛ كالملابس الفاتنة والأحذية الطويلة والمساحيق ، وهز الوسط والصور الجنسية الفاضحة ، وزئير الموسيقى والأنغام الشجية ، وكثرت الملاهي والمنتديات ووسائل الإعلام – وما تنشره من صور عارية وأفلام ساقطة – والسهرات المختلطة التي غلفها الظلام ، وضاقت بأنفاس المخلصين المعربدين .

(٢) انظر كتاب المرأة بين الفقه والقانون للمرحوم الدكتور مصطفى السباعي ، رحمه الله رحمة واسعة .

الإسلام ومزاياه الفريدة ، فهي محل ثقة وطمأنينة ؛ لأنها من عند الله الذي خلق فسوى .

ولنحذر رياح السموم التي هبت على ديارنا ، وافدة من أرض فاسدة . وقد انجرف بعض أبنائنا وراء غايات وأفكار الغربيين المدسوسة ، وقلدوهم ، واستوردوا مفاسدهم ، مع أن في الإسلام الحل الشافي لمشاكل البشرية ، فهو يمزج الأخلاق بالقانون ؛ فيجعل الحارس هو رقابة الله في ضمير المسلم ، وفي هذا يقول الرسول ﷺ : « الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ »[1] .

وحسبنا بما قدمنا أن تكون عبرة للمعتبرين وتذكرة للمبصرين ، لتنتفع بها الأجيال بعد أن غفل عنها بعضهم فسقط في تجاربها المرة .

والسعيد من اتعظ بغيره ، وكان له من الماضي عبرة للمستقبل . هذه هي نصيحتي . والدين النصيحة : (وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ)[2] .

---

(١) فقرة من حديث طويل رواه البخاري . راجع جواهر البخاري : ص ٥٣ ، ٥٤ .

(٢) سورة الذاريات : ٥٥ .

الثقافة والتعليم

مقدمة:

يسود العالم صراع بين الثقافات ، كما أن فيه صراعاً بين الكتل والمعسكرات ، وتتقاسم العالم المعاصر ثلاث ثقافات ، تمتد كل منها في منطقة كبيرة من مناطق العالم ؛ إحداها الثقافة الإسلامية التي تسود العالم الإسلامي ؛ تمتد جذورها في كل بلد ، منذ دخول الإسلام وانتشاره في ذلك البلد . والثقافتان الأُخريان ترجعان إلى أصل واحد ، وهما الثقافة الديموقراطية والثقافة الاشتراكية ، ويمكن أن تطلق عليهما اسماً جامعاً مشتركاً يدل على وحدة أصلهما وهو : الثقافة الغربية . وليستا حالياً إلا فرع من شجرة واحدة ولونان ، أو شكلان لمادة أصلية مشتركة . وعلى ما بين الثقافتين الديموقراطية والاشتراكية من تنافس وتزاحم وتصارع ، فإنهما تقفان كليهما بالنسبة للثقافة الإسلامية موقف الغزو والهجوم ، وهدفهما إزالتها وتغيير معالمها ، وصبغ أهلها وأصحابها بصبغتهما ، لكي تحل إحداهما محل ثقافة الإسلام .

وستقف يا أخي على الحرب الرهيبة ، التي يشنها أبناءُ جلدتنا على ديننا وعقيدتنا ، وكيف يسددون الضربات المميتة في قلب أمتنا ، والتي يعجز عدونا الأكبر أن يسددها لمقاتلنا وصدورنا بطعناته القاتلة . وبالإضافة إلى هذا فإننا نهدف لإيصال النور إلى البصائر التي فقدت

أو كادت تفقد نور الحقيقة ، وهناك من اغتبط بهذا العمى ولا يرون له بديلاً[1] .

فهؤلاء القابعون على الغواية والعمى مفروغ منهم ، إذ هم كأُولئكَ الذين قال الله تعالى فيهم : (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)[2] .

فهؤلاء الذين استحبوا العمى على الهدى ، وأضلهم الله على علم ، لو قدر للنور أن يرجع إليهم لقطعوا تياره بأيديهم ، ولعادوا إلى ظلامهم لأنهم من النوع الذين قال الله فيهم : (وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)[3] .

ونحن نريد أن نذكِّر لكي ينفذ النور ويكشف ما تحت الأستار . وبإزاحة حجب التدليس والشعوذة عن الأبصار ، قد يدرك من فاته الإدراك ، لما أحاطه من لبس وتمويه وضياع ؛ حيث الدعوات البراقة الجوفاء ، والضلال الكثيف الذي أغلق منافذ الرؤية ، وعمى القلوب والأبصار . وفي الفقرات الآتية ستقف على الآفات المختلفة ، التي صدَّعت بنْية المجتمع الإسلامي ووحدته المتينة ، وبالتالي إيجاد الوسائل والطرق الممكنة لتفادي هذا التصدع ، والشرخ الذي بدأ ينخر في جسم الأُمة ، وخاصة ما يتعلق بحياة الناشئة ؛ من حيث التعليم والمدارس

(١) بتصرف من كتاب صراع مع الباطل : ص ٥٠ – ٥٢ .

(٢) سورة الجاثية : ٢٣ .

(٣) سورة الأنفال : ٢٣ .

والجامعات والاختلاط ، وما يتعلق بالأساتذة بالمعاهد العليا ، ومناهج البحث والتدريس وغيرها من وسائل الثقافة والإعلام .

التعليم المدني

إن للجامعات والمعاهد والمدارس خطراً كبيراً على عقائد طلابنا وأخلاقهم ، لا يماري فيه إلا مكابر مغالط لا تهمه مصلحة هؤلاء الطلبة المسلمين ، الذين لهم كيان خاص بهم ، والذين هم عرضة للتيارات الفاسدة التي قد تجرفهم في مقاعد الدراسة ، حيث لا بد من توفير الجو المناسب لأمثال هؤلاء الطلاب ، وإيصال المعارف النافعة والمحصولات العلمية ، التي هي أشبه ما تكون بالمناعة والمصل الواقي ، لحماية هذا الجيل من الوقوع في المحظور ، والتزود بالثقافة الإسلامية النافعة .

كيف يعيش طلابنا خارج الجامعة

لا يخفى على أحد بأن الشباب في حد ذاته جنون ، وأعني بذلك أنه قد تسيطر عليه تيارات جارفة ، وتجرفه إلى ما لا يرتضيه المنطق السليم ، وما يتنافى مع القيم الإنسانية ؛ لأنه بطبيعته نَزَّاع إلى الشهوات ، حتى في الأجواء التي يغلب عليها طابع التحفظ والاحتشام ، وتسيطر عليها قوانين الفضيلة والالتزام . فكيف بهذا الشباب الوثّاب بطبعه إلى الارتواء من الشهوات ، إذا أُطلق له العنان في مضماره ، وعاش في ذلك الجو الزاخر بكل ما يُغري الشباب ، ويدعوهم إلى التمتع باللذة المحرمة ،

التي هي من أبرز ما يهفو إليه الشباب بطبعه الدفاع ؟ ! كيف بهذا الشباب إذا بقي - وهو النزاع إلى الشهوات - يعيش سنوات طويلة في ذلك الجو ، الذي لا يتاح فيه جريمة الزنا فحسب ، بل يوجد فيه ما يحيط بالشباب من الدوافع القوية المختلفة ، التي يجد الشباب نفسه أحياناً أسيراً وسطها ، تدفعه بصورة شبه إجبارية إلى الانغماس في هذا الإثم المدمر ، الذي يؤدي بصاحبه إلى أسوأ العواقب .

اعتقد أن النتيجة ستكون غير مرضية بالنسبة لهؤلاء الفتيان ، الذين ابتعثوا باسم العلم ، أو الذين أرسلهم أهلهم لمتابعة تحصيل العلوم بلا مراقب ولا حسيب ، في مجتمع فيه الاستهتار والمجون والخلاعة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار . إن الشاب إذا بقي طويلاً يسرح ويمرح في مجتمع تباح فيه جميع وسائل الانحراف والمجون ؛ من خمر ورقص وغناء ومسارح واختلاط وتبذل ، وليس فيه أي حائل يحول بين الشباب وبين مخادنة من يرتضيها الخدن وترتضيه من النساء ، وليس في معاهد العلم - التي يتلقى الدروس فيها - ما يغرس في نفسه روح الفضيلة والعفة ، ويبغض إليه الاقتراب من هذه المواطن الخطرة ، بل فيها ما يغريهم بالانغماس في مزابلها ، ومثل هؤلاء الذين يقذفون إلى تلك المجتمعات - الطلاب - الطافحة بالمجون والفساد ، كمثل ذلك الذي قال فيه الشاعر :

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له : إياك إياك أن تبتلَّ بالماء

إن فلذات الأكباد من شبابنا الذين تدفع بهم بلادنا ، لتلقي العلم في تلك الجهات ، والتي شأنها في التعليم ونظامها في الحياة كما ذكرنا ؛ حيث يستوي فيها من تابع دراسته في جامعاتنا العربية أو أُرسل إلى البلاد الأجنبية ، لأن التخطيط الغربي والأنظمة المعمول بها في جامعات الغرب ، قد انتقلت عندنا بسمومها الناقعة وبجراثيمها القاتلة ، فإذا ذهبت إلى جامعة عربية تدهش ويصيبك الذهول لما ستراه ؛ من حيث الاختلاط والخلوة ، بانفراد الشاب مع الشابة حتى في برك السباحة وغيرها . مما يندى له جبين الإنسانية لهذا التهور والانحراف والشذوذ الأخلاقي ، والذي كان يأباه ابن الجاهلية الأولى . وماذا سيكون المردود لهذا الطالب الجامعي والفتاة الجامعية ؟ . لا شك أن المردود سيكون شراً على الأمة والعقيدة ، وسموماً على الآخرين ، وسيجلب هؤلاء الشر أكثر مما يجلبون الخير .

ذلك أنهم ليسوا ملائكة ولا أنبياء ، حتى يستطيعوا التغلب على نوازع الفساد،ودواعي الشهوة التي تحيط بهم من خلفهم وأمامهم ومن فوقهم ومن تحت أرجلهم . لاسيما وأن مرحلة الدراسة هذه هي مرحلة جنون الشباب ، التي يكون فيها الشباب عادة تواقاً بِنَهم إلى إرواء شهواته الجسدية كما قال الشاعر :

قالت : عهدتك مجنوناً . فقلت لها : إن الشباب جنون برؤه الكبـــر

وتوقان الشباب إلى الشهوات في هذه المرحلة ليس مرضاً ، وإنما هو

طبيعة . قال تعالى : (سُنَّةَ ٱللهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْامِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللهِ تَبْـدِيلاً)[1] .

فكل رجل كامل الرجولة ، وفتاة كاملة الأُنوثة لا شك أنهما قد مرا بهذه المرحلة الجياشة بنوازع الشباب القوية ، ودوافع الشهوة الجنسية العرمة ، ولهذا فإن علماء التربية وقادة الفضيلة يعتبرون هذه المرحلة من أدق المراحل ، التي يجب فيها التنبه للشباب وحمايتهم ، والابتعاد بهم عن كل ما يزيد غرائزهم الجنسية التهاباً ، ويزيد شبابهم جنوناً على جنون . فالموضوع إذن لا يخلو من الخطر على هؤلاء الشباب ، بل إن عنصر الخطورة فيه يكاد - على ضوء التجارب المعروفة والتي يعيشها أولئك - يظهر مجسداً للعيـــان .

نعم ، نحن لا ننكر أن هناك شباباً لهم من المناعة الدينية والخلقية - التي اكتسبوها بالتربية منذ الصغر - ما يجعلهم في مستوى أفضل ؛ من حيث الابتعاد عن مواطن الإغراء ودواعي السقوط ، ورفض النظريات التي تدعو إلى الاستهتار بالإسلام وتعاليمه وعقائده في فصول الدراسة ؛ وذلك بما اكتسبوه من تسلح ديني مركز ، وخلق إسلامي متين قبل الذهاب للجامعة ، سواءٌ كان في جامعات بلادنا في الداخل ، أو بعد مغادرة البلاد للجامعات الأجنبية ، ويتصلون بالمجتمعات الخطيرة ، ولكن هذا لا يعني أن كل المطعمين باللقاح الديني والخلقي المكتسب في بلادهم يصمدون حتى النهاية في وجه تيارات المجون المغرية ،

(١) سورة الأحزاب : ٦٢ .

وعواصف الانحراف المدمرة ، التي يجبرون عليها يومياً نتيجة الاحتكاك والاختلاط ؛ في الجامعة وفي الشارع وفي المطعم وفي وسائل النقل وغيرها[1] .

فكثير من هؤلاء لا يستطيعون الصمود طويلاً أمام هذه التيارات ، والعواصف المضنية للنفوس المحافظة ، بل ألقوا السلاح بسرعة غير منتظرة واستراحوا من عناء المقاومة ، فجاروا التيار واستجابوا لنداءات الشباب وصيحات المراهقة ، التي أطلقها أمثالهم ، فوقعوا في المفاسد والمنكرات التي ما استطاعوا منها النجاة .

خطر انتداب المدرسين :

ظهر في الآونة الأخيرة اتجاه خطير ، أُعلنت فيه الحرب على القيم والفضائل والتراث الإسلامي كافة ؛ حيث ظهر الإلحاد وتفشت الإباحية في الدراسات الجامعية ، ومن المعلوم أن معاهد العلم عندما تستقبل كل عام أفواجاً من الأساتذة ، يفدون إليها لأجل التدريس – وخاصة الأساتذه المنتدبين – ومن بينهم أساتذة تخرجوا في جامعات مشبوهة ، لاسيما إذا ما كان تخصصها واتجاهاتها وميولها بعيداً عن النزعة الدينية . وقد احتضن أمثال هؤلاء الأساتذة معاهد وجامعات غربية ، وأشرف عليهم أساتذة أجانب ، لاسيما إذا ما كانوا من المستشرقين أو ممن لهم ميول للتبشير أو محاربة الدين وتشربوا بنزعات إلحادية . كذلك هناك اتجاه في الدراسة الجامعية فيه استهتار بالأديان ، واستهتار

(١) راجع كتاب صراع مع الباطل بتصرف ، ففيه نفع كبير . جزى الله مؤلفه عنا خيراً .

بالإسلام بنوع خاص ، والطلبة حينما يرون الأساتذة يلقون إليهم بمثل هذه الآراء الشيطانية ، وبمثل هذه الاتجاهات ، يسهل عليهم الانحراف ، بل ويتشككون في عقائدهم وفي دينهم .

ولا أخطر على شبابنا مما نسبه بعض الأساتذة ، الذين لا يربطهم بالإسلام إلا الاسم ؛ ومن هؤلاء من تصدروا للتدريس حتى إنهم أصبحوا مديرين للجامعات ، تلك النسبة التي تشدق بها ورفع عقيرته متجنياً على الإسلام وأهله ؛ مفترياً بأن الدين قد ذهب بأمن الحياة ذاتها .

ولا يخفى على أحد انتشار الخلاعة والانحراف الخلقي ، وهو المردود على فلذات أكبادنا ، والمستعاض عن التقويم السليم والخلق القويم ، كما أن الاستهتار قد بلغ ذروته ؛ حيث يكاد الفتى أو الشاب يجر الفتاة المستهترة من ثيابها ، وهو يقلبها رأساً على عقب أمام أهلها وإخوتها وغيرهم ، باسم العلم والتقدم والحضارة .

كذلك من المؤسف حقاً أن بعض أساتذة الجامعة المنحرفين ، ودعاة الإلحاد ، قد انبرى أحدهم داعياً إحدى بناته لمراقصتها ـ الروك أند رول ـ ليكون القدوة السيئة لغيره ، ولم يكن هذا مجرد صدفة ولكنه حقيقة واقعة . وقد حصل منذ سنين على مرأى ومسمع غيره ليجاريه من يجاري ، وليس هذا بعجيب ، ويصدق على هذا الضرب والأنموذج ما قاله الشاعر : ـ

إذا كان رب البيت للدف ضارباً فشيمة أهـل البيت كلهم الرقص

أجل ، لقد حصل ذلك حقاً ؛ حيث إن أُستاذاً جامعياً دعا عدداً من الطلبة الشبان إلى بيته ، وبعد شرب الشاي راقص بعض الشباب بنته – تلك الرقصة المسماة الروك أند رول – ترفيهاً واحتساباً منه ، وهذا ما نشرته الصحف والجرائد آنذاك . ويا هول ما نشرت[1] .

إذن فهؤلاء الأساتذة الجامعيون – المنتدبون[2] لتثقيف أبنائنا – ليس لديهم من العلم إلا ما تحصلوا عليه داخل هذه الجامعات ، على أيدي أمثال هؤلاء الأساتذة المشبوهين .

وهذا أمر لا يخفى ما فيه من الخطورة علينا ، لأن لنا كياناً خاصاً يختلف عن كيان جميع بلدان العالم ، وهذا هو الكيان الإسلامي الذي نحاول حمايته والحفاظ عليه ، وسط هذه العاصفة من التيارات الجارفة ؛ والمبادئ الهدامة المستوردة والعادات الفاسدة التي أحاطت بنا من كل جانب ، والتي أخذت تتحفز لاكتساحنا وهدم كياننا الإسلامي ، الذي لا حياة لنا إلا به . ومما لا جدال فيه أننا لا نستطيع الاحتفاظ بكياننا وسط هذه الدوامة الخطيرة من المبادئ التي تغتلم حولنا ، والتي هي – بالإجماع – حرب على كياننا هذا ، إلا إذا ضاعفنا وسائل الوقاية وأسباب الدفاع عن هذا الكيان الخاص ، وذلك لا يتم إلا عن طريق

(١) انظر صراع مع الباطل بتصرف : ص ٥٦ .

(٢) ومما يذكر أن الجامعات العربية تفضل حملة الشهادات الغربية – من أبناء العرب – للتدريس فيها ، وذلك يحر من الفساد كل ما تعلمه هؤلاء في الغرب ؛ من أشكال الحياة الأوربية الفاسدة ، فإن لم يجدوا جلبوا الأساتذة الغربيين بأبهظ الأُجور .

التربية والتعليم ، فهذه الآلاف المؤلفة من شباب المدارس وأطفالها ، هم وحدهم الذين يمكن الاعتماد عليهم للحفاظ على كياننا الإسلامي وتركيزه ـ إذا ما تم في جميع مراحل تعليمهم تركيز الوعي الإسلامي منذ الصغر ـ تركيزاً خاصاً وعلى درجة ممتازة جداً ، تجعلهم يتدرجون في مدارج الثقافة الإسلامية العميقة الواعية الواسعة ، حتى نهاية مرحلة التعليم . وهنا سيعتبر كل واحد منهم نفسه مسؤولاً عن حماية هذا الكيان ؛ الذي سيشعر ـ عن صدق وإيمان وإدراك ـ بأنه الكيان الذي لا حياة له ولا سعادة له بدون استقامته وتعضيده ، وهنا ـ بالتأكيد ـ سيقف الكيان الإسلامي شامخاً كالعملاق الجبار ، يدوس بقدمه كل محاولة تحاول النيل منه والتأثير عليه ، وستنزاح أمامه ـ كالأقزام ـ كل المبادئ الهدامة المستوردة ، والتيارات الفاسدة المتعفنة التي تحالفت اليوم ضده ، وأجمعت على الفتك به ، وأخذت ـ فيما وراء الحدود ـ تتحفز للقضاء عليه ، ولكن هذا الحلم الجميل لن يتم أيضاً إلا إذا تولى الإشراف على تربية وتثقيف هذه الآلاف من الشباب والأطفال في مدارسنا أساتذة عرفوا حقيقة الإسلام ، وامتزجت نفوسهم بثقافته السامية ومعارفه ، بحيث تصبح هذه المعارف والثقافات في مقر القيادة العليا لباقي ثقافات الأساتذة للضبط وتقويم الاعوجاج .

استيراد الثقافة المنحرفة

لعل أخطر مسألة نتعرض لها في بحث الثقافة والتعليم ، هي مسألة استيراد الثقافة ؛ تلك النقطة الهامة التي يترتب عليها نتائج سلبية للآثار المدمرة التي تنعكس على الفرد والمجتمع . أجل ، إنا نحب الصراحة فيما نقوله حول هذه المسألة ، إذ أن الشر المدمر للدين ، والتيارات الملحدة والمحطمة للدولة ، إنما تنطلق أول ما تنطلق من المؤسسات التعليمية ، إذا ما سيطرت عليها ثقافات مستوردة ، يعمل الوافدون بها داخل المعاهد العلمية ، لإضعاف الحركة الإسلامية بالتدرج ، تمهيداً لمحوها من دائرة التعليم كافة . وأظننا لسنا بحاجة إلى وضع النقاط على الحروف ، ولفت النظر إلى المخلفات القائمة والعظات المجسدة ، التي تنبئ بالكوارث والمحن ، التي أتت على الأخضر واليابس ، حتى أظلمت الحياة ولم يعد بالإمكان الصبر عليها وتحملها ، وهذا هو المردود المنعكس عن الثقافات المستوردة التي غزت ديارنا عن طريق استيراد المدرسين ، الذين يحملون ثقافات فاسدة مناهضة لروح الإسلام ، ومن ثم ليحتلوا مقاعد القيادة في المجتمع . لأن الكثيرين منهم قد وصلوا إلى غايتهم ، مما سبب حصول المأساة المفجعة . وللخلاص من ذلك يجب القيام بحملة تطهير لجهاز التعليم في بلادنا ، والتخلص من كل من تشم منه رائحة الثقافة العصرية الملوثة ، وتسليم المراكز التعليمية – في المؤسسات العليا التعليمية – لأشخاص من بني جلدتنا ، محصنين ، بالثقافة الإسلامية ، بعد استئصال شأفة الثقافة المستوردة ، وكل من

يعمل على نشرها في معاهدنا ومؤسساتنا ، وخاصة المدرسين المنتدبين من دول الغرب الملحد .

بالإضافة إلى ما ذكر ، فيجب عدم إرسال أبنائنا إلى تلك المعاهد ؛ ذات الثقافة الملوثة ، وخاصة دول أوروبا وأمريكا ، لأنهم إذا ما عادوا إلى بلادهم ، فسيكونون مطعمين بالغث والسمين ، بحيث لا يستطيعون أن يؤدوا الرسالة المقدسة ، التي يفترض أن تكون خالية من الشوائب .

لذلك كان حرياً بنا أن نختار المعلمين من أصحاب الكفاءات الدينية ، إذ أن الاستعانة بهؤلاء المعلمين ، لتوسيع كياننا ومجتمعنا الإسلامي ، ونشر الثقافة الإسلامية بين أبناء الأمة ، أمر حتمي لا مفر منه . وبهذا نستطيع أن نحافظ على مسيرتنا الرائدة ، وفق منهج تربوي مدروس ، وعلى خطوط قويمة تصل بنا إلى شاطىء السلامة ، بعد استغنائنا عن كافة المدرسين الأجانب ؛ أصحاب الثقافة المنحرفة ، والبرامج التعليمية الفاسدة الملوثة .

وَسائل النشر والدعاية :

إن وسائل الإعلام والنشر والدعاية في بلادنا العربية والإسلامية ، من أكبر بؤر الفساد وجراثيم المجتمع ، التي لا يزال معظمها منابر للفساد والإلحاد والتشكيك في الدين ، يصرح من فوق أعوادها كتاب متمسلمون بالانتقاد الشديد لنصوص الدين الحنيف . والبعض الآخر من هذه الوسائل كالصحف ، قد جعلت – ولا تزال تجعل – من صفحاتها

معارض واسعة للتحريض على الإثم ، والدعوة إلى الانحلال والرذيلة . كما أن كبار الكتاب ـ كما يسمونهم ـ وأساطين الأدب العربي ـ كما يصفونهم في بعض بلادنا الإسلامية والعربية ـ لا تزال أقلامهم تقطر دماً وتنفث سماً ، من جراء الطعنات النافذة التي أصابوا ـ ولا يزالون يصيبون ـ بها الإسلام في صميمه ومقاتله .

إنه البلاءُ المستورد من مستنقع الفساد ، وثقافة التغريب والحضارة المسمومة ، التي غزت ديارنا الإسلامية . كذلك الكاتب العربي المرموق الذي ، اتهم الإسلام ـ في قحة وصفاقة ـ بأنه مخرب الأجيال ومروع الشعوب[1] وما يعلنه الآخرون ؛ الذين يشربون الخمور ، ويتصرفون تصرف الخلعاء بأقلامهم وكتاباتهم الماجنة ، لذا كان لا بد لنا من الوقوف الحازم في وجوههم ، وتقليم أظفار المنشقين أمثالهم .

أسباب الانهيار

ويمكن إجمال انهيار مجتمعنا الإسلامي ، وتخبطه في دياجير الظلمة بعدما كان رائداً ، وحاملاً لمشعل النور والهداية قروناً طويلة إلى الأسباب التـــالية :

١ ـ السينما والمسرح وما يعرض على الشاشة ؛ من حيث نشر الرذيلة والفساد والتحريض على محاربة القيم والأخلاق .

(١) انظر صراع مع الباطل : ص ٦٠ .

٢ - الصحف والمجلات والجرائد وما تنشره الأبواق المسمومة من دعايات مغرضة ؛ كالأخبار والتعليقات الخليعة ، التي أُرخي لها العنان دونما حسيب أو رقيب ، فقامت هذه الصحف المسمومة - ولا زالت تقوم - بنشر ما يحرّض على الإثم والمجون ، من صور عارية فاضحة ، وقصص خليعة ماجنة عابثة .

٣ - إباحة اختلاط الجنسين والتشجيع عليه بين البالغين ، وخاصة في معاهد التعليم من مدارس وجامعات .

٤ - السفور والتبذل الذي بلغ بالنساء إلى درجة التفسخ والعري ، حتى إن الشباب يجارون النساء في التهتك والميوعة والخنفسة والانحراف .

٥ - القصص الخليعة،والروايات الماجنة التي تتاجر بها الأقلام الآثمة ، وتدعو لها في الصحف والمجلات ، بين المراهقين والمراهقات .

٦ - خلو المدارس والجامعات من التربية الدينية في جميع مراحل التعليم؛ إلا بعض الحصص الإضافية في المنهاج المعتمد .

٧ - قيام الأساتذة والمعلمين في المدارس والجامعات بنشر روح الاستهتار بالإسلام بين الطلبة ، مما يربي في نفوسهم احتقار هذا الدين وعدم الاهتمام بعقيدته .

٨ - إباحة القوانين في بعض بلاد العرب والمسلمين لارتكاب جريمة الزنا والفواحش والقمار وكافة المحرمات ، وبدون رقابة أو فرض

عقوبة على المخالفين ، الذين وقعوا في مثل هذه الجرائم الفاحشة .

٩ – مشاركة الإذاعة بنشر الأغاني الماجنة المستهترة ، والتمثيليات المسمومة التي لا نتيجة لها إلا تدريب الشامعين على سلوك طرق الانحراف والفساد .

١٠ – ضعف الرقابة في المنزل ، وإعطاء المرأة كامل الحرية لتركه والخروج إلى أي مكان تشاء[1] .

هذه الأسباب الموجزة ، التي أدت إلى وصول بلادنا العربية والإسلامية إلى ما وصلت إليه ؛ من تميع وتحلل ، مما جعل المصلحين هناك يقلقون لهذا ، ويحاولون إنقاذ الغرق من لجة الفساد الخلقي ، الذي طغت أمواجه بشكل مريع ، وما هذا إلا من مخلفات الثقافة المستوردة والحضارة الغربية المنحرفة ، التي تسابقت الدول على تهيئة الجوّ لها ، وإفساح المجال لها دونما وازع أو مؤنب ، لغفلة أهل الحق عن أصحاب الباطل .

سبيل الخلاص

لقد تعرضت أمتنا لأخطار كثيرة ، على فترات متعاقبة ، واستطاعت أن تتلافى ما يعترض سبيلها ، على ضوء مقوماتها الإسلامية التي منحها إياها الإسلام الحنيف ، واستطاعت بالفعل وخلال مدة قصيرة أن تكون رائدة للبشرية ، ومنقذة للشعوب من أوحال الشرك وفساد الأنظمة

(١) راجع صراع مع الباطل : ص ٦٣ .

لمـا كانت الدول ـ وعلى اختلاف اتجاهاتها ـ تعمل جهدها وبكافة الوسائل المتيسرة لديها ، ـ وعلى وجه الخصوص في أجهزة التعليم ومعاهد الثقافة المختلفة ـ حيث تجند كل إمكاناتها لغرس ونشر كل ما يعزز كيانها ، ويزين للناس محاسن اتجاهاتها ، وعظمة الأُسس التي تقام عليها ، وسلامة العقائد التي تسير بموجبها .

إذا كانت هذه الدول المفلسة حقيقة ، تضرب بيد من حديد لخنق أي صوت ـ مهما كان خافتاً ـ يخالف اتجاهها وأُسلوب حياتها وخطها المرسوم ، فلماذا لا نعمل نحن مثلهم في مناهجنا ، فنجعل همنا الأكبر وشغلنا الشاغل في المدرسة والجامعة ، والإذاعة والصحافة وبصفة دائمة مركزة ؟ ! .

وفي هذا تعزيز لكيان الدين الإسلامي ، ونشر سلامة اتجاهاتنا المقتفية أثر هذا الدين الحنيف ، وغرس حبها واحترامها في نفوس طلابنا بصفة واعية مركزة ، والضرب بعنف على يد كل مخرب أو فاسد أو موتور ، يشم منه رائحة التجهيز أو الدفاع عن أي اتجاه يخالف اتجاهنا الإسلامي ، سواءٌ كان ذلك في الصحافة ؛ حيث النشر والدعاية المغرضة والفساد الذي يحاربه الإسلام ،وتأباه النفوس ، وكذلك المراقبة الصارمة لكل أجهزة الدعاية ؛ كدور السينما،وأجهزة التلفزيون التي لا تتورع عن نشر المفاسد والدعوات الهدامة ، ولاسيما ما يتعلق بحضارة الغرب الفاسدة ، من حيث تقليده في الاختلاط واللباس وغيرها من التقاليد . ولتكن وسائل بناءٍ وتحصن ، لا وسائل هدم وتخريب في

صرح أُمتنا المجيدة ، التي قال عنها الله سبحانه بأنها خير الأُمم : (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ)[1] .

وهكذا أراد لنا الإسلام أن نكون وسائل نفع وبناء ، ليعم الخير والأمن ربوع الأرض .

وهكذا نريد أن نربي المسلم ، على ألا يكون جهاز استقبال ليلتقط كل شيء حتى ولو كان فيه دماره . نريد من كل جهاز إعلام أن يشدد الحملة على هذا الضعف النفسي ، الذي أصاب المسلم والمسلمة ، فجعلهما يتخليان عن أهم مبادئ الإسلام في سبيل أن يقال : متمدن ، متحضر ، متقدم ، عصري ! ! .

نريد أن نوقظ في نفس المسلم روح الاعتزاز بإسلامه ، وتقاليده الحقة النابعة منه ، حتى يرفض في إصرار وشدة كل ما يمس هذه التقاليد كما يرفض أي شيء يمس ماهيته .

إذا قمنا بهذه الواجبات تجاه أنفسنا وأمتنا ، فإننا ولا شك سنتخلص من الكثير من هذه العوائق وهؤلاء المنحرفين ، وكما لا يخفى فإن الخير والشر في صراع دائب ، ولكن العبرة في محاربة الشر وأهله ، ولقد حُفت الجنة بالمكاره . وفي مثل هذا فليتنافس المتنافسون .

أجل ، إن علينا أن نقوم بهذا الدور ، الذي لا مندوحة لنا إلا بطرقه

(١) سورة آل عمران : ١١٠ .

وولوجه ، وذلك بصراحة مكشوفة ، لأننا معشر المسلمين علينا واجبات جلّى ، لا يجوز التهاون بها أو غض الطرف عنها . وفي هذا لا نكون قد أتينا بدعاً من القول ، فإذا جاءنا متفلسف مخادع ؛ ليشرح لنا فكره أو اتجاهه ، ويحاول تطعيم شبابنا الغض باتجاهاته المعاكسة لاتجاهات الإسلام ، أو يحاول التلاعب بالأفهام ، سواءٌ كان ذلك عن طريق الصحف أو بوسائل الإعلام المختلفة .

إزاء هذه الأعمال المشبوهة ، يجب علينا أن نكون دائماً متأهبين ، لمواجهة ما يعترض سبيلنا من دعوات ، فليست أرضنا مزرعة للفساد ، بل هي معقل لتصدير الخير والفضيلة لكافة بقاع العالم ، المتعطشة لنور الإسلام ، ليتوارى الفساد ودعاته ويتلاشى إلى غير رجعة . كما علينا أن نوضح أن بلادنا لا تحتمل سوى مبدأ واحد هو المبدأ الإسلامي؛ الذي جاء به منقذ البشرية رسول الإسلام ﷺ ديناً ودولة .

لقد عاشت الأمم دهوراً متخبطة في ضلالها ، حتى منَّ الله عليها برسالة الإسلام المنقذة ؛ هذا الإسلام الحنيف الذي ارتضاه الخبير العليم لعباده المؤمنين منهاجاً ودستوراً . إن الذين يبثون اتجاهاتهم القومية والحزبية ، وغيرها من الاتجاهات التي تتعارض وعقيدة المسلمين وتناوئ الإسلام ، هؤلاء لا يجوز لنا بحال أن نقبلهم في صفوفنا ؛ لأنهم يعادون الله وشرعه . كذلك لا يجوز لنا السكوت عن أصحاب دعوات التغريب ، واللاهثين وراء الأنظمة الوضعية لإحلالها محل الأنظمة

والقوانين السماوية ، التي أرادها الله لأهل الإيمان ؛ تشريعاً فيه خيرهم وسعادتهم ونجاتهم في الدنيا والآخرة .

ولا بـد من التنويه بالحضّ عـلى عـدم التساهل مع الأعـداء الذين يعيثون في الأرض فساداً وتدميراً ، ومن بين هؤلاء زمرة الإعلام والكتّاب وأصحاب الأقلام المأجورة ، الذين سخروا أنفسهم لخدمة الشيطان . ولا بد من توجيه هؤلاء توجيهاً إسلامياً خالصاً ، ليكونوا أدوات بناء وتعمير ، ولينشروا الخير والفضيلة بين صفوف الأمـة .

وهناك ناحية خطيرة لا تقل عن سابقاتها ، وهي الدور الذي يلعبه المعلمون والمعلمات في حياة الأمة ، علينا أن نعد هؤلاء إعداداً إسلامياً ، ليقوموا بدورهم الفعال المناط بهم على الوجه الأكمل ؛ من حيث تربية الأبناء التربية الدينية الحقة ، وأن يكونوا أدوات نشر للخير ومصابيح هداية .

أما الأوضاع التي عليها المعلمات هذه الأيام ـ وفي كافة مراحل التعليم ـ فهـي أوضاع فاسدة مُزرية،ينـدى لهـا الجبين ، لأنهـن يظهرن في ميدان التعليم ، وفي فصول المدارس متبرجات ، كأن إحداهن في ليلة زفافها ! ! . وماذا ينتظر من معلمة ومربية ـ اسماً ـ وعارضة أزياء أو ممثلة مسرح ـ حقيقةً ؟ ! . إلى ماذا سيؤول إليه حال بناتنا الوديعات ؟ أليست معلماتهن قدوتهن ؟ أعتقد جازماً أن غالبية هؤلاء الفتيات سيقلدن معلماتهن فيما هن عليه ، فيا لها من مآسٍ تنتظرها أجيالنا المقبلة .

أقول ناصحاً للآباء وللأُمهات ـ الذين يحرصون على فلذات أكبادهم ـ عليهم أن يتقوا الله في أماناتهم ، وألا يضيِّعوها بتسليمها إلى الشيطان طواعية وبدون أدنى عناء .

والرسول ﷺ حذرنا وأخبرنا أن الناس كافة سيسألون عن أماناتهم التي أُنيطت بهم : « كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » . ولا يفوتني أن أُنبه على ملابس المعلمات والطالبات ، التي يجب أن تكون ساترة للجسم ، صوناً للعفة والأخلاق . وعلى وزارة التربية والتعليم مهمة إصدار القوانين الرادعة لكل مخالف ومستهتر بالقيم والأخلاق والتقاليد الإسلامية . وكذلك لا بد من تشكيل هيئة يكون من بين اختصاصاتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ لتكون مراقبة ومسؤولة عن تنفيذ القوانين والقرارات التي تصدرها الدولة بحق كل مخالف لا يطبق هذه القوانين .

أما دور الصحف والمجلات الخليعة الماجنة ، التي تحوي في بطونها كل فسق ورذيلة ، وتنشر الأخبار والدعايات المغرضة والصور العارية ، فيجب إغلاقها وتقليم أظفار محرريها ، ليكونوا عبرة لكل فاجر مرتاب ، كما على الدولة مراقبة كافة وسائل الإعلام ، وقطع دابر دعوات الشر والانحلال ، وعدم إذاعة ونشر الأغاني الماجنة ، التي تعرض الأُمة إلى الفساد والضياع .

نصيحة

شعوراً بالواجب ، ومن منطلق الحرص على أبناء أمتي ، فإني أقدم هذه الكلمة المتواضعة ، التي أتمنى على الله أن لا تذهب أدراج الرياح ، فهي صيحة في واد ، أبتغيها حسبة لله ، آملاً تدبرها والعمل بمضمونها لأن الدين النصيحة :

إني أطالب أمتي بالتوبة إلى الله سبحانه وتعالى ، والتمسك بدينه ، والتواصي بحقه ، وتحكيم شريعته ، والجهاد في سبيله ، والاستقامة على ذلك من قبل أبناء الأمة كافة ـ حكاماً ومحكومين ـ فبهذا فقط يحصل لنا النصر ، ويهزم العدو الذي أفسد الأخلاق وحارب العقيدة ، وأهلك الحرث والنسل . وصدق الله سبحانه حين قال : (وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)[1] . وقال سبحانه : (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)[2] .

وبهذا فقط يحصل التمكين في الأرض ، الذي وعد الله به عباده المؤمنين : (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً)[3] .

---

(١) سورة العصر .
(٢) سورة محمد : ٧ .
(٣) سورة النور : ٥٥ .

وهكذا عندما يلتزم المسلمون بشرع ربهم ، يجدون في رحابه الأمن والسلام ، ويعم النـــور،ويحكم بالعدل في كنف الإسلام العادل ، وهداية القرآن الكامل الشامل . فليهنأ المسلمون بهـــذه البشارة الإلٰهية ؛ وهي وعد من قبل الحق سبحانه لعباده وجنـــده المؤمنين بالاستخلاف في الأرض والتمكين لدينهم ، وهو الصادق في وعـــده سبحانه وتعـــالى وقد قال : (وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ ٱلْمِيعَـــادَ)[1] .

تعطيل مهمة الهيئات الدينية

ما أكثر الضربات والمطاعن التي سددها أعداءُ الإسلام إلى قلب أُمتنا الإسلامية الماجدة ؛ فقد مُنيت بالاستعمار الذي جعل منها فريسة مستسلمة ليس لها من حول ولا قوة ؛ حيث جعلها في حالة انحلال ديني عام وتدهور أصابها في حالتها الاقتصادية والثقافية والسياسية . وقد ظهـــر هذا الانحلال في السلوك الفردي ، فانحرف الناس عن نهج الدين ، واستهوتهم المظاهر الغربية ، فأقبل كثير منهم على الخمور والفجور والقمار والربا ونحو ذلك .

ثم دب دبيب التهاون في الدين ، فتناول العبادات والعقائد ، كما انتشرت في الجوّ ضروب من الفلسفة والمذاهب الضالة ، والحزبيات البغيضة ؛ حيث يتنافر الأخ مع أخيه ، والصديق مع صديقه ، كلّ

(١) سورة الزمر : ٢٠ .

يحاول الدفاع عن حزبه وضلالته ومذهبه ونحلته ، ويرفض كل شيء في سبيل الحفاظ على سمعة حزبه ومبدئه الذي يعتنقه كأنه دينه الذي ارتضاه له خالقه سبحانه وتعالى[1] .

وقد استمالت هذه المذاهب والأحزاب والدعوات المختلفة عدداً من الشباب وغير الشباب ، وصارت العلاقة الجنسية والنزعة الإباحية الشغل الشاغل للسينما ، ولكثير من المجلات والصحف السيارة ، ابتغاء وفرة الربح وكثرة الدخل ، فانحرف الشباب ، وفسدت الأُسرة ، ثم عم السيل وطم ، فانهارت الفضائل الاقتصادية والاجتماعية .

ويمكن القول :إن من أهمّ العوامل في هذا المجال حلول القانون الوضعي محلّ الشريعة الإسلامية ؛ في ضبط الحياة في الأُمة الإسلامية ، والسيطرة عليها وتوجيهها ، ثم ما طرأ على التربية الإسلامية من تغيير عميق ؛ غيّر معالمها وضيّق الخناق عليها وأعجزها عن أداء مهمتها . أما الانقلاب الذي جاء فيه التغيير الوضعي ، فلم يكن مجرد إحلال قانون محل آخر ، ولكنه هزّ الأخلاق الإسلامية من أساسها . ويرجع هذا إلى أن مبادئ القانون الوضعي تختلف عن أسس الشريعة الإسلامية اختلافاً أساسياً ، فالقانون الوضعي يرى أن مهمته مقصورة على تنظيم العلاقة الاجتماعية ، أما السلوك الفردي فإنه لا يتردد في التصريح بأنه يقع خارج نطاق سلطانه ، وإنه من أجل ذلك متروك لحرية الفرد ، ومن ثم فهو لا يعاقب على المنكرات والفواحش ولا يتعرض لمرتكبها .

(١) التربية الدينية التي يحتاجها العالم الإسلامي في الوقت الحاضر . للدكتور إبراهيم اللبان : ص ١٠.

أما الشريعة الإسلامية فقد وضعت على أساس مبدأ مختلف ؛ فالسلوك الفردي كالسلوك الجماعي يقع تحت طائلة القانون الإسلامي ، وعلى هذا الأساس يقوم التشريع الخاص بالحدود وضروب التعزير ، التي وضعت لشرب الخمر ولعب القمار والزنا وكافة المنكرات ، وضروب الفساد الداخلة في دائرة السلوك الفردي ، وما كاد القانون الوضعي يحلّ في بلاد العرب والإسلام محلّ الشريعة الإسلامية ، ويعطل الحدود ، حتى سنحت الفرصة لشذاذ الآفاق ، وطلاب الربح من الغربيين ، فأقبلوا من كل فج وصوب ، وشرعوا ينشرون الحانات ودور اللهو والفساد والرذيلة في جميع بلاد المسلمين ، فكان هذا بداية انقلاب أخلاقي واسع المدى ، وهو انقلاب يقوم على أساس التفلّت من قيود الأخلاق والدين ؛ ويبدأ في حدود ضيقة وعلى استحياء ، ثم ينمو ويمتد ويشجع الناس على المجاهرة والاستهتار . وها نحن نجني تلك المحاصيل المسمومة التي قضت على كل فضيلة .

وكان لوسائل النشر والإعلام الأثر البالغ في تشجيع ورعاية هذه الاتجاهات المشبوهة والدعاية لهـا . والأثر العام لهذا الجو الجديد هو ضياع هيبة الدين ، وإذا انحلت الهيبة وفقد الناس احترام الشريعة ، وتجرؤوا على الإخلال بها ، انتشرت هذه الروح الخبيثة وقوضت معالم الحياة الإسلامية بصورة عامة ، قد لا يكون من السهل تلافيها والسيطرة عليها . ويأتي بعد ذلك دور التربية الإسلامية نفسها ـ وهو يفوق في ضرره وشره ما أصاب الشريعة ـ فإن الخطة العامة التي رسمها الاستعمار

لبلوغ مآربه ؛ هي الاستعانة بالقانون الوضعي على إطلاق سراح الشهوات من قيود الشريعة ، ثم الاعتماد على التربية في تنشئة جيل يجهل دينه ، ولا يتقيد به في حياته الفردية والاجتماعية ، وهو يعتقد أن هذا احتياط ضروري لضمان استقراره وبقائه ـ لأنه يدرك تمام الإدراك أن الروح الإسلامية ألدُّ أعداء السيطرة الأجنبية اللادينية ـ إذ هي الضمان الوحيد الذي يكفل له البقاء والسيطرة ، ويجب أن تتسع دائرتها فلا تقتصر على القانون بل تشمل التربية أيضاً . وباستخدام مبدأ اللادينية يمكن أن تنقل الشعوب الإسلامية في سهولة ويسر ، إلى حياة بعيدة عن الإسلام والروح الإسلامية المعادية للاستعمار ، وفي جوها يسهل نقل كل النظم والأفكار والنظريات الغربية العقلانية إلى عالم العرب والإسلام . هذه هي فلسفة الاستعمار العامة ؛ وهي تقوم على أساس إحلال مبدأي اللادينية والعقلانية محل الهداية الدينية ؛ في الفكر والقانون والتربية وسواهما .

كان الانقلاب ، الذي أدخله الاستعمار على التربية والتعليم الإسلامي ؛ حدثاً من أكبر الأحداث التي أصابت المجتمع الإسلامي في عهد السيطرة ، فقد رأى القوم رأي العين الحمية الدينية التي قابلتهم بها المقاومة ، وعرفوا أنها صادرة عن الروح الدينية ، وأيقنوا أن لا قرار لهم في البلاد التي استعمروها ، إلا إذا قضوا على هذه الروح في الأجيال المقبلة من أصلها ، بل الواقع أن خطتهم كانت ترمي إلى أمرين أساسيين ؛ أحدهما إنشاءُ جيل مجانس لهم في ثقافتهم ؛ ليسهل عليهم الاتصال به والتفاهم

معه . والثاني ـ وهو أخطر الأمرين ـ أن تخلو الأجيال المقبلة من الدين ، ومن الثقافة الإسلامية والحمية الدينية ، وكان لا بد لبلوغ هذا الهدف من النظر في الوضع القائم في جو التربية والتعليم ، وتغييره تغييراً أساسياً[1] .

في ذلك الحين كانت التربية الإسلامية تجمع خصائص هامة منها :

أولاً : إنها كانت تعتمد أساساً على علوم الدين واللغة العربية ؛ فكانت بذلك ثقافة إسلامية خالصة . وكان واضحاً أن المقاومة العنيفة ، التي واجهها الاستعمار في أيامه الأولى ، إنما نشأت من هذه الثقافة .

ثانياً : إن هذه التربية كان يتولاها علماءُ الدين في المدارس والمعاهد ، التي كانت قائمة في ذلك الوقت ـ بوجه الإجمال ـ مدارس ومعاهد دينية ، يتولى التعليم والتدريس فيها العلماءُ . وقد استمر أمر التربية والتعليم بيد علماء الدين منذ زمن بعيد حتى عهد الاستعمار[2] .

ثالثاً : سعة منهج الدين ؛ فقد كان يتضمن علم الكلام وعلم الفقه والتفسير والحديث . أما علوم اللغة فقد شملت النحو والصرف وعلوم البلاغة . هذه هي ثقافة وتربية المسلمين قبل عهد الاستعمار البغيض . وقد قرر الاستعمار أن يستبدل بهذه الثقافة ثقافة أخرى بديلة ، تكفل له

(١) انتفعنا في هذا البحث بمراجعات هامة . ولخصنا فقرات عديدة من بحث التربية الدينية التي يحتاجها العالم الإسلامي للدكتور إبراهيم اللبان فجزاه الله خيراً .

(٢) وليس أدل على ذلك من إطلاق اسم شيخ أو فقيه على المعلم في بعض الدول العربية استصحاباً للماضي ؛ حيث كان التدريس في المساجد والمدارس ينتهي إلى أهل الدين من العلماء .

حسن التفاهم ، وتزيل من طريقه عقبة الدين وهكذا كان ؛ فقد أُدخل نظام التعليم الغربي ليحل محل التعليم الإسلامي التقليدي ، كما حرص على أن تكون مناهج المدارس العامة ـ التي أُنشأها ـ خالية من الدين أو بتعليم ديني مزيف خال من عوامل القوة والتأثير ، ومن أجل هذا امتدت يده إلى التعليم الديني فأضعفته وخنقته ، وقد انتقلت مهمة التربية والتعليم من يد علماء الدين وأُسندت إلى الدولة ـ من هيئات دينية إلى هيئات مدنية ـ وأصبح التعليم في أيد غير أمينة وغير متخصصة ، وبذلك ضاع المنهج والحصص ، وأُهمل امتحان الدين وأصبحت المادة غير أساسية في بعض مراحل التعليم ، وتعطل كل ما من شأنه رفع كيان المسلمين ، وبهذا أصبح التعليم الديني نسياً منسياً . فلا حول ولا قوة إلا بالله .

منهاج الرسول ﷺ في التربية

أول ما نقرره في صدر هذه الكلمة ، هو أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان مربياً ، وأنه جرى في تربيته للمسلمين على أصح المبادئ وأصدقها ، وأدق الطرق وأقومها ، وأتم المناهج وأشملها . ولا بد أن نتعرض لكل مبدأ من هذه المبادئ بكلمة فيها الدقة والوضوح ، مع الإيجاز وترك الإسهاب . ونبدأ بهذه القضية وهي :

أن الرسول ﷺ كان مربياً . ولن نجد صعوبة في إثبات هذه الحقيقة ؛ فقد ورد في القرآن عدة آيات تقرر هذه الحقيقة العامة ، نكتفي منها

بقوله تعالى في سورة الجمعة : (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) .

بنص هذه الآية الكريمة كان الرسول عليه الصلاة والسلام مربياً لأُمته ؛ فقد بعثه الله جل وعلا ليتلو على الناس آياته ، التي تتضمن أُصول الإسلام ، ولكنه لم يرسل لمجرد التلاوة بل ليعلمهم أيضاً ما يشتمل عليه الكتاب والسنة ، من أُصول الدين وفروعه . وكانت كذلك أقواله وأفعاله تعلمهم الكثير من حقائق الدين ، وتفصِّل لهم المجمل من الآيات الكريمة . ومعنى هذا أن الرسول ﷺ كان مكلفاً أن يعلم المسلمين الدين ، وأن يعتمد في تعليمه على ما ينزل عليه من آيات القرآن ، وما يجيئه به الوحي من ربه ؛ فيبلغه إلى الناس بلفظه وتعبيره من السنن القولية ، كما كان فعله وإقراره لما يراه أو إنكاره له من مصادر الدين والتربية الدينية حقاً .

ولم يقف عمل الرسول ﷺ بنص الآية عند تعليم ما ينطوي عليه الكتاب والسنة من مبادئ الإسلام ، بل تناول مهمة أُخرى جليلة ، وهي تزكية المسلمين من العادات والأخلاق الفاسدة ، التي كانت شائعة في المجتمع في ذلك الحين ؛ وواضح من ذلك أن الرسول الكريم ـ وبنص القرآن ـ كان مربياً ، وقد مارس هذه المهمة قرابة ثلاث وعشرين سنة ، فآتت ثمارها في شخصية أبي بكر وعمر ، وكبار الصحابة وعامة المسلمين .

وعندما نقول التربية أو التعليم الإسلامي ، فإننا نعني التربية والتعليم الديني في جميع الآفاق والمستويات ؛ في المسجد والمدرسة والمجامع العامة . فالذي أدعو إليه هو أن تتذكر الهيئات الدينية الإسلامية ما يقوله القرآن نفسه ؛ وهو أن الله بعث رسوله ليتلو على الناس آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ـ أي السنة ـ ويزكيهم . وأن الرسول ﷺ وقف عليهم معظم جهوده ، لأجل هذا العمل الإسلامي الجليل .

وواضح أن مهمتهم في المجتمع هي نفس مهمة الرسول التربوية المذكورة ، فليقوموا لأدائها بصدور منشرحة وقلوب متفتحة راغبة متفانية ، فهذا هو السبيل الوحيد الذي اختاره القرآن وسار على نهجه الرسول ﷺ [1] للاحتفاظ بالدين وتكوين المسلمين ، فإلى هذا الطريق فليتجهوا ، وعليه فليسيروا إلى الهدف الإسلامي الأعلى ؛ وهو نشر الدين وتسلح المسلمين بالعقيدة الراسخة ، وتربيتهم تربية إسلامية . وبهذا تعلو كلمة الإسلام وترتفع راية الإيمان ، وتسمو أمة التوحيد .

هذه صورة من صور المجتمع الإسلامي في عهده الأول . نسأل الله عز وجل أن يوفقنا ويوفق أمتنا ويجعل كلمته هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى . والحمد لله رب العالمين .

---

(١) راجع المصدر السابق .

المنهاج الإسلامي في معالجة التربية الدينية

لقد كان من الشذوذ الصارخ أن تسلخ التربية الدينية من سلطة الهيئات الدينية العليا ، ويعهد بها إلى هيئات مدنية بحتة . إن هذا الوضع الشائن يجب أن يزول ، وأن تضطلع هيئات دينية إسلامية **بمهمة التربية الدينية ، حتى يتسنى للناشئة معرفة دينهم ، والالتفاف حوله متمسكين بأهدابه ، حاملين أسمى المبادئ وأنبل القيم ، ومعتدِّين برسولهم العظيم ﷺ ، الذي أرسله تعالى منقذاً للبشرية ومربياً للعالمين .**

والذي أقترحه في هذا الصدد ، هو أن مهمة الهيئات الدينية في مجال التربية الدينية[1] يجب أن تكون واسعة ، وأن يعترف لها بها حتى تستطيع أن تؤدي واجبها ، وتحقق الآمال المنوطة بها ، ويجب أن تشمل فيما تشمل :

أولاً : إعداد المربي الديني ، ووضع المناهج والنشر الديني ، والمدارس الدينية الخاصة ، والانتفاع بالهيئات الدينية الأُخرى ، والعناية بالتربية العلمية فإعداد المربي الديني المتخصص[2] ؛ يجب إعداده في كليات دينية ، في بلادنا الإسلامية .

---

(١) التربية الدينية للدكتور إبراهيم اللبـــان .

(٢) وبهذه المناسبة يؤسفنا أن نذكر أن عامة الطلاب المتفوقين في دراستهم الثانوية ينصرفون عن العلوم الشرعية ، نظراً لتدني رواتب خريجيها ، ويتجهون إلى التخصصات العلمية كالطب والهندسة . وكان واجب الحكومات الإسلامية أن تشجع التعليم الديني بتقديم المكافآت السخية، ومضاعفة رواتب الخريجين منهم .

ولا بد من إعداده في منهج خاص يتفق ومهمته الجليلة .، ويجب أن تكون الصدارة في هذا المنهج للقرآن الكريم والسنة ، وتكون دراسة موضوعية تسير طبقاً لترتيب أُصول الدين وفروعه . ولا بد كذلك من تجديد طريقة تعليم الدين حسب الطرق الحديثة للتربية الدينية . كما يجب إعداد المربيات الدينيات أيضاً ، وفي كليات دينية خاصة للمربيات ، اللاتي سيعهد إليهن بعدد من الواجبات التربوية ، منها التربية الدينية في مدارس الإناث على كل مستوياتها ، وتعليم ربات البيوت وبالطرق العلمية الحديثة والأساليب المناسبة ، ولا مانع من إنشاء دراسات دينية خاصة مسائية أو صباحية ، في أماكن عامة مناسبة لمدة معينة ، تناسب الدروس التي سوف تعطى خلال تلك المدة ، كما تعالج مشاكل تربية الأطفال وجلها والتربية الإسلامية . ويجب أن تكون كليات إعداد المربين للتربية الدينية تحت إشراف الهيئة الدينية العليا .

ثانياً ـ المناهج والطرق : تقوم الهيئات الدينية العليا بوضع مناهج التربية الدينية لكل المدارس والمعاهد ، ولكن يجب أن تخضع هذه العملية لعدة مبادىء :

أول هذه المبادىء التي يجب مراعاتها في وضع مناهج التربية الدينية ، هو أن يختص القائمون بهذا الأمر ـ الهيئة الدينية العليا ـ بأكبر قسط من العناية ؛ فتوضع دراستها في صدر المناهج سابقة لكل ما عداها . وسأكتفي ببعض الإشارات إليها ؛ فهناك حديث نبوي : « بُنِيَ الْإِسْلَامُ

عَلَىٰ خَمْسٍ » وغيره من الأحاديث . وفي القرآن الكريم عدد من الآيات خاص بها مثل قوله تعالى : (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ)[1] . وقوله تعالى : (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ)[2] .

ولا بد أن تظهر الصبغة الاجتماعية بوضوح ؛ فتدرس أحكام الأُسرة بعناية خاصة . أما العدل الاجتماعي الإسلامي فيجب أن يتبوأ من المنهج المكان الكبير اللائق ، وأن نركز الاهتمام على تحديث طرق التدريس .

ثالثاً ـ التعليم الديني العملي : يجب التركيز على أن التربية الدينية العملية جزءٌ من مهمة الهيئات الدينية العليا . ويجب أن يظهر ذلك بداية في المدرسة الابتدائية ، وتربية التلاميذ على العبادة العملية . كما تدرب المدرسة طلابها على الإحسان للفقراء والمحتاجين . وعلى البيت أن يقوم بتدريب الأطفال على العبادة العملية منذ صغرهم ، فهذا تدريب منزلي تقوم به الأُم ، كما توزع على الأُمهات والمربيات بعض الكتب الدينية ، منها طرق تربية الأطفال ، بأُسلوب سهل واضح نافع يناسب المدارك والمستويات العامة .

رابعاً ـ النشر ومدرسة الجمعة : يجب نشر الكتب الدينية المناسبة للشباب والشابات والأطفال ، ويجب أن تكون هذه الكتب بأُسلوب مناسب لكل طبقة وثقافتها ومستواها ، كما يجب أن تستغل مدرسة الجمعة فترة العطلة الأُسبوعية أو الصيفية وغيرها ، بالنسبة للطلاب

(١) سورة الإسراء : ٢٣ .
(٢) سورة الأنعام : ١٥١ .

وغيرهم ، مما يناسب الظروف والحالة العصرية ، وأن تتضمن العلاج للمشاكل الأُسبوعية ، كما تتناسب وظروف المجتمع .

خامساً ـ الكتاب والسنة : لا بد للتربية الدينية أن تعتمد الكتاب والسنة اعتماداً كاملاً ، وعدم نشر ما لم يكن منسجماً مع دستور المسلمين . وتنقية الكتاب من كل الشوائب والأحاديث الضعيفة والموضوعة والمنكرات المختلفة ، كما لا يجوز الفصل بين العقائد والأحكام الشرعية من ناحية ، وبين مصادرها من الكتاب والسنة من ناحية أُخرى .

سادساً ـ الكتاب المدرسي : يجب أن يكون مؤلفاً من مختارات كتبها العلماءُ والأئمة ، من ذوي القلوب الحية في المسائل الدينية المتضمنة للمنهج ، وفي مقدمة هؤُلاءِ العلماءِ شيخ الإسلام ابن تيمية وابن قيم الجوزية والإمام محمد عبده والشيخ محمد رشيد رضا وغيرهم .

أما كتب التلاميذ الأُخرى ـ المرافقة للمنهج والمقرر ـ فيجب أن تتألف من مختارات دينية ، تؤخذ من كتب كبار العلماءِ ؛ خالية من كل لوثة أو شبهة ، ولها صلة مباشرة بالمنهج الدراسي ، وأن تكون مناسبة لعقول الطلاب ومستواهم .

سابعاً ـ هيئات فنية وفلسفة التربية الإسلامية : يجب أن تكون للهيئات الدينية العليا هيئات فنية متخصصة ، ترجع إليها للمشورة وتعتمد عليها في حل المشاكل التربوية ، كما يجب وضع فلسفة عامة للتربية الدينية الإسلامية ، وأن تكون هذه الفلسفة في معاهد التربية المتخصصة .

ثامناً ـ معـاهد التربية : تنشئ الهيئات الدينية العليا معاهد للتربية خاصة بطلبتها ، تدرس فيها التربية ؛ أصولها وطرقها ومناهجها ، من وجهة النظر الإسلامية ، وعلى أساس فلسفة التربية الإسلامية .

وإجمال القول : يجب أن توكل إلى الهيئات الدينية التربية الدينية ؛ لأن علماء الدين هم أهلها وأحق الناس بها ، وهي مهمتهم الكبرى . ولكن يجب أن يمارسوها على أساس أنهـا تربية علمية وعملية وخلقية لا علمية فقط. ولا بد لهم من لجنة فنية يسترشدون بها في الشؤون الفنية .

كما يعتمد على الكليات الدينية في إعداد المربين ـ مثل كليات أصول الدين بعد تعديل مناهجها بما يتفق مع مهمـة المربي الديني ـ وعلى كليات التربية التي تنشئها لدراسة مبادئ التربية وطرقها . وتضع السلطات الدينية العليا ـ بالاشتراك مع بعض العلماء المعروفين بروحهم الدينية العالية ـ مناهج التربية الدينية لجميع المراحل التعليمية ؛ مع وضع الكتب الدراسية اللازمة للتربية الدينية . كما يقوم المربون والمربيات المعدّون للقيام بالتربية الدينية بواجباتهم في جميع المراحل . وهـكذا يتحقق الخير العام في ظل تربية إسلامية موجهة . والله الموفق والحمد لله رب العالمين .

أتباع النصرانية يطالبون بالإسلام

لا شك أن الإسلام الحنيف هو الملجأُ الوحيد ، والحصن الفريد والدرع الحصين،والمعقل الأمين لكل من يلج معاقله ويعيش في أكنافه ؛ ويستظل في ظلاله الوارفة الظليلة .

فقد تكفل الله سبحانه لأتباع دينه وموحديه الأمان والاطمئنان في الحياة الدنيا ، والسعادة السرمدية في الحياة الآخرة .

وليس غريباً أن يعتنق كثيرٌ من الناس هذا الدين ، من أمم وملل مختلفة الأجناس . ليس لشيءٍ وإنما مردُّ ذلك لتلبيته مطالب النفوس البشرية ، ويسره وسهولته وسماحته ، وخلوه من التعقيد والجفاء والألغاز التي تطفح بها سائر المذاهب والديانات الأخرى .

ومن يمن الطالع وحسن التوفيق ، أن نسمع بين الفينة والأخرى من يعلن إسلامه ، ويعتنق هذا الدين القويم ، الذي يتكفل بتحقيق رغائب البشر ومطالبهم الروحية والمادية وسائر مصالح العباد ، وغير ذلك فيما يتعلق بشؤون الفـــرد والجماعة .

وهكذا يجد الإنسان ضالته في كنف الإسلام المنيع ؛ ذلك الدين القيم الذي ارتضاه الله معقلاً وموئلاً للناس كافة ، فهو دين الفطرة التي فطر عليها الناس جميعاً .

ويعجبني ما قاله العلامة أبو الحسن الندوي حين قال : فالدين الإسلامي

حق مشاع وثروة مشتركة لجميع الأُمم والشعوب ، والعناصر والأجناس والأُسر والبيوتات والبلاد والأوطان ؛ ليس فيه احتكار مثل احتكار بـني لاوي من يهـود ، أو البراهمة من الهنود . لا يتميز فيه شعب عن شعب ، ولا نسل عن نسل ، وليس الاعتماد فيه على العرق والدم ، بل الاعتماد فيه على الحرص والشوق وحسن التلقي وزيادة التقدير ، والتفوق في الجهاد والاجتهاد والدين والتقوى[1] . وقد قال الله تعالى : (أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)[2] .

وفيما يلي بعض الآراء والأقوال لرجال السياسة والفكر ، من أتباع النصرانية ـ قديماً وحديثاً ـ الذين ينصفون الدين الإسلامي ويطالبون بتطبيقه ؛ لأنه التشريع الوحيد الذي يحقق للإنسانية سعادتها وطموحاتها في أمن وطمأنينة واستقرار ، وذلك لمزاياه الفريدة ومآثره الرشيدة ، التي يمتاز بها عن سائر الأنظمة .

١ ـ يقول نابليون بونابرت : وآمل أن لا يمضي وقت طويل حتى أستطيع أن أجمع العقلاء والمثقفين ، من جميع الأقطار ، لنقيم نظاماً موحداً على أسس القرآن ، لأنها هي وحدها الحق ، وهي وحدها التي تهدي إلى سعادة البشرية[3] .

٢ ـ يقول أنيس ميخائيل جرجس ـ القاهرة : أقـول للمسؤولين

(١) النبوة والأنبياء: ص ١٩٥ . (٢) سورة الحجرات : ١٣ .
(٣) من كتاب بونابرت والإسلام . تشرفس ـ باريس . عن كتاب لمـاذا أسلمنا : ص ١٣٦ .

باطمئنان : طبقوا أحكام الشريعة الإسلامية ليتحقق للجميع الاستقرار والأمان . لقد عشنا ـ نحن النصارىٰ ـ القرون الماضية في ظلها آمنين على أنفسنا وأموالنا وأعراضنا . جاهل من يقول: إننا نحمي الزناة والسكارى واللصوص والعابثين بالأديان من العقاب الصارم[1] .

٣ ـ قال عميد كلية الحقوق في جامعة فيينا الأستاذ شيريل : إن البشرية تفخر بانتساب محمد إليها ، ذلك الأمي الذي استطاع أن يأتي بشريعة ، سنكون نحن الأوروبيين أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قمتها بعد ألفي عام[2] .

٤ ـ ويقول برناردشو الإنجليزي : لقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولاً لدى أوروبا غداً ، وهو قد بدأ يكون مقبولاً لديها اليوم . ثم يقول : أما أنا فأرى واجباً أن يدعى محمد منقذ الإنسانية . وأعتقد أن رجلاً مثله ، إذا تولى زعامة العالم الحديث نجح في حل مشكلاته ، وأحل في العالم السلام والسعادة ، وما أشدَّ حاجة العالم إليه . ثم يقول : وقد دان كثيرون من قومي ومن أهل أوروبا بدين محمد في الحاضر ، وهذا يجعلنا قادرين على أن نقول : إن تحول أوروبا إلى الإسلام قد بدأ[3] .

(١) مجلة الدعوة ـ القاهرة ـ سنة ١٣٩٩ هـ .

(٢) من كتاب حتى لا نخدع : ص ١٩٩ د . عبد الودود شلبي .

(٣) حبذا لو فهم المسلمون ـ وخاصة بعض مقلدي الحضارة الغربية المتفرنجة ـ هذا الكلام الذي يقوله أتباع النصرانية وغيرهم من المنصفين ، عن عظمة الإسلام وسموه ، وإنه هو وحده=

ويقول برنارد شو أيضاً : إني أرى في الإسلام دين أوروبا في أواخر القرن العشرين .

ومن قبلـــه قال جوته : إذا كان هذا هو الإسلام أفـــلا نكون مسلمين ؟ ! !(١) .

٥ ـ قال أحد وجهاء النصارى في طرابلس الشام للسيد رشيد رضا رحمه الله : إن في الإسلام فضائل كالجبال أو أشمخ وأرسخ ، ولكنكم دفنتموها(٢) حتى لا تكاد تعرف أو ترى . ونحن عندنا شيءٌ قليل ضئيل(٣) .

٦ ـ يقول المستشرق جولد زيهر : إنه إذا أردنا الإنصاف ، ينبغي أن نؤمن بأن في منهج الإسلام قوة صالحة توجه الإنسان نحو الخير(٤) .

= الذي يضمن السعادة للناس ، وليست القوانين الوضعية المستوردة ، التي لم تعد صالحة لحـــل مشاكل واضعيها من الغربيين ، بل هي قاصرة عن تحقيق ذلك . ومن الأجدر بالمسلمين أن يتمسكوا بشرع الإسلام الذي تتوفر فيه الحلول الشافية لكافة مشاكل البشر في كل زمان ومكان .

وليعلم أن تعاليم الإسلام هي الكفيلة بتحقيق المصالح الإنسانية ، لأنها صادرة عن الخالق العليم بحاجات النفس البشرية . للمزيد يراجع كتاب حياة محمد لهيكل ، وكتاب العدالة الاجتماعية في الإسلام : ص ٣٤٥ لسيد قطب رحمه الله .

(١) انظر الإسلام والماركسية : ص ٧٦ . د . مصطفى محمود .

(٢) حقاً إن كثيراً من أبناء المسلمين وحكامهم وعلمائهم في غفلة عن دين الله ، فهم مفتونون بالأنظمة الغربية والقوانين الوضعية ، كما أن المسؤولية الكبرى تقع على الحكام والعلماء ، عما أصاب المسلمين من ضياع وهوان ؛ إذ أبعدت الحكومات الإسلامية الإسلام عن شؤون الحياة ، واختارت للمسلمين ما حرمه الله عليهم ، وحالت أن يتعلم المسلم دينه وعقيدته . وعلماءُ السوء والمنافقون يسكتون على فساد الحكام وضلالهم ، ولا يغضبون لله بل يهتمون لمصالحهم فقط .

(٣) عن كتاب الإيمـــان والحيـــاة : ص ١٦٤ . (٤) الإسلام والماركسية : ص ٧٦ .

٧ ـ أما السير و. آرنولد فقد قال ـ في كتابه الدعوة إلى الإسلام ص ٥٣ ـ ترجمة حسن إبراهيم حسن ورفيقه : ولما بلغ الجيش الإسلامي وادي الأُردن ، وعسكر أبو عبيدة في فحل ، كتب الأهالي النصارىٰ في هذه البلاد إلى العرب يقولون : يا معشر المسلمين ، أنتم أحب إلينا من الروم ، وإن كانوا على ديننا ، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا ، وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا ...

وفي صفحة ٥٤ يقول آرنولد : وهكذا كانت حالة الشعور في بلاد الشام إبان الغزوة التي وقعت بين سنتي ٦٣٣ ـ ٦٣٩ م . والتي طرد فيها العرب جيش الروم من هذه الولاية تدريجياً[١] .

أجل هكذا صنع الإسلام في نفوس البشر ، إذ كانت له المهابة والعظمة والتقدير ؛ لأن أهله صانوه فصانهم ، وأعزوه فأعزهم الله . فحين كان المسلمون يحيون الإسلام مفاهيم سليمة ، ويعيشونه أحكاماً صحيحة ، عاملوا غيرهم معاملة تفيض بالرفق والمرحمة ، مما دعا شعوب الأرض أن تسارع في طلبه والعيش في كنفه العادل ، وهذا الذي دعا أيضاً أهل حمص ـ النصارى ـ أن يقولوا للقائد المسلم : لحكمكم أحب إلينا من حكم الروم من بني ديننا[٢] .

وما أحرانا أن نتدبر هذه البشارة المحمدية والحكمة النبوية ، وهي برهان عظيم على عظمة الإسلام ، لحاجة الناس إليه ؛ لكماله ونضجه

(١) شبهات حول الإسلام : ص ١٩٥ .
(٢) المنهزمون : ص ٦٠ ، ٦١ .

فلنستمع : «لَوْ كَانَ الإِيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَتَنَاوَلَهُ رِجَالٌ مِنْ فَارِسَ»[1] . أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

وبعد : فهذه بعض أقوال ودعوات المنصفين من أتباع الديانات الأُخرى ، عرضتها عليك أخي القارئ لتكون على بينة من أمر الإسلام المنصف العادل الحاني؛ حيث لجأت إليه شعوب الأرض منذ فجره الأول ؛ واعتنقه الناس لأنهم وجدوا فيه ضالتهم المنشودة ، فطالبوا بتطبيقه والتزامه والانضواء تحت لوائه ، وفضلوه على غيره حتى قال بعضهم : لحكم الإسلام أحب إلينا من حكم بني ديننا .

فيا لروعة الإسلام ويا لعظمته وشموخه . إنها لشهادة تاريخية منصفة؛ خرجت من أفواه أتباع النصرانية المعتدلين ، علاوة على ما أفصح عنه أحد المتعصبين - وهو المستشرق جولدزيهر - الذي اعترف بفضل الإسلام ومنهجه القويم . فيا ليت أبناء قومي يسمعون ، وإلى اتباع الحق يبادرون ، وفي مثل ذلك فليتنافس المتنافسون . وهذه شهادات بعض النصارى ، وهي غيض من فيض ولا تحتاج إلى تعليق ، والفضل ما شهدت به الأعداءُ .

لقد رعى الإسلام أتباع الديانات الأُخرى ، واهتم بأُمورها وصانها ، وحدد علاقة المسلمين بأتباعها ، كما ورد في قوله سبحانه : (لَا يَنْهَاكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ)[2] .

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير والترمذي . انظر تفسير ابن كثير : جـ ٤ - ص ١٨٣ .
(٢) سورة الممتحنة : ٨ .

فأقام العلاقة بين هؤلاء وبين المسلمين على أسمى ما عرفت البشرية من علاقات ؛ تجاوزت حد الإنصاف إلى آفاق البر والرحمة . وهذا الطراز من النصارى الذي يربطهم بالمسلمين عهد وميثاق جعلهم الرسول الأعظم ﷺ في رعايته وحمايته ، وهو يربي الأُمة وينظم حقوقها لتعرف عدوها من صديقها : « مَنْ آذَىٰ ذِمِّيًّا فَأَنَا خَصْمُهُ . وَمَنْ كُنْتُ خَصْمُهُ خَصَمْتُهُ يَوْمَ الْقِيَـامَةِ »[1] .

مسك الختام
أهل السنة والجماعة الفرقة الناجية

تمهيد

بعد أن تحدثت طويلاً ـ أخي القارئ ـ عن مختلف الفرق والمذاهب والنحل ، والعقائد والفلسفات المختلفة التي كشفنا ـ بعون الله ـ عن الكثير من أسرارها ، وهتكنا أستارها ، وأثبتنا في غير ما ريبة حقيقة أهدافها ، وأنها بجملتها قائمة لهدم دين الإسلام ، وتوهين ارتباط أتباعه بمبادئه وأنظمته السامية .

وبعد هذا التسيار الطويل ، الذي أملته علي سنون حافلة بمختلف الفرق الضالة المضلة ، أجدني تواقاً للحديث عن الفرقة الناجية ـ جعلنا الله منها ـ وبيان أهم أوصافها ومبادئها وأصولها ومعتقداتها .

(١) ذكره الخطيب عن ابن مسعود في الجامع الكبير وسكت عنه .

ورد في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ إِحْدَىٰ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً . وَتَفَرَّقَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً . وَتَفَرَّقَتْ أُمَّتِي عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً »[1] .

وعن معاوية رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « أَلَا إِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ افْتَرَقُوا عَلَىٰ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً وَإِنَّ هٰذِهِ الْمِلَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ ؛ ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ ؛ وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَهِيَ الْجَمَاعَةُ »[2] . وفي رواية قالوا : من هي يا رسول الله ؟ . قال : « مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي »[3] . أي إن الفرقة الناجية هي التي تتبع سنة الرسول ﷺ وتقتفي آثار الصحابة في الأقوال والأفعال .

ومن جهة أخرى نرى أن الاختلاف في الأمة واقع ، كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ وأن عامة المختلفين من الأمة الإسلامية هالكون ، إلا أهل السنة والجماعة .

الأصول التي اجتمع عليها أهل السنة والجماعة

أقدم فيما يلي أهم الأصول التي اجتمع عليها أهل السنة والجماعة ، وهي كما يلي :

١ – إثبات الحقائق والعلوم على الخصوص والعموم .

---

(١) أخرجه أبو داود وابن ماجه ، وأحمد والترمذي وقال عنه : حديث حسن صحيح . انظر السلسلة الصحيحة للألباني : ج ١ – ص ١٢ .

(٢) رواه أبو داود وأحمد وحسنه الترمذي . انظر السلسلة الصحيحة للألباني : ج ١ ص ٢٠٤ .

(٣) انظر الطحاوية : ص ٥٧٨ .

٢ - العلم بحدوث العالم في أقسامه ؛ من أعراضه وأجسامه .

٣ - معرفة صانع العالم وصفاته . .

٤ - معرفة صفات الله الأزلية .

٥ - معرفة أسمائه وأوصافه .

٦ - معرفة عدله وحكمته سبحانه .

٧ - معرفة رسله وأنبيائه الكرام .

٨ - معرفة معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء .

٩ - معرفة ما أجمعت الأمة عليه من أركان شريعة الإسلام .

١٠ - معرفة أحكام الأمر والنهي والتكليف .

١١ - معرفة الخلافة والإمامة وشروط الزعامة .

١٢ - معرفة أحكام الأولياء ومراتب الأئمة الأتقياء .

١٣ - معرفة أحكام الأعداء من الكفرة وأهل الأهواء[1] .

---

(١) انظر الفرق بين الفرق : ص ٣٠٩ ، ٣١٠ .

أهم مبادئ ومعتقدات أهل السنة والجماعة

أُقدم فيما يلي أهم معتقدات ومبادئ وأوصاف أهل السنة والجماعة :

أولاً :

يعتبر أهل السنة والجماعة أن التوحيد هو أول الأمر وآخره ، وهو أهم واجب على المسلم ؛ وهو حق الله على العبيد . ويتضمن ثلاثة أنواع :

أحـدها : الكلام في الصفـات .

والثـاني : توحيد الربوبية ، وبيان أن الله وحـده خالق كل شيء .

والثالث : توحيد **الألوهية** ، وهو استحقاقه سبحانه وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له[1] .

ويعتقد أهل السنة والجماعة أن الله واحد لا شريك له ، ولا خالق سواه ، ولا معبود غيره ، ولا شيء يعجزه . ومن زعم أن للكون خالقاً سوى الله فقد أشرك بالله ، ومن تعبد بشرع غير شرعه فقد أشرك به ، ومن استعان أو ذبح أو نذر لأحد من مخلوقاته ، فقد أشرك بالله شركاً أكبر .

وأهل السنة والجماعة يتبرؤون من الشرك كله ـ حمانا الله وإياهم والمؤمنين من كل زيغ وضلال .

---

(١) للبسط يراجع كتاب شرح العقيدة الطحاوية : ص ٧٦ وما بعدها .

ثانيـاً :

ويؤمنون بـأن الله قديم ؛ لا بداية له . دائم بلا نهاية ، ولا يشبه الأنام : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ)[1] . والله تعالى حي لا يموت ، قيوم لا ينـام[2] .

ثالثـاً :

ويؤمنون بما وصف الله به نفسه ، وما وصفه به رسوله ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل . وهم في باب خلقه وأمره وسط بين المكذبين بقدرة الله ؛ الذين يؤمنون بقدرته الكاملة ومشيئته الشاملة وخلقه لكل شيء ، وبين المفسدين لدين الله ؛ الذين يجعلون العبد ليس له مشيئة ولا قدرة ولا عمل ،فيعطلون الأمر والنهي والثواب والعقاب ، فيصيرون بمنزلة المشركين الذين قالوا : (لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ)[3] .

فيؤمن أهل السنة بـأن الله على كل شيء قدير ؛ فيقدر أن يهدي العباد ؛ ويقلب قلوبهم ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . فلا يكون في ملكه ما لا يريد ، ولا يعجز عن إنفاذ مراده ، وأنه خالق كل شيء من الأعيان والصفات والحركات[4] .

---

(١) سورة الشورى : ١١ .

(٢) راجع شرح الطحاوية : ص ٩٩ ــ ١٢٣ وما بعدها .

(٣) سورة الأنعـام : ١٤٨ .

(٤) انظر عقيدة أهل السنة : ص ١٤ ، ١٥ . لابن تيمية .

ويؤمنون بجميع الأسماء الحسنى ، وما دلت عليه من الصفات ، وما ينشأ عنها من الأفعال ؛ مثل القدرة ؛ إذ يجب الإيمان بأن الله على كل شيء قدير . ويثبتون جميع ما ورد في الكتاب والسنة من الصفات لا فرق بين الذاتية منها ؛ كالعلم والقدرة والإرادة والحياة ، والسمع والبصر ونحوها ، والفعلية ؛ كالرضا والمحبة والغضب والكراهة . وكذلك لا فرق بين إثبات الوجه واليدين ونحوهما ، وبين الاستواء على العرش والنزول ، فكلها مما اتفق السلف على إثباته بلا تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل ، على عكس الجهمية والمعتزلة .

وإن مأخذ أسماء الله التوقيف عليها إما بالقرآن أو بالسنة الصحيحة ؛ أو بإجماع الأمة عليه ، ولا يجوز إطلاق القياس عليه[1] .

رابعاً :

ويؤمن أهل السنة والجماعة بأن الله عز وجل خالق بلا حاجة ، رازق بلا مؤنة[2] ، مميت بلا مخافة ، باعث بلا مشقة ، خلق الخلق بعلمه ، وقدر لهم أقداراً ، وضرب لهم آجالاً ، ولم يخْفَ عليه شيءٌ قبل أن يخلقهم ، وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم ، وأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته ، وكل شيء يجري بتقديره ومشيئته[3] ، ولا رادَّ لقضائه ولا معقب لحكمه ولا غالب لأمره ، يهدي من يشاءُ ويعصم

(١) انظر شرح العقيدة الواسطية : ص ٩٦ وما بعدها . والفرق بين الفرق : ص ٣٢٦ .
(٢) أي بلا كلفة وثقل . شرح الطحاوية : ص ١٢٥ .
(٣) يعني أن مشيئته تعالى وإرادته شاملة لكل ما يقع في هذا الكون ؛ من خير أو شر وهدى وضلال .

ويعافي فضلاً ، ويضل من يشاءُ ويخذل ويبتلي عدلاً . وهو سبحانه متعال عن الأَضداد والأَنداد[1] .

خامسـاً :

ويؤمنون أَن للعبد قدرة ومشيئة وعملاً ، وأَنه مختار ولا يسمونه مجبوراً ؛ إذ المجبور من أُكره على خلاف اختياره ، والله سبحانه وتعالى جعل العبد مختاراً لما يفعله ، فهو مختار مريد ، والله تعالى خالقه وخالق اختياره ، وهذا ليس له نظير ، فإن الله ليس كمثله شيءٌ ؛ لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أَفعاله[2] .

سادسـاً :

ويؤمنون أَن محمداً عبد الله المصطفى ونبيه المجتبى ورسوله المرتضى[3] وأَنه خاتم الأَنبياء وإمام الأَتقياء وسيد المرسلين ، وحبيب رب العالمين . وكل دعوى النبوة بعده فغيٌّ وهوى[4] . وهو المبعوث إلى عامة الجن وكافة

---

(١) شرح الطحاوية : ص ١٥٥ وما بعدها .

(٢) راجع عقيدة أهل السنة : ص ١٥ لابن تيمية رحمه الله .

(٣) اعلم أن كل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولاً ، وبينهما عدة فروق تراها في تفسير الآلوسي : ج ٥ ــ ص ٤٤٩ ، ٤٥٠ وغيره . ولعل الأقرب أن الرسول من بعث بشرع جديد ، والنبي من بعث لتقرير شرع من قبله ، وهو بالطبع مأمور بتبليغه ، إذ من المعلوم أن العلماء مأمورون بذلك، فهم بذلك أولى كما لا يخفى . يراجع شرح الطحاوية وتعليق الألباني عليها ص : ٢٢ ، ٢٣ .

(٤) وقد أخبر ﷺ أمتَه ناصحاً ومحذراً لها في عدة أحاديث ؛ أنه سيكون بعده دجالون كثيرون . وقال في بعضها : « كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي » . رواه مسلم وغيره . =

الورى ، بالحق والهدى وبالنور والضياء[1] .

سابعاً :

ويؤمنون بأن القرآن الكريم كلام الله ، منه بدأ بلا كيفية قولاً ، وأنزله على رسوله وحياً ، وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً ، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ، ليس بمخلوق ككلام البرية ، فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر ، وقد ذمّه الله وعابه وأوعده بسقر ، حيث قال تعالى : (سَأُصْلِيهِ سَقَرَ)[2] .

فلما أوعد الله بسقر لمن قال : (إِنْ هٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ)[3] . علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر ، ولا يشبه قول البشر[4] . كما أنه متفق على صحته وسلامته من الزيادة والنقصان ، ويفهم طبقاً لأُصول اللغة العربية[5] ، وهم يؤمنون بكل حرف منه ، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو المصدر الأول لكل عقائد المسلمين .

= ونذكر من هؤلاء الدجاجلة دجال الهند – غلام أحمد القادياني – ودعاة نحلة الضلال وعلى رأسهم الباب ؛ شيطان القرن التاسع عشر ، علي محمد الشيرازي وتبعه دعاة البهائية الفاسدة .

(١) انظر شرح الطحاوية : ص ١٧٦ .

(٢) سورة المدثر : ٢٦ .

(٣) سورة المدثر : ٢٥ .

(٤) انظر الطحاوية : ص ١٧٩ .

(٥) من المعلوم أنه إذا اصطدم القرآن بشيء من معتقدات الشيعة والصوفية وغيرهم من دعاة الباطنية الضالة ، فإنهم يؤولونه تأويلات عجيبة ، تخرجه عن مضمونه ومعناه لتتفق مع مذاهبهم المنحرفة ، حيث إنهم يقولون بأن للقرآن ظاهراً وباطناً ، ليخفوا ضلالهم ويستروا سوءاتهم المكشوفة .

ثامنـــاً :

وأجمعوا على أن كلام الله عز وجل صفة أزلية ، وأنه غير مخلوق ولا محدث ولا حادث ، خلاف قول القدرية في دعواهم أن الله تعالى خلق كلامه في جسم من الأجسام[1] .

تاســـعاً :

وأجمع أهل السنة والجماعة على أن الله تعالى يكون مرئياً لأهل الجنة في الآخرة فقط ، بغير إحاطة ولا كيفية كما نطق القرآن : (وُجُوهٌ يَومَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَـــا نَاظِرَةٌ)[2] ، وقال سبحانه في حق الكفار : (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)[3] فدل ذلك أن أولياء الله سبحانه يرونه ، عكس الكفار الذين يحجبون عنه عز وجل .

أما المعتزلة والشيعة فقد نفوا رؤية الله سبحانه وتعالى في الآخرة . أما رؤيته تعالى في الدنيا ؛ فقد أخبر الرسول ﷺ في الحديث الصحيح أن أحداً منـــا لا يراه حتى يموت[4] ، وقد صح عنه ﷺ أنه نفى رؤيته حين سئل عنهـــا بقوله : « نُـــورٌ أَنَّىٰ أَرَاهُ » . فينبغي التمسك بهذا[5] .

عاشـــراً :

ويؤمنون بأن المعراج حق ، أي أنه عرجَ بجسد المصطفى ﷺ يقظة

---

(١) انظر الفرق بين الفرق : ص ٣٢٥ . (٢) سورة القيـــامة : ٢٢ ، ٢٣ .

(٣) سورة المطففين : ١٥ (٤) رواه مسلم .

(٥) يراجع الفرق بين الفـــرق : ص ٣٢٤ . ورسالة العقيـــدة الطحاوية شرح وتعليق الألبـــاني ص : ٢٦ ، ٢٧ . وكذلك شرح العقيدة الواسطية : ص ٩٤ وما بعدها .

إلى السماء ، ثم إلى ما شاء الله تعالى من المقامات العُلَى ، وَأكرمه الله بِما شَاءَ وَأوحى إليْهِ : (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ)[1] .

أحد عشـر :

ويؤمنون بالحوض الذي أكرم الله به رسوله الأعظم ﷺ غياثاً لأُمته . وقد جاء ذكر الحوض في أحاديث كثيرة بلغت مبلغ التواتر ، نذكر منها هذا الحديث حيث قال صلوات الله وسلامه عليه : « أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَىٰ الْحَـوْضِ »[2] .

ثاني عشـر :

وعندهم أن الشفاعة التي ادخرها رسول الله ﷺ لأُمته حق ، ومنها :

(أ) شفاعته ﷺ في أهل الموقف حتى يقضى بينهم ، بعد أن يتراجع الأنبياءُ ؛ آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم عن الشفاعة حتى تنتهي إليه .

(ب) وشفاعته ﷺ الثانية في أهل الجنة أن يدخلوا . وهاتان الشفاعتان خاصتان له .

(ج) وأما الشفاعة الثالثة ؛ فيشفع ﷺ فيمن استحق النار . وهذه الشفاعة له ولسائر النبيين والصديقين وغيرهم ، فيشفع فيمن استحق النار أن لا يدخلها ، ويشفع فيمن دخلها أن يخرج منها[3].

---

(١) سورة النجم : ١١ .

(٢) حديث متفق عليه . انظر العقيدة الطحاوية : ص ٢٥٠ ، ٢٥١ . فَرَطُكُم أي : سابقكم .

(٣) شرح العقيدة الواسطية : ص ١٤٠ ، ١٤١ .

أما نفاة الشفاعة ـ من المعتزلة والخوارج وأشباههم ـ فذاك قول هم قائلوه فلا يلتفت إليه . وقد ذكر شارح الطحاوية أن شفاعة الرسول ﷺ قد تضمنت ثمانية أنواع ، فليراجعها من شاء البحث والتحقيق فإنه هام .

ثالث عشر :

ويعتقدون بإثبات السؤال في القبر ، وبعذاب القبر لأهل العذاب ، وقالوا بالصراط والميزان ، ومن أنكر ذلك دحضت قدمه ـ زلقت رجله ـ على الصراط إلى نار جهنم[1] .

رابع عشر :

ويؤمنون باللوح[2] والقلم والعرش والكرسي ، وبالملائكة والنبيين والكتب السماوية المنزلة على المرسلين ، ويشهدون أنهم كانوا على الحق المبين[3] .

خامس عشر :

والإيمان عندهم هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره وحلوه ومره من الله تعالى . والمؤمنون كلهم أولياء

(١) الفرق بين الفرق : ص ٣٣٩ . والطحاوية : ص ٤٦٩ ـ ٤٧٢ .

(٢) واللوح هو المذكور في قوله تعالى : (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ) . وهو من الغيب الذي يجب الإيمان به ، ولا يعرف حقيقته إلا الله سبحانه ، ومن يعتقد أن بعض الصالحين يطلعون عليه فذلك كفر بالآيات والأحاديث المصرحة بأنه لا يعلم الغيب إلا الله سبحانه وتعالى . رسالة العقيدة الطحاوية شرح وتعليق الألباني .

(٣) الطحاوية : ص ٢٩٢ ـ ٣٠٩ وما بعدها .

الرحمن[1] . وأكرمهم عند الله أطوعهم وأتبعهم[2] للقرآن .

سادس عشر :

وهم يتبعون السنة والجماعة[3] ، ويجتنبون الشذوذ والخلاف والفرقة ويحبون أهل العدل والأمانة ويبغضون أهل الجور والخيانة . وعندهم الحج والجهاد ماضيان[4] مع أولي الأمر من المسلمين – برهم وفاجرهم – إلى قيام الساعة ، لا يبطلهما شيءٌ ولا ينقضهما[5] .

سابع عشر :

ويقولون بتفضيل الأنبياء على الملائكة والأولياء ، خلاف قول من زعم

---

(١) وليعلم أن أولياء الرحمن هم الذين يتبعون أوامره ولا يخالفون سنة نبيه . وأن دعوى الكرامة وخوارق العادات ليست كما يتوهم بعض الناس ، بل كل ذلك من الإهانات الفاسدة التي نهى عنها الشرع ، فولي الله هو من ينقاد للشرع ويلتزمه : (أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاء اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَهُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) .

(٢) انظر شرح العقيدة الطحاوية : ص ٤١٠ وما بعدها .

(٣) ويدخل في جماعة أهل السنة كل من أصحاب مالك والشافعي والأوزاعي والثوري وأبي حنيفة وابن أبي ليلى ، وأصحاب أبي ثور وأصحاب أحمد بن حنبل ، وأهل الظاهر وسائر الفقهاء وتابعيهم بإحسان ؛ الذين اعتقدوا في الأبواب العقلية أصول الصفاتية ، ولم يخلطوا فقهه بشيءٍ من بدع أهل الأهواء الضالة . يراجع الفرق بين الفرق : ص ٣٠١ .

(٤) والجهاد على قسمين : الأول فرض عين ؛ وهو ضد العدو والمهاجم لديار المسلمين ، كما فعل اليهود الآن في بيت المقدس ، الذين استحلوا فلسطين واستباحوا حرماتها وأفسدوا فيها . فالمسلمون جميعاً آثمون حتى يخرجوا الصهاينة من أرض الإسلام – فلسطين المغتصبة وغيرها .

والثاني فرض كفاية ؛ إذا قام به البعض سقط عن الباقين ؛ وهو نشر الإسلام في سائر المعمورة .

(٥) انظر شرح العقيدة الطحاوية : ص ٤٣٠ – ٤٣٧ .

أن في الأولياء من هو أفضل من الأنبياء[1] . وقالوا بعصمة الأنبياء من الذنوب ، وتأولوا ما روي عنهم من زلاتهم على أنها كانت قبل النبوة ، خلاف قول من أجاز عليهم الصغائر[2] .

ثامن عشر :

ويؤمنون بمعجزات الرسول العظيم محمدﷺ كانشقاق القمر وتسبيح الحصا في يدهﷺ ونبوع الماء من بين أصابعه ، وإشباعه الخلق الكثير من الطعام اليسير ونحو ذلك كثير[3] .

تاسع عشر :

ويقولون بخلق الجنة والنار خلاف قول من زعم أنهما غير مخلوقتين. وقالوا بدوام نعيم الجنة على أهلها ودوام عذاب النار على المشركين[4] . وقد قال تعالى في نعت الجنة : (أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) وفي وصف النار : (أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) . وفي الحديث القدسي : « أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ »[5] .

---

(١) والحق أن الصوفية وبعض الشيعة هم الذين يروجون لهذه الخرافة . إذ أن نبياً واحداً أفضل من جميع الأولياء وأن النبوة أخص من الولاية ، والرسالة أخص من النبوة ، وأن أفضل الخلق بعد الرسل والأنبياء هم الصحابة ، وعلى رأسهم أبو بكر الصديق ، وقد بين ذلك الحديث الصحيح : « خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ . . . » . فلتتدبر ذلك .

(٢) يراجع الفرق بين الفرق : ص ٣٣٥ . (٣) نفس المصدر .

(٤) النار في الآخرة ناران ؛ نار تفنى ؛ وهذه نار العصاة والمذنبين من المسلمين . ونار لا تفنى وتبقى أبد الدهر ؛ وهي نار الكفار والمشركين . للمزيد يراجع كتاب الوابل الصيِّب لابن قيم الجوزية رحمه الله .

(٥) انظر الفقه الأكبر : ص ٧٩ ، والفرق بين الفرق : ص ٣٣٩ .

عشـــرون :

وقالوا بنبوة عيسى عليه السلام ـ خلاف قول منكريه من البراهمة واليهود ـ وأنكروا قتل سيدنا عيسى ، وأثبتوا رفعه إلى السماء ، وأنه سينزل إلى الأرض بعد خروج الدجال ؛ فيقتله ويقتل الخنزير ويريق الخمور ، ويستقبل في صلاته الكعبة ويؤيد شريعة محمدﷺ ويحيي ما أحياه القرآن ويميت ما أماته القرآن . وقالوا بتكفير كل متنب ـ متنبىء ـ سواءٌ قبل الإسلام ـ كزرادشت وماني ومزدك ـ أو بعده ـ ـ كمسيلمة والأسود ـ ويلحق بهم مشعوذ الهند غلام أحمد القادياني والبـــاب علي محمد الشيرازي ؛ دجـــال القـــرن التاسع عشر ، وسائر من سار على طريقهم الخبيثة ، وكذلك فهم يؤمنون بنبوة موسى عليه السلام خلاف قول منكريه[1] .

واحد وعشـــرون :

ويؤمنون بملك الموت[2] ؛ الموكل بقبض أرواح العالمين . وبالكرام الكاتبين ، فإن الله جعلهم علينا حافظين . ويؤمنون بسؤال القبر من قبل منكر ونكير ، وقد وردت بذلك الأخبار عن رسول اللهﷺ والصحابة الكرام[3] .

---

(١) بتصرف عن الفرق بين الفرق ص : ٣٣٢ وما بعدها .

(٢) لقد ذكر القرآن اسم قابض الأرواح فسماه ملك الموت ، وأما تسميته الشائعة بين الناس بعزرائيل فهذا كلام لا أصل له ، وهو مدسوس من دسائس الأعداء . فليتنبه المسلمون لهذا .

(٣) انظر العقيدة الطحاوية : ص ٤٣٨ ـ ٤٥٣ .

اثنان وعشـــرون :

ويؤمنون بيوم البعث وجزاءِ الأعمال يوم القيامة ، والعرض والحساب وقراءة الكتاب والثواب والعقاب[1] .

ثلاث وعشـــرون :

ويؤمنون بأشراط الساعة ؛ من خروج الدجال ، ونزول عيسى بن مريم عليه السلام من السماءِ ، وبطلوع الشمس من مغربها ، وخروج دابة الأرض من موضعها . وفي خروج الدجال نذكر هذين الحديثين :

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : ذكر الدجال عند النبي ﷺ فقال : « إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْكُمْ إِنَّ اللهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ - وأشار بيده إلى عينه - وَإِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ عَيْنِ الْيُمْنَىٰ كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ » . متفق عليه .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَأَنْذَرَ قَوْمَهُ الْأَعْوَرَ الدَّجَّالَ ، أَلَا إِنَّهُ أَعْوَرُ ، وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ وَمَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كـ ف ر »[2] . فسره في رواية : « أَيْ كَافِرٌ » .

وعن نزول سيدنا عيسى عليه السلام نذكر هذا الحديث الصحيح : عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ

---

(١) المصدر السابق ص : ٤٥٦ - ٤٦٥ وما بعدها .

(٢) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَماً عَدْلاً[1] ؛ فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ ، وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ . وَيَفِيضُ الْمَالُ حَتَّىٰ تَكُونَ السَّجْدَةُ خَيْراً مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » . ثم يقول أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم : : (وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً)[2] .

أربع وعشـــرون :

ويؤمنون بأن الغيب من خصائص الألوهية . وأن الله تعالى قد أطلع أنبياءه - ومنهم رسولنا محمدﷺ - على بعض أمور الغيب لضرورات معينة ، خلاف من يدعون بأن معرفة الغيب من حق أئمتهم وشيوخهم وأوليائهم ، حتى إن بعضهم ينسب الألوهية لهؤلاء الأولياء ، كما يفعل بعض الشيعة والمتصوفة . تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

خمس وعشـــرون :

ويحبون أصحاب رسول اللهﷺ ولا يفرطون في حب أحد منهم[3] ولا يتبرؤون من أحد منهم . ويبغضون من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم . وحبهم دين وإيمان وإحسان ، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان .

---

(١) ومن المؤسف أن يخرج بعض أدعياء العلم في القرن العشرين بمزاعم ساقطة ، بدعوى عدم خروج الدجال . أو نزول عيسى عليه السلام . وهذه أقوال لا تستند على برهان ، بل تصطدم مع النصوص الشرعية الثابتة . وقد فند فساد هذه المزاعم علماء عدول في الماضي والحاضر ، فلا يجوز الاغترار بدعوى الهوى والزيغ .

(٢) سورة النساء : ١٥٩ .

(٣) نحبهم حسب الحدود الشرعية ، بلا تجاوز ولا مغالاة في حب أحد منهم ، فهم جميعاً عدول وهم غير معصومين ، عكس دعوى الشيعـــة الباطلة في علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره من أئمتهم ؛ حيث يغالون مغالاة تخالف الشرع الحكيم . فلا حول ولا قوة إلا بالله .

ست وعشـــرون :

ويثبتون الخلافة بعد رسول الله ﷺ أولاً لأبي بكر الصديق رضي الله عنه ؛ تفضيلاً له وتقديماً على جميع الأُمة ، ثم لعمر بن الخطاب . ثم لعثمان ثم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين ، وهم الخلفاءُ الراشدون والأئمة المهتدون[1] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاءِ الأئمة فهو أضل من حمار أهله[2] . فتأمله .

وعندهم أن علماءَ السلف ـ من السابقين ومن بعدهم من التابعين ـ أهل الخير والأثر وأهل الفقه والنظر ـ لا يذكرونهم إلا بالجميل . ومن ذكرهم بسوءٍ فهو على غير السبيل . وهم لا يصدقون كاهناً ولا عرافاً ، وأن دين الله في الأرض والسماء واحد هو دين الإسلام . قال تعالى : (إِنَّ الدِّينَ عِنْـدَ اللهِ الْإِسْلَامُ)[3] . وقوله سبحانه : (وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)[4] .

سبع وعشـــرون :

ويتبعون الكتاب والسنة ، ويطيعون الله ورسوله ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وينتخب أهل الحل والعقد الخليفة ـ الإمام ـ من ذوي الكفاءة من جماعة المسلمين . ويحتكمون إلى الكتاب والسنة . وعندهم الحديث الشريف هو المصدر الثاني من مصادر التشريع ، والمفسر

(١) راجع الطحاوية : ص ٥٣٥ وما بعدها .
(٢) مجموعة الفتاوى : ج ٣ ـ ص ١٥٣ لابن تيمية .
(٣) سورة آل عمران : ١٩ . (٤) سورة المائدة : ٣ .

للقرآن . ولا يخالفون أحكام أي حديث صحت نسبته للنبي ﷺ [1] .

ثمان وعشـــرون :

ويصلون الجمع والأعياد والجماعات ، لا يدعون الجمعة والجماعة ، كما يفعل أهل البدع من الرافضة وغيرهم ؛ فإن كان الإمام مستوراً لم يظهر منه بدعة ولا فجور ، صلى خلفه الجمعة والجماعة باتفاق الأئمة الأربعة وغيرهم من أئمة المسلمين[2] .

تسع وعشـــرون :

وهم لا يكفرون أحداً من أهل القبلة بذنب ارتكبه ؛ كالزنا والسرقة وشرب الخمر – كما دانت بذلك الخوارج ، وزعموا أنهم بذلك كافرون – والإيمـــان عندهم قول وعمل يزيد وينقص .

ثلاثـــون :

ويحبون السلف من صحابة الرسول ﷺ ويثنون عليهم بما أثنى الله عليهم ، ويشهدون للعشرة بالجنة الذين شهد لهم الرسول ﷺ . ويكفون عما شجر بين الصحابة الكرام ، ولا يبتدعون في دين الله بدعة لم يأذن بها ، ويفارقون دعاة البدع والأهواء[3] . ونعوذ بالله من كل ضـــلالة وغـــواية .

---

(١) راجع تبيين كذب المفتري : ص ١٦١ ، ١٦٢ . وقارن الخطوط العريضة لأسس دين الشيعة الإمامية : ص ٤٨ .

(٢) راجع مجموعة الرسائل والمسائل : ج ٥ – ص ١٩٨ .

(٣) انظر تبيين كذب المفتري : ص ١٦٠ وما بعدها .

وبعـد : فهذا يا أخي القارىء ما يدين به ويعتقده أهل السنة والجماعة - الفرقة الناجية - جعلنا الله وإياك منها ، ونحن براءٌ إلى الله من كل من خالف الذي ذكرناه وبيناه . وإنا نسأل العلي الكريم أن يثبتنا على الإيمان ، ويختم لنا به ، ويعصمنا من الأهواء المختلفة والآراء الضالة ، وأن يهدينا سبيل الرشاد ، وأن يجمعنا مع أهل طاعته من الأنبياء والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقاً .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . والحمد لله رب العالمين .

رجاء واعتذار

هذا ما اتسع المقام لعرضه ، قياماً بما أخذه الله على المسلمين من النصح لله ولرسوله ولخاصة المسلمين وعامتهم . فإن كنت قد أصبت فذلك الفضل من الله ، وإن كانت الثانية فأستغفر الله .

وإني لأرجو من كل مطلع على هذا الكتاب ، أن يدعوَ لنا بالخير ، وأن يزودنا باستدراكاته ، والمؤمنون بخير ما تناصحوا .

ولا أزعم أنني أحصيت معاول الهدم كلها في هذا الكتاب ، ولكني أعتقد بأنني نبهت على معظمها ، ووجهت الأنظار إلى اليقظة والاحتراس منها ، ولجأت إلى التحليل واستخلاص العبر وبيان ما يجب عمله حيال قوى الشر والأعداء في كل موقع .

ولعلي بعد ذلك لا أكون قد أسأمت القارئ الكريم من تطويل ، دعتني إليه ضرورة البحث ودفعتني إليه رغبة الاستيفاء والاستقصاء . وإني لواثق كل الثقة من أن الله سبحانه ناصر لجنده وهازم لأعدائه - مهما كثروا وعظمت قواتهم - بشرط أن يصدقوا إيماناً وجهاداً وعملاً ، ويحققوا ما أوجبه الله عليهم ، وهو سبحانه الحافظ لدينه وملته ، وأن كياننا الإسلامي لأعظم من هدم الهدامين وكيد الكائدين إلى يوم الدين .

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ)
سورة غـافر : ٥١ .

وصلى الله على سيدنا محمد ؛ إمام المجاهدين وخاتم المرسلين ، وعلى آلـه وأصحابه الغر الميـامين .

وآخـر دعوانا أن الحمـد لله رب العالمـين .

خالد بن محمد بن علي الحاج

مدينة الزرقاء ـ الأُردن
١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م .

ثبت المراجع والمصادر

١ – القرآن الكريم .
٢ – موقف اليهود من الإسلام – عبد العزيز بن باز .
٣ – سلسلة الأحاديث الصحيحة – محمد ناصر الدين الألباني .
٤ – سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة – محمد ناصر الدين الألباني .
٥ – صفة صلاة النبي ﷺ – محمد ناصر الدين الألباني .
٦ – أحكام الجنائز وبدعها – محمد ناصر الدين الألباني .
٧ – المدخل إلى مذهب ابن حنبل – ابن بدران .
٨ – كبرى اليقينيات الكونية – د . محمد سعيد رمضان البوطي .
٩ – تحديد النسل – د . محمد سعيد رمضان البوطي .
١٠ – الفكر الإسلامي في تطوره – د . محمد البهي .
١١ – الدين بين الفرد والمجتمع – د . أحمد محمود البربري .
١٢ – الفرق بين الفرق – عبد القاهر البغدادي .
١٣ – تطهير الجنان والأركان – أحمد بن حجر آل بوطامي .
١٤ – بروتوكولات حكماء صهيون – محمد التونسي .
١٥ – الفكر الإسلامي المعاصر – غازي التوبة .
١٦ – أضواء كاشفة – أسعد بيوض التميمي .
١٧ – جذور البلاء – عبد الله التل .
١٨ – الأفعى اليهودية – عبد الله التل .
١٩ – فرق الشيعة – النوبختي .
٢٠ – مشكاة المصابيح – محمد الخطيب التبريزي .
٢١ – الفتاوى الكبرى – أحمد بن عبد الحليم بن تيمية
٢٢ – شرح حديث النزول – » » » » »
٢٣ – منهاج السنة النبوية – » » » » »
٢٤ – الفرقان – » » » » »
٢٥ – العبودية – » » » » »

٢٦ – قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة – أحمد بن عبد الحليم بن تيمية.
٢٧ – مجموعة الرسائل الكبرى – أحمد بن عبد الحليم بن تيمية .
٢٨ – الحسبة – أحمد بن عبد الحليم بن تيمية .
٢٩ – النصيرية – أحمد بن عبد الحليم بن تيمية .
٣٠ – عقيدة أهل السنة والجماعة – أحمد بن عبد الحليم بن تيمية .
٣١ – الفقه الأكبر – أبو حنيفة النعمان .
٣٢ – الكامل في التاريخ – ابن الأثير .
٣٣ – المنتظم في تاريخ الملوك – أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي .
٣٤ – القرامطة – أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي .
٣٥ – تلبيس إبليس – أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي .
٣٦ – صيد الخاطر – أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي .
٣٧ – تفسير زاد المسير – أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي .
٣٨ – أعلام الموقعين – ابن قيم الجوزية .
٣٩ – طريق الهجرتين – ابن قيم الجوزية .
٤٠ – إغاثة اللهفان – ابن قيم الجوزية .
٤١ – الفوائد – ابن قيم الجوزية .
٤٢ – زاد المعاد – ابن القيم الجوزية .
٤٣ – منهاج المسلم – أبو بكر طاهر الجزائري .
٤٤ – أساليب الغزو الفكري – د . علي محمد ورفيقه جريشة .
٤٥ – قضايا العصر في ضوء الإسلام – أنور الجندي .
٤٦ – المدخل – ابن الحاج .
٤٧ – مصرع الشرك والخرافة – خالد محمد علي الحاج .
٤٨ – أعلام الإسلام – خالد محمد علي الحاج – مخطوط.
٤٩ – المُحَلَّى – علي بن أحمد بن حزم .
٥٠ – الفصل في الملل والأهواء والنحل – علي بن أحمد بن حزم .
٥١ – البابيون والبهائيون – عبد الرزاق الحسني .
٥٢ – الروح والإيمان – أحمد عبد المنعم الحلواني .
٥٣ – الإسلام – سعيد حوى .
٥٤ – الرسول – سعيد حوى .

٥٥ ـ تـاريخ الـدولة الإسلامية ـ د . حسن إبراهيم حسن .
٥٦ ـ قواعـد المنهـج السـلفي ـ د . مصطفى حـلمي .
٥٧ ـ فتـح البـاري ـ أحمد بن حجـر العسـقلاني .
٥٨ ـ طائفـة القـاديانية ـ محمد الخضـر حسين .
٥٩ ـ رسـائل الإصـلاح ـ محمد الخضـر حسين .
٦٠ ـ طائفـة الدروز ـ د . محمد كامل حسين .
٦١ ـ المقـدمة ـ عبد الرحمـن بن خـلدون .
٦٢ ـ الإسلام في قفص الاتهـام ـ شـوقي أبو خليـل .
٦٣ ـ الأمر بالمعروف والنهـي عن المنكر ـ أحمد بن محمد بن هارون الخـلال .
٦٤ ـ الغـارة على العالم الإسلامي ـ محب الدين الخطيب ورفيقه .
٦٥ ـ تركيـا الحـديثة ـ محمد دروزة .
٦٦ ـ أحمد بن حنبل بين محنة الدين ومحنة الدنيا ـ د . أحمد عبد الجـواد الدومي
٦٧ ـ سـنن أبي داود ـ أبو داود .
٦٨ ـ التفسير والمفسرون ـ د . محمد حسين الذهـبي .
٦٩ ـ الإسرائيليات والتفسير والحديث ـ د . محمد حسين الذهـبي .
٧٠ ـ التـوراة : تاريخها وغاياتها ـ سـهيل ديب .
٧١ ـ التوصـل إلى حقيقة التوسل ـ محمد نسيب الرفاعي .
٧٢ ـ أسرار المـاسونية ـ الجنزال جـواد رفعت .
٧٣ ـ لمـاذا تأخر المسلمون وتقـدم غيرهم ـ شـكيب أرسـلان .
٧٤ ـ الصهيـونية في الميزان ـ محمـود أرشـيد .
٧٥ ـ أصـول الدعـوة ـ د . عبد الكريم زيـدان .
٧٦ ـ البرهـان في علوم القـرآن ـ برهان الدين الزركشي .
٧٧ ـ الماسـونية في العـراء ـ د . محمد علي الزعـبي .
٧٨ ـ المـرأة بين الفقـه والقـانون ـ د . مصطفى السباعي .
٧٩ ـ الاستشراق والمستشرقون ـ د . مصطفى السباعي .
٨٠ ـ الـكواشف الجليـة ـ عبد العزيز السـلمان .
٨١ ـ فقـه السـنة ـ سـيد سابق .
٨٢ ـ إسـلامنا ـ سـيد سـابق .
٨٣ ـ العقـائد الإسـلامية ـ سـيد سـابق .

٨٤ – حتى يغيروا ما بأنفسهم – جودت سعيد .
٨٥ – الإتقان في علوم القرآن – جلال الدين السيوطي .
٨٦ – تفسير الجلالين – جلال الدين السيوطي ، جلال الدين المحلي .
٨٧ – المقاصد الحسنة – شمس الدين أبي الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي .
٨٨ – الإسلام المصفى – عبد الله السمان .
٨٩ – الموافقات – عبد الله الشاطبي .
٩٠ – الاعتصام – عبد الله الشاطبي .
٩١ – الفتاوى – محمود شلتوت .
٩٢ – الصلة بين التصوف والتشيع – د . مصطفى كامل الشيبي .
٩٣ – الملل والنحل – عبد الكريم الشهرستاني .
٩٤ – حتى لا نخدع – د . عبد الرؤوف شلبي .
٩٥ – إسلام بلا مذاهب – د . مصطفى الشكعة .
٩٦ – الباعث على إنكار البدع والحوادث – عبد الرحمن بن اسماعيل أبو شامة .
٩٧ – التصوف بين الحق والباطل – محمد فهد شقفة .
٩٨ – الحقبة المثالية في الإسلام – د . إبراهيم علي شعوط .
٩٩ – منهج القرآن في التربية – محمد شديد .
١٠٠ – نيل الأوطار – محمد بن علي الشوكاني .
١٠١ – الفوائد المجموعة – محمد بن علي الشوكاني .
١٠٢ – القول المعتبر – محمد بن علي الشوكاني .
١٠٣ – قطر الولي – محمد بن علي الشوكاني .
١٠٥ – السنن والمبتدعات – عبد السلام محمد خضر الشقيري .
١٠٦ – الأغاني – أبو الفرج الأصفهاني .
١٠٧ – صراع بين الحق والباطل – سعد محمد صادق .
١٠٨ – المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام – محمد محمود الصواف .
١٠٩ – نداء الإسلام – محمد محمود الصواف .
١١٠ – سبل السلام – الصنعاني .
١١١ – تطهير الاعتقاد – الصنعاني .
١١٢ – تفسير المنار – محمد رشيد رضا .
١١٣ – حياة الاستاذ الإمام – محمد رشيد رضا .

١١٤ – تـــاريخ الطـــبري – محمد بن جـــرير الطـــبري .
١١٥ – تفســـير الطـــبري – محمد بن جـــرير الطـــبري .
١١٦ – شرح العقيـــدة الطحـــاوية – أبو جعفر أحمد الطحـــاوي .
١١٧ – روح الدين الإســـلامي – عفيف عبد الفتـــاح طبـــارة
١١٨ – البابيـــة والبهائيـــة في الميزان – – د . مصطفى الطـــير .
١١٩ – البدعـــة وتحـــديدها – د . علي عـــزت عبيـــد .
١٢٠ – الشـــــفا – القـــاضي عيـــاض .
١٢١ – جـــواهر البخـــــاري – مصطفى محمد عمـــارة .
١٢٢ ـ تبيين كذب المفتري فيما نسب للإمام الأشعري ـ أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر .
١٢٣ – تفســـير التحـــرير والتنوير – محمد الطاهر بن عـــاشور .
١٢٤ – حقيقـــة البابيـــة والبهائيـــة – محسن عبد الحميـــد .
١٢٥ – مختصر تـــاريخ العـــرب – سيد أمـــير علي .
١٢٦ – كشـــف الخفـــــاء – اسماعيل العجـــلوني .
١٢٧ – تـــاريخ العـــرب قبل الإسلام – جـــواد علي .
١٢٨ – الفـــرق الإســـلامية – محمـــود العشيشي .
١٢٩ – مفتـــاح كنوز الســـنة – محمد فؤاد عبد البـــاقي .
١٣٠ – الصهيـــونية – عبد الرحمن سامي عصمت .
١٣١ – تاريخ الحروب الصليبية – د . سعيد عبد الفتاح عاشور .
١٣٢ – الإسلام وأصول الحـــكم – علي عبد الرازق .
١٣٣ – الفتوحـــات المـــكية – محـــيي الدين بن عـــربي .
١٣٤ – جـــامع بيـــان العلم وفضـــله – ابن عبد البر .
١٣٥ – تربيـــة الشريعـــة المرفوعة – أبو الحسن الكتاني بن عـــراف .
١٣٦ – دمـــروا العـــالم – جـــلال العالم .
١٣٧ – القـــدس العـــربية – محمد أديب العـــامري .
١٣٨ – تفســـير العـــزيز الحميد – سليمان عبد الله بن عبد الوهـــاب .
١٣٩ – ثـــورة الأحـــرار على الاستعمار – هـــاشم الأعـــظمي .
١٤٠ – الدين والعـــلم الحـــديث – ابراهيم محمد عبد البـــاقي .
١٤١ – العقـــــد الفـــــريد – ابن عبـــد ربـــه .
١٤٢ – تـــاريخ الجمعيـــات السرية – د . محمد عبد الله عنـــــان .

١٤٣ – خفـايا البهـائية – د . أحمد عون عـوف .
١٤٤ – إحيـاء عـلوم الـدين – الإمام الغـزالي .
١٤٥ – دفـاع عن العقيدة والشريعة – محمد الغـزالي .
١٤٦ – من هنـا نعـلم – محمد الغـزالي .
١٤٧ – ظـلام من الغـرب – محمد الغـزالي .
١٤٨ – فقـه السـيرة – محمد الغـزالي .
١٤٩ – المـرأة المسـلمة – وهبـه سليمان الغـاوجي .
١٥٠ – التبشـير والاسـتعمار – د . عمر فـروخ ورفيقـه .
١٥١ – تاريخ العـرب والمسلمين – د . عمر فـروخ ورفيقـه .
١٥٢ – أعـداء المـاضي والحـاضر والمستقبل – عبد الرحـيم فـوده .
١٥٣ – كيف نتأدب مع المصحف – محمد رجب فرجـاني .
١٥٤ – قواعـد الحـديث – محمد جمال الدين القاسـمي .
١٥٥ – إصـلاح المسـاجد – محمد جمال الدين القاسـمي .
١٥٦ – الإيمـان والحيـاة – د . يوسـف القرضاوي .
١٥٧ – العبـادة في الإسـلام – د . يوسـف القرضاوي .
١٥٨ – الحـلال والحـرام – د . يوسـف القرضاوي .
١٥٩ – الجـامع لأحـكام القـرآن – القرطـبي .
١٦٠ – البـدع والنهـي عنهـا – القرطـبي .
١٦١ – في ظـلال القـرآن – سـيد قطب .
١٦٢ – العـدالة الاجتماعية في الإسلام – سـيد قطب .
١٦٣ – شـبهات حول الإسلام – محمد قطـب .
١٦٤ – جاهليـة القـرن العشرين – محمد قطـب .
١٦٥ – تفسـير القـرآن العظـيم – محمد بن اسماعيل بن كثير .
١٦٦ – البـداية والنهـاية – محمد بن اسماعيل بن كثير .
١٦٧ – أمّ القـرى – عبد الرحمـن الـكواكبي .
١٦٨ – الـدين والـدولة – نجيب الكيـلاني .
١٦٩ – التحـدي الصهيـوني – مـاجد عرسـان الكيـلاني .
١٧٠ – تفسـير روح المعـاني – محمود بن عبد الله الآلوسي .
١٧١ – غـاية الأمـاني – محمود شـكري الآلوسي .

١٧٢ ـ فتح المجيد ـ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ .
١٧٣ ـ التربية الدينية التي يحتاجها العالم الإسلامي ـ د . أحمد اللبان .
١٧٤ ـ الإسلام والتقاليد الجاهلية ـ آدم عبد الله الألوري
١٧٥ ـ العقيدة الإسلامية وأسسها ـ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني .
١٧٦ ـ أجنحة المكر الثلاثة ـ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني .
١٧٧ ـ الإبداع في مضار الابتداع ـ علي محفوظ .
١٧٨ ـ المغني ـ ابن قدامة المقدسي .
١٧٩ ـ مختصر منهاج القاصدين ـ ابن قدامة المقدسي .
١٨٠ ـ الحجاب ـ أبو الأعلى المودودي .
١٨١ ـ الإسلام والماركسية ـ د . مصطفى محمود .
١٨٢ ـ مروج الذهب ـ المسعودي .
١٨٣ ـ حياة ابن تيمية ـ د . محمد يوسف موسى
١٨٤ ـ البهائية في نظر الشريعة والقانون ـ علي علي منصور .
١٨٥ ـ الترغيب والترهيب ـ عبد العظيم المنذري .
١٨٦ ـ محاكم التفتيش ـ د . علي مظهر .
١٨٧ ـ تأملات في المرأة والمجتمع ـ محمد المجذوب .
١٨٨ ـ فجر الإسلام ـ أحمد أمين .
١٨٩ ـ ضحى الإسلام ـ أحمد أمين .
١٩٠ ـ الصراع بين الفكرة الإسلامية والغربية ـ أبو الحسن علي الحسني الندوي .
١٩١ ـ القاديانية والقاديانية ـ أبو الحسن علي الحسني الندوي
١٩٢ ـ النبوة والأنبياء ـ أبو الحسن علي الحسني الندوي .
١٩٣ ـ ردة جديدة ـ أبو الحسن علي الحسني الندوي .
١٩٤ ـ الإذاعة لما كان وما سيكون بين يدي الساعة ـ محمد صديق حسن النجادي .
١٩٥ ـ الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير ـ د . رمزي نعناعة .
١٩٦ ـ شرح صحيح مسلم ـ محي الدين يحيى بن شرف النووي .
١٩٧ ـ رياض الصالحين ـ محي الدين يحيى بن شرف النووي .
١٩٨ ـ معارج الألباب ـ حسن بن مهدي النعمي .
١٩٩ ـ السيرة النبوية ـ ابن هشام .
٢٠٠ ـ الزواجر ـ ابن حجر الهيثمي .

٢٠١ – تـــاريخ الأديـــان – طـــه الهـــاشمي .
٢٠٢ – شرح العقيـــدة الواســـطية – محمد خليل هـــراس .
٢٠٣ – دعـــــوة التوحيـــــد – محمد خليل هـــراس .
٢٠٤ – ولايـــة الله والطـــريق إليهـــا – ابراهـــيم ابراهـــيم هـــلال .
٢٠٥ – مجـــلات ورسائل دينيـــة مختلفـــة .

فهرست الجزء الثاني من كتاب
الكشاف الفريد
عن معاول الهدم ونقائض التوحيد

الموضوع	الصحيفة
الباب الأول – في الشرك والابتداع والتدليس	
الفصل الأول – نقائض التوحيد – الشرك	٧
التوحيد جوهر الإسلام	٩
التوحيد وأقسامه	٩
أصل الإسلام...	١١
نقائض التوحيد – الشرك	١٣
توطئة	١٣
معنى الشرك	١٤
الاستغاثة بغير الله ودعاء غيره	١٦
الاستعاذة بغير الله	١٩
التطير – التشاؤم	٢٠
الذبح والنذر لغير الله	٢٢
الحلف بغير الله	٢٧
الاشتغال بالسحر	٣٠
النشرة – فك السحر	٣٣
الأحجبة والتمائم والرقى والأوتار	٣٥
شرك الكهان والعرافين	٤٠
تصديق الكهان كفر	٤٢
علم الغيب من خصائص الله سبحانه	٤٤
إطلاع الملائكة والرسل على الغيب	٤٤
استخدام الجن وعلم الغيب	٤٦

الموضـــــوع	الصحيفة
اتخـــاذ القبـــور مســاجد	٤٩
زيــارة القبـــور	٥٢
عبـــادة الأهـــــواء	٥٥
عبـــادة الشخصية الإنســانية	٥٧
اتبــاع الآبــاء والأســلاف والشــيوخ	٦٤
الفصل الثاني – في الابتداع والتدليس	٦٩
الإســلام ديــن الأنبيـــــاء	٧١
المســلم من التزم بأحــكام الشــريعة	٧٦
كيف يلتزم المســلم بالشــرع	٨٠
وجــوب الإيمـــان بكتب الله ورســله.	٨٤
بعض مزايا القــرآن الكـــريم	٨٥
تحــريف التـــــوراة	٨٧
تحــريف الإنجيـــل	٩٠
الاختـــلاف في الـــدين	٩٣
أســباب انحـــراف الناس عن الحـــق	٩٦
بعض أســباب الكفـــر والانحـــراف	٩٩
الابتـــــداع	١٠٦
معــنى الســنة لغــة وشرعــاً	١٠٦
التحـــذير من البـــدع	١٠٨
أهم أســباب البـــدع	١١١
أســاس البــدع وأخطـــارها	١١١
نمـــاذج من البـــدع	١١٦
من بـــدع الأذان	١١٦
من بـــدع الصـــلاة	١١٧
من بـــدع الجنـــائز	١١٨
من بـــدع الحـــج	١٢١
من بـــدع الاعتقـــادات	١٢٣

الموضـــوع	الصحيفة
من بـــدع المســـاجد	١٢٤
خـرافة دوران الميت بنعشـه	١٢٧
شـبح القتيـل خـرافة وخيـال	١٣٠
القـرآن محفـوظ من عنـد الله	١٣٢
فتنـة خـلق القـرآن	١٣٥
كتـاب ابن حنبـل	١٣٨
التكسـب بالقـرآن	١٤٣
هجـر القـرآن والإعـراض عنه	١٥٠
مؤامـرة جـديدة على القـرآن	١٥٧
تأويـل القـرآن وتصغير الخـط	١٦٢
ترجمـة القـرآن وأضرارهـا	١٦٦
حـكم ترجمـة القـرآن	١٦٧
أضرار ترجمـة القـرآن	١٧٠
الإسرائيليات في التفسـير والحـديث	١٧٤
معـنى الإسرائيليـات..	١٧٦
أعـظم ما رزئ بـه الإسـلام	١٧٧
أسـباب انتشار الإسرائيليات في دور التـدوين	١٧٨
الإسرائيليـات في الحـديث	١٧٩
من دسـائس القصـاصين...	١٨١
الإسرائيليـات في كتب التـاريخ	١٨٤
المسـتشرقون والإسرائيليـات...	١٨٦
آثـار الإسرائيليات على الثقـافة الإسـلامية	١٨٧
مقـترحات	١٨٨
الوضـع في الحـديث	١٩١
أسـباب الوضـع والـكذب	١٩٢
عاقبـة من يـكذب على النبي ﷺ	١٩٤
فتـوى لابن حجـر الهيثمـي	١٩٦

الموضـــوع	الصحيفة
عـــلم الـــكلام	١٩٧
داء الجـــــدل	٢٠١
الوســوسـة والهــوس الديـــني	٢٠٦
فقـــدان الـــوازع الديـــني	٢١٤
التعصب المـذهبي والتقليـــد	٢١٩
التهجـــم على الإفتـــاء	٢٢١
الترهيـب من الإفتـــاء	٢٢٢
تحضـــير الأرواح	٢٢٥
بعـض شـعوذات الروحـيين	٢٣١
الروحيـــة دعـــوة هـدامة	٢٣٤
البـــاب الثـــاني	
الفصل الأول - شـبهات وردهـا	٢٤١
تمهيـــــد	٢٤٣
محمد ﷺ بشر ولم يخلق الكون من أجـله	٢٤٤
خـرافة خطيئـة الإنسان منذ ولادتـــه.	٢٤٨
شـبهة منكـــري البعـث.	٢٥٤
القضـــاء والقـــدر	٢٥٩
سـوء فهـم القضـاء والقـــدر	٢٦١
الإنســان مخـــير في أعمـــاله..	٢٦٤
دفـع فـرية مرويـة عن شيخ الإسلام ابن تيمية	٢٧١
شـبهة انتشار الإسـلام بالسـيف	٢٧٦
أقـلام غـربية منصفـــة	٢٨٤
شـبهة حـول الاحتجـــاج بالسـنة	٢٨٥
فـرية صراع العـلم والدين ودحضها	٢٩٢
الصـــراع بين العـلم والـدين في أوروبا	٢٩٨
العـــلم في الإســـلام	٢٩٩
تعطيـــل الجهـــاد المقـدس	٣٠٤

الموضـــوع	الصحيفة
فضـل الجهـاد والمجـاهدين	٣٠٦
بعض معطـلي الجهـاد	٣٠٨
فتنـة الاختـلاط	٣١٣
حقـائق شرعيـة	٣١٥
التعـليم المختلـط	٣١٩
مفـاسد التعـليم المختلـط	٢٢١
مكيـدة تحـديد النسـل	٣٢٥
الـرزق وتحـديد الأقـوات	٣٢٨
نقـد نظـرية مالتـوس	٣٣٢
مسـوغات لتنظـيم النسـل	٣٣٤
لا رخصـة في استعمال وسائل لاستئصال النسـل	٣٣٦
الفصـل الثاني – معـارف ونقـدها	٣٣٩
الأمـر بالمعـروف والنهـي عن المنكـر	٣٤١
التوكـل على الله	٣٥١
التوسل والوسـيلة في ميزان الشريعـة	٣٥٧
أقسـام التوسـل.	٣٥٩
الـولي الـورع في ميزان الشرع	٣٦٦
أفضـل الأوليـاء	٣٦٧
مـيزان الولايـة	٣٧١
أوليـاء الشـيطان	٣٧٤
بعض عـلامات أوليـاء الشـيطان	٣٧٥
العـلم اللـدني	٣٨٠
تشـويه التـاريخ	٣٨٣
السـلطان عبد الحميـد	٣٩٠
مقـترحات	٣٩٤
تـاريخ مخـترع وأحـداث لم تقـع	٣٩٨
الخليفـة هـارون الرشـيد...	٤٠٢

الموضـــوع	الصحيفة
هـارون الرشـيد يؤدب الـروم	٤٠٤
ورثـة الأنبيـاء	٤٠٧
العلمـاء يحاكمـون الحـكام	٤٠٩
أثـر استعباد المـلوك والرؤساء للشـعوب	٤١٣
مسـلمون يحجـون إلى المعـابد النصـرانية	٤١٤
ديـوان محـاكم التفتيـش	٤١٩
كيف نشـأت عصـابة التفتيش	٤٢٢
آلات التعـذيب بمحـاكم التفتيش	٤٢٣
أمثـلة لضحـايا محـاكم التفتيش	٤٢٥
هـل الإنسان خليفـة الله في الأرض ؟	٤٣٠
العـابد الجـاهل	٤٣٨
تحـامل الغـرب وتجنيـه	٤٤٢
تكسـب المـرأة	٤٤٩
أقـوال أهـل الخـبرة في عمـل المـرأة	٤٥٥
من ثمـرات الانحطـاط والاختـلاط	٤٦٥
الثقـافة والتعـليم	٤٧٨
التعـليم المـدني	٤٨٠
كيف يعيش طـلابنا خـارج الجـامعة	٤٨٠
خطـر انتـداب المدرسـين	٤٨٤
اسـتيراد الثقـافة المنحـرفة	٤٨٨
وسـائل النشـر والدعـاية	٤٨٩
أسـباب الانهيـار	٤٩٠
سـبيل الخـلاص	٤٩٢
نصيحـة	٤٩٨
تعطيـل مهمـة الهيئـات الدينيـة	٤٩٩
منهـاج الرسـول ﷺ في التربيـة	٥٠٤
المنهـاج الإسلامي في معالجة التربية الدينيـة	٥٠٧

الموضـــــوع	الصحيفة
أتبـــاع النصرانية يطالبـــون بالإسلام	٥١٢
مســـك الختـــــام	٥١٨
الفـــرقة الناجيـــة – أهـــل السنة والجمـــاعة	٥١٨
الأصـــول التي اجتمع عليها أهل السنة والجمـــاعة	٥١٩
أهم مبـــادىء أهـــل السنة والجمـــاعة	٥٢١
رجـــــاء واعتـــــذار	٥٣٧
ثبت المراجـــع والمصـــادر	٥٣٩
الفهـــــرست	٥٤٧

رقم الإيداع في دار الكتب القطرية
٢٣ ـ لسنة ١٩٨٣م

طبع بمطابع مؤسسة الخليج للنشر والطباعة